القوى الفاعلة في المجتمع الشامي وعلاقاتها مع بعضها في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)

The Effictive Forces In ALsham Community And Their Relationships In The Mamluki Period (648-923AH/1250-1517AD).

إعداد

عودة رافع الشرعة

ماجستير تاريخ إسلامي، جامعة آل البيت، 2008م

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة دكتوراة الفلسفة في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة اليرموك، اربد، الأردن

وافق عليها

أ. د. سليمان عبد الخرابشة .... رئيساً ومشرفاً

أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة اليرموك

أ. د. نعمان محمود جبران .... عضواً

أستاذ التاريخ الإسلامي، جامعة اليرموك

أ. د. محمد عبد القادر خريسات .... عضواً

أستاذ التاريخ الإسلامي، الجامعة الأردنية

أ. د. أحمد محمد الجوارنة .... عضواً

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة اليرموك

د. وليد صبحي العريض .... عضواً

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة اليرموك

تاريخ المناقشة: 2012/12/26

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم التاريخ/الدراسات العليا

القوى الفاعلة في المجتمع الشامي وعلاقاتها مع بعضها في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)

The Effictive Forces In ALsham Community And Their Relationships In The Mamluki Period (648-923AH/1250-1517AD).

إعداد

عودة رافع الشرعة

2008240003

إشراف الأستاذ الدكتور

سليمان عبد الخرابشة

2013/2012م

إهـــــداء

إلى والدي الذي فارقنا منذ سنوات ولكن ستبقى ذكراه إلى الأبد

إلى والدتي أمد الله في عمرها

إلى الأهل أعزهم الله

أهدي هذا العمل

الباحث
عودة رافع الشرعة

الاختصارات المستخدمة

ترمز الحروف الآتية إلى ما يلي:

ت	الوفاة
هـ	الهجري
م	الميلادي
ق	القرن
ط	الطبعة
ج	الجزء
ص	الصفحة
د. ط	دون طبعة
د. ت	دون تاريخ نشر
د. ن	دون دار نشر
ع	العدد بالنسبة للدوريات
P.	رقم الصفحة بالانجليزي
vol.	رقم الجزء بالانجليزي
E,I	Encyclopedia of islam

فهرس المحتويات

شكر وعرفان

اعترافاً مني بالفضل والعرفان لا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر ووافر التقدير والإمتنان إلى أستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور سليمان عبد الخرابشة الذي أكرمني بقبول الإشراف على هذه الدراسة، فكان مثالاً للأستاذ الحريص على مصلحة طلابه، وقد بدا ذلك من خلال توجيهاته وإرشاداته المستمرة، فما ترك شاردةً ولا واردة إلا وقد نبه عليها، ولا أبالغ إذا قلت أنه ما من صفحة ولا فقرة إلا وكان له فيها رأي وتوجيه، هذا فضلاً عن مكتبته الخاصة التي أباح لي ما فيها أنهل منها ما يفيد الدراسة، فالله أسأل أن يمدّ في عمره، ويزيد في علمه، ويجعله سنداً وذخراً لكل طالب علم، كما أتوجه بجزيل الشكر والامتنان إلى أعضاء اللجنة الكرام الذين تفضلوا بقبول مناقشتي مع علمي ببعد مسافة بعضهم وانشغال البعض، فلهم مني وافر الشكر وأمنيات السعادة والخير.

الملخص

الشرعة، عودة رافع

القوى الفاعلة في المجتمع الشامي وعلاقاتها مع بعضها في العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)

أطروحة دكتوراه، جامعة اليرموك، 2012م

(إشراف: أ. د. سليمان عبد الخرابشة)

اعتلى المماليك سدة الحكم في منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي وهي من الفترات الحرجة في التاريخ الإسلامي، حيث الفرنجة كانوا وقتها يسيطرون على مدن كثيرة في الساحل الشامي، بينما كان الخطر المغولي قد أسقط الخلافة العباسية في بغداد وهو في طريقه إلى مصر، ولكن النصر في معركة عين جالوت كان إيذاناً ببدء مرحلة جديدة، فلم تمض على هذه المعركة ثلاثة عقود إلا وقد تطهر الساحل الشامي من بقايا الفرنجة.

لم تكن علاقة المماليك ثابتة مع المجتمع الشامي، ففي الدولة المملوكية الأولى (البحرية) كانت علاقة حسنة طيبة، وقد تمثل ذلك بإقامة المؤسسات الخدمية كالمدارس والخوانق والزوايا، ومن جانب آخر عمل كثير من السلاطين ونواب السلطنة على التقرب من العامة وإنصافهم من الظلم، وحين يطل القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي مع قيام الدولة المملوكية الثانية (البرجية) تأخذ العلاقة شكلاً آخر يتسم بالظلم والتعدي والجور وأخذ الرشوة.

أما العلماء فقد حظوا باحترام وتقدير كبيرين من السلطة المملوكية ومن العامة، فالسلطة كانت تبحث عن دعامة يستندون إليها في حكمهم وقد وجدوا ذلك في فئة العلماء،

والعامة كانت ترى فيهم المرجعية الدينية حين يزداد ظلم المماليك، أو عند دخول قوة غازيـة للبلاد، وقد انعكست هذه المكانة على حالتهم الاقتصادية، فكان لهم رواتب من الدولـة وخلـع وإنعامات سلطانية، بالإضافة إلى ما يرد عليهم من الأوقاف، وكما أن بعض العلماء كان مثالاً وقدوة حسنة، إلا أننا على الجانب الآخر نلحظ صورة سيئة للبعض منهم، تمثلت بشراء المناصب بالبذل والبرطلة، ووصلت أحياناً إلى فساد أخلاقي.

واستمر الصوفية كما كانوا في العصر الأيوبي أصحاب مكانة مرتفعة في الميزان الاجتماعي لدى العامة ولدى الحكام، فقد شيد لهم الحكام الخوانق والربط والزوايا، حتى ظهر أمراء المماليك وكأنهم يتنافسون في بناء الزوايا وأوقفوا عليها ما جعلها مقصداً لمن ادعى التصوف، وقد أجلَّهم واحترمهم العامة حتى أنهم قدسوهم في بعض الأحيان.

أما الحرافيش والزعر فقد كانوا امتداداً لما سبقهم من تنظيمات شعبية في العصور السابقة للعصر المملوكي، فهم امتداد للشطار والعيارين وفتوتهم، وامتداد للأحداث الذين أدَّوا دوراً بارزاً في فترة السيطرة الفاطمية، وتابعوا ذلك في العصر المملوكي، فقاموا بعمل بطولي ضد المغول والفرنجة، ولكنهم في الوقت ذاته كانوا بلاءً ابتلي به المجتمع، وكونوا جيوباً مهمتها السرقة والقتل وإرهاب الأحياء، بينما ظلت علاقتهم مع السلطة تتصف بالغموض والتعقيد الشديد، فبدت مواقفهم متناقضة يساندون السلطة حيناً ويناصبونها العداء حيناً آخر.

الكلمات المفتاحية: المماليك، العلماء، الصوفية، الحرافيش

Abstract:

The Effective Forces In ALsham Community And Their Relationships In The Mamluki Period (648-923AH/1250-1517AD).

Doctorate thesis (supervisor:prof.dr, sulieman alkharabsheh)

The mamlokides have ruled the country during the seventh century for hejrah /the 13th century, and this was one of the most critical Islamic periods, where the crusaders have occupied many areas of AL sham area, while the Mongols have ended the Abbasside Islamic caliphate and he was in his way to invade Egypt, the Muslims gathered their forces and beaten them in ein jalut battle which launched anew era for the area, so during a short period of three decades the Muslims were able to recapture the whole area from the crusaders.

The memlokides have good relations with the sham people, because during the first memlokide kingdom which was known as the marine kingdom , this relationship was resembled by schools ,mosques and shelters that were built in the area for the people their, this from one side ,while from the other side the kings and sultans tried to make good relations with people their by good deeds and retaining their rights ,so at the beginning of the 9th century / the 15th c.e century the next memlokide kingdom was born (which was known at that time as the tower kingdom) but this kingdom had been known by cruelty and tyranny and bribery.

With regard for the scholars, they were dealt with by great respect and honor in the memlokide sultana, because the kingdom needed them in activating and stabilizing its rule for the area and they found that in a group of scholars, so when the kings were tyrant the people went for these scholars as a away to defend this tyranny or when the country was invaded, this condition enabled those scholars to go rich ,and the kings have donated them lands and gifts besides their salaries. While some oh them were good people we find the rest of them as an example for bad greedy scholars that were bribed and do every thing to get a higher rank, which resulted in getting the country from bad to worse conditions.

status at the society during the rule of this state and for the people, so the kings built for them more mosques and zawaya (special worship areas), and this was reflected by the kings and princes competition for building such things for this group of monks, also the people respected and sometimes worshipped this using group of Sufis.

As long as this as the condition ,there was a room for bad people as the outlaws and gangs ,they were grouped and this wasn't only in the memlokide era ,because they were a next generation for a deceased group like them known as shuttar(thieves),that were during the Fatimid era ,and this continued in the period of the memlokide ,they fought bravely against the Mongols and crusaders, but they still were bad with their people, in terrifying and blackmailing them, while the authority(the memlokide) have an unclear relation with those gangs and outlaws, so it resembled a contradiction for this period because they were their pros sometimes while they stood at their face in another.

Key words: The mamluks, scholars, sufies, harafich

المقدمة

أهمية الدراسة:

تعتبر دراسة التاريخ الاجتماعي من الدراسات التي لم تنل حظها في مجال التاريخ الإسلامي، ولعل ذلك يعود إلى تركيز الدارسين حتى وقت قريب على تاريخ السياسة والعسكر، وربما لأن دراسة التاريخ الاجتماعي تحتاج إلى ما هو أكثر من المصادر التاريخية، وإن البحث في التاريخ الاجتماعي يعطي صورة عن الواقع الذي يعيشه الإنسان في المجتمع، ويساعد بالدرجة الأولى على تصحيح فهم التاريخ السياسي وبواعثه العميقة ويجعله أكثر عقلانية وموضوعية.

وتأتي هذه الدراسة لإلقاء الضوء على القوى الأكثر فعالية في المجتمع الشامي في العصر المملوكي الذي بالامتداد الزمني، واتسم أيضاً بالمفاصل السياسية والعسكرية الحاسمة، بدءاً بالقوى الفرنجية والحملات المغولية ومروراً بالمطامع التجارية للمدن الأوروبية وانتهاءً بالمطامع العثمانية، وكان من سمات هذا العصر أيضاً الاهتمام بالمعاهدات التجارية وفرض المكوس والضرائب على العامة.

إن توافر مصادر الدراسة وتنوعها كان سبباً جاذباً للباحثين والدارسين لهذه الفترة، فقد ظهرت في هذا العصر المؤلفات الموسوعية المتخصصة، ومع أن التاريخ المملوكي يكاد قد طرق في معظم مجالاته إلا أن المجال ما زال رحباً خاصة في الجانب الاجتماعي.

لقد كان المماليك هم ورثاء الأيوبيين في حكم مصر والشام، وساروا على منوالهم في شؤون كثيرة من حيث تقسيمهم للنيابات، واهتمامهم بالمنشآت والمؤسسات الخدمية كالجوامع والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستانات، ولكن مع ذلك لم يكن الناس راضين في أغلب الأحيان عن تصرفات المماليك خاصة عند فرض الضرائب والمكوس.

وقرب المماليك العلماء وشجعوهم على القدوم إلى الشام، وعهدوا إليهم بالتدريس والقضاء والفتوى وغير ذلك من المناصب، كما اعتنوا بالصوفية وأهلها واعتقدوا كراماتهم، وأغدقوا عليهم الهبات والعطايا، وتغاضوا في كثير من الأحيان عن زلاتهم وهفواتهم، حتى أن العامة تابعوا المماليك في ذلك، إذ تأثروا بهم فقدسوا الصوفية وأهلها فالناس على دين ملوكهم.

واتسمت سياسة المماليك بعدم الثبات مع الحرافيش والزعر، فأحياناً تكون العلاقات ودية بين الطرفين، وأحياناً تستخدم هذه التنظيمات في حروب الدولة مع التركمان والخارجين عن الطاعة كالبدو، وأحياناً أخرى تكون لهم علاقات سلبية مع الرؤساء وقادة التنظيم.

مشكلة الدراسة ومنهج البحث

من المعلوم أن المجتمعات بطبيعتها تتعدد إلى فئات، إذ ليس هناك مجتمع يتكون من طبقة واحدة، وبما أن الدراسة تغطي الجانب الاجتماعي فإنها ركزت على الفئات المميزة بالمجتمع، ولا يغيب عن البال أن المستوى الاجتماعي للفرد والمستوى الاقتصادي والموقع الوظيفي قد عمق التباعد بين فئات المجتمع.

إن زمان الدراسة هو العهد المملوكي ومكانها هو بلاد الشام، والمقصود بالقوى الفاعلة هي الفئات الاجتماعية التي كان لها دوراً مؤثراً في الحياة العامة بمختلف مجالاتها.

وتهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على الفئات الأكثر فعالية في المجتمع الشامي في العصر المملوكي كما تهدف إلى بيان علاقات هذه الفئات مع بعضها، والفئات أو القوى الفاعلة في المجتمع الشامي في ذلك العصر هي أربع فئات المماليك الأتراك والشراكسة والعلماء والصوفية والحرافيش هذه هي الفئات الأكثر فعالية في المجتمع.

أما منهج البحث في هذه الأطروحة فانه سيكون منهجاً تكاملياً يأخذ من محاسن المناهج جميعها وخصوصاً المنهج التاريخي لتأصيل قضايا البحث، والمنهج الوصفي في عرض آراء المؤرخين والكتاب، والمنهج التحليلي في دراسة أسباب الظواهر التاريخية واستخلاص النتائج، ولقد انتظمت هذه الأطروحة في أربعة فصول ومقدمة عن الأحوال العامة في بلاد الشام قبيل ظهور الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع تقسيمه إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، تناول **التمهيد الظروف والأحوال العامة في المجتمع الشامي قبيل العصر المملوكي**، وقد انتظم التمهيد في ثلاثة عناوين، الأول الأحوال السياسية وفيه استطعت إلقاء نظرة على صراعات الأمراء ونزاعاتهم والتي كانت سبباً من أسباب سقوط الدولة الأيوبية، أما الثاني فكان عن الأحوال الاقتصادية عن الجانبين الزراعي والتجاري مع الإشارة إلى بعض الكوارث الطبيعية كالجفاف والصقيع والثلوج مع بيان أثر ذلك على المجتمع، وكان العنوان الثالث عن الأحوال الاجتماعية مثل تقسيمات المجتمع من ناحية عرقية ومن ناحية دينية ومذهبية، وعن الأعياد والاحتفالات الدينية بالإضافة إلى ذكر المؤسسات الدينية والتربوية كالمساجد والمدارس والخوانق والربط والزوايا والبيمارستانات.

أما **الفصل الأول فجاء ليحمل عنوان (المماليك الأتراك والشراكسة)** من خلال ثلاثة محاور، اهتم الأول بأصول المماليك الأتراك وكيف وصلوا إلى الحكم، وكذلك المماليك الشراكسة واعتلائهم الحكم بعد الأتراك، وبحث المحور الثاني في نفوذ المماليك السياسي من الناحيتين الداخلية والخارجية، ونفوذهم الاقتصادي الذي وصل إلى حد البذخ والترف في أغلب

الأحيان، بينما كان المحور الثالث عن علاقة المماليك الإيجابية مع العامة، وكذلك العلاقات السلبية والتي كانت من السمات العامة للدولة المملوكية الثانية.

وكان **الفصل الثاني عن العلماء** فتحدث المحور الأول عن أحوالهم ومكانتهم الاجتماعية من مظاهر احترام العامة للعلماء وحالتهم الاقتصادية ورحلاتهم ولباسهم، وكان المحور الثاني مخصصاً لعلاقتهم مع السلطة المملوكية فكما أن هناك علاقات إيجابية هناك أيضاً علاقة سلبية وصلت إلى درجة الاضطهاد، وأوضحت دورهم أثناء دخول القوى الغازية كالمغول والعثمانيين، وكان لا بد في المحور الثالث من بيان علاقتهم مع العامة فمنهم من ساند العامة ضد تسلط المماليك، ولكل عالم طريقته في الاحتجاج والمعارضة، ومنهم من أقبل على السلطة وأفتى لها بجواز الضرائب وجواز التعدي على الأوقاف، وبعضهم تعدى ذلك إلى شراء المناصب بالبذل والبرطلة.

أما **الصوفية** فهم القوة الفاعلة الأخرى التي اختص بها الفصل الثالث، فتحدث المحور الأول عن المفهوم الذي كثر فيه الاختلاف، ثم تابعت بدايات الحركة الصوفية حتى وصلت بها إلى العصر المملوكي، وجاء المحور الثاني ليبحث في الربط والخوانق والزوايا من حيث الاختلافات والفروق، مع إحصائية لما وجد منها في بلاد الشام في العصر المملوكي مع بعض التفصيل عن الشيوخ والمريدين، وكذلك الوقف على الصوفية مع أمثلة كثيرة لما أوقف على الصوفية وأهلها، وانتهى هذا المحور بالحديث عن الطرق الصوفية وأبرز شيوخ هذه الطرق التي انتشرت في بلاد الشام في هذه الفترة، والتي بدا أن بينها تبايناً واسعاً فمنها ما كان مقبولاً ومنها ما كان متطرفاً، أما المحور الثالث فكان عن علاقات الصوفية مع السلطة المملوكية وهي علاقة احترام وإجلال يرافقها سخاء على الخوانق والزوايا وشيوخها ومريديها، وهي

ذات العلاقة مع العامة، وختمت هذا الفصل ببيان دور المؤسسات الصوفية الخدمي في المجتمع والذي تمثل بالناحية التعليمية والاجتماعية.

أما **الفصل الربع فكان عن الحرافيش والزعر**، ففي المحور الأول تطرقت إلى نشأة هذه التنظيمات والتي تمثلت بالشطار والعيارين في بغداد في الفترة العباسية وجهود الخليفة الناصر في تأطيرها، وكذلك فئة الأحداث التي نشطت في مرحلة السيطرة الفاطمية، وفي المحور الثاني كان الحديث عن الحرافيش في العصر المملوكي من حيث أحوالهم وعلاقتهم بالسلطة وعلاقتهم بالمجتمع المحلي، وهي علاقة متذبذبة غير ثابتة مع كلا الطرفين وهذا تبعاً للظروف والمستجدات، وجاء المحور الثالث ليبحث في الزعر من حيث بدايات ظهورهم وأماكن تواجدهم ولباسهم وألقابهم وأحوالهم والعوامل التي أدت إلى ظهورهم وكذلك علاقتهم بالسلطة وبالمجتمع.

أما الخاتمة فقد أوجزت فيها النتائج التي توصلت إليها الدراسة، كما احتوت الدراسة على قائمة بالمصادر المطبوعة، والمراجع والبحوث العربية والأجنبية التي أسهمت في مجموعها في بناء هيكل البحث وما توصل إليه من نتائج.

التمهيد

الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية في بلاد الشام قبيل العصر المملوكي

لا بد قبل الحديث عن القوى الفاعلة في المجتمع الشامي في العصر المملوكي من إعطاء لمحة موجزة عن أحوال بلاد الشام أواخر العصر الأيوبي ، لمحةً عن الحياة السياسية وصراعات الحكام الأيوبيين ومؤامراتهم وما آلت إليه البلاد سياسياً، وكذلك لمحة عن الحياة الإقتصادية وهل نشطت في هذا العصر أم كسدت بفعل الحروب الفرنجية؟، وللجانب الإجتماعي نصيب أيضاً حتى تكتمل الصورة عن المجتمع.

أولاً: الاحوال السياسية:

يتفق المؤرخون على أن الدولة الأيوبية قد استعادت وحدتها حين أصبح السلطان الصالح أيوب يمتلك القاهرة ودمشق وبيت المقدس[1]، وقد جاءت وفاة الصالح نجم الدين أيوب سنة (647هـ/1249م) والحرب واقعة بين المسلمين والفرنج في مصر فيما يسمى بالحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع[2] ملك فرنسا وقد عهد الصالح أيوب لابنه المعظم

---

(1) الدواداري، أبو بكر عبد الله بن أيبك (ت736هـ/1432م) الدر المطلوب في أخبار ملوك بني أيوب،ج7، تحقيق سعيد عاشور، القاهرة 1972 ص360 وسيشار له لاحقاً الدواداري، الدر المطلوب. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان ، ط2، ج47، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي ، بيروت 1993 ص26 وسيشار له لاحقا الذهبي، تاريخ الإسلام. ابن ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، ط1، ج 13، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، القاهرة 1988، ص200 سيشار له لاحقاً ابن كثير، البداية والنهاية.

(2) تسميه المصادر العربية بولش الإفرنجي المعروف بالفرنسيس، قصد الديار المصرية وملك دمياط ، ثم بعد ذلك أسر وبقي في أيدي المسلمين مدة ثم أطلق (ت661هـ/1263م) الكتبي، محمد بن شاكر (764 هـ /1362م) فوات الوفيات، ط1، ج1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973، ص231-232. وسيشار له لاحقاً الكتبي، فوات الوفيات. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1469م) المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988 ص439-440 وسيشار له لاحقاً، ابن تغري بردي، المنهل الصافي.

توران شاه (ت648هـ/1250م) بولاية العهد أثناء مرضه[1] ونظراً لأن توران شاه لم يكن موجوداً بمصر فقد استقر رأي شجر الدر (ت655هـ/1257م) [2] أرملة الصالح أيوب، وقائد الجيش على كتمان خبر وفاة السلطان ريثما يتم استدعاء السلطان الجديد، حتى لا يفت خبر موته في عضد المسلمين في وقت يواجهون فيه عدواً عنيداً هو الملك لويس التاسع ملك فرنسا[3].

وصل توران شاه إلى مصر سنة (647هـ/1249م) وتسلم مقاليد الحكم من أرملة والده، وبعد وصوله تمكن المسلمون من إنزال الهزيمة بالحملة الصليبية السابعة ووقع لويس التاسع في الأسر مع الكثير من فرسان الحملة[4]، ويبدو أن عبث توران شاه وافتقاره إلى الحنكة السياسية وعدم المعرفة بطبيعة الدولة الأيوبية في مصر كان مؤذناً بنهايته، فأوعزت شجر الدر إلى المماليك بالتخلص منه وقتله في (648هـ/1250م) [5].

---

(1) ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر(ت749هـ/1349م) تاريخ ابن الوردي، ط1، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 1996ص176 وسيشار له لاحقاً ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي. المقريزي، تقي الدين أحمد (ت845هـ/1441م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ط3، ج1، ق2، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2006، ص339 وسيشار له لاحقاً المقريزي، السلوك.

(2) شجر الدر جارية الملك الصالح نجم الدين أيوب، خطب لها على المنابر وضربت السكة باسمها، ثم تزوجت بالمعز أيبك، قتلت سنة (655هـ/1257م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص219.

(3) أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت732هـ/1331م) المختصر في أخبار البشر، ط1، ج4، المطبعة الحسينية، القاهرة 1907 ص179-180. وسيشار له لاحقاً أبو الفداء، المختصر. الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص373-374. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،ج2، ص176. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1496م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، ج6، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005 ص373 وسيشار له لاحقاً ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181. الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص376-379. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،ج2، ص177-178. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 353 – 354.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181. الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص381-383. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،ج2، ص178. ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ/1425م) بدائع الزهور في

وبتسلم شجر الدر لمقاليد الحكم لم يرض الأمراء الأيوبيون بذلك فهم ظلوا يعتقـدون أنهم أصحاب الحق الشرعي، لذا قرر المماليك البحرية إقامة صبي من بني أيوب لامتصاص نقمهم فانتخبوا الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل[1]، وكان عمره دون العاشرة وأعلنـوه سلطاناً على مصر في (648هـ/1250 م) ويبدو أن الأمراء الأيوبيين فطنوا لتلـك الحيلـة وأدركوا أن الأشرف موسى لم يكن له غير الاسم في حين كانت الأمور كلها بيد الأمير عـز الدين أيبك[2] فزحف الأيوبيون بقيادة الناصر يوسف نحو مصر إلا أنهم هزموا عند العباسة[3] بين مدينتي بلبيس والصالحة[4].

وقائع الدهور، ط1، ج1، مكتبة مدبولي، القاهرة 2005، ص108-109 ، وسيشار له لاحقاً ابن إيـاس، بدائع الزهور.

(1) الأشرف موسى بن المسعود بن الكامل، عاش في كنف والده الصالح أيوب حتى توفي عن هذا الطفل الصغير، وكان يعيش عند عماته في الشرق. العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ/1451م)، عقـد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج1، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1987 ص135 وسيشار له لاحقاً العيني، عقد الجمان.

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي،ج2، ص180. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج7، ص 6. الأمير عز الدين أيبك التركماني اشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب في حياة أبيه الملك الكامل محمد، وتنقلت به الأحوال عنده إلى أن جعله جاشنكيره، اجتمع رأي الأمراء بعد تـوران شـاه علـى سـلطنته سـنة (648هـ/1250م) واستمر بالحكم إلى أن قتل سنة (655هـ/1257م). الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) العبر في خبر من غبر، ط1، ج3، دار الكتـب العلميـة، بيـروت 1985 ص275 وسيشار له لاحقاً الذهبي، العبر. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص228.

(3) العباسة بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر في الشام من الديار المصرية. الحموي، يـاقوت بـن عبـد الله (ت626هـ/1229م) معجم البلدان، ج4، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979، ص75 وسيشار له لاحقاً الحموي، معجم البلدان. ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن شمائل البغـدادي (ت739هـ/1338م) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، ج2، دار الجيل، بيروت 1992 ص913 وسيشار له لاحقاً ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع

(4) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص184. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص374.

وقد تعرض المعز أيبك سنة (655هـ/1257م) لمؤامرة من زوجته شجر الدر أدت إلى مقتله بويع على إثرها ابنه نور الدين علي ولقب بالملك المنصور[1]، وفي ظل هذه الظروف قام المماليك الذين التجأوا إلى المغيث عمر في الكرك بتحريضه على غزو مصر يقودهم في ذلك بيبرس البندقداري فاستجاب المغيث لهم وأمدهم بالسلاح والمال وخرجت مجموعة من المماليك تبلغ ألف فارس تجاه الحدود المصرية لغزوها والسيطرة عليها[2] فتصدى لهم قطز[3] وأنزل بهم الهزيمة سنة (655هـ/1258م)[4].

وقد وجد المظفر قطز الفرصة سانحة لعزل المنصور علي واعتلاء الحكم في (657هـ/1259م) [5] وكان لانتصاره على المغول في عين جالوت سنة (658هـ/1260م) أن ثبت أركان الدولة المملوكية، وقد استثمر قطز هذا الانتصار وتقدم إلى بلاد الشام ودخل دمشق بعد خمسة أيام وكافأ من ناصره من الأمراء الأيوبيين [6].

ومن هنا كان من المميزات التي اتسم بها عصر الدولة الأيوبية في الفترة الممتدة ما بين (628هـ/1230م-659هـ/1261م) الصراع بين سلاطين الأسرة الأيوبية في مصر،

---

(1) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص192. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص231 . المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص402 – 405.

(2) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص193. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص30. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص195.

(3) قطز بن عبد الله المعزي، تسلطن سنة (657هـ/1259م) نهض لقتال " التتار" وانتصر عليهم في " عين جالوت " سنة (658هـ/1260م) وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسكره " بيبرس " ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش، فتناولوه بسيوفهم فقتلوه. ودفن بالقصير، ثم نقل إلى القاهرة. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) سير أعلام النبلاء، ط1، ج23، تحقيق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984 ص200-201 وسيشار له لاحقاً الذهبي، سير أعلام النبلاء.

(4) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص193. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص237. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص 406 – 411.

(5) النويري، شهاب الدين أحمد (ت733هـ/1232م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ط1، ج29، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2002 ص468 وسيشار له لاحقاً النويري، نهاية الأرب.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص256.

وبين ملوك بلاد الشام الأيوبيين، والتي تمثلت بالصراع في أكثر الأحيان بين الإخوة بعضهم مع بعض على السلطة، وكذلك الخطر الخارجي الذي هدد الدولة الأيوبية ممثلاً بأطماع الفرنج باحتلال مدن الساحل الشامي وتهديدهم لمصر متجسداً بحملة لويس التاسع على دمياط سنة (647هـ/1249م) وأيضاً في غزو المغول لمدينة بغداد سنة (656هـ/1258م) وتدميرهم لها وزحفهم على بلاد الشام وتخريبهم لمدنه حتى باتوا يشكلون خطراً داهماً على مصر.

2- الأحوال الإقتصادية:

لقد ازدهرت الحياة الاقتصادية في معظم فترات الحكم الأيوبي، نتيجة لما قام به الأيوبيون من إصلاحات في الميدان الاقتصادي، أهمها تأمين الطرق التجارية وعقد عدد من الاتفاقات التجارية مع الأوروبيين[1].

هذا بالإضافة لعنايتهم بالقطاع الزراعي حيث فرضوا على المقطعين إلى جانب ما كان يفرض عليهم من خدمات إقطاعية وواجبات حربية والتزامات مالية القيام ببعض الإصلاحات الزراعية كصيانة الجسور وبناء القناطر والعناية بنظام الري[2].

وقد ترتب على تلك الإصلاحات انتعاش في بعض جوانب الحياة الاقتصادية خلال بعض فترات العهد الأيوبي، حيث ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية جراء انتشار الأمن على امتداد الطرق التجارية، وقد أدى هذا الوضع إلى اشتغال عدد من سكان مصر والشام في

---

(1) ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م) مفرج الكروب في أخبار أيوب، ج2، تحقيق جمال الدين الشيال، الناشر د. ن، القاهرة 1980ص185، وسيشار له لاحقاً ابن واصل، مفرج الكروب.الأوتاني، أحمد محمد، دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار التكوين، دمشق 2007 ص 1270-271 وسيشار له لاحقاً الأوتاني، دمشق في العصر الأيوبي.

(2) القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط1، ج11، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، 1987 ص31 وسيشار له لاحقاً القلقشندي، صبح الأعشى.

ميدان التجارة، فأثروا من وراء ذلك ثراءً بالغاً، فكان لذلك أثره في انتعاش الحركة الاقتصادية خلال تلك الفترة.

إلا أن مما أثر على الحالة الاقتصادية في بعض فترات العهد الأيوبي خطر الحروب المتواصلة سواء تلك التي قامت ضد الفرنج، أو ضد الخوارزمية والمغول، وبما أن أملاك الأيوبيين كانت عبارة عن مجموعة من الإقطاعات التي يحكم كل منها ملك يعينه السلطان، وينوب عنه في إدارة الإقليم فقد كان يطلب من هؤلاء الملوك تقديم الأموال والإمدادات العسكرية، إذا ما دار بين السلطان وبين أعدائه رحى القتال، وفي سبيل ذلك كان حكام الأقاليم يلجأون إلى فرض الضرائب والمكوس، وذلك من أجل تغطية نفقات الحروب الأمر الذي أدى إلى استنزاف أموال وممتلكات سكان الأقاليم، هذا فضلاً عما كان يفرضه الفرنج من ضرائب على القرى التي احتلوها، وما كان يحل بها على أيديهم من دمار للأراضي الزراعية، ومصادرة المواشي ونهب للغلال، وهذا كله أضر بالناس والفلاحين، الذين اضطروا إلى هجرة أراضيهم الزراعية وإهمالها، جراء التحاق بعضهم بصفوف الجيوش المقاتلة ضد الخطر الفرنجي، والتجاء بعضهم الآخر إلى المدن نتيجة اغتصاب الفرنج لأراضيهم[1].

ومن إفرازات الحروب الفرنجية في ميدان الحياة الاقتصادية خلال بعض فترات العهد الأيوبي، التحركات التي كانت تقوم بها بعض القبائل البدوية العربية أثناء تراخي قبضة السلطان وضعفها، فقد كانت تلك القبائل تقوم بقطع الطريق التجاري، وتهدد القوافل التجارية

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص320-321. أبو دمعة، أمين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة دمشق 1988 ص 91 وسيشار له لاحقاً أبو دمعة، الحياة الاقتصادية.

وقوافل الحجاج، بما تقترفه من أعمال النهب وفرض الإتاوات[1]، وهذه التحركات والهجمات كانت تلحق الخراب بالقرى والمزارع[2] وهذا ما يؤدي إلى الفوضى والاضطراب.

وهنا لا يمكن إغفال الصراعات والمنازعات التي قامت بين أبناء البيت الأيوبي أنفسهم، فهذه المملكة الضخمة التي توارثوها كانت سبباً في قيام الحسد والوقيعة بينهم، ونتيجة لذلك غدت بلاد الشام في بعض فترات النزاع بين المتصارعين على السلطة مسرحاً لحروب أهلية وفتن داخلية، أضرت بالحياة الاقتصادية.

3- الأحوال الإجتماعية:

كان المجتمع الشامي في العهد الأيوبي يضم بين ظهرانيه خليطاً من عناصر متعددة، من عرب وأتراك وأكراد وفرس وغيرهم، وكان لكل جماعة من هؤلاء ما يخصهم من التراث الفكري والاجتماعي والديني، وبالتالي فإن اختلاطهم أنبت مظاهر عديدة دخلت في التركيبة الاجتماعية التي تؤلف نظم المجتمع وعاداته وتقاليده، وفي النسيج الذي شكل فكره وثقافته وعقيدته[3].

---

(1) الحموي، محمد علي بن نظيف (ت631هـ/1234م) التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد ديدو مجمع اللغة العربية، دمشق 1982 ص141-176-222. وسيشار له لاحقاً الحموي، التاريخ المنصوري. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص89.

(2) ابن العديم، عمر بن أحمد العقيلي (ت660هـ/1262م) زبدة الحلب في تاريخ حلب، ط1، ج1، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1996 ص 201 وسيشار له لاحقاً ابن العديم، زبدة الحلب .

(3) عاشور، سعيد عبد الفتاح، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة 1987 ص 387 وسيشار له لاحقاً عاشور، بحوث في تاريخ الإسلام. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية 1994، ص 70- 71 وسيشار له لاحقاً سلام، الأدب في العصر الأيوبي.

فمن الناحية الدينية كان المسلمون السنة هم الأكثر عدداً من بين الطوائف،[1]، كما كان هناك عدد من الشيعة أو ممن يسمون بالعلويين، وكانوا يقيمون في مناطق محددة مثل صور[2] وصيدا والمعرة وصفد وجنوب شرق دمشق[3].

ووجد النصارى في مختلف أرجاء بلاد الشام، فسكنوا إلى جوار المسلمين في القرى والمدن وكانوا يقيمون في كنائسهم أو في أحياء خاصة بهم يطلق عليها اسم" حارة النصارى"[4]. أما اليهود فكانوا جالية قليلة متوزعة في معظم مدن الشام فوفقاً لإحصاء بنيامين التطيلي، فإن أعدادهم في القدس وفي عكا لم تزد على مائتي فرد[5] وكان عددهم يبرز بشكل واضح في دمشق حيث وصلوا لثلاثة آلاف وفي حلب بلغوا ألف وخمسمائة شخص[6]، كما وجد التركمان والأكراد والمغاربة[7]، وكان قدوم الأكراد متزامناً مع مجيء التركمان إلى بلاد الشام في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، وكان قرب موطنهم الأصلي من

---

(1) ابن العمراني، محمد بن علي (ت580هـ/1184م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق قاسم السامرائي، دار الآفاق العربية، القاهرة 2001 ص188 وسيشار له لاحقاً ابن العمراني، الإنباء. شاكر، مصطفى، دخول الترك والغز إلى بلاد الشام، عمان 1974، ص 272 وسيشار له لاحقاً شاكر، دخول الترك والغز إلى بلاد الشام.

(2) صور مدينة مشهورة كانت من ثغور المسلمين مشرفة على بحر الشام داخلة في البحر مثل الكفّ على الساعد، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع الذي منه شروع بابها، وهي حصينة جداً، بينها وبين عكة ستة فراسخ. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص433-434. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص856.

(3) ابن جبير، محمد بن أحمد (ت614هـ/1217م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال، بيروت 1992 ص206 وسيشار له لاحقاً ابن جبير، رحلة ابن جبير.

(4) العليمي، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت928هـ/1521م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ج2، دار المحتسب، عمان 1973، ص53 وسيشار له لاحقاً العليمي، الأنس الجليل. غوانمة، يوسف، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان 1982 ص122. وسيشار له لاحقاً غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس.

(5) التطيلي، بنيامين بن بونه (ت569هـ/1173م) رحلة بنيامين التطيلي، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002 ص207 وسيشار له لاحقاً التطيلي، رحلة التطيلي.

(6) التطيلي، رحلة التطيلي، ص273-280-281.

(7) ابن العديم ، زبدة الحلب، ص275-464 .

بلاد الشام دافعاً لهم للاستقرار فيها[1]، ووجدت عناصر أخرى أيضاً مثل الكرج والأرمن الذين عرفوا بمهاراتهم المتعددة في الرماية والصيد والحرب[2]، وكان هناك الموارنة والذين شكلوا طائفة دينية صغيرة في العصر الأيوبي وقد سكنوا بعض سفوح جبال لبنان الغربيـــة وكـــانوا منعزلين تماماً عن المسلمين وعن المسيحيين، وقد عرف عنهم أنهـم كـــانوا أول المـــرحبين بالحملات الصليبية[3]، بالإضافة لذلك استقرت مجموعة من القبائل العربية في معظم منـــاطق الشام مثل زبيد[4] وآل ربيعة[5] وبني كلاب[6] وعلي[7] وخفاجة[8].

وبما أن موضوعنا الرئيس لهذه الأطروحة هو القوى الفاعلة في بلاد الشام في العصر المملوكي، فلا بد من إعطاء لمحة مختصرة عن أبرز القوى الفاعلة في العصر الأيوبي، فمن

---

(1) العمراني، الإنبـــاء، ص188. Gibb,H,A,R, Encyclopaedia of Islam, Minorsky "Kurds " Brill, London 1979 Vol 1 .P 453 – 454. وسيشار له لاحقاً , E,I.

(2) ابن منقذ، أبو المظفر أسامة بن مرشد(ت584 هـ /1188م) الاعتبار، تحقيق قاسم الـسامرائي، وزارة الثقافة، عمان 2009 ص209 وسيشار له لاحقاً ابن منقذ،الاعتبار.

(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص168. الحايك، منذر، العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، ط1، دار الأوائل، دمشق 2006 ص162–164 وسيشار له لاحقاً الحايك، العلاقات الدولية.

(4) زبيد نسبةً إلى قبيلة من مذحج أصلهم من اليمن ونزلوا الكوفة، ثم هاجروا إلى الشام. الـسمعاني، عبـد الكريم بن محمد (ت562هـ/1167م) الأنساب، ط1، ج6، تحقيق عبد الرحمن اليماني، مجلس دائـرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، 1962 ص263 وسيشار له لاحقاً الأنساب، السمعاني. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4 ص221.

(5) آل ربيعة بطن من طي القحطانية وتنتمي إلى حازم بن علي بن دغفل، والمشهور من ربيعة ثلاثة بطون آل فضل آل مرا وآل علي. القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418م)، نهاية الأرب في معرفـة أنساب العرب، ط2، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنـانيين، بيـروت 1980 ص100–102 وسيشار له لاحقاً القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب. الحياري، مصطفى، الإمارة الطائية في بلاد الشام، ط1، وزارة الثقافة، عمان 1977 ص63–78 وسيشار له لاحقـاً الحيـاري، الإمـارة الطائية.

(6) بنو كلاب بطن من عامر بن صعصعة انتقلوا إلى الشام وملكوا حلب وأول من ملك مـنهم صـالح بـن مرداس. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص408 .

(7) بنو علي بطن من بكر بن وائل العدنانية. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص368 .

(8) خفاجة بطن من عقيل بن كعب بن عامر العدنانية وفدوا إلى الموصل وحلب في أواسط القرن الخـامس الهجري الحادي عشر الميلادي بقيادة قريش بن بدران بن مقلد. القلقشندي، نهايـة الأرب فـي معرفـة أنساب العرب، ص246–335. عاشور، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، ص192.

القوى الفاعلة في هذا العصر العلماء الذين بلغوا منزلة عالية في المجتمع الشامي، وهذه الفئة كانت محط أنظار الرحالة الذين جابوا المنطقة في هذه الفترة وكانت الدولة تستفيد منهم ليتولوا المدارس وغيرها في المؤسسات التعليمية[1]، وقد برزوا كقوة فاعلة في محو آثار التشيع الذي خلفته الدولة الفاطمية وتمكين المذهب السني من خلال التعمق في تدريسه، وساعدهم في ذلك كثرة وقف المدارس السنية في العصر الأيوبي[2]، فكان السلاطين والأمراء والميسورين يتنافسون في استحداثها ويوقفون عليها ما يكفل استمراريها وديمومتها[3].

كما برز دور العلماء في مقاومة الغزو الفرنجي ولنا في القاضي الفاضل (ت596هـ/1199م)[4]، والعماد الأصفهاني (ت597هـ/1200م)[5]، وسيف بن رافع المعروف بابن شداد (ت632هـ/1234م)[6] خير دليل على ذلك.

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج1، ص 283.

(2) للمزيد انظر: المصري، جهاد سليمان، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة آل البيت، المفرق 1999 وسيشار له لاحقاً المصري، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي. خربوطلي، شكران، أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية في العصر الأيوبي، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية 2006 وسيشار له لاحقاً خربوطلي، أوقاف دمشق.

(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص223.

(4) عبد الرحيم بن الأشرف بهاء الدين أبي المجد علي المعروف بالقاضي الفاضل، كاتب الإنشاء لصلاح الدين الأيوبي ووزيره برز في صناعة الإنشاء، وفاق المتقدمين (ت596هـ/1199م) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، ج10، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997 ص265 وسيشار له لاحقاً ابن الأثير، الكامل في التاريخ.

(5) محمد بن صفي الدين أبي الفرج محمد بن نفيس المعروف بالعماد الأصفهاني، شافعي المذهب تفقه بالمدرسة النظامية زماناً انتقل إلى دمشق سنة (562هـ/1166م) له تصانيف عديدة أهمها خريدة القصر وجريدة العصر (ت597هـ/1200م) ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681هـ/1282م) وفيات الأعيان، ط1، ج5، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994 ص147-152 وسيشار له لاحقاً ابن خلكان، وفيات الأعيان.

(6) البواعنة، لؤي، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي، (490-648هـ/1097-1250م)، دار اليازوري، عمان 2006، ص162-177 وسيشار له لاحقاً البواعنة،

أما القوة الفاعلة الأخرى فهم الصوفية الذين رعوهم الأيوبيين، فمن المعروف أن صلاح الدين الأيوبي ومن جاء بعده شجعوا التصوف لأهداف سياسية وعسكرية حتى أصبحت الفترة التي تلت صلاح الدين من أكثر الفترات التي تطورت ونضجت فيها الطرق الصوفية[1]، وما يؤكد ذلك ظهور أبرز قادة التصوف في هذه الفترة أمثال ابن الفارض (ت632هـ/1234م)[2] وابن العربي (ت638هـ/1240م)[3]، وقد برز دور المؤسسات الصوفية من خلال عنايتها بالفقراء والغرباء والمنقطعين وحتى العميان[4].

ولا بد من التطرق إلى التنظيمات الشعبية كقوة فاعلة أخرى في العصر الأيوبي، فمن الملاحظ غياب جزئي لهذه التنظيمات الشعبية التي كانت في العصور السابقة، فلم نعد نسمع بأي دور فاعل لتنظيمات الأحداث التي كانت سابقاً قد بلغت شأناً عظيماً، ويبدو أن هذا الغياب كان بسبب وجود دولة مركزية في كل مدينة من مدن الشام، ولأن القوات النظامية قد حلت مكان هذه التنظيمات التي تظهر عادةً في حال غياب السلطة القوية المسيطرة، فالدور

دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي. يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي المشهور بابن شداد، صحب السلطان صلاح الدين وكان قاضي عسكره وناظر أوقاف بيت المقدس ونال منزلة عند أولاد صلاح الدين لم ينلها أحد غيره وولي قضاء حلب والنظر في أوقافها (ت632هـ/1234م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص84-89.

(1) الأدفوي، جعفر بن ثعلب (ت748هـ/1347م)، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، تحقيق محمد صالحيه، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت 1988، ص6 وسيشار له لاحقاً، الادفوي، الموفي بمعرفة التصوف. الشرعة، أوقاف المرأة، ص54.

(2) عمر بن علي بن مرشد الحموي المشهور بابن الفارض اشتغل بفقه الشافعية، وأخذ الحديث عن ابن عساكر وغيره، ثم حبّب إليه الخلاء وسلوك طريق الصّوفية، فتزهّد وتجرّد، حتى أنه عد من عظماء الصوفية (ت632هـ/1234م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص454-456.

(3) أبو بكر محي الدين محمد بن علي الطّائي المعروف بابن العربي ارتحل وطاف البلدان، فطرق بلاد الشام والرّوم والمشرق، ودخل بغداد وحدّث بها بشيء من مصنّفاته، ثم تزهّد وساح، ودخل الحرمين والشام، من أشهر مؤلفاته الفتوحات المكية (ت638هـ/1240م) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص48-49.

(4) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص196.

المتعاظم لتنظيمات الأحداث في دمشق خلال العصر الفاطمي وفي حلب زمن السلاجقة قد انتهى ولم يسجل أي تحرك شعبي مؤثر أو ثورة داخلية، وربما يكون للخطر الخارجي المتمثل بالفرنج أولاً والمغول ثانياً دور في توحيد جميع فئات المجتمع تحت راية الجهاد، كما أن نظام الإقطاعي العسكري قد ألغى هذه التنظيمات فلم يعد هناك بطالون يدورون بالأزقة – لالتقاط عيشهم – الذين كانوا هم قوام تنظيم الأحداث والفتيان، ولكن برغم ذلك وجدت بعض الحالات التي برز فيها الأحداث في العصر الأيوبي فقد قام أحداث دمشق مع الناصر داود عندما حاصره أعمامه الأشرف والكامل سنة (626هـ/1228م)، وخرجوا مع عسكر الناصر وحاربوا وذلك لمحبتهم أبيه [1]، وفي إشارة نادرة وردت عند أحمد بن إبراهيم الحنبلي (ت876هـ/1471م) في كتابه " شفاء القلوب في مناقب بني أيوب " أنه عندما تعرض الملك الصالح إسماعيل للحصار بدمشق سنة (634هـ/1236م) من قبل الملك الكامل واضطر للخروج، خرج بفرقة من "الحرافشة"، فأحرق العقيبة[2] وأخرب قصر حجاج[3] والشاغور[4] وغيرهما، وتضرر أصحاب الأملاك حتى افتقر بعضهم[5]، ونرجح هنا أنه أغدق عليهم العطاء

---

(1) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص252– 253. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص436. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص145.

(2) هي ذاتها قرية الأوزاع وهي على باب دمشق من جهة باب الفراديس، سمّيت بذلك نسبةً للقبيلة التي سكنتها. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص280. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص131.

(3) قصر حجاج محلة كبيرة في ظاهر باب الجابية من مدينة دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص357. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1097.

(4) الشاغور محلّة بالباب الصغير من دمشق مشهورة وهي في ظاهر المدينة، ينسب إليها فتيان بن علي بن فتيان الأسدي النحوي الشاعر. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص310. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص774.

(5) الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت876هـ/1471م) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1996 ص273 وسيشار له لاحقاً الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب.

حتى عاونوه بهذا الشكل، وعندما دخلت طلائع قوات المغول إلى غوطة دمشق(1) من جهة الكسوة(2) سنة (658هـ/1259م) تصدى لهم " جماعة من الأحداث كانوا قد تجمعوا وتحزبوا، ولكن مقاومتهم انتهت بسرعة حيث أبادهم المغول ومعهم أهالي قرية حزرما لأن اعتراضهم تم قرب هذه القرية(3)، وفي خبر امتناع الوالي بدر الدين بن قراجا والنقيب جمال الدين الصيرفي في قلعة دمشق، كان معهم جمع كثير يرجح أن عدداً لا بأس به من هذا الجمع كانوا أحداثاً، ولكن حصار جيش المغول للقلعة وتخريبهم لها كان كفيلاً بهزيمتهم بسهولة حيث تم إعدام الوالي والنقيب مع مجموعة أخرى(4).

وفي سنة (659هـ/1260م) عندما توجه المغول نحو حماة أراد ملكها المنصور محمد الرحيل إلى دمشق فمنعته العامة من ذلك، حتى استوثقوا منه أنه يعود إليهم عن قريب(5)، ولم يكن دور الأحداث مؤثراً هذه المرة فالملك الصالح ترك دمشق والناصر داود سلمها للأشرف وهرب ملك حماة وتركها في مواجهة المغول، ويمكن اعتبار تلك الأحداث السياسية المتمثلة بانتقال السلطة من الأيوبيين للمماليك وكذلك الصراع الفرنجي الإسلامي والمغولي الإسلامي، وأيضاً صراعات الأمراء الأيوبيين مع بعضهم دافعاً لظهور هذه التنظيمات.

---

(1) الغوطة هي كل ما أحاط بدمشق من قرى مشجرة ومن الأرض التي تروى بنهر بردى وما تفرع منه من الأنهار والجداول والقني الصغيرة. علي، محمد كرد، غوطة دمشق، مطبعة الترقي، دمشق 1949 ص16 وسيشار له لاحقاً كرد علي، غوطة دمشق.

(2) الكسوة هي قرية في أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص461. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1166.

(3) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665ه/1267م) الذيل على الروضتين، ط1، م3، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2000ص312 وسيشار له لاحقاً أبو شامة، الذيل على الروضتين.

(4) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص316.

(5) الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص441.

ومن التنظيمات الشعبية التي ظهرت في العصر الأيوبي النبوية وهي إحدى تفرعات تنظيم الفتوة وهذا ما يؤكده ابن المعمار حيث يقول :(ولم تزل الفتوة تنتقل، وهلم جرا إلى عصرنا هذا حتى تفرعت وصارت بيوتاً وأحزاباً وقبائل، كالرهاصية والشجينية والخليلية والمولدية والنبوية كما حدث بينهم من الاختلاف وكل منهم ذهب إلى رأي[1]، وربما كان أشهرها هو تنظيم النبوية الذي انضم إليه الخليفة الناصر وهو ما يؤكده ابن واصل الحموي فيقول:(ولبس الخليفة الناصر سراويل النبوة والفتوة)[2]، وهذا التنظيم ذكره الرحالة ابن جبير سنة (579هـ/1183م) بأنهم جماعة من الفتيان المتعصبين على الرافضة فقال:(وللشيعة في بلاد الشام أمور عجيبة وقد عمروا البلاد بمذاهبهم وهم فرق شتى منهم الرافضة، وسلط الله على هذه الرافضة طائفة تعرف بالنبوية وهم سنيون يدينون بالفتوة وبأمور الرجولة كلها، وكل من ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه منها يحزمونه السراويل فيلحقونه بهم ولا يرون أن أحد منهم في نازلة تنزل به، لهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفتوة بر قسمه وهم يقتلون الروافض أينما وجدوهم وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف، ومن أحزاب الفتوة الخليلية ولعلها منسوبة إلى إبراهيم الخليل والرهاصية وهي منسوبة إلى عمر الرهاص والشجينية والمولدية وهؤلاء مذهب ذهب إلية)[3]، ويرى مصطفى جواد أن تسمية النبوية نسبةً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مثل الخليلية المنسوبة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام[4].

وقد انتشرت فرقة النبوية وتواجد أتباعها بكثرة شمال العراق وفي الجزيرة الفراتية فعندما صلب سيف الدين غازي الأتابكي (ت576هـ/1180م) [5] أحد زعماء النبوية في

---

(1) ابن المعمار، محمد بن أبي المكارم (ت642هـ/1244م) الفتوة، تحقيق مصطفى جواد، مكتبة المثنى، بغداد 1958 ص147 وسيشار له لاحقاً ابن المعمار، الفتوة.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص164.

(3) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص227.

(4) ابن المعمار، الفتوة،(مصطفى جواد، مقدمة الكتاب، ص70)

(5) سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل والجزيرة من أمراء الدولة النورية، كان أميراً مع أبيه في الموصل، ولما توفي أبوه قدمه أهلها للإمارة فقام بأعبائها وحكم عشر سنين إلى أن توفي سنة (576هـ/1180م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص5.

نصيبين[1]، خرجت النبوية من الموصل ونصيبين وتبعهم خلــق كثيــر مــن مــدن الفــرات والخابور[2] وساروا طالبين صلاح الدين الأيوبي [3]، بمعنى أنهم خرجوا غاضبين على سيف الدين غازي الأتابكي والتحقوا بخصمه صلاح الدين الأيوبي، وقد ظلت ذكريات هذا التنظــيم الشعبي وبعض مصطلحاته وأفكاره وتقاليده قائمة في الضمير الشعبي وفي شباب الأحياء[4].

وأشار إدريس بن بيدكين التركماني في كتابه (اللمع في الحوادث والبدع) إلــى فئــة مــن الفتيان نشطت في بلاد الشام وحملت اسم "المرازقة" وأعلنت هذه الفئة عن تمــسكها بمــذهب الإمام الشافعي، وأباحت لأفرادها الإقدام على استخدام العنف، وقيل إنهم عرفوا باسم المرازقة نسبةً إلى شيخ اسمه مرزوق وكانوا يرتدون ملابس خاصة ويبتعدون عــن اســتخدام اللــون الأزرق، وخاضوا بمسائل تعلقت بالكفر والإيمان والقضاء والقدر، لذا كانت تــأثيراتهم فــي أوساط غير المسلمين من مسيحيين ويهود[5].

---

(1) نصيبين مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادّة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها علــى ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ، وبينها وبين الموصل ستة أيام، وبين دنيسر يومان عشرة فراسخ. مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ج1، ص162. الحمــوي، معجم البلدان، ج5، ص288-289.

(2) الخابور اسم لنهر كبير مخرجه من رأس عين، يصبّ إلى الفرات، من أرض الجزيــرة، عليــه ولايــة واسعة وبلدان جمّة. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص334-335. ابن عبد الحق، مراصــد الإطــلاع، ج1، ص444.

(3) ابن الأزرق الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي (ت577هـ/1181م) تاريخ آمد وميافــارقين ، تحقيــق بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب، بيروت 1974.

(4) مصطفى، الحركات الشعبية، ص 176، كاهن، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي، ص 122 – 130 -131.

(5) التركماني، إدريس بن بيدكين، اللمع في الحوادث والبدع، تحقيق صبحي لبيب، القــاهرة 1986 ص91 وسيشار له لاحقاً التركماني، اللمع في الحوادث والبدع.

الفصل الأول

المماليك الأتراك (البحرية) والشراكسة (البرجية) في بلاد الشام في العصر المملوكي

1- أصول المماليك

أ - أصول المماليك الأتراك (المماليك البحرية)

المملوك اسم مشتق من الفعل ملك، وهي اسم مفعول من الفعل (ملك) ، واسم الفاعل (مالك) والمملوك هو عبد مالكه وهو الرقيق الذي يباع ويشترى [1]، ثم أصبح يطلق على فئة الرقيق الأبيض الذين كانوا يجلبون إلى البلاد الإسلامية، وقد تم استخدامهم في فترات مبكرة من تاريخ الدولة الإسلامية [2].

وكان استخدامهم يرجع إلى بداية العصر العباسي الأول، أي إلى فترة أسبق من عهد الخليفة العباسي المعتصم الذي أكثر منهم حتى أصبحوا يمثلون دعامةً من دعائم الخلافة [3]، ومنذ بداية العصر العباسي الثاني (232-334هـ/847-946م) دخل العنصر التركي في الجيش والبلاط وزاد نفوذهم وسيطرتهم، كما قامت دويلات ذات أصول تركية مستغلة

---

(1) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت666هـ/1268م) مختار الصحاح، ط5، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت1999ص298 وسيشار له لاحقاً الرازي، مختار الصحاح. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ/1311م) لسان العرب، ط3، ج10، دار صادر، بيروت 1994 ص492، وسيشار له لاحقاً ابن منظور، لسان العرب. حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1967 ص23-24. وسيشار له لاحقاً حسن، تاريخ المماليك.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص492. العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 1982 ص11. جبران، نعمان محمود، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط1، مؤسسة حمادة، اربد، الأردن 2000 ص249.

(3) اليعقوبي، أحمد بن اسحق (ت292هـ/905م) البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2002 ص55 وسيشار له لاحقاً اليعقوبي، البلدان. ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، ج8، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، دار الكتب بيروت، لبنان 1992، ص258، وسيشار له لاحقاً ابن الجوزي، المنتظم. طقوش ، محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر والشام، ط1، دار النفائس، بيروت 1997 ص16 وسيشار له لاحقاً طقوش، تاريخ المماليك .

الضعف الذي حل في الخلافة العباسية، مثل الطولونيين (254-292هـ/868-905م)[1]، والإخشيديين (323-358هـ/935-969م)[2]، والغزنويين (366-582هـ/976-1186م)[3]، والسلاجقة (432-552هـ/1117-1157م)[4]، وهؤلاء الأتراك جعلوا جيوشهم من جنسهم، كما أن بعض الدويلات غير التركية جعلت تكوين جيوشها أو حرس ملوكها على الأقل من المماليك الأتراك المجلوبين عن طريق الشراء، كالصفاريين (254-298هـ/868-911م)[5]، والسامانيين (261-389هـ/874-999م)[6]، وحتى الفاطميين حين انتقلوا إلى مصر نجد أنهم أكثروا من استخدام المماليك الأتراك حتى ولّد ذلك نوع من المباغضة والحسد بينهم وبين العناصر الأخرى مما حدا بالخليفة الحاكم بأمر الله (386-411هـ/966-1020م) إلى اللجوء لعنصر آخر وهم السودان لكي يحد من نفوذهم[7].

وعندما صارت السلطة في أيدي الأيوبيين وسقطت الدولة الفاطمية سنة (567هـ/1171م) نجد أن صلاح الدين الأيوبي قد قضى على كل الفرق العسكرية الفاطمية

---

(1) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، ط1، ج11، تحقيق علي شسيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988، ص53 وسيشار له لاحقاً ابن كثير، البداية والنهاية.

(2) القرطبي، عريب بن سعد (ت369هـ/980م) صلة تاريخ الطبري، ط2، ج11، دار التراث، بيروت 1967 ص336 وسيشار له لاحقاً القرطبي، صلة تاريخ الطبري. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص256. طقوش، تاريخ المماليك، ص19-20.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص353. سليمان، أحمد السعيد، معجم الأسر الإسلامية الحاكمة، ط1، مكتبة لبنان، بيروت 2004 ص400-401 وسيشار له لاحقاً سليمان، معجم الأسر.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص5. سليمان، معجم الأسر، ص218-221.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص96. فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية " السقوط والانهيار " ج2، دار الشروق، عمان 1998 ص21 وسيشار له لاحقاً فوزي، الخلافة العباسية. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص21.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص110-111. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص22.

(7) المقريزي، تقي الدين أحمد (ت845هـ/1441م) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ج2، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث، القاهرة 1967 ص12 وسيشار له لاحقاً المقريزي، اتعاظ الحنفاء. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج5، ص17-19. العبادي، قيام دولة المماليك، ص22.

من الأرمن والسودان، مع الإشارة إلى أن الأيوبيين هم من أصل كــردي أحــراراً وليــسوا رقيقاً[1].

وقد أخذت الدولة الأيوبية أنظمتها الإدارية والعسكرية عن الدولة الزنكية، وهــذا مــا عناه القلقشندي حين قال: (واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتهــا في الديار المصرية، خالفتها في كثير من ترتيب المملكة، وغيرت غالب معالمها، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكي بالموصل، ثم ولده الملك العادل نــور الــدين محمود بالشام وما معه)[2].

وسار الأيوبيون على نهج من سبقهم في الإكثار من شراء المماليك واستخدامهم فــي الوظائف الإدارية الهامة وفي الجيش، فهذا صلاح الدين كان قد أنشأ لنفسه- عندما كان وزيراً للعاضد- جيشاً خاصاً عماده المماليك الأسدية والأحرار الأكراد الــذين كــانوا فــي خدمتــه بالإضافة إلى المماليك الأتراك الذين اشتراهم لنفسه وسماهم الصلاحية أو الناصرية[3]، ولاحقاً اشتركت فئات المماليك الأسدية والصلاحية والعادلية في المعارك التي خاضها صلاح الــدين ضد الأمراء المسلمين بهدف تحقيق الوحدة الإسلامية وضد الفرنج بهدف طردهم[4].

وظل المماليك الأتراك يكونون أغلب الجيوش الإسلامية، فقد قام صلاح الدين الأيوبي بعد أن أسقط الخلافة الفاطمية بإحلال عناصر جديدة محل عناصر الجيش الفــاطمي، فيــذكر المقريزي في الخطط أنه (لما زالت الدولة الفاطمية على يد السلطان صلاح الدين، أزال جند

---

(1) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص198. المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص43. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة،، ج6، ص3.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص5.

(3) أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص76.

(4) أبو شامة ،عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج2، ص229. طقوش، تاريخ المماليك، ص23.

مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن، وغيرهم واستجدّ عسكراً من الأكراد والأتراك خاصة)[1]، وقد أدوا دوراً فاعلاً في حروب صلاح الدين ضد الفرنج طوال سنتي (584-588هـ/1188-1192م) فمثلاً الملك الأمجد مجد الدين بهرام[2] لما جاء للانضمام إلى صلاح الدين سنة (586هـ/1190م) كان معه (غلمانه الأكاديش ومماليكه الترك)[3]، وبرغم ما كان عند صلاح الدين من قوة وشدة هيبة إلا أن هؤلاء المماليك كانوا يعارضونه ويخالفونه في الرأي في بعض الأحيان، فمثلاً أنكروا عليه عزمه على التحصن ببيت المقدس انتظاراً لمجيء ريتشارد قلب الأسد لحصارها سنة (588هـ/1192م)[4].

ومن خلال قراءة متأنية لأحوال الدولة الأيوبية أيام الحكام الذين جاؤوا بعد صلاح الدين نجد أن الدولة الأيوبية قد ضعفت واهتزت وحدتها نتيجة كثرة المنازعات الداخلية

---

(1) المقريزي، الخطط، ج1، ص178. حسين، محسن محمد، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1986 ص97 وسيشار له لاحقاً حسين، الجيش الأيوبي.

(2) الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخ شاه أبقاه صلاح الدين في بعلبك، وكان فيه فضل وله ديوان شعر، ثم أخذ الأشرف بن العادل منه بعلبك فانتقل إلى دمشق، وقتله مملوكه في داره سنة (628هـ/1230م) ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681هـ/1282م) وفيات الأعيان، ط1، ج2، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994 ص453 وسيشار له لاحقاً ابن خلكان، وفيات الأعيان. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج22، ص330. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص226.

(3) الأصفهاني، عماد الدين بن محمد بن حامد (ت597هـ/1200م) الفتح القسي في الفتح القدسي، ط1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص257، وسيشار له لاحقاً الأصفهاني، الفتح القسي.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص130-131 . العبادي، قيام دولة المماليك، ص87. يورد ابن واصل في كتابه مفرج الكروب أن المماليك الأتراك بعثوا برسالة إلى صلاح الدين ينكرون عليه رأيه ويقولون فيها (لا مصلحة في ذلك فإنا نحصر ويجري علينا، ما جرى على أهل عكا، وعند ذلك تؤخذ بلاد الإسلام أجمع والرأي أننا نضرب مع العدو مصافاً، فان قدر الله تعالى لنا أن نهزمهم ملكنا بلادهم وإن تكون الأخرى سلم العسكر= ومضى القدس، وقد انحطت بلاد الإسلام وعساكرها بمضي القدس، .... إنك إن أردتنا نقيم في القدس فتكون معنا أو بعض اهلك حتى نجتمع عنده، وألا فالأكراد لا يدينون الأتراك، والأتراك لا يدينون الأكراد. مفرج الكروب، ج2، ص130-131.

والمؤامرات بين أفراد البيت الأيوبي، ولم يجد الأمراء الأيوبيون سوى الإكثار من شراء المماليك وتدريبهم وإعدادهم ليكونوا لهم سنداً وعوناً في الصراعات الدائرة بينهم.

واستمر بنو أيوب في جلب الرقيق لتغذية جيوشهم فكان كل أمير ينشئ لنفسه قوة خاصة يعتمد عليها للاحتفاظ بإمارته وتحقيق طموحاته، وأصبحوا ينتسبون لمن اشتراهم، فبالإضافة إلى المماليك الأسدية والصلاحية نجد ذكراً للعادلية، وهم مماليك العادل الذين لعبوا دوراً كبيراً في الصراع بين أبناء العادل بعد وفاته[1]، والأفضلية المنسوبين إلى الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين، يقول المقريزي في حوادث سنة (591هـ/1194م) : (وخلع الأفضل على جميع الأسدية والأكراد والأفضلية وأعطاهم الكوسات) [2] والعزيزية المنسوبين إلى العزيز عثمان بن صلاح الدين (وعندما عسكر العادل والأفضل من تل العجول إلى بلبيس كان فيها جموع الصلاحية والعزيزية) [3]، والكاملية المنسوبين إلى الملك الكامل بن محمد العادل بن أيوب[4]، والأشرفية نسبة إلى الملك الأشرف موسى بن العادل أبي بكر بن أيوب[5].

وبمرور الوقت أخذ نفوذ المماليك يتزايد في الدولة الأيوبية وكان لهم يد في المنازعات ورسم نتائجها، فمثلاً حين توفي الملك العادل سنة (615هـ/1218م) كرهت فئة العادلية تولية ابنه الكامل وأرادت تنصيب أخيه المعظم عيسى لكن الكامل تمكن من السيطرة على

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص141. المقريزي السلوك، ج1، ق1، ص223.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص126. الكوسات هي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ومع ذلك طبول وشبابه. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص9.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص250.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص99.

(5) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص167. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج6، ص320.

الحكم فطاردهم وقبض على كثير منهم وصادر أموالهم[1]، ومع ذلك ظل الملك الكامل متخوفاً من عسكر الملك المعظم رغم أن مماليك الكامل بلغوا أثنى عشر ألفا في حين ما كان مع المعظم سوى ثلاثة آلاف فارس[2].

وبعد وفاة الملك الكامل سنة (635هـ/1238م) عارض مماليكه ما جرى من تنصيب ابنه الأصغر العادل الثاني، وتحالفوا مع المماليك الأشرفية بزعامة عز الدين أيبك وتآمروا على خلع العادل الثاني سنة (637هـ/1240م) وهزموا من ناصره من الأكراد[3].

يتضح مما سبق أن المماليك أصبحوا قوة تتحكم في مقدرات الأمور في الدولة الأيوبية وبدت الإرهاصات التي تبشر بزوال الأيوبيين، ويعتبر السلطان الصالح نجم الدين أيوب (638-647هـ/1240-1249م)، أكثر من عني بالمماليك وأكثر من شرائهم واعتنى بتربيتهم تربية خاصة وجعلهم بطانته وحرسه الخاص[4]، وهذا كله ناتج عن شعوره بالمؤامرات التي تحيط به من كل جانب ويبدو أنه لم يستكثر من شرائهم فحسب بل أباح لهم

---

(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص120. الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص198-200. المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص195-196.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص263.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص256. اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت768هـ/1367م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط1،ج4، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص73 وسيشار له لاحقاً اليافعي، مرآة الجنان. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص315. طقوش، تاريخ المماليك، ص25.

(4) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص179. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص417. الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص370. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص300. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص319. السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، ط1، ج2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر 1967 ص35 وسيشار له لاحقاً السيوطي، حسن المحاضرة.

الحرية حتى ضج الأهالي من عبثهم واعتداءاتهم على الأنفس والأموال[1]، يقول ابن إياس عن الملك الصالح نجم الدين أيوب:(واستكثر من مشترى المماليك حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشون على الناس، وينهبون البضائع من الدكاكين فضج منهم الناس[2].

فلما بلغ ذلك الصالح رأى أن يبعدهم عن العاصمة، واختار جزيرة الروضة[3] في نهر النيل لتكون مقراً له، فشيد فيها قصراً، أحاطه بسور ثم سكن فيه مع حريمه سنة (638هـ/1241م)، كما بنى قلعة خاصة لمماليكه في السنة التالية (639هـ/1242م) وأسكنهم بها، ومن أجل ذلك عرف هؤلاء المماليك الجدد باسم "المماليك البحرية الصالحية"[4]، وهم من أقاموا الدولة المملوكية الأولى (البحرية)[5].

ولكن من أين جاء هؤلاء المماليك؟ وما هي أصولهم؟

تعود أصول المماليك الذين جلبوا إلى مصر عن طريق التجار إلى منطقتين :الأولى أقاليم ما وراء النهر وهي من أهم مناطق جلب الرقيق، ويعتبر رقيقها أفضل الرقيق وبالتحديد رقيق

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص102.

(2) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص102.

(3) جزيرة الروضة الجزيرة التي بين مدينة مصر ومدينة الجيزة، وعرفت في أول الإسلام بالجزيرة، وبجزيرة مصر، ثم قيل لها جزيرة الحصن، ثم عرفت بالروضة، وبنى بها الملك الصالح نجم الدين أيوب القلعة الصالحية. المقريزي، الخطط، ج3، ص312-313.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص320. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص102.

(5) ينفي أحمد مختار العبادي في كتابه "قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام" أن تكون تسمية المماليك البحرية جاءت نتيجة إسكانهم في بحر النيل ويرى أن لفظة بحرية ليست وليدة عصر الصالح نجم الدين أيوب بل كانت موجودة أيام العادل الأولى ووجدت كذلك في الدولة الرسولية في اليمن حتى الفرق الصليبية التي جاءت إلى بلاد الشام كان يطلق على بعضها اسم البحرية، ويرجح أن تكون التسمية جاءت من وراء البحار إذ كانوا يسمون بحرية أو رجال ما وراء البحار. وهذا ما لا أراه صواباً إذ أن كل الرقيق في الفترة السابقة كانوا يأتون من وراء البحار ولم يسموا بذلك. العبادي، قيام دولة المماليك، ص96-99.

مدينة وخاب[1] التي تقع في أعالي نهر جيحون، وهي تعد أيضاً مركزاً لتجمع قوافل الرقيق التركي القادم من أواسط آسيا[2]، ويعد ميناء الأبواب أو الدربند[3] على بحر قزوين مركزاً هاماً لتجارة الرقيق القادم من شمال آسيا[4]، وكان رقيق سمرقند[5] هو الأفضل حيث اتخذ أهل هذه المدينة الرقيق مهنةً يعتمدون عليها في حياتهم[6].

أما المنطقة الثانية فهي بلاد القفجاق، المعروفة الآن بالقفقاس جنوب روسيا شمالي البحر الأسود[7]، ويورد ابن فضل الله وصفاً لحياتهم البدائية وظروفهم المعيشية التي يعيشونها

---

(1) وخاب بلدة وراء بلاد الختّل، وهي للترك يقع منها المسك والرقيق، وبها معادن فضة. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص364. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1428.

(2) ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي (ت367هـ/977م) صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت 1977 ص385 وسيشار له لاحقاً ابن حوقل، صورة الأرض. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص45-47. غرايبة، قيصر، الرقيق العسكري في المجتمع المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك 1997 ص45-46 وسيشار له لاحقاً غرايبة، الرقيق العسكري.

(3) ميناء الأبواب أو الدربند مدينة على البحر وهو بحر الخزر (قزوين)، وربما أصاب البحر حائطها، وفى وسطها مرسى السّفن، قد بني على حافتي البحر سدّين وجعل المدخل ملتوياً، وعلى هذا الفم سلسلة فلا مخرج للسفينة ولا مدخل إلا بأمر، وهي فرضة لذلك البحر، وسمّيت باب الأبواب لأنها أفواه شعاب في جبل القبق. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص303-306. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص142-143.

(4) الحموي، معجم البلدان، ج1، ص303. شبارو، عصام، السلاطين في المشرق العربي (السلاجقة والايوبيون)، دار النهضة العربية، بيروت 1994 ص207 وسيشار له لاحقاً شبارو، السلاطين في المشرق العربي.

(5) سمرقند مدينة حسنة كبيرة على جنوب وادي الصغد، ولها شوارع ومبان وقصور سامية وفنادق وحمامات، وعليها سور تراب متسع يحيط به خندق، وهي كثيرة الخصب، ولها أربعة أبواب، ويدخل المدينة ماء يجلب إليها، يدخل على باب كبير ويعم أكثر قصورها، ولهذا النهر حفظة وحراس لئلا يصل إليه شيء من الفساد، والمسجد الجامع بأسفل المدينة، وفي المدينة ديار شامخة وقصور عظيمة، وقلما يكون فيها قصر ولا دار كبيرة إلا وفيها بستان ومياه متدفقة. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص246-250. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص736. الحميري، الروض المعطار، ص322-323.

(6) ابن حوقل، صورة الأرض، ص407. غرايبة، الرقيق العسكري، ص46.

(7) ابن دقماق، إبراهيم بن محمد العلائي (ت809هـ/1406م) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ط1، ج1، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب بيروت1985، ص51، وسيشار له لاحقاً ابن دقماق، الجوهر الثمين.

وهم في جهد من شغف العيش إذ أنهم ليسوا أهل حاضرة، وإن بلادهم كثيرة الماء والمرعى والخصوبة، ولكنهم أهل حل وترحال وليس لهم مبالاة بالزرع والغراس[1]، ويؤكد العمري على تكوينهم العسكري وشجاعتهم ووفائهم مع ذكر صفاتهم البدنية كطول القامة وحسن الصورة والشكل مع ذكر إخلاصهم وولائهم وهذه صفات كلها جعلتهم لأن يصبحوا جنوداً مؤهلين[2]، ومنذ أوائل العصور الوسطى اتجهت فئة منهم جنوباً نحو حوض نهر سرداريا (سيحون) في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بينما اتجهت فئة أخرى إلى شرق أوروبا في نفس الفترة[3]، ودخل هؤلاء جميعاً في حوزة التتار وجنكيز خان ولا سيما بعد أن توجه باطو خان بن دوش خان بن جنكيز خان نحو البلاد الشمالية، وأخضع لسلطانه سكانها من القبجاق[4] والعلاق (اللان)[5] فضلاً عن الروس، وغدت مملكة باطو خان ومقرها سراي على نهر الفلجا تمتد من خوارزم إلى أطراف القسطنطينية ومن بلاد الروس إلى القوقاز، وبذا امتزج التتار والمغول بالترك في هذه البلاد[6].

ولكن ما الذي جعل منهم رقيقاً؟

---

(1) العمري، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت749هـ/1348م) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج3، تحقيق محمد خريسات وعصام هزايمه، مركز زايد للتراث، الإمارات 2001، ص119-121 وسيشار له لاحقاً العمري، مسالك الأبصار. P.M. Holt. Mamluks. E,I, , Vol 4, .p314.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص120.. P.M. Holt. Mamluks. E,I, , Vol 4 .p314

(3) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808 هـ /1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط2، ج5، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 1988، ص426-427، وسيشار له لاحقاً ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون. العريني، السيد الباز، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت 1967 ص45-55 وسيشار له لاحقاً العريني، المماليك.

(4) القبجاق فرع من الترك، مساكنهم الأصلية حوض نهر ارتش، وقد تنقلوا حتى استقروا بحوض نهر الفولجا . النويري، نهاية الأرب، ج29، ص416.

(5) اللان نسبةً إلى بلاد اللان وهي بلاد واسعة كبيرة متاخمة للدّربند في جبال القبق، وليس هناك مدينة كبيرة مشهورة، وفيهم مسلمون، والغالب عليهم النصرانية. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص245. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص111-112.

(6) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص372. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص416. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص 476-477. العريني، المماليك، ص55.

ربما يكون فقر السكان المدقع الذي أجبرهم في بعض السنوات على بيع أطفالهم[1] أو اللجوء للبيع سداداً للضرائب أسباباً غير منطقية، ولو حصل بعض ذلك فإنه يكون نادراً ، ولكن السبب الرئيس يورده ابن دقماق، إذ أنه بعد ظهور التتار واستيلائهم على البلاد الشرقية والشمالية وتعديهم على بلاد القفقاس، قتلوهم وسبوا ذريتهم وباعوهم، ثم جلبهم التجار وباعوهم فامتلأت أسواق الرقيق بأتراك تلك المنطقة، فلما تولى الصالح نجم الدين أيوب الحكم اشترى منهم نحواً من ألف مملوك وأمر جماعة منهم في حياته[2]، ولما تولى ولده المعظم توران شاه أساء معهم العشرة فقتلوه وأقاموا الأمير عز الدين أيبك أتابكاً[3] ثم سلطنوه[4].

وهؤلاء التحقوا بالجيش المملوكي في مراتب أعلى مما كان فيه من طوائف العرب والكرد والتركمان[5]، ويطلق على من قدم من هذه الطوائف التترية إلى مصر خلال العصر المملوكي الأول اسم الوافدية والمستأمنين أو المستأمنة[6]، ودخل هؤلاء الوافدية دولة المماليك

---

(1) الحموي، معجم البلدان، ج2، ص24 .

(2) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص51.

(3) الأتابك لفظ تركي يتألف من مقطعين وهما أطا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، وأطلق هذا اللفظ زمن السلاجقة على أحد الأمراء الكبار الذين يولونه الوصاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير، وفي أيام المماليك بمصر أطلق على مقدم العسكر أو القائد العام للجيش ولذلك سمي أتابك العسكر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص18. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة، الإسكندرية 1978 ص122-125 وسيشار له لاحقاً الباشا، الألقاب الإسلامية.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص418. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص51. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص108-109.

(5) العريني، المماليك، ص57.

(6) الدوادار، بيبرس، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطا، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2001 ص231 وسيشار له لاحقاً بيبرس، زبدة الفكرة. النويري، نهاية الأرب، ج30، ص89. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص474. العريني، المماليك، ص58.

وهم أحرار وظلوا كذلك، وارتبط كثير منهم بالمماليك بالمصاهرة[1]، ولحق عدد قليل منهم بفرق المماليك السلطانية والخاصكية[2]، ودخل عدد كبير منهم في خدمة الأمراء المماليك[3].

وكان الرقيق يُنقَلونَ من تلك المنطقة إلى البحر الأسود ثم إلى البحر المتوسط ومنه إلى موانئ الشام وموانئ مصر مثل دمياط والإسكندرية [4].

ب – وصولهم للحكم

عندما وصلت الحملة الصليبية السابعة التي كان يقودها لويس التاسع ملك فرنسا إلى مدينة دمياط في سنة (647هـ/1249م) كان الملك الصالح نجم الدين أيوب وقتها مريضاً، ثم توفي بعد مرض عضال[5]، وهنا يأتي دور زوجته شجر الدر التي أدركت خطورة ما يحيط بالدولة، فعملت على إخفاء خبر موت السلطان لأن ذلك من شأنه أن يوقع الوهن في العزائم ويثير الأحقاد والمطامع الكامنة في نفوسهم ويطمع الفرنج فيهم، فأرسلت سراً تستدعي ابنه توران شاه من حصن كيفا ليتولى الحكم[6].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج3، ص385. السلوك، ج، ق، ص. العريني، المماليك، ص58.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص130. العريني، المماليك، ص58. الخاصكية وهم مماليك مقربون من السلطان يدخلون عليه في أوقات خلواته وفراغه بغير إذن، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين، ويواكبون السلطان عند ركوبه، ويتأنقون في ركوبهم وملبوسهم بما يميزهم عن غيرهم، ولهم الرزق الواسع والعطايا الجزيلة. ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص115.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص474. العريني، المماليك، ص58.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص415-416. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص51.

(5) أبو الفداء، المختصر،ج3، ص179-180. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص38.

(6) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص370-374. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص176. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص206-207.

وتظهر في هذه الفترة بطولة الأمراء المماليك، فتصدى بيبرس البندقداري ومعه فرقة من المماليك البحرية للفرنجة فشن عليهم هجوماً من خارج المنصورة[1] وطردهم من بعض نواحيها، ثم لاحقهم الأمير أقطاي مستعملاً النار الإغريقية[2] حتى قرروا الهروب إلى دمياط[3].

وعندما وصل توران شاه بن السلطان الصالح إلى مصر سنة (647هـ/1249م) تولى الحكم دون معارضة، فكان أول أعماله محاصرته للفرنج ومنع الإمدادات عنهم عن طريق دمياط، عندها اضطر الملك لويس التاسع بسبب حراجة موقفه إلى طلب الهدنة، ولكن المسلمين لم يقبلوا[4]، وحين حاول لويس التاسع التسلل ليلاً والانسحاب لم تنجح حيلته، حيث

---

(1) المنصورة بلدة أنشأها الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ورابط بها في وجه الفرنج لما ملكوا دمياط وذلك في سنة (616 هـ /1219م) ولم يزل بها في عساكر وأعانه أخواه الأشرف والمعظم حتى استنقذ دمياط في سنة (618 هـ /1221م) الحموي، معجم البلدان، ج5، ص212. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1322. المقريزي، الخطط، ج1، ص427.

(2) النار الإغريقية أخذها العرب من الروم، وهي في الأصل من اختراع المشارقة، وهي مزيج من الكبريت والأدهان، في شكل سائل يطلقونه من إسطوانة نحاسية مستطيلة كانوا يشدونها إلى مقدم السفينة، فيقذفون منها السائل مشتعلًا، أو يطلقونه بشكل كرات مشتعلة، أو قطع من الكتان الملوث بالنفط، فيقع على السفن أو البيوت فيحرقها. وقد استخدمت النار الإغريقية في حصار المأمون لبغداد كما شاع استخدامها في أيام الرشيد، الذي خصص لها حملة النفط أو " النفاطين" في جيشه. محفوظ، جمال، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، " موسوعة الحضارة العربية والإسلامية "، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، 1987 ص76 وسيشار له لاحقاً محفوظ، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام.

(3) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص376--377. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص180-181.

(4) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص377--378. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص180. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص177. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص357.

أن المسلمين قد علموا بالأمر فاستعدوا لإفشاله وطاردوا الفرنجه حتى فارسكور[1] وقتلوا منهم أكثر من ثلاثين ألفاً[2].

وسقط لويس التاسع أسيراً وسجنه المسلمون في المنصورة وظل سجيناً حتى أُطلق مقابل انسحاب الفرنج من دمياط، ودفع مبلغاً طائلاً من المال فديةً للمسلمين عما خسروه في هذه الحروب، ومقابل إطلاق أسرى المسلمين في مصر والشام[3]، وهكذا انتهت الحملة بالفشل الذريع وبرز دور بطولي لفرسان المماليك البحرية أمثال أقطاي وبيبرس الذين سماهم ابن واصل (داوية المسلمين) [4]. ولكن توران شاه لم يكن القائد القادر على مواجهة ظروف المرحلة فارتكب أفعالاً أودت بحياته، فبعد الانتصار على الفرنج قام توران شاه بإبعاد أمراء دولة أبيه واعتقالهم، وقرب غلمانه الذين جاؤوا معه من حصن كيفا وولاهم المناصب والوظائف السلطانية[5]، وقد وصفه الدواداري بأنه كان (صبي العقل عديم الرأي أهوج كثير العجب زائد السفه) [6].

---

(1) فارسكور من قرى مصر قرب دمياط من كورة الدقهلية. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص228. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1013.

(2) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص379. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص177. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص91.

(3) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص381. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص178. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص91.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب ج2، ص370.

(5) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص381--382. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص418. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص178.

(6) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص381.

ودفعه ندماؤه الذين كانوا لا ينفكون عن تذكيره بأنه ليس ملكاً إلا بالاسم وأن السلطة الفعلية بيد زوجة أبيه شجر الدر والمماليك[1]، إلى الإساءة للمماليك البحرية كبيبرس وأقطاي ورفاقهم فأبغضوه وصاروا يخشون غدره ويتحينون فرصة القضاء عليه[2].

وزاد على ذلك بأن أرسل في طلب شجر الدر يتهددها ويطالبها بمال أبيه وثروته[3]، فكانت هذه الأفعال دافعاً آخر لاتفاق المماليك عليه، فأخذت شجر الدر تتصل بأنصارها من المماليك المعادين لتوران شاه فقاموا بمهاجمته وهو في معسكره في فارسكور أوائل سنة (649هـ/1250م) [4]، مما اضطره لإلقاء نفسه في البحر من فوق برج خشبي كان قد التجأ إليه، فحرقوه عليه بعد أن قذفوه بالسهام، فمات جريحاً غريقاً حريقاً، ولم يفده ما عرضه وهو يصارع المِوت قائلاً:(ما أريد ملكاً دعوني أرجع، خذوا ملككم ودعوني أعود إلى حصن كيفا) [5]، فكان ردهم عليه:(بعد جرح الحية لا ينبغي إلا قتلها) [6]، وبقيت جثته على شاطئ النيل ثلاثة أيام لا يجسر أحد أن يدفنه حتى شفع فيه رسول الخليفة العباسي المستعصم بالله ودفن[7].

---

(1) ابن العبري، يوحنا بن هارون بن توما الملطي (ت685 هـ /1286م) تاريخ مختصر الدول، ط3، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت 1992 ص260 وسيشار له لاحقاً ابن العبري، تاريخ مختصر الدول.

(2) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص41. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص371.

(3) الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص382. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص181.

(4) ابن واصل، مفرج الكروب ج2، ص371.

(5) ابن واصل، مفرج الكروب، ج2، ص371. الدواداري، الدر المطلوب، ج7، ص382-383. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص42.

(6) أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665 هـ /1267م) الذيل على الروضتين، ط1، م3، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2000ص180 وسيشار له لاحقاً أبو شامة، الذيل على الروضتين. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج47. ص389.

(7) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص42. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص371.

وبعد مقتل توران شاه أضحى العرش شاغراً فصار المماليك الذين قادوا مؤامرة التخلص من توران شاه في حيرة من أمرهم، إذ ليس من السهل أن يتقبل الناس في مصر والشام جلوس مملوك على عرش مصر، لذا قرروا أن يولوا شجر الدر[1]، فنصبوها سلطانة على مصر فباشرت التواقيع ونقش اسمها على السكة (المستعصمية الصالحية، ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين) [2]، ثم دخلت في مفاوضات مع الفرنج انتهت إلى إعادة دمياط للمسلمين وفك الأسرى وإطلاق سراح لويس التاسع مقابل فدية مقدارها ثمانمائة ألف دينار[3].

وقد اعتبر بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية وتوران شاه آخر ملوك الأيوبيين[4]، وبعد تولي شجر الدر السلطة انقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين، وقد ظهر لهذا الأمر نتائج مهمة، أبرزها انفصال الوحدة التي أقامها الصالح أيوب بين مصر وبلاد الشام، كما ظهرت المزيد من الانقسامات بين أمراء بلاد الشام من جهة، وبينهم وبين السلطة الجديدة في مصر من جهة أخرى[5]، وأنكر الخليفة العباسي ومعه بعض العلماء لهذا الأمر[6]، وكانت القوتان الأولى بأيدي المماليك في مصر، والثانية بأيدي الأيوبيين في الشام[7]، وشعر المسلمون بحرج شديد في أن يلي أمرهم امرأة، ولقيت حركة معارضة شديدة من رجال الدين بدليل ما رواه السيوطي من أن الشيخ عز الدين بن عبد السلام (660هـ/1262م) [8] وهو الفقيه المعروف ذلك الوقت كتب كتاباً حول ما قد يبتلى به

---

(1) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص96. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص361. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج6، ص372.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص182. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص178.

(3) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص363. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص36.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص361؛- الخطط، ج3، ص413-414.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص183. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص178.

(6) ابن واصل، مفرج الكروب ج2، ص376. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص368.

(7) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص13.

(8) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص36. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص122.

المسلمون بولاية امرأة[1]، حتى أن الخليفة العباسي المستعصم (ت658هـ/1260م) عندما علم بسلطنة شجر الدر كتب إليهم قائلاً بتندر: :(إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً) [2].

عند ذلك رأى المماليك البحرية الصالحية المؤيدين لشجر الدر أنه لا بد لهم من حل لهذا الموقف وقالوا :(لا يمكننا حفظ البلاد والملك لامرأة ولا بد من إقامة رجل للمملكة تجتمع الكلمة عليه) [3]، ودفعهم لهذا الأمر خوفهم من خطر الناصر يوسف الأيوبي[4] صاحب حلب الذي استغل هذا الموضوع لصالحه ورأى فيه فرصة سانحة للاستيلاء على دمشق وبعض نواحي الشام مما أخاف المماليك[5]، فسارعوا إلى تزويجها من الأتابك عز الدين أيبك التركماني أتابك العسكر، وتنازلت له شجر الدر عن السلطة بعد ثمانين يوماً من حكمها[6].

ومنذ أن استلم عز الدين أيبك التركماني السلطة بادر إلى اغتيال أكبر منافسيه وهو أقطاي الجمدار سنة (652هـ/1254م) وساعده في ذلك عدد من المماليك المعزية[7]، مما اضطر

---

(1) عز الدين بن عبد السلام، كان ناسكاً ورعاً، ولي قضاء مصر والوجه القبلي، وكان مع شدته فيه حسن محاضرة بالنادرة والشعر، لما مات شهد الظاهر جنازته والخلائق (ت666 هـ /1267م) الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص350-352. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، ص318. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص140.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص368.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب ج2، ص376. ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت692 هـ /1292م) الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ط1، الرياض 1976 ص52 وسيشار له لاحقاً ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص363-364.

(4) الناصر يوسف بن محمد بن غازي بن يوسف بن أيوب صاحب حلب ودمشق، في سنة (648 هـ /1250م) نازل دمشق، ففتحت له، واستولى عليها، وجعلها دار ملكه، ثم سارع ليأخذ مصر فانكسر، وقتل نائبه لؤلؤ، انضم إلى التتار وحين انتصر المسلمون في معركة عين جالوت (658 هـ /1260م) قتله هولاكو في تبريز. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج23، ص204-207. الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص361-365.

(5) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص15-17.

(6) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص20. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص180. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص369.

(7) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر،ص153. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص430-431.

بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي رفاق أقطاي إلى الهروب نحو الشام وتفرقوا ما بين حلب والكرك ودولة سلاجقة الروم[1].

ولإبطال حجة ملوك الأيوبيين في الشام قام عز الدين أيبك التركماني بتولية الأشرف موسى الأيوبي السلطنة وهو في السادسة من عمره وجعله شريكاً له في الحكم، فخطب باسمهما على المنابر وسكت العملة باسمهما، كما أنه استعان بالخليفة العباسي المستعصم فنصب نفسه نائباً له على مصر[2].

ولكن سرعان ما دب الخلاف بين أيبك وزوجته شجر الدر بسبب تسلطها وشدة غيرتها عليه، فحاول أن يتزوج من ابنة بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل[3]، مما جعلها تقرر قتله وتتصل سراً بالملك الناصر في دمشق تعرض عليه التعاون معها في ذلك، وأن يتزوجها ويشركها معه في السلطة مقابل تسليمه مصر ولكنه لم يتحمس لهذا العرض[4]، ولما علم أيبك بهذا احتاط لنفسه من غدر شجر الدر، وقرر في طويته قتلها ولم تلبث أن سبقته في تنفيذ عزمها بأن تحايلت عليه فاستدعته إلى القلعة ودست إليه خمسةً من غلمانها فقتلوه في الحمام

(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص190. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص217. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص366-368.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص183. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص180.

(3) السلطان بدر الدين لؤلؤ الأرمني الأتابكي، تسلطن في سنة (636 هـ /1238م) كان بطلاً شجاعاً محبباً إلى الرعية، سار إلى خدمة هولاكو، وتلطف به، ثم رجع إلى بلاده متولياً من قبله، توفي سنة (657 هـ /1259م) الذهبي، العبر، ج3، ص286-287 ؛- سير أعلام النبلاء، ج16، ص484. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (ت1089هـ/1678م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، ج7، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق 1986ص499-500 وسيشار له لاحقاً ابن العماد، شذرات الذهب.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص456. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص228. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص402.

سنة (655هـ/1257م)[1]، ولما علم المماليك المعزية بذلك هجموا على شجر الدر وخنقوها خنقاً ورموها عريانة الجسد على باب القلعة من جهة القرافة[2]، واتفق رأيهم على ولده نور الدين علي وأن يكون أتابك الجيش سيف الدين قطز[3].

ولكن قطز ما لبث أن قام بعزل نور الدين علي مستغلاً في ذلك ما أصاب المصريين من ارتباك إثر سماعهم بما حلّ ببغداد وبنوايا التتار تجاههم ووصولهم إلى حلب، وبدأ في إعداد مصر للتصدي للخطر المغولي، وتمكن بفضل الله تعالى من التصدي للمغول وهزيمتهم في معركة عين جالوت سنة (658هـ/1260م)[4]، وهكذا وصل المماليك الأتراك إلى الحكم في مصر بعد قضائهم على الدولة الأيوبية في مصر واستمروا بالحكم حتى سنة (783هـ/1381م).

ج - أصول المماليك الشراكسة

ورد اسم الشراكسة في المصادر العربية بلفظ (الجركس) و (الجهاركس)[5]، وهما لفظان فارسيان يعنيان الرجال الأربعة، بمعنى القبائل الجركسية الأربعة وهي سركس،

(1) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص31. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص192. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص188.

(2) القرافة خطة بالفسطاط من مصر كانت لبني غصن بن سيف بن وائل من المعافر، بها أبنية جليلة ومحالّ واسعة وسوق قائمة ومشاهد للصالحين وترب للأكابر. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص317. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1072. المقريزي، الخطط، ج4، ص125.

(3) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص32. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص192. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص188.

(4) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص38-49. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص468-472. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص199-205. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص196-200. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص70-90.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج1، ص91. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص459-472، ج5، ص393. العريني، المماليك، ص63. أ، دير، الجركس، دائرة المعارف الإسلامية، يصدرها أحمد الشنتاوي وآخرون، م6، دار الفكر، بيروت 1933ص337 وسيشار له لاحقاً دائرة المعارف الإسلامية.

وأركس، وكسا، وآص، وهي القبائل التي تندرج تحتها الفروع والأفخاذ القوقازية الأخرى[1]، وهم من العنصر القوقازي الأبيض، وموطنهم الأرض المشرفة على البحر الأسود من جهة الشمال الشرقي، ويطلقون على أنفسهم وعلى أرضهم اسم بلاد (الأديغة)، ومعنى هذا الاسم الإنسان الكامل، وتشكل أراضيهم الجزء الشمالي الغربي من بلاد القفقاس الممتدة بين البحر الأسود وبحر الخزر[2]، ويذكر القلقشندي أنهم أهل " مدن عامرة آهلة، وجبال مشجرة مثمرة، ينبت عندهم الزرع ويدر لهم الضرع، وتجري الأنهار، وتُجنى الثمار"[3].

وكان المقريزي قد اعتبرهم من اللاص والروس في المملكة التتارية المعروفة باسم القبيلة الذهبية وقاعدتها سراي على نهر الفلجا، وقد أغارت الدولة الخوارزمية إبان حركتها التوسعية على مساكن الجراكسة، فأخذت كثيراً من رجالهم أسرى وسبت نساءهم وجلبتهم التجارة الخوارزمية رقيقاً إلى الشرق[4].

ولكن كيف جلب الشراكسة إلى البلاد الإسلامية؟

إن انتشار هذه القبائل الشركسية في مناطقها الجبلية ووديانها سهل غارات الخوارزميين عليها إبان حركتهم التوسعية في بلاد القفقاس الجنوبية حيث مساكن الشراكسة، فأسروا كثيراً

---

(1) العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ/1450م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003، ص26-27 وسيشار له لاحقاً العيني، السيف المهند. عزت، يوسف، تاريخ القوقاز، دار صوت النارتيين للنشر، د.ت ص81 وسيشار له لاحقاً عزت، تاريخ القوقاز. غرايبة، الرقيق العسكري، ص79.

(2) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص21. المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص40. ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1988 ص96 وسيشار له لاحقاً ماجد، التاريخ السياسي. العريني، المماليك، ص63.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص472.

(4) المقريزي، الخطط، ج3، ص420. العريني، المماليك، ص63-64.

من رجالهم وسبوا نسائهم وأولادهم[1]، ثم خضعت هذه البلاد للمغول الذين اشتدت غـارتهم عليها منذ أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، ويؤيد هذا المعنى ما جاء في كتاب المسالك لابن فضل الله العمري، إذ قال: (وهم أي "المغول" مع استيلائهم على جيوش الجركس والروس والماجار والآص، يختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء ويبيعونهم من التجار[2]، ويشير ابن خلدون إلى ذلك قائلاً: (يخرج بهم التجار إلى مصر إرسالاً كالقطا نحو الموارد فيستعرض أهل الملك منهم ويتنافسون في أثمانهم بما يخرج عن القيمة لا بقصد الاستعباد، إنما هو إكثاف للعصبية، ونزوع إلى العصبية الحامية، يصطفون من كل منهم بما يؤنسونه من شيم قومهم وعشائرهم ثم ينزلونهم في غرف الملك ويأخذونهم بالمخالصة...)[3]. وقد جلبهم التجار الخوارزمية ثم المغول رقيقاً إلى البلاد الإسلامية، فامتلأت بهم أسواق الرقيق، وتدنى ثمنهم بالمقارنة مع ثمن الرقيق من العناصر الأخرى[4]، بالإضافة إلى أنهم كانوا في بعض الحالات يبيعون أبناءهم وبناتهم، فهم كانوا يعتقدون " أن الله سيرعى الأطفال حيثما ذهبوا أكثر مما يرعاهم لو كانوا مع آبائهم "[5].

برز ظهور المماليك الشراكسة بشكل واضح منذ عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون (678-689هـ/1279-1290م)، إذ أراد تكوين عصبة له ولذريته من بعده من

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص335.
(2) العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص122.
(3) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج5، ص428.
(4) المقريزي، الخطط، ج2، ص241. طقوش، تاريخ المماليك، ص326.
(5) طافور، بيرو، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة 1967ص134 وسيشار له لاحقاً ، طافور، رحلة طافور. طرخان، إبراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960، ص9، وسيشار له لاحقاً طرخان، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة.

جنس يختلف عن الجنس الذي ينتمي إليه مماليك عصره من جنسه هو (القفجاق) فأعرض عن شراء الأتراك والتتار والتركمان وأقبل على شراء الشراكسة[1].

وتذكر بعض المصادر أن المنصور قلاوون أكثر من شراء المماليك، وقد بلغ عددهم ما يقارب اثنى عشر ألفاً[2]، وقيل أنهم بلغوا سبعة آلاف وهو الأصح كما ذكر العيني في عقد الجمان[3]، وأن المنصور أمّر منهم ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك من الجراكسة[4]، وأسكنهم في أبراج القلعة، والقلعة هي مركز إقامة السلطان المملوكي، حيث يكونون أسواراً مانعة للسلطان والمسلمين، ونتيجة سكنى هذه الطائفة في أبراج القلعة أطلق عليهم تسمية المماليك البرجية[5].

وفي عهد أولاده وأحفاده ازدادت أعداد الشراكسة فهذا الأشرف خليل بن المنصور قلاوون (ت693هـ/1293م) شغف بتحصيل المماليك حتى أنه اشترى ألفين من الشراكسة، وأخذوا بالتزايد والتكاثر، وقصد أن يكملهم مع مماليك أبيه عشرة آلاف مملوك، فإن والده توفي وله ستة آلاف[6] حتى لم يعد بالإمكان بقاؤهم داخل أبراج القلعة مما اضطر السلطان الأشرف بالسماح لهم بمغادرة القلعة[7]، مما أدى إلى انغماسهم في الحياة العامة بعد أن كانوا بمعزل عن الناس وأصبحوا يعرفون بالأشرفية نسبة إليه[8].

---

(1) ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ/1377م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ط2، ج1، تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2010، ص135، وسيشار له لاحقاً ابن حبيب تذكرة النبيه. العيني، عقد الجمان، ج3، ص16.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص756. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص327.

(3) العيني، عقد الجمان، ج3، ص16.

(4) المقريزي، الخطط، ج3، ص420. العيني، عقد الجمان، ج3، ص16. العريني، المماليك، ص63-64.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص756. العيني، عقد الجمان، ج3، ص207-208.

(6) العيني، عقد الجمان، ج3، ص208.

(7) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص152.

(8) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص802. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج8، ص43.

د ـ وصولهم للحكم

برز نفوذ المماليك الشراكسة بالظهور بشكل واضح في عهد الناصر محمد بن قلاوون الذي تولى السلطنة أكثر من مرة، وأصبحت البلاد المصرية والشامية مسرحاً للنـــزاع بـــين عنصري الشراكسة والأتراك بحيث أصبح كل طرف يحاول القضاء على الطرف الآخر، وقد مثل المماليك الأتراك الأمير كتبغا في حين مثل سنجر الشجاعي المماليك الشراكسة، بحيــث أصبح كل طرف يحاول القضاء على الطرف الآخر، وحين استطاع كتبغا التغلب على سنجر والشراكسة عمد إلى التضييق عليهم وتشتيتهم فأنزل جماعات منهم في أبراج القلعــة وكــان عددهم أربعة آلاف وضيق عليهم ومنعهم من مغادرتها خشية أن ينضموا إلى إخوانهم الــذين طردوهم منها[1].

ولكن هذه العقوبة لم تفت في عضدهم ولم تلغهم من التأثير في الأحداث السياسية، فمع تطور الأحداث أخذت قوة الشراكسة تزداد فيقــول المقريــزي ســنة (698هــــ/1298م) : (وقويت شوكة البرجية بديار مصر وصارت لهم الحمايات الكبيرة وتردد الناس إلــيهم فــي الأشغال وقام بأمرهم الأمير بيبرس الجاشنكير وأمّر مــنهم عــدة... وشــرهوا إلــى أخــذ الاقطاعات)[2].

وازداد نفوذهم وسيطرتهم حتى أنهم في سنة (708هــــ/1309م) صــار لهــم رأي مسموع في اختيار السلاطين، وعندما اختار الأمراء الأميــر ســلار التتــري المنــصوري (ت710هــ/1310م) [3] في تلك السنة لتولي السلطنة لم يقبل البرجية، وكادت أن تقع فتنــة

---

[1] المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص875-876.

[2] المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص875-876.

[3] سلار التتري المنصوري من مماليك الصالح علي بن قلاوون، ناب في الملك عن الناصر واستمر فــي ذلك فوق العشر سنين (ت710هــ/1310م) ابن حجر العسقلاني، أبو الفــضل أحمــد بــن علــي (ت

كبيرة حتى إذا ما تنازل سلار عن المنصب ورشح له الأمير بيبرس الجاشنكير (ت709هـ/1309م) [1] تسارع البرجية وقالوا بأجمعهم: (صدق الأمير بيبرس وأخذوا بيد بيبرس وأقاموه كرهاً)[2]، ويعتبر بيبرس هذا أول من نجح من الشراكسة في الاستيلاء على السلطنة.

كما أخذ نفوذهم بالتزايد في عهد السلطان حاجي بن الناصر محمد (ت748هـ/1347م) واستحوذ كبيرهم الأمير غرلو الشركسي (ت748هـ/1347م) [3] على السلطان، وأصبح نائب السلطان وزاد نفوذه حتى أنه يخلو بالسلطان ويشير عليه بما يمضيه فلا يخالفه في شيء، وكما يقول المقريزي وابن تغري بردي فإنه:(خرج عن الحد في التعاظم)[4].

852هـ/1448م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج2، تحقيق محمد عبد المعين خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند 1972، ص329-330، وسيشار له لاحقاً، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة.

[1] بيبرس الجاشنكير المنصور، ركن الدين الملك المظفر من مماليك المنصور قلاوون ، تسلطن سنة (ت708هـ/1309م) كان كثير السكون والوقار وحسنت سيرته (ت709هـ/1310م) الكتبي، فوات الوفيات، ، ج1، ص85. الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص71-75. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص41-48.

[2] الدواداري، الدر الفاخر،ج9 ، ص157-158. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص46.

[3] الأمير شجاع الدين غرلو، قدم مصر وخدم عند الأمير بهادر المغربي ثم عند الأمير بكتمر الساقي ثم استقر في ولاية القاهرة وانتقل إلى وظيفة شاد الدواوين وأحدث مظالم كثيرة، وجمع الجراكسة على المظفر حاجي لأنهم من جنسة وعظم في الدولة المظفرية قتل في القاهرة (ت748هـ/1347م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص164-166.

[4] المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص735. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص165.

وجلب الأمير غرلو عدداً كبيراً من المماليك الشراكسة ورفع مكانتهم على الترك، ثم أراد أن يقوم بالدور نفسه الذي قام به بيبرس الجاشنكير من قبل وهو عزل السلطان والجلوس مكانه[1].

وفي عهد السلطان حسن بن الناصر محمد المرة الثانيـة (755-762هـ/1354-1360م) تدفقت أعداد كبيرة من المماليك، ومن جميع الجنسيات بمـا فـيهم الشراكسة إلـى مصر[2]، ولا خلاف في أن الأمير برقوق (ت801هـ/1398م) هو مؤسس دولة المماليـك الشراكسة، إذ ظهر دوره كشخصية مؤثرة في فترة السلاطين الضعاف بين أحفـاد السلطان الناصر محمد بن قلاوون إذ استقر (أمير آخور)[3] كبير في فترة السلطان علاء الدين علـي (778-783هـ/1376-1381م)[4]، كما تطلع إلى منصب أتابك العسكر واستقر به بعدما ثار هو وأتباعه ضد الأمير طشتمر[5].

وحين توفي السلطان علاء الدين علي لم يل برقوق السلطنة مباشرة لشعوره بوجـود منافسين له فجمع الأمراء والقضاة والخليفة، وتم الأمر على إبقاء السلطنة في بيت قلاوون وتم إعلان أمير حاجي حفيد السلطان الناصر محمد سلطاناً سنة (783هـ/1381م)[6]، وكـان

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص735. طقوش، تاريخ المماليك، ص335.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص321. شكري، إيمان عمر، السلطان برقوق من خلال عقد الزمان، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة 2002 ص43 وسيشار له لاحقا شكري، السلطان برقوق.

(3) أمير آخور هو المشرف على اصطبل السلطان وخيوله. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص433. دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق 1990 ص22 وسيشار له لاحقا دهمان، معجم الألفاظ التاريخية.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص160.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص160-163. طشتمر الناصري كان من مماليك الناصر ثم ترقى في الخدم إلى أن أمر سنة (746هـ/1345م) واستقر أخيراً أمير سلاح في سلطنة المظفر (ت749هـ/1348م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج2 ص382.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص207.

عمره إحدى عشرة سنة، وأخذ برقوق يستغل السلطة الواسعة التي حصل عليها إذ إنه أصبح شريكاً للسلطان في تدبير أمور الدولة فزاد من الشراكسة، وملأ وظائف الدولة بأعوانه، وأخذ يتقرب من الناس عن طريق إلغاء بعض المكوس، منها: ضمان الملح وضمان الدقيق وضمان القمح، وأبطل المقرر على أهل البرلس[1]، وأمر بعمارة جسر الشريعة[2] بطريق الـشام [3]، وامتد نفوذه حتى أنه أخذ يتكلم في الدولة على عادته من غير معاند"[4].

وعندما أيقن برقوق قوة مكانته جاء بنفس الأمر الذي طالما أتى به الانتهازيون مـن أمراء المماليك السابقين ليكون هو السلطان فعقد سنة (784هـ/1382م) اجتماعـاً حـضره الأمراء والخليفة والقضاة وتم الاتفاق على أن يخلع السلطان أمير حـاجي وأن يـتم إعـلان برقوق سلطاناً[5]، وأشار عليه سراج الدين عمر بن رسلان البلقيني (ت805هـ/1402م) [6] أن يكون لقبه الملك الظاهر بدل برقوق[7]، وبولاية برقوق انتهت الدولة المملوكيـة الأولـى، وبدأت دولة المماليك الثانية الشراكسة التي استمرت في الحكم حتى مجيء العثمانيين.

---

(1) البرلس بليدة على شاطئ نيل مصر قرب البحر من جهة الإسكندرية. الحمـوي، معجـم البلـدان، ج1، ص402.

(2) جسر الشريعة على نهر الأردن، وهو النهر الذي يشق غور الشام، ويسمونه الشريعة، وهو بقرب دامية، أمر بعمارته السلطان الظاهر بيبرس. ابن عبد الظاهر، الروض الزاهـر، ص246. النـويري، نهايـة الأرب، ج30، ص127.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية،ج13، ص323. اليونيني، أبو الفتح موسى بن محمد (ت726هـ/ 1326م) ذيل مرآة الزمان، ط2، ج2، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة 1992 ص346 وسيشار له لاحقاً اليونيني، ذيل مرآة الزمان. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص219 . المقريـزي، الـسلوك، ج3، ق1، ص405.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص208.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص215.

(6) سراج الدين عمر بن رسلان بن نصير الكناني العسقلاني الأصل ثم البلقيني المصري الشافعي، مجتهد حافظ للحديث، ولي قضاء الشام سنة (769هـ/1367م) من مؤلفاته تصحيح المنهاج، والملمـات بـرد المهمات (ت805 هـ /1402م) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ج3، دار الحياة، بيروت د . ت ص312-314 وسيشار له لاحقاً السخاوي، الضوء اللامع.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص221.

وأشير هنا إلى أن هذا التقسيم لا يعني أن كل السلاطين في الدولة المملوكية الأولى (التركية) كانوا من الأتراك، فإن اسم الترك غالب على مجملهم لكثرتهم وتميزهم[1]، ولا يعني أن كل السلاطين في الدولة المملوكية الثانية (الشركسية) كانوا من الشراكسة، وهذا ما تنبه إليه ابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" إذ انتقد المؤرخين المعاصرين له على عدم التمييز بين اثنياتهم، فقال عن ذلك:(وأما من سلف من ملوك التّرك الجراكسة والأروام ففيهم اختلاف كثير، لعدم ضبط المؤرخين هذا المعنى) [2]، فالعادل زين الدين كتبغا(ت702هـ/1303م) في الدولة المملوكية الأولى كان من سبايا التتار[3]، والسلطان خشقدم (ت872هـ/1467م) وكذلك السلطان تَمربُغا (ت879هـ/1475م) في الدولة المملوكية الثانية كانا ألبانيين من الأرنؤوط "[4]

2 - نفوذ المماليك

أ - نفوذ المماليك السياسي

برز المماليك كقوة جديدة حلت محل الأيوبيين في حكم مصر وبلاد الشام، وكان تاريخهم يغص بالمؤامرات والنزاعات، وبما أنني أتقصى دور المماليك كقوة فاعلة ومؤثرة في المجال السياسي، فإنني سألقي الضوء على هذا الدور من زاويتين، أولاً من الناحية الخارجية، بمعنى كيف كان دورهم السياسي في المجال الخارجي؟ وكيف كان في المجال الداخلي؟

---

(1) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج5، ص426-427.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص253.

(3) الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص218. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص166.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص376. ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص456. A. shtor, E., A Social and Economic History Of The Near East In The Middle Ages , London 1976 P 282.

خارجياً تورد بعض المصادر أن أبرز التحديات التي كانت تواجه المماليك الخطر القادم من الشرق وهم المغول وحين كان قطز على رأس الدولة يظهر أنه واجه صعوبة في إقناع كثير من الأمراء المماليك بوجوب الوقوف معه للتصدي للمغول فأخذ يعمل على إثارة نخوتهم واستنهاض هممهم[1].

وقد تمكن السلطان قطز من استقطاب وحدات جيش الملك الناصر يوسف من الناصرية والشهرزورية[2]، وضم إلى قواته ما تبقى من القوات الخوارزمية وقوات من قبل أمير الكرك المغيث عمر الأيوبي[3]، فكانت النتيجة نصراً في عين جالوت سنة (658هـ/1260م) استطاع فيه المماليك تثبيت دعائم دولتهم في مصر أولاً ثم في الشام ثانياً، حيث زالت المعارضة ولم تستطع بقايا البيت الأيوبي معارضته أو مقاومته[4]، وكان من النتائج أيضاً وضع حد للمد المغولي، وكسر ما شاع بين الناس من أن المغول قوة لا تقهر، كما استطاعوا أيضاً إعادة الوحدة ما بين مصر والشام، وبعد هذا الانتصار كتب المظفر قطز

(1) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص472. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص48. العبادي، قيام دولة المماليك الأولى، ص160-161.

(2) الشهرزورية نسبة إلى شهرزور وهي كوره واسعة في الجبال بين اربل وهمذان ، وأهل هذه النواحي أكراد ، والشهرزورية هم الأمراء الذين هجروا بلادهم وانتقلوا إلى بلاد الشام هرباً من هولاكو وعددهم حوالي ثلاثة آلاف. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص375. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص280.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص612. النويري، نهاية الأرب، ج29، ص301. طقوش، تاريخ المماليك، ص76.

(4) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص433. عاشور، فايد حماد، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، مصر 1982 ص55 وسيشار له لاحقاً عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول. Howrth, Sir Henry, History of The Mongols, Part 3, London 1888, P 172.

إلى أهل دمشق يبشرهم بالفتح وكسر العدو، ويعدهم بوصوله إليهم ونشر العدل فيهم، فسر عوام دمشق وأهلها بذلك سروراً زائداً[1].

وبما أن بلاد الشام أصبحت تحت السيادة المملوكية، كان لزاماً على المماليك الاستمرار في حمايتها من المغول والفرنج الذين كانوا يحتلون الساحل الشامي، فاستمروا في التصدي لغارات المغول وطردهم من دمشق وحماة وحلب وحتى أطراف بلاد الشام، فبعد هذا الانتصار يأتي قطز ويقر الملك المنصور على حماة وبارين والمعرة، ويقر الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع (ت683هـ/1284م)[2]على السلمية[3]، وينيب الأمير سنجر الحلبي[4] في دمشق، وعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ على حلب، ويبقى الأشرف موسى[5]

---

(1) أبو الفداء، المختصر، ج3، ص205. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص52. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص62. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص80.

(2) عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة، أمير من آل فضل كان ينعت في بادية الشام بملك العرب، ولاه الإمارة الظاهر بيبرس، ارتفعت مكانته عند سلاطين مصر فاستمر في إمارته عشرين سنة إلى أن توفي سنة (683 هـ /1284م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص231. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص149-150. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص363.

(3) العيني، عقد الجمان، ج1، ص245.

(4) الأمير علم الدين سنجر الحلبي ناب لقطز على دمشق، ودعا لنفسه فيما بعد وتسمى بالملك المجاهد ثم قبض عليه الظاهر وسجنه مدة وأطلقه وسجنه المنصور أيضاً وأطلقه الأشرف وأكرمه (ت693 هـ /1293م) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص394. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص76-78.

(5) الملك الأشرف مظفر الدين موسى تملك حمص سنة (644 هـ /1246م) ثم سار إلى هولاكو فأكرمه واقره على حمص وولاه نيابة الشام، ولما خرج التتار أرسل إليه قطز وأمنه وأقره على حمص (ت662 هـ /1263م). ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص186. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص281. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص359.

صاحب حمص على ما هو عليه[1]، وبهذه الوضعية تصبح الشام تابعة للحكم المملوكي في مصر.

وقد تكررت هجمات المغول مجدداً لغزو بلاد الشام، ففي سنة (659هـ/1261م) تجمعت قوة من فلول الكتائب التي بقيت بعد عين جالوت بعدما بلغهم خبر وفاة السلطان قطز وأغاروا على حمص ولكن اتحاد الأشرف موسى صاحب حمص والمنصور صاحب حماة وبمساندة أمير العربان زامل بن علي بن حديثة[2] أنزلوا بهم هزيمة قاسية حملت فيها رؤوس القتلى إلى دمشق[3]، وفي سنة (675هـ/1277م) جاءت قوة مغولية أخرى تساندها قوة بيزنطية استطاع الظاهر بيبرس ردهم على أعقابهم بعد أن ألحق بهم الهزيمة في معركة الابلستين[4]، وأعادوا الكرة سنة (680هـ/1281م) بقيادة أبغا بن هولاكو[5]، إذ نزلوا بحمص

(1) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص63. المقريزي، السلوك، ج1، ص2، ص433.

(2) زامل بن علي بن حديثة آل فضل من سادات العرب ووجوهها، وله ولأهله عند السلاطين حُرمة كبيرة وصيت عظيم. القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418م) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ط2، تحقيق إبراهيم الإبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982ص74-75 وسيشار له لاحقاً القلقشندي، قلائد الجمان.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص97. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص442. عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص69.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص463 . الدوادار، زبدة الفكرة، ص151-152. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص628-629. عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص104-105. الابلستين هي مدينة مشهورة ببلاد الروم، وسلطانها ولد قلج أرسلان السلجوقي، قريبة من أبسس مدينة أصحاب الكهف. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص75.

(5) أبغا (ويقال أباقا) بن هولاكو بن جنكيز خان، كان ملكاً عظيماً عالي الهمة خبيراً بالحروب، لم يكن بعد والده مثله، وهو على مذهب التتار واعتقادهم، وله رأي وحزم ولما كانت هزيمة المغول بحمص كان بالرحبة فرجع على عقبه إلى همدان فمات غماً وكمداً بين العيدين سنة (680 هـ /1281م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص119-120. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص198-200.

وعاثوا فيها فساداً[1]، فما كان من السلطان المنصور قلاوون إلا أن عقد معاهدة مـــع الفـــرنج لمدة عشر سنوات وبذلك أمن شرهم وضمن الخطوط الخلفية[2]، وتابع جهوده في سبيل تقوية الجبهة الداخلية فأبرم صلحاً مع الملك المسعود خضر بن الملك الظاهر صاحب الكرك حتى لا تسول له نفسه الانقضاض عليه من الخلف أو التحالف مع الفرنج[3]، ووصل إليه أحمـــد بـــن حجي[4] أمير العرب في الشام والحجاز مع عدد كبير من أتباعه، ثم غادرت الجيـــوش نحـــو حمص، وخرج السلطان المنصور إلى المرج ثم اتجـــه إلـــى حمـــص فـــي أواخـــر ســـنة (680هـــ/1281م) وكانت المعركة بين ضريح خالد بن الوليد في حمص وبـــين الرســـتن[5]، واستطاع المنصور قلاوون أن يلحق بالمغول هزيمة كبيرة، وتعتبر هذه المعركة من المعارك التي لو انتصر فيها المغول لوقعت مصر بأيديهم[6].

---

(1) الدوادار، بيبرس (ت725 هـ /1325م) التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صـــالح، ط1، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، 1987، ص99-103 وسيشار له لاحقاً الدوادار، التحفة الملوكية. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص62.

(2) الدوادار، زبدة الفكرة، ص197. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص658.

(3) الدوادار، زبدة الفكرة، ص201. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص89.

(4) الأمير أحمد بن حجي شيخ آل مري كان أحد الأبطال المعروفين، وكانت غاراتـــه تـــصل إلـــى نجـــد والحجاز، وكانت له منزلة رفيعة عند الملك الظاهر بيبرس والملك المنصور وكان يزعم أنه من نـــسل جعفر البرمكي وأنه من أحد أولاد أخت هارون الرشـــيد (ت682 هــــ /1283م) الـــصفدي، الـــوافي بالوفيات، ج6، ص188-189. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص262-263.

(5) الدوادار، زبدة الفكرة، ص204-206. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص62-63. الرستن بليدة قديمـــة بين حماة وحمص، كانت على نهر الميماس، وهو العاصي، وهي خراب، وبها آثار باقيـــة تـــدلّ علـــى جلالتها، وهي على علوّ يشرف على العاصي. الهروي، الإشارات إلـــى معرفـــة الزيـــارات، ص18. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص43. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص615.

(6) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص62-63. ابن كثير، البدايـــة والنهايـــة، ج13، ص295. عاشـــور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص116-121. طقوش، تاريخ المماليك، ص193.

ومعركة مجمع المروج[1] وهي أول معركة يهزم فيها المماليك، ففي سنة (699هـ/1299م) غادر غازان[2] تبريز[3] بجيش يزيد على مائة ألف، وقدم البريد بعبور غازان نهر الفرات وهروب الناس من وجهه فاتجه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى حمص وبعث يستشف الأخبار، فإذا بالمغول قد وصلوا إلى سلمية، وانتشرت الإشاعات بين الناس بأن عسكر السلطان مهزوم لا محالة[4]، ثم حصلت المعركة وهزم فيها المسلمين، وبعد أن تمت الهزيمة نزل غازان على حمص وفيها الخزائن السلطانية وأثقال العسكر فاستولى عليها، وتوجه إلى دمشق بعدما امتلأت أيدي أصحابه من الغنائم[5]، واستمروا فيها إلى أن سمعوا برجوع عسكر مصر إليهم ففارقوها وساروا إلى الشرق[6].

---

(1) مجمع المروج تقع بين سلمية وحمص. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص474.

(2) غازان ويقال قازان وهو محمود بن أرغون بن أبغا بن هولاكو تولى الحكم سنة (694 هـ /1295م) كان شاباً شجاعاً مهيباً مات بقزوين سنة (703 هـ /1304م). الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الله (ت716 هـ /1316م) جامع التواريخ (تاريخ غازان)، ط1، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية، القاهرة 2000 ص414-417 وسيشار له لاحقاً الهمذاني، جامع التواريخ. الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص5-17.

(3) تبريز أشهر مدن أذربيجان، وهي مدينة عامرة حسناء ذات أسوار محكمة بالآجر والجصّ، وفي وسطها عدة أنهار جارية، والبساتين محيطة بها. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص13. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص339. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص252.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص42-43. مجهول، (ت742 هـ /1341م) تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زيترشتين، ليدن، بريل 1919 ص58 وسيشار له لاحقاً مجهول، تاريخ سلاطين المماليك. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص8. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص121.

(5) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص15-19. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص58-59. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص220-221. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص122. عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص145-147.

(6) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص31. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص75. الغزي، كامل بن حسين البالي الحلبي (ت1351 هـ /1933م) نهر الذهب في تاريخ حلب، ج3، ط2، قدم له شوقي شعيب، دار القلم العربي، حلب 1991، ص141 وسيشار له لاحقاً الغزي، نهر الذهب.

أما معركة شقحب [1] التي وقعت سنة (702هـ/1303م) بين المغول والمماليك فكانت انتصاراً حاسماً وضع حداً للمغول في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي دخل بعد المعركة مدينة دمشق وسط مظاهر من الابتهاج، وأوفد مبعوثاً خاصاً إلى القاهرة ليقوم بتبليغ هذه البشارة ومكث في دمشق حتى عيد الفطر من تلك السنة[2]، في حين تذكر بعض المصادر أن غازان قائد المغول هلك بعد أربعين يوماً من الحزن والكمد[3]، أما آخر حلقات الاعتداء المغولي على بلاد الشام فكانت في عهد الدولة المملوكية الثانية في عهد السلطان فرج بن برقوق وهي حملة تيمورلنك سنة (803هـ/1400م) وفي هذه الحملة أظهرت القوى المملوكية إخفاقاً في حماية بلاد الشام من هذا الخطر، فمع أن السلطان فرج أسرع نحو بلاد الشام لوقف الخطر، ومع أنه أحرز تقدماً في انتصاراته على بعض الفرق المغولية المتقدمة حول دمشق إلا أنه عاد إلى مصر بعدما وردته أنباء عن محاولة للثورة عليه[4]، فاجتمع الأمراء والنواب على قتال تيمورلنك، وتهيأ كل منهم للقائه بعد أن يئسوا من رجوع السلطان وعساكره، ولكن فات الأوان فهم قلة مقارنةً بتيمورلنك وجنوده[5]، يقول ابن اياس في بدائع الزهور:(فلما كان يوم السبت الحادي عشر من ربيع الأول من سنة (803هـ/1400م) خرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم، وأوقعوا مع تيمورلنك فكان

---

(1) شقحب، قرية في الشمال الغربي من جبل غباغب من أعمال حوران من نواحي دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص184.

(2) الدوادار، زبدة الفكرة، ص402–406. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص246–252. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص272. عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص172.

(3) الدوادار، التحفة الملوكية، ص165–177. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص24–27. عاشور، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص173.

(4) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص167–168. العلبي، أكرم حسن، تيمورلنك وحكايته مع دمشق، دار المأمون للتراث، ط4، دمشق 1987، ص154–156وسيشار له لاحقاً العلبي، تيمورلنك.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص221. المدني، سليمان، تيمورلنك في دمشق، ط1، دار المنارة، بيروت 2000 ص93 وسيشار له لاحقاً المدني، تيمورلنك في دمشق.

بينهم ساعة تشيب منها النواصي، وقد دهمتهم عساكر تيمورلنك كأمواج البحر المتلاطم ومالت عليهم كتائب الجنود)[1]، وبعد سقوط حلب بقيت دمشق أمام الخطر، فأظهر أهلها بسالة في التصدي للجيش المغولي والدفاع عن دمشق[2].

أما الخطر الخارجي الآخر الذي كانت قد تعرضت له بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي فهو الخطر الفرنجي القائم في بلاد الشام منذ سنة (492هـ/1098م) وحتى (690هـ/1291م)، ونستطيع القول إن المماليك هم القوة التي بفضلها تم طرد الفرنج من الساحل الشامي، وكان السلطان الظاهر بيبرس قد وضع على عاتقه استكمال توحيد الشام تحت مظلة الدولة المملوكية، ففي سنة (663هـ/1265م) استولى على قيسارية[3] الشام[4]، وهذا رفع الروح المعنوية للجند وسمح بيبرس لأفراد الحامية بالخروج دون أن يتعرضوا للأذى ثم دمر المدينة والقلعة[5]، ثم توجه إلى عثليث[6] الواقعة بين حيفا وقيساريه ولكنه عجز عنها ثم توجه إلى ارسوف[7] التي كان الاسبتارية[8] قد حصنوها

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص326-327.

(2) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص728-730. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص227. طقوش، تاريخ المماليك، ص425.

(3) قيسارية الشام بلد على ساحل بحر الشام تعدّ من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام، افتتحها معاوية أيام خلافة عمر بن الخطاب، وهي بالقرى أشبه منها بالمدن. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص421. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1139. الحميري، الروض المعطار، ص486.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص230. الدوادار، التحفة الملوكية، ص53؛- زبدة الفكرة، ص128. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص526-528.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص230-231. الدوادار، زبدة الفكرة، ص128. طقوش، تاريخ المماليك، ص121.

(6) عثليث اسم حصن بسواحل الشام ويعرف بالحصن الأحمر. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص85. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص920.

(7) ارسوف مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص151. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص56.

(8) الاسبتارية جمعية فرسان القديس يوحنا أسسها مجموعة من التجار الامالفيين سنة (463 هـ/1070م) للاهتمام بالمرضى وحماية الأرض المقدسة، وحظيت باعتراف البابوية كجمعية مستقلة سنة

وشحنوها بالمؤن والجنود حتى بلغ عدد فرسانهم مائتين وسبعين فارساً[1]، وتمكن السلطان الظاهر بيبرس من السيطرة عليها وأخذ أهلها المستسلمين أسرى[2]، وفي السنة التي تلتها (664هـ/1266م) كانت الوجهة صفد التي كانت تحت حكم الداوية[3] وقد وضع خطة استطاع فيها تضييق الحصار على الفرنج حتى أنهم لم يجدوا مناصاً من طلب الصلح وكان جزاء الداوية القتل لما ارتكبوه من أفعال قبيحة بالمسلمين[4]، وكانت هذه الانتصارات دافعاً لتحقيق المزيد من الفتوحات، ففي سنة (666هـ/1268م) فتحت يافا التي اعتنى الفرنج بعمارتها وتحصينها وتم هدم القلعة[5]، ثم فتحت شقيف ارنون بعد أن تعرضت للحصار مدة عشرة أيام[6]، وسقطت كذلك أنطاكية مركز الإمارة الصليبية الثانية سنة (666هـ/1267م)

(507 هـ /1113م) ولكنها انزلقت من مهمتها الرئيسة إلى المشاركة في معارك الحروب الفرنجية حتى أصبحت جمعية عسكرية مكرسة بالكامل للنضال ضد المسلمين. بالار، ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني في القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر، ط1، ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات، القاهرة 2003 ص131-132 وسيشار له لاحقاً ، بالار، الحملات الصليبية. عاشور، سعيد، الحركة الصليبية، ط3، ج2، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1978ص 486-488

(1) الدواداري، الدرة الزكية، ج8 ، ص107. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص420. رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ج3، ترجمة الباز العريني، ط2، دار الثقافة، بيروت 1980، ص546-547 وسيشار له لاحقاً، رنسيمان، الحروب الصليبية.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص234 . الدوادار، التحفة الملوكية، ص54. العيني، عقد الجمان، ج1، ص397.

(3) الداوية لفظ أطلقه المؤرخون المسلمون على جمعية فرسان المعبد Templiers وقد أسسها هيغ دي بينز سنة (513 هـ /1119م) لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس ،ثم تحولت مع جمعية فرسان الاسبتارية إلى هيئة حربية دينية، فكان لرؤسائها وفرسانهما شان كبير في تاريخ الأحداث الصليبية بالشام.المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص68.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص250 . الدوادار، التحفة الملوكية، ص56-58. الدواداري، الدرة الزكية، ج8 ، ص117. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص545-547. العيني، عقد الجمان، ج1، ص422.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص292. الدوادار، التحفة الملوكية، ص61-62. العيني، عقد الجمان، ج2، ص19-20.

(6) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص295-296. الدوادار، التحفة الملوكية، ص62. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص566.

واستسلمت بعدها قلعة بغراس[1] وهرب من كان فيها من الداوية[2]، ويعتبر سقوط أنطاكية وما تبعها دليلاً على انهيار البناء الذي أقامه الفرنج في بلاد الشام منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد استؤنفت خطوات استكمال توحيد الشام تحت المظلة المملوكية في عهد السلطان المنصور قلاوون إذ استطاع تحرير طرابلس وما يتبعها من قبضة الفرنج سنة (688هـ/1289م)[3]، وتمكن ابنه الأشرف خليل من تحرير عكا آخر معاقل الصليبين سنة (690هـ/1291م) في بلاد الشام[4]، وهكذا أصبحت بلاد الشام في هذه السنة كلها تحت الحكم المملوكي.

مما سبق نلاحظ أن المماليك لعبوا دوراً فاعلاً ومؤثراً في منطقة مضطربة سياسياً، فيحسب لهم أنهم طردوا المغول ووحدوا مصر والشام، ويحسب لهم كذلك طرد الفرنج، وهذا كله بفضل صفاتهم العسكرية من جهة، والظروف الداخلية والخارجية التي أحاطت بمصر والشام من جهة أخرى، ولكن كيف كانت أدوارهم داخل الدولة المملوكية؟ إن من المماليك من وصلت به الجرأة إلى حد قتل بعض السلاطين، وأول من قتل من سلاطين المماليك السلطان المظفر قطز سنة (658هـ/1260م) قتله الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، وذلك أنه وعده بإعطائه نيابة حلب ثم تراجع عن ذلك[5]، وهذا الأمير حسام الدين لاجين المنصوري

---

(1) بغراس مدينة في لحف جبل اللّكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، في البلاد المطلّة على نواحي طرسوس. مجهول، حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ص176. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص467. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص209.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص308-309. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص126-133. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص570.

(3) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص287-289. الدوادار ، التحفة الملوكية، ص120. زبدة الفكرة، ص284. العيني، عقد الجمان، ج2، ص382.

(4) الدوادار، التحفة الملوكية، ص126؛- زبدة الفكرة، ص295-299. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص308-310. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص1-2.

(5) الدواداري، الدرة الزكية، ج8 ، ص61-62. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص370-371. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص207.

الذي تولى نيابة الشام (679-690هـ/1280-1291م)[1] والذي كان السلطان الأشرف خليل قد قبض عليه ثم أعفى عنه بعد ذلك وأعطاه خبز[2] مائة فارس بديار مصر[3]، قد اتفق مع مجموعة من الأمراء وهم الأمير بدر الدين بيدرا[4] والأمير شمس الدين قراسنقر[5] وآقسنقر السلاري[6] وغيرهم على قتل السلطان الأشرف خليل بن المنصور قلاوون وهو عائد من بلاد الشام إلى مصر سنة (693هـ/1293م)[7].

وفي سنة (696هـ/1296م) حين كان السلطان العادل كتبغا خارجاً من دمشق حيث نزل باللجون[8] بالقرب من وادي فحمة في أراضي فلسطين وثب عليه مجموعة من الأمراء

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص340. ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت953 هـ/1546م) إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى بتحقيق محمد أحمد دهمان، ط2، دار الفكر، دمشق 1984، ص35 وسيشار له لاحقاً ابن طولون إعلام الورى.

(2) الخبز هو ما يحصل عليه الأمير أو الجندي من عطاء عيناً أو نقداً أو ما يكفيه ويكفي الفرسان الذين في خدمته. القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص155-156. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص127.

(3) الدواداري، الدرة الزكية، ج8 ، ص312. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص13.

(4) بدر الدين بيدرا نائب الدولة الأشرفية، لما ملك الأشرف جعله أتابكاً وكان يستشيره لرجاحة عقله ودينه، ولكنه خرج على الأشرف وقتل سنة (693 هـ /1293م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص224.

(5) شمس الدين قراسنقر من كبار المماليك المنصورية، ولي نيابة حلب ثم الشام ثم حلب وهو أحد من كان سببا في قتل الأشرف خليل، لم يزل معظماً في البلاد إلى أن توفي في مراغة بأذربيجان سنة (728 هـ /1328م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة،ج4، ص288. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص273.

(6) آقسنقر السلاري تنقل إلى أن ناب بصفد ثم بغزة ثم بمصر، وكان مشهوراً بالعفة والعدل وقام وهو نائب بغزة بأمر الناصر أحمد قياماً عظيماً واستمر في النيابة في دولة الصالح إسماعيل إلى أن قبض عليه وقتل في سنة (744 هـ /1344م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة،ج1، ص468.

(7) الدوادار، زبدة الفكرة، ص313. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص165. العيني، عقد الجمان، ج3، ص203.

(8) اللجون بلد في فلسطين، وبينه وبين طبرية عشرون ميلاً، وإلى الرملة أربعون ميلاً، وفي اللجون صخرة مدورة في وسط المدينة وعليها قبة. الاصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي (346 هـ /957م) المسالك والممالك، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 1982 ص 43 وسيشار إليه لاحقاً الاصطخري، المسالك والممالك. ابن الفقيه، أحمد بن محمد بن إسحاق

وكانوا قد اتفقوا على خلعه من الملك وتفريق حاشيته والفتك به[1]، وأبرزهم حسام الدين لاجين[2] وقراسنقر وبدر الدين بيسري[3] وقبجق المنصوري[4] ولما علم العادل أنه لا قبل له بلاجين ومن وافقه من الأمراء خاف على نفسه وكر راجعاً إلى الشام[5]، في حين استولى حسام الدين لاجين على دهليز[6] السلطان والخزائن والحراس والعساكر من غير ممانع وتسلطن ولقب الملك المنصور[7].

ومن المماليك من كان يستعمل بالمفهوم المعاصر حق اللجوء السياسي لطرف آخـر، كما حصل سنة(697هـ/1297م) حيث قام الأمير قبجق المنصوري نائب الشام ومعه

(ت365 هـ /975م) البلدان، ط1، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت 1996 ص165 وسيشار إليه لاحقاً ابن الفقيه، البلدان. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص13.

(1) الدوادار، زبدة الفكرة، ص332. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص30-31. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص193. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص63-65.

(2) حسام الدين بن عبد الله المنصوري، كان مملوكاً للمنصور قلاوون ولي نيابة السلطنة أيام العادل ولكنه خلع العادل وتسلطن وتلقب بالملك المنصور (ت698 هـ /1298م) الذهبي، العبر، ج3، ص393. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص4. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص769.

(3) الأمير بدر الدين بيسري من أعيان الدولة الموصوفين بالشجاعة قبض عليه المنصور وسجنه تسع سنين ثم أخرجه ثم قبض عليه لاجين وسجنه حتى توفي بقلعة الجبل سنة (698 هـ /1298م) الصفدي، الوافي بالوفيات ج10 ص225-226. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص6.

(4) الدواداري، الدرة الزكية، ج8 ، ص366-367. العيني، عقد الجمان، ج3، ص213. قبجق المنصوري، أصله من المغول، تولى نيابة الشام سنة (696 هـ /1296م) لجأ إلى المغول، ثم عاد وتولى نيابة حلب سنة (709 هـ /1309م)(ت710 هـ /1310م) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص68. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص271. ابن طولون، إعلام الورى، ص37.

(5) الدوادار، زبدة الفكرة، ص333. الدواداري، الدرة الزكية، ج8 ، ص367. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص193. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص63.

(6) الدهليز هي خيمة السلطان ترافقه في الحروب أو في الصيد والتنزه، ويستعمل اللفظ أحياناً لممر يقع داخل المنزل ببناء فوقه ليصل إلى فسحة المنزل. ابن منظور، لسان العرب، ج5، ص349. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص77.

(7) الدوادار، زبدة الفكرة، ص334. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص194. السيوطي، الإمام جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م)، تاريخ الخلفاء، ط1، ج1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر 1952، ص412، وسيشار إليه لاحقاً السيوطي، تاريخ الخلفاء.

مجموعة من المماليك وهم بكتمر السلاح دار[1] وفارس الدين ألبكي[2] وغيرهم باللجوء إلى غازان ملك المغول خوفاً من بطش السلطان حسام الدين لاجين فقبل غازان وفادتهم وأكرمهم وأعطى لكل أمير عشرة آلاف دينار ولكل مملوك مائة دينار، كما أقطع قبجق مدينة همذان[3] وأعمالها[4]. حتى أن قبجق حسن لغازان الاستيلاء على بلاد الشام فالملك الناصر صغير والخلاف قائم بين الأمراء والعساكر[5]، ومن المماليك من كان يشترط على السلطان بأن لا ينفرد برأي عنهم، ولا يسلط يد أحد على أحد كما حصل حين تسلطن لاجين إذ اشترط عليه أمراء المماليك أن لا ينفرد برأي عنهم ولا يسلط يد أحد من مماليكه فيهم وكان هناك جمع قد حضر هذه الشروط، وذلك بعد أن هرب الملك العادل كتبغا عند دخول لاجين إلى غزة سنة (696هـ/1296م)[6]، ولكنه حين ثبتت قدمه بالسلطنة نسي الشروط وقبض على أكابر

---

[1] بكتمر السلاح دار أحد الأمراء الكبار بالقاهرة لجأ مع قبجق إلى غازان ثم رجع وتولى حماة وحمص وحلب (ت703 هـ /1303م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص16.

[2] فارس الدين ألبكي أحد مماليك الظاهر بيبرس، اعتقل إلى أن أفرج عنه المنصور قلاوون وناب في صفد عشر سنوات، ثم تولى حمص حتى مات بها(ت702 هـ /1302م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص481. ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج8، ص204.

[3] همذان مدينة من عراق العجم من كور الجبل، لها أربعة أبواب، وهي كثيرة المياه والبساتين والزروع. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص410-415. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1464-1465. الحميري، الروض المعطار، ص596.

[4] الدوادار، زبدة الفكرة، ص340-341. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص48-49. ابن صصرى، محمد بن محمد (ت800 هـ /1397م) الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم.م. برينر. بركللي. كاليفورنيا. 1963 ص182 وسيشار له لاحقاً ابن صصرى، الدرة المضيئة. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص96-98.

[5] العيني، عقد الجمان، ج3، ص389. ابن إياس بدائع الزهور، ج1، ص174.

[6] ابن تغري بدري، النجوم الزاهرة، ج8، ص99. العيني، عقد الجمان، ج3، ص345.

خشداشيته[1]، وولى مملوكه منكوتمر[2] نيابة السلطنة[3]، وصار منكوتمر هو المتصرف في الممالك فعند ذلك نفرت قلوب الأمراء والجند منه[4]، ومن المماليك من كان يكون ائتلافاً ضد السلطان، فحين كثرت الإشاعة بتنكر السلطان الكامل شعبان سنة (747هـ/1346م) على نائب الشام يلبغا اليحياوي وأنه يريد القبض عليه، وذلك لأنه كان ينتقد تصرفات السلطان وكثرة فرضه للضرائب على الناس برغم غلاء الأسعار، نجد أن يلبغا احترز على نفسه، وخشي أن يرسل إليه السلطان جيشاً لا يستطيع مواجهته، فما كان منه إلا أن جمع أمراء الشام وحلفهم على القيام معه فحضر إليه الأمير طرنطاي البشمقدار[5] نائب حمص، والأمير أراق

(1) خشداش هو معرب من اللفظ الفارسي (خواجاتاش) أي الزميل في الخدمة، والخشداشية في اصطلاح عصر المماليك هم الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد فقامت بينهم رابطة الزمالة القديمة. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص389.

(2) منكوتمر أحد مماليك السلطان حسام الدين لاجين، وكان نافذ الأمر عنده، وسلك في النيابة مسلكاً غير عليه الخواطر، وكانت نهايته القتل مع السلطان سنة (698 هـ /1298م) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت764 هـ /1363م) أعيان العصر وأعوان النصر، ط1، ج5، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، بيروت 1998 ص455-456 وسيشار له لاحقا الصفدي، أعيان العصر.

(3) نائب السلطنة أعلى رتبة في الدولة بعد السلطان، وهو الذي يعين الأمراء وأرباب المناصب ما عدا المناصب العليا، وهو يشرف على ديوان الجيش ويسمى أحياناً "نائب الكافل "و"نائب الحضرة"أو"كافل الممالك الإسلامية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص66- 67. العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص521.

(4) الدوادار، زبدة الفكرة، ص338. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص3. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص100.

(5) طرنطاي البشمقدار الناصري باشر الحجوبية بدمشق نحو عشرين سنة متوالية ، ثم تغير عليه تنكز فعزل سنة من الحجوبية واستمر بطالا حتى ولي الطنبغا نيابة دمشق فاختص به ثم ولي نيابة حمص في نيابة الفخري بدمشق ثم نقل إلى غزة ثم ولي الحجوبية بمصر في سنة ثم نيابة حمص لم يصل إليها ثم أعيد إلى دمشق أميرا ثم أعيد إلى نيابة حمص ثم أعطى أمرة مائة في نيابة يلبغا اليحياوي مات بدمشق سنة (748 هـ /1347م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص377-378. الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص579-581.

الفتاح[1] نائب صفد، والأمير أسندمر[2] نائب حماة، والأمير بيدمر البدري[3] نائب طرابلس، واجتمعوا بظاهرة دمشق للخروج على السلطان الملك الكامل شعبان وخلعه من السلطنة وكتب يلبغا اليحياوي إلى السلطان قائلاً:(إني أحد الأوصياء عليك، وأن مما قاله السلطان (الملك الناصر) لي وللأمراء في وصيته إِذا أقمتم أحدا من أَولَادِي ولَم ترتضوا سيرته جروه بِرجلِه وأخرجوه وَأَقِيمُوا غَيره، وَأَنت أفسدت المملكة وأفقرت الْأُمَرَاء والأجناد وَقتلت أَخَاك... واشتغلت عَن الْملك والتهيت بِالنسَاء وَشرب الْخمر) وذكر له أموراً فاحشة عملها)[4]، يلاحظ من هذا الكتاب مدى الجرأة التي وصلت بالمماليك في خطاب السلطان. وهذا كتاب آخر من يلبغا عليه تواقيع أمراء الشام، يخاطبون السلطان بقولهم: (إِنَّك لَا تصلح للْملك وَأَنَّك أنما أَخَذته بالغلبة من غير رضا الْأُمَرَاء ، وَنحن مَا بَقينَا نصلح لَك وَأَنت فَمَا تصلح لنا. والمصلحة أَن تعزل نَفسك)[5]، وبعد ذلك أخذت أخطاء السلطان تتوالى وقلوب الأمراء تتغير عليه حتى

---

(1) الأمير أراق الفتّاح سيف الدين تولى قلعة صفد ثم حضر إِلَى دمشق وأقام بها أَمِيرا ثمَّ جهز إِلَى غزة نائبا ومنها رسم له بنيابة بصفد وبقي بها حتى سنة (744 هـ /1344م) حيث توجه إلى حلب أميراً فأقام هناك شهرين ثم رسم له بالعودة إلى صفد أميراً فوصل إلى دمشق ثم ورد بإقامته بدمشق أميراً فأقام بها(ت747 هـ /1346م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص216.

(2) الأمير أسندمر سيف الدين العمري، نائب السلطنة بحماة وطرابلس. باشر نيابة حماة مرات، وناب في طرابلس مرة، وكان في وجه الملك غرة. وقُبض فيما بعد، وكانت وفاته سنة (762 هـ /1360م) بمحبسه في الإسكندرية. الصفدي، أعيان العصر، ج1 ، ص537. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص446.

(3) الأمير سيف الدين بيدمر بن عبد الله البدري، ترقى حتى صار أمير مائة ومقدم ألف بالديار المصرية، ثم تولى نيابة طرابلس، ثم نيابة حلب ، فباشر نيابة حلب إلى أن طلب إلى الديار المصرية، وتوجه إليها وكثر أسف الناس عليه لهمته ونظره في مصالح الرعية. ثم أخرج إلى نيابة حلب ثانياً (ت748 هـ /1347م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص56. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص497.

(4) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص332. الذهبي، العبر، ج4، ص140. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص134.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص135-136.

خلعوه وقتلوه وسلطنوا بعده أخاه الملك المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون سنة (747هـ/1346م)[1].

ومثال آخر على ذلك سنة (753هـ/1352م) إذ ورد أن نائب حلب بيبغا ارس[2] اتفق مع الأمير أحمد الساقي[3] نائب حماة، والأمير بكلمش نائب طرابلس[4] على العصيان على الملك الصالح بن الناصر محمد علي، وأن نائب حلب بيبغا ارس تسلطن بحلب وتلقب بالملك العادل وجاءته نجدة من الأمير قراجا بن دلغادر التركماني[5]. ولكن تم القضاء على هذه الحركة من قبل العسكر المملوكية، وقبض على الثوار وصودرت أموالهم وقتلوا[6].

---

(1) الذهبي، العبر، ج4، ص140 . ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص253-254. ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج5، ص509.

(2) بيبغا أرس ظل يتولى نيابة حلب إلى أن خرج عن الطاعة سنة (753 هـ /1352م) ولكن الملك الصالح خرج إليه، ففر إلى حلب ومنعه أهلها من دخولها، وتم القبض عليه وقتله في السنة المذكورة. ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص187. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص486-488. النجوم الزاهرةج10 ص293.

(3) الأمير أحمد الساقي نائب حماة خرج مع بيبغا أرس ولكن قبض عليه وقتل في حلب وبعث رأسه إلى القاهرة سنة(754 هـ /1353م) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص284.

(4) الأمير سيف الدين بكلمش بن عبد الله الناصري، باشر نيابة طرابلس سنة (751 هـ /1349م) وكان سيئ السيرة، خرج مع بيبغا أرس وأحمد الساقي، اعتقل في حلب وقتل سنة (754 هـ /1353م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص26-27. ابن تغري بردي، المنهل الصافي،ج3، ص413-414.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص273. قراجا بن دلغادر التركماني، نائب الابلستين، هرب من الجيش المصري عندما طلبه سنة (754 هـ /1353م) فوصل إلى أرتنا صاحب الروم المعتقل أخيراً بقلعة حلب وقتل القاهرة في السنة المذكورة. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص285-286.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص283. المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص821-872-873. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص276-277-239. خرابشة، سليمان، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، منشورات الجامعة الأردنية، 1993، ص56 وسيشار له لاحقاً خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي.

وهذا نائب الشام الأمير تنبك الحسيني[1] في سنة (802هـ/1400م) بعدما بلغه أن فرج بن برقوق هو من سيكون السلطان رفض ذلك وانضم إليه كل من نائب صفد الأمير ألطنبغا العثماني الظاهري[2]، ونائب طرابلس الأمير يونس بلطا الظاهري[3]، ونائب حلب الأمير آقبغا الجمالي الظاهري[4]، ونائب حماة الأمير دمرداش المحمدي الظاهري[5]، ونائب الكرك الأمير سودون الشمسي الظاهري المعروف بالظريف[6]، معلنين عصيانهم ورفضهم للسلطان الجديد، ويبدو أن النفوذ الكبير الذي حظي به تنبك هو الذي دفع باقي أمراء النيابات

---

(1) اسمه الأصلي تنبك وغلب عليه تنم، أصله من مماليك الظاهر وبرقوق، عظم في الدولة وضخم لم ينجح في العصيان الذي قام به، قبض عليه وحبس بالقلعة أياماً إلى أن قتل سنة (802 هـ /1399م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص44.

(2) الأمير ألطنبغا بن عبد الله العثماني الظاهري، من مماليك الملك الظاهر برقوق، ناب في صفد حتى قبض عليه تيمور مع جملة من قبض عليه من النواب بالبلاد الشامية، واستمر بالأسر حتى فر وعاد إلى مصر وتولى عدة وظائف (ت821 هـ /1418م) السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص320. ابن تغري بردي، المنهل الصافي،ج3، ص52-53.

(3) يونس بلطا نائب طرابلس الذي خرج مع تنم الثائر على السلطان الناصر، ولكن قبض عليه وقتل خنقاً بعد أن استصفيت أمواله ودفن بصالحية دمشق سنة (802 هـ /1399م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص212-213.

(4) آقبغا العلاء الهدباني الظاهري برقوق الأطروش، ولي نيابة حلب ثم نيابة صفد ثم طرابلس ثم حلب عوضا عن أرغون شاه في سنة (801 هـ /1398م) تولى نيابة طرابلس ثم دمشق بعد أن قبض على تنم. توفي سنة (806 هـ /1403م) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص110. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص316.

(5) دمرداش بن عبد الله المحمدي الظاهري، تولى نيابة حماة، ثم نقل إلى نيابة طرابلس ثم استقر أخيراً في نيابة حماة، وكان ممن فروا إلى تيمورلنك ثم عاد وتنقل بين النيابات قتل في حبس الإسكندرية بأمر من السلطان المؤيد سنة (816 هـ /1413م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص79. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج5، ص316-323.

(6) سودون الظاهري برقوق ويعرف بسودون الظريف، ولي نيابة الكرك ثم تنقلت به الأحوال إلى حجوبية دمشق ثم قبض عليه شيخ وسجنه بالصبيبة ثم أفرج عنه وأعطاه إمرة بدمشق، ثم قبضه وحبسه كذلك إلى أن أفرج عنه الناصر وأنعم عليه بإمرة القاهرة ثم بعد ذلك قبض عليه وقتله سنة (824 هـ /1421م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص282. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص127-128.

للاستجابة له، إلا أن هذا الائتلاف سرعان ما انفض عن تنبك الذي قاتل حتى قبض عليه وقتل في السنة ذاتها[1]، وتكرر هذا الأمر سنة (818هـ/1415م)[2].

وهناك بعض المماليك من وصل إلى درجة عالية في الدولة مثل الأمير تنكز الأشرفي[3] الذي حصل له نفوذ واسع أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون [4] الذي كان لا يفعل شيئاً إلا برأيه وقلما كتب إلى السلطان في شيء فرده، وكل ما قرره من إمرة ونيابة وإقطاع وقضاء أو غير ذلك ترد التواقيع السلطانية بإمضاء ذلك، وكان له كاتب ليس له شغل ولا عمل إلا حساب ما يدخل خزانته من الأموال وما يستقر له، فإذا حال الحول عمل أوراقاً بما يجب صرفه من الزكاة، فيأمر بصرفه إلى ذوي الاستحقاق[5]، حتى حسده جميع الأمراء ويكفي ملاحظة ضخامة الإنعام السلطاني عليه للدلالة على مدى ما وصل إليه من نفوذ[6]، وبلغ من سعة النفوذ وعلو المكانة أنه كتب لنواب البلاد الشامية ألا يكاتبوا السلطان إلا ويكاتبوه قبل ذلك، وأن ترد مكاتباتهم للسلطان عليه بغير ختم ليقف عليها، فان أرضته بعث بها للسلطان وإلا ردها، وأضيف إليه أميري صفد وغزة[7].

---

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص119. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص171.

(2) العيني، السيف المهند، ص333-338.

(3) تنكز سيف الدين أبو سعيد الأشرفي نائب السلطنة بدمشق تولى سنة (712 هـ /1312م) لم يزل في علو وارتقاء يتضاعف إقطاعه في كل وقت وتزيد عوائد أنعامه وخيوله وما يصل إليه من باب السلطان من القماش والجوارح والتشاريف، بلغ منزلة عظيمة (ت741 هـ /1340م) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص251-255. الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص116-138. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص64-74.

(4) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص98- 102.

(5) ابن صصري، الدرة المضيئة ، ص183. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص251. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص214.

(6) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص462.

(7) المقريزي، السلوك، ج2، ق2، ص511. العملة، عبد الجبار أحمد محمد، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة النجاح الوطنية، نابلس 2000 ص108-115 وسيشار له لاحقاً العملة، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي.

حتى أن تنكز غضب على جماعة من مماليكه وضربهم وسجنهم بالكرك والشوبك، فكتب السلطان إليه ليشفع في أحد مماليكه المسجونين فلم يجب عن أمره بشيء وكتب إليه ثانياً ولم يجبه، ونشير إلى ما يدلل على سعة نفوذه، أن نائب بلاد الروم أرتنا[1] بعث إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة (741هـ/1340م) رسولاً ومعه كتاب ، ولم يكن معه كتاب لتنكز، فحنق تنكز لذلك، ورد رسوله من دمشق، فكتب نائب بلاد الروم يعرف السلطان بذلك ويطلب منه ألا يطلع تنكز على ما بينه وبين السلطان فاعتبر السلطان ذلك تدخلاً في شؤونه مما دفعه للقبض عليه وقتله[2].

وهذا نائب حلب قراسنقر المنصوري[3] سنة (741هـ/1340م) كان قد أعيا الملك الناصر محمد بن قلاوون وبعث إليه كثيراً من الفداوية[4]لقتله فصانه الله منهم بحيث قتل من الفداوية بسببه نحو مائة وأربعة وعشرين فداوياً، ولما بلغ الناصر محمد موته قال: (والله ما كنت أشتهي موته إلا من تحت سيفي) [5].

---

(1) أرتنا وقيل أرطنا سلطان بلاد الروم، كان نائباً عن السلطان أبو سعيد بن خربندا ملك التتار بجميع ممالك الروم، ودام على ذلك سنين، فلما مات أبو سعيد كاتب أرتنا السلطان الناصر محمد بن قلاوون وقال له: (أريد أن أكون نائبك بممالك الروم ، فأجابه الملك الناصر محمد وكتب له بذلك، وأرسل إليه الخلع السنية، ولم تزل رسله تتردد إلى الديار المصرية حتى وفاته سنة (753 هـ /1352م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص219. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص344-346. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص289.

(2) المقريزي، السلوك، ج2، ق2، ص509.

(3) قراسنقر ولي نيابة حلب وكان فيمن سعى في قتل الأشرف، وثم ناب عن لاجين حتى تسلطن، ثم ولي الصبية وحماة وحلب مرة أخرى، لم يزل معظماً في البلاد إلى أن توفي سنة (741 هـ /1340م) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص349. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص287-288.

(4) الفداوية هم مغتالون يستعملهم الملوك في قتل أعدائهم على البعد غدراً. ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج4، ص126.

(5) المقريزي، السلوك ،ج2، ق3، ص554 . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج9، ص326.

أما أرغون شاه الكاملي[1] الذي تولى نيابة السلطنة في صفد ثم حلب ثم الشام فقد لخص بعض المؤرخين نفوذه بقولهم:(بالغ في تحصيل المماليك والخيول وعظم حتى صار يكتب إلى مصر بكل ما يريد، وحتى فيما يخرج عن دائرة اختصاصه كحلب وطرابلس وحماة وصفد وسائر ممالك الشام في كل منهم فلا يرد له أمر)[2].

وكذلك اقتمر بن عبد الله الأتابكي[3] الذي تولى صفد وطرابلس ودمشق فلم يتمكن الملك الظاهر برقوق أن يعتلي كرسي السلطنة إلا بعد وفاته، إذ أنه كان مطاعاً في الدولة، وكان نافذ الأمر، وبلغ من الحظوة والمكانة أنه كان يجلس بجانب برقوق (لما كان أتابك) وكلمته مسموعة لديه [4].

ومن الأمراء من كان لا يرضى بالسلطان الجديد وينفرد بالحكم مثل سنجر الحلبي الذي لم يرض بسلطنة الظاهر بيبرس سنة (659هـ/1260م) وقوى أمره في دمشق وتلقب بالمجاهد وحين انهزم التجأ إلى القلعة ثم فر إلى بعلبك، وأُسر بعد ذلك في القاهرة وعفي عنه[5].

---

(1) أرغون الكاملي ولاة الناصر نيابة حلب فباشرها مباشرة حسنة، ومشى حالها بسياسة ومهابة فخافه التركمان والعرب ثم ولي نيابة دمشق في أول دولة الصالح سنة (752 هـ /1351م)، ثم تقرر في نيابة حلب ثانياً من (753هـ/1352م) إلى أن اعتقل بالإسكندرية ومات سنة (758ه/1356م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص419. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص319-320.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص327. ابن العماد ، شذرات الذهب، ج8، ص316. دهمان، محمد أحمد، ولاة دمشق في العهد المملوكي، ط2، دار الفكر، دمشق 1981، ص1981، ص197 وسيشار له لاحقاً دهمان، ولاة دمشق في العهد المملوكي.

(3) اقتمر بن عبد الله الأتابكي كان من أكابر الأمراء بمصر، ولي طرابلس ودمشق وحجوبية الحجاب بمصر ونيابة السلطنة بها، ثم ولي أتابك العساكر (ت783 هـ /1381م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص493.

(4) المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص462. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص219.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص95--96. الدوادار، زبدة الفكرة، ص84-85. ابن صصري، الدرة المضيئة، ص180، المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص444-445.

وهذا سنقر الأشقر[1] الذي عين نائباً للسلطنة في دمشق سنة (678هـ/1279م) لم يوافق على سلطنة قلاوون بل إنه انفرد بالأمر وأعلن تمرده على السلطان ونافسه بالملك، وتسلطن وتلقب بالملك الكامل[2]، واستدعى القضاة والعلماء والأعيان ورؤساء البلد إلى مسجد أبي الدرداء بالقلعة وحلفهم وحلف له بقية الأمراء والعسكر على طاعته وأرسل العساكر إلى غزة لحفظ الأطراف وأخذ الغلات[3]، وبدا سنقر من القوة ما دفع بالسلطان قلاوون أن يسير إليه جيشاً هزمه وفرق عسكره سنة (679هـ/1280م) وقبض عليه وعفي عنه [4].

وأشير هنا إلى أن السلاطين كانوا دائماً يخشون تجمع الأمراء المماليك، ففي سنة (674هـ/1275م) توجه السلطان الظاهر بيبرس إلى حصن الكرك[5] وجمع ما بها من المماليك القيمرية وهم ستمائة نفر وأجلاهم عن ديارهم إلى الديار المصرية، عندما علم أنهم يريدون قتل من في الحصن ويقيموا ملكاً عليهم [6].

ومن المماليك من كان جريئاً على السلطان فحين استولى الأمير منطاش الأشرفي[7] على الحكم في مصر سنة (791هـ/1388م) بعد أن نفي برقوق إلى الكرك وتقلد الأمير حاجي بن

---

(1) سنقر الأشقر كان معظما عند الملك الظاهر دخل دمشق واليا سنة (677 هـ /1278م) وعصى الملك المنصور ولقب نفسه الكامل (ت691 هـ /1291م) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص27. ابن طولون، إعلام الورى، ص34-35.

(2) الدوادار، زبدة الفكرة، ص182. ابن صصري، الدرة المضيئة، ص181. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص674.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص16-17. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص52.

(4) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص235-236. الدوادار، زبدة الفكرة، ص185-189.

(5) الكرك اسم لقلعة حصينة جداً في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها بين أيلة وبحر القلزم وبيت المقدس وهي على سن جبل عال تحيط بها أودية إلا من جهة الربض. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص453. الحميري، الروض المعطار، ص202-203.

(6) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت684 هـ /1285م) تاريخ الملك الظاهر، باعتناء أحمد حطيط، فرانز شتاينر بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت 1983 ص135-136 وسيشار له لاحقاً ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص316.

(7) منطاش الأشرفي ولاه الظاهر برقوق نيابة ملطية سنة (788 هـ /1386م) فجمع كثيراً من التركمان وأظهر العصيان وانضم إليه الأشرفية، وظل يحارب برقوق إلى أن قبض عليه وقتل وطيف برأسه بالقاهرة سنة (795 هـ /1392م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج6، ص129-130.

الأشرف شعبان للمرة الثانية، غضب الأمير بزلار العمري[1] نائب الشام لأن ميله كان مع يلبغا الذي سجنه منطاش الأشرفي في الإسكندرية، فأضمر منطاش له السوء، وطلب منه أن يحضر إلى القاهرة في ثلاثة سروج، فكان جواب الأمير بزلار: (لا أحضر إلا في ثلاثين ألف سرج وتعالى وبالغ في الجواب)[2]، وأحياناً كانت مصالح بعض الأمراء المماليك تتعارض فيما بينهم، مما قد يؤدي إلى التنافر والبغضاء، فالأمير أسندمر الكرجي[3] الذي كان يتولى نيابة طرابلس سنة (698هـ/1298م) وكان مقرباً من السلطان حسام الدين لاجين وله الأمر والنهي، ظل يسعى عند السلطان ضد منكوتمر عبد الغني الأشرفي[4] والأمير طغجي[5] إلى أن اخرجا من الشام[6]، ويبدو أن السبب في ذلك على ما تذكر المصادر أن السلطان حسام الدين لاجين كان يثق بمنكوتمر ويعتمد عليه في سائر أموره، ولكن الأخير اغتر بنفسه فساءت

---

(1) بزلار العمري من مماليك الناصر حسن، ولي نيابة دمشق كان شجاعاً فطنا مشاركاً مات بقلعة دمشق مسجوناً سنة (791 هـ /1388م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص8. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص361-364.

(2) ابن قاضي شهبه، تقي الدين بن أحمد (ت851 هـ /1447م) تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، تحقيق عنان درويش، دمشق 1977، ص275 وسيشار له لاحقاً ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه. الصيرفي، علي بن داوود (ت900هـ/1494م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، ج1، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، مصر 1970، ص248 وسيشار له لاحقاً الصيرفي، نزهة النفوس.

(3) أسندمر ويقال له كرجي ولي نيابة طرابلس وحماة وحلب (ت721 هـ /1321م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص462.

(4) منكوتمر عبد الغني الأشرفي كان دوادار الأشرف شعبان، استقر أمير طبلخانه ثم أعطي تقدمة ألف بعد ذلك إلى أن مات سنة (772 هـ /1370م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج6، ص132.

(5) طغجي مملوك الأشرف خليل بن قلاوون، عمل في نيابة السلطنة بالديار المصرية (ت698 هـ /1298م) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص382. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص259-260. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص138.

(6) العيني، عقد الجمان، ج3، ص438.

أخلاقه ونفرت منه النفوس[1]، ومن الأشياء التي نفرت الخاصة والعامة منه هو عمل الروك[2]، إذ نتج عن الروك نقص أخباز الجند، ويضاف لذلك أنه كان يفرق المثالات[3] عابس الوجه[4].

وفي سنة (762هـ/1360م) أعلن بيدمر الخوارزمي[5] نائب الشام مع مماليك آخرين أنهم راضون بالسلطان المظفر حاجي كارهون لنائب السلطنة يلبغا وأنهم لا يريدون ولا يوافقون على تصرفه في المملكة، وسبب ذلك أنه أقدم على قتل السلطان المخلوع الناصر حسن أبو المعالي بغير حق، وشهد عليهم القضاة بذلك وخرج معه الأمير منجك اليوسفي وانضم إليهم نائب طرابلس الأمير أسندمر سيف الدين العمري كذلك[6]، ولم يحصل قتال هذه المرة إذ تدخل قضاة الشام وأصلحوا بين الطرفين[7].

وكانت الخلافات وتعارض المصالح بين بعض الأمراء المماليك ترتقي إلى النزاعات التي تأخذ أشكالاً متعددة مثل الضرب، ففي سنة (790هـ/1388م)

---

(1) العيني، عقد الجمان، ج3، ص437.

(2) الروك كلمة قبطية أصلها (روش) وهو الحبل، وتعني مسح وقياس الأرض الزراعية، وحصرها في سجلات وتقدير درجة خصوبتها لتقدير الخراج عليها، وهى العملية التي أطلق عليها لاحقاً فك الزمام. المقريزي، الخطط، ج1، ص165-166. السلوك، ج1، ق2، ص146 (هامش). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص42.

(3) المثال وثيقة رسمية تصدر من ديوان الخراج إلى كل جندي أو مملوك مبيناً بها مقدار ما خصه بالفدان من الأرض الزراعية التي يستغلها وحدودها واسم الإقليم والقرية. المقريزي، الخطط، ج3، ص378. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص91.

(4) العيني، عقد الجمان، ج3، ص438.

(5) بيدمر الخوارزمي ولي نيابة حلب ثم نيابة دمشق في أواخر دولة الناصر، خرج على السلطان ولكن تم القبض عليه وقتله سنة (784 هـ /1382م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص56-57 .

(6) الحسيني، محمد بن علي بن الحسين (ت765 هـ /1364م) ذيول العبر، ط1، ج4، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت 1985 ص189 وسيشار له لاحقاً الحسيني، ذيول العبر. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص264. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص56.

(7) الحسيني، ذيول العبر، ج4، ص191.

تضارب نائب الشام الأمير ألطنبغا الجوباني[1] وحاجب الحجاب[2] طرنطاي[3] وكان السبب على ما يذكر ابن حجر العسقلاني أن ألطنبغا الجوباني كان يدبر مؤامرة ضد السلطان فكشفه حاجب الحجاب[4].

وحادثة مشابهة سنة (871هـ/1466م) بين كاتب السر[5] بدمشق وهو قطب الدين الخيضري الشافعي ونائب قلعتها برهان الدين إبراهيم بن السيد محمد إذ حصلت مشادة كلامية في بعض الطرقات تطورت إلى أن ضرب كل منهما الآخر[6]، وأحياناً كانت النزاعات تتجاوز ما هو شخصي وتتعدى إلى حروب بين النيابات الشامية مثلما حدث سنة

---

(1) الأمير ألطنبغا بن عبد الله الجوباني، تولى أمير مجلس في القاهرة ثم ناب في الكرك ثم في دمشق، حبس في الإسكندرية ، ثم أفرج عنه ، قاتل مع يلبغا ضد منطاش في الفتنة المشهورة بينهما، وقتل في هذه الفتنة سنة (792 هـ /1389م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص397-399. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص57-60.

(2) حاجب الحجاب ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بأمير حاجب ومن شأنه الجلوس بدار العدل، وإذا خرج النائب عن دمشق في مهمّ أو غيره، كان هو نائب الغيبة عنه، وإذا برز مرسوم السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن أو غيره. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص192. البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983 ص97 وسيشار له لاحقاً البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى.

(3) طرنطاي الحاجب ، ترقى إلى أن ولي الحجوبية الكبرى بدمشق ثم ولاه الظاهر برقوق نيابة دمشق فلما كانت فتنة الناصري وجهز الظاهر العسكر من مصر خرج معهم طرنطاي وقاتل حتى قتل سنة (792 هـ /1389م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص378-379. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص383-385.

(4) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص348.

(5) كاتب السر صاحب ديوان الإنشاء هو الذي يتلقى المكاتبات الواردة ويقرؤها على السلطان ويجيب عنها القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص149.

(6) البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت905 هـ /1500م) تاريخ البصروي، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك، تحقيق أكرم العلبي، ط1، دار المأمون للتراث 1988، ص25، وسيشار له لاحقاً البصروي تاريخ البصروي.

(804هـ/1401م) بين نائب غزة الأمير صروق والأمير جركس المصارع[1] نائب الكرك[2]، وفي سنة (808هـ/1405م) بين دمرداش[3] نائب طرابلس الذي دخل حلب عنوة واستلم نيابتها من جكم[4]، وحادثة أخرى شبيهة حصلت سنة (900هـ/1494م) بين نائب القدس الأمير جان بلاط[5] ونائب غزة الأمير قاني بك[6].

لقد كان السلاطين يدركون تماماً مقدار ما وصل إليه بعض المماليك من نفوذ فيلجأون إلى القتل أو التفريق كما عمل السلطان الظاهر بيبرس مع المماليك القيمرية سنة (674هـ/1275م) حيث أجلاهم من الكرك إلى مصر[7] وأحياناً كان السلاطين يشكلون ائتلافاً

---

(1) جركس سيف الدين القاسمي برقوق المصارع. ولي نيابة حلب للناصر ولم يقم بها إلا مدة ، وهو أخو الأمير جقمق الذي ولي أتابكية العساكر بعد ذلك ثم تسلطن قتل في سنة (810 هـ /1407م) بناحية بعلبك. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص390. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص67.

(2) المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص1082.

(3) دمرداش الظاهري تولى نيابة طرابلس ثم حلب ثم حماة ، وهو الذي سلم قلعة حماة لتيمورلنك، كان معظما للعلماء كريماً، قتل في الإسكندرية سنة (818 هـ /1415م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص219.

(4) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص111. جكم أبو الفرج الظاهري برقوق، لقب نفسه بالعادل، وصرح بخلع الناصر توجه سنة (809 هـ /1406م) لقتال قرايلوك ولكنه قتل في السنة ذاتها. السخاوي الضوء اللامع، ج3، ص76.

(5) جان بلاط، اشتراه يشبك الدوادار، وقدمه للأشرف قايتباي بعد طلبه له فجعله خاصكياً وقربه إليه، تولى حلب ثم الشام ووصل للسلطة سنة (905 هـ /1499م)، ولكنه لم يمكث طويلاً إذ قتله طوقان سنة (906 هـ /1500م). الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت1061 هـ /1651م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ط1،ج1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ص172-174 وسيشار له لاحقاً الغزي، الكواكب السائرة.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص374-375. الأمير قاني بك تولى نيابة غزة سنة (899 هـ /1493م) خلفاً للأمير أقباي، وفي سنة (900 هـ /1494م) فصلت الرملة عن غزة وأضيفت إلى نائب القدس، عزل قاني بك سنة (901 هـ /1495م). العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص369. ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت953 هـ /1546م) مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام، تحقيق محمد مصطفى، ج1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962، ص155 وسيشار له لاحقاً ابن طولون، مفاكهة الخلان. عطا الله ، محمود علي، نيابة غزة في العهد المملوكي، ط1، دار الآفاق، بيروت 1986 ص311 وسيشار له لاحقاً عطا الله، نيابة غزة.

(7) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص135-136. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص316.

لتقوية مركز السلطنة مثل الملك الناصر محمد بن قلاوون حين عاد للسلطنة للمرة الثالثة سنة (709هـ/1309م) أرسل مكاتبة إلى أمراء الشام وهم نائب حلب الأمير شمس الدين قراسنقر، والأمير سيف الدين أسندمر نائب طرابلس، والأمير سيف الدين بكتمر المعروف بأمير جاندار[1] نائب صفد، والأمير سيف الدين قبجق نائب حماة يستنجدهم ليشدوا أزره وتم له ما أراد واستلم السلطنة للمرة الثالثة[2].

إذن نجد أن أدوار المماليك كانت تتباين بين معارضة حكم سلطان، وإنزاله عن عرشه، أو انفراد واستقلال بنيابة من النيابات في البلاد المصرية أو الشامية، أو لجوء سياسي، أو تكوين ائتلاف يضم مجموعة من الأمراء أو غير ذلك مثل الخلافات الشخصية وتضارب الأمراء، مما كان له أسوأ الأثر على أحوال الدولة وأحوال الناس.

ب ـ نفوذ المماليك الاقتصادي

مثلما أن المماليك ظهروا كقوة فاعلة في المجال السياسي في الدولة المملوكية فإن هذا كان يستلزم أحياناً نفوذاً في المجال الاقتصادي، فمن يأخذ السلاطين كنموذج فإنه سيجد أن حياتهم كانت مترفة باذخة ويشهد بذلك ما بناه السلاطين من أبنية وعمائر ذات زخرفة

---

(1) بكتمر أمير جاندار المنصوري ولي إمرة الحج وكان من أهل الحل والعقد في أيام نيابة سلار والجاشنكير. ثم ولي غزة فالصبيبة ثم صفد، كان ممن عاون السلطان الناصر ولكن قبض عليه وسجن سنة (711 هـ /1311م) وظل مسجوناً حتى وفاته سنة (716 هـ /1316م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص20-21.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص56-57. الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص174-175. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص249-250. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص188.

وروعة، وكذلك جيوشهم الجرارة وما كانت تنعم به من ملبس ومأكل وعدة، مع العلم أن ثروة البلاد في جملتها كانت ذخيرة ضخمة[1].

ويكفي أن يقف أي باحث على وصف القصور والقلاع، فمثلاً عرفت قلعة الجبل بقصورها الفخمة وسقوفها الذهبية، وطرقها المغطاة بالرخام الثمين والبيوت المزخرفة بالزجاج القبرصي الملون وما هنالك من اصطبلات شريفة ضمت الخيول السلطانية وساحات الأغنام والطيور والحيوانات الغريبة إلى غير ذلك من مظاهر الترف والثراء استلزمت من سلاطين المماليك صرف الأموال الطائلة على هذا البذخ عن طيب خاطر[2].

فالسلطان كان يسمى إقطاعه (الخاص السلطاني) ويختار من الأراضي الأكثر جودة وخصوبة ومن المكوس أربحها كما حصل على دخل آخر من أقطاعات كان يشتريها من ماله الخاص إما من صاحب إقطاع آخر أو من بيت المال، وكانت هذه مصادر دخل غير مشروعة، وهذه الاقطاعات التي كان يشتريها من ماله الخاص لم تكن تنتقل بزوال السلطان الجديد وزوال سلطنته إنما كانت تبقى بيد مشتريها حياً[3].

ونتيجة لمصادر الدخل هذه ومردوداتها الضخمة، فقد زادت نفقات السلاطين حتى ظهر ما يعرف بالبيوت السلطانية، وصار لهذه البيوت ديوان خاص وهو ديوان البيوت السلطانية، فمثلاً بيت الحوائج خانة تولى الصرف على ما تحتاجه الأسمطة، وكذلك المقرات

---

(1) المقريزي، الخطط، ج2، ص384. سليم ، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، ج3، مكتبة الآداب، القاهرة 1965 ص292 وسيشار له لاحقاً سليم، عصر سلاطين المماليك.

(2) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص103-104. الشلبي، فيصل، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية، ط1، دار الزمان دمشق 2008، ص160 وسيشار له لاحقاً الشلبي، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية.

(3) طرخان، إبراهيم، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة 1968 ص145-146 وسيشار له لاحقاً طرخان، النظم الإقطاعية.

اليومية لأصحاب الرواتب الوافدين ثم توزيع الأضحيات على الأمراء والمماليك والمباشرين[1]، كما وجد بيت الشرابخانه[2] حيث توضع الأشربة والسكر والحلوى والعقاقير والفواكه[3] والمشرف على هذا البيت يسمى الشرابدار[4].

وبيت الطشتخانه[5] حيث الأقمشة والملابس وآلات لغسل الثياب[6] والمسؤول عن هذا البيت هو الطشتدار[7]، والركابخانه[8] وفيها آلات الخيل وهي قطع كثيرة مختلفة الأسماء والألوان[9] وعاملها المهتار[10] والركبداريه[11].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص12.

(2) الشرابخانه ومعناه بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان، والمشروب الخاص من السكر والأقسما وغير ذلك. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص9.

(3) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص105 .

(4) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771 هـ /1369م) معيد النعم ومبيد النقم، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1986، ص106 وسيشار له لاحقاً السبكي، معيد النعم. الشرابدار يطلق لقب على الذي يتصدى للخدمة بالشرابخانة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص440.

(5) الطّشتخانه ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأنّ فيها يكون الطّشت الذي تغسل فيه الأيدي ويغسل فيه القماش. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص9.

(6) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص105.

(7) السبكي، معيد النعم، ص107.

(8) الرّكابخانه ومعناها بيت الركاب، وتشتمل على عدد الخيل من السروج، واللجم، والكنابيش، وعبي المراكيب، والعبي الإصطبليات، والأجلال وغير ذلك. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص11-12.

(9) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص105.

(10) المهتار وهو لقب أطلق على كبير كلّ طائفة من غلمان البيوت، كمهتار الشّرابخانه، ومهتار الطّشتخانه، ومهتار الرّكابخانه. ومه بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير، وتار بمعنى أفعل التفضيل، فيكون معنى المهتار الأكبر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص441.

(11) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص441. المهتار وهو لقب أطلق على كبير كلّ طائفة من غلمان البيوت، كمهتار الشّرابخانه، ومهتار الطّشتخانه، ومهتار الرّكابخانه. ومه بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير، وتار بمعنى أفعل التفضيل، فيكون معنى المهتار الأكبر. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص441.

والفراشخانه[1] وفيها الخيم والبسط والأسمطة والقناديل وأدوات الكنس[2] والمسؤول عنه يسمى الفراش[3]، والشكار خانة وتتعلق بالطيور وخاصة الجوارح والطيور التي تصلح للصيد[4] وصاحبها يسمى أميرشكار[5] أما مراكيب السلطان فكانت من الخيل من المسومة غالية الأثمان وكانوا يزينونها بعبي ملونة من الصوف الفائق أو الحرير وكانوا يستبدلونها أحيانا بالكنابيش[6] المزركشة[7] وكانت لجم خيولهم مسقطة بالفضة[8].

وهناك نفقات أخرى للسلاطين قسم منها يذهب لإصلاح ما يمتلكونه من منازل ومتاجر ومطاحن والقيساريات والقرى والمزارع والأفران والحمامات والخانات والاصطبلات والمستودعات ومخازن القمح والأسواق والمعامل[9]، وقسم آخر يذهب تحت ما يسمى بالخلع والتشاريف[10] وتوزع على أرباب الدولة من أمراء نيابات وأرباب السيوف وأرباب الأقلام

---

(1) الفراشخانه ومعناها بيت الفراش، وتشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص10.

(2) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص125.

(3) السبكي، معيد النعم، ص106.

(4) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص106.

(5) السبكي، معيد النعم، ص36. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص23.

(6) الكنابيش مفردها الكنبوش وهو البرذعة التي تجعل تحت سرج الفرس. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص12.

(7) زركش أي طرز الثوب من حواشيه بخيوط الذهب، وزركش الثوب أي زخرفه. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص86.

(8) القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص143-144.

(9) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص33. الشلبي، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية، ص162.

(10) التشاريف هي الإنعامات من الملابس التي ينعم بها السلطان على الأمراء، وكل تشريف بحسب المناسبة. النويري، نهاية الأرب، ج31، ص65. عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، الجامعة، الأردنية، عمان 1998ص385 وسيشار له لاحقاً عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك.

والقضاة والعلماء وأمراء العربان وهي تتضمن كسوة وخيول وسيوف ومجوهرات وأموال نقدية وأطعمة يومية[1].

أما الأمراء فقد أثروا ثراءً فاحشاً حتى أن ثراء أمير واحد منهم كان يعادل ثراء جميع العاملين في مدينة صغيرة فيما كان العامل أو الموظف الصغير يستطيع أن يجني درهمين في اليوم كان دخل الأمراء في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي يبلغ نصف مليون درهم أو مليوناً من الدراهم سنوياً[2].

فحين توفي الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الصالحي النجمي سنة (667هـ/1268م)[3] يذكر بعض المؤرخين أنه كان صاحب أموال ومتاجر كثيرة وأملاك وافرة، ويقصر الوصف عما خلفه من الأموال والخيول والجمال والبغال والعدد[4].

وفي سنة (704هـ/1304م) حين حصل للناس شدة عظيمة وسميت تلك السنة (راعم)[5] بمعنى سنة الهزال بلغ الأمر بالأمير بسيف الدين سلار[6] ومعه بقية الأمراء فجهزوا

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص52-55. المقريزي، الخطط، ج3، ص395-397.

(2) لابيدوس، إيرا، مدن بلاد الشام في العصر المملوكي، ترجمة علي ماضي، ط2، الأهلية للنشر، بيروت 1987 ص91 وسيشار له لاحقاً لابيدوس، مدن بلاد الشام في العصر المملوكي.

(3) عز الدين أيدمر بن عبد الله الحلي الصالحي، كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند الملوك، ثم عند الملك الظاهر بيبرس، وكان يستنيبه إذا غاب (ت667 هـ /1268م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص413. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص5. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص170-171.

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص413. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص227.

(5) نسبةً إلى الرعام أي الهزال ويقال أرعمت الشاة بمعنى هزلت فسال رعامها، والرعام هو داء يأخذها في أنفها فيسيل منه شيء فيقال له الرعام. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت170هـ/786م) العين، ج2، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال 1992، ص138 وسيشار إليه لاحقاً الفراهيدي، العين. ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص245.

(6) الأمير سلار سيف الدين المنصوري ، ناب في الكرك ولما تملك الجاشنكير استمر في النيابة، وحين عاد السلطان الناصر محمد أعطاه الشوبك، فتوجه إليها هو وجماعته، وتشاغل السلطان عنه، ونزح سلار

للحجاج الإقامات[1] والجمال بالأحمال واستقبلوا الحاج بالشعير إلى قريب ينبع[2] بجمال العرب[3]، ويذكر العيني عن هذا الأمير سلار في سنة (704هـ/1304م) أنه أقام ثلاث سنين يعمل جهاز بنته من سائر الأصناف وعمل من كل شيء حتى عمل برسم بيت الخلاء من الفضة والنحاس المكفت[4]، بينما يذكر المقريزي في السلوك خبراً أبلغ من ذلك يدل على ثروة هذا الأمير الطائلة، إذ أنه في سنة (708هـ/1308م) أنفق من ماله الخاص على الجيش الذاهب إلى حلب لصد المغول، فقد تبرع بأربعة آلاف غرارة[5] من القمح وثمانين ألف درهم[6]، وقد عثر عنده بعد وفاته على ألفي حياصة ذهب مجوهرة بالفصوص، وألفي قلادة

عن الشوبك ودخل البرية، وطلب الأمان، فأجابه السلطان إلى ذلك، ثم دخل القاهرة بعد ذلك ، فاعتقله السلطان حتى مات جوعاً سنة (710 هـ /1310م) الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص86-87. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص329-332. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص5-13.

(1) الإقامات مفردها إقامة، وهي ما يلزم الجند من المؤونة والعلف وغيرها، وربما قصد بها ما ينزل فيها المسافر من الخيام ولوازمها وما يتبعها من أمتعة السفر. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص317.

(2) ينبع قرية كبيرة غناء على بعد ليلة من رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر، ورضوى من المدينة على سبع مراحل. الحازمي، أبو بكر محمد بن موسى (ت584 هـ /1188م) الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، السعودية 1995 ص932 وسيشار له لاحقاً الحازمي، الأماكن. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص449-450. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1485.

(3) العيني، عقد الجمان، ج4، ص366-367.

(4) العيني، عقد الجمان، ج4، ص358. التكفيت مأخوذة من الكلمة الفارسية " كفت " بمعنى الدق، وهو حفر الرسوم والزخارف على سطوح المعادن المراد زخرفتها حفراً عميقاً عريضاً، ثم تملأ هذه الزخارف بمادة أغلى ثمناً من المادة الأصلية. ماهر، سعادة، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987 ص124 وسيشار له لاحقاً ماهر، الفنون الإسلامية.

(5) الغرارة، مكيال دمشقي، للحنطة وهي تتألف من 12 كيلاً أو 72 مداً دمشقياً، وقيل إن الغرارة الواحدة مع مد ونصف تساوي ثلاثة أرداب مصرية تقريباً حوالي 24.5 كغم قمح. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص181، هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية، 1970، ص64 وسيشار له لاحقاً هنتس، المكاييل والأوزان.

(6) المقريزي، السلوك، ج3، ق1، ص55-56.

من الذهب كل قلادة تساوي مائة دينار[1]، كما وجد عنده أقبية حرير ثلاثمائة قباء[2]، وكان من ممتلكاته أربعمائة قباء من الحرير الملون بفرو السنجاب[3].

أما تنكز نائب السلطنة في دمشق فإن الأرقام الواردة عن ثروته هي التي ستجعل القارئ يدرك مدى ثرائه وكثرة أمواله، فقد كانت قيمة أملاكه كما يلي: 1,394.000 ديناراً من الذهب العين و 2.571.000 درهم[4]، وكان يتقاضى من أجرة أملاكه ألف دينار كل يوم[5]، ووجد عنده من الجواهر ياقوت أحمر وبهرمان[6] رطلان ونصف، وزمرد ريحاني وذبابي تسعة عشر رطلاً وستة صناديق فيها فصوص وجواهر ووجد عنده رطلان من الفصوص المختلفة، وأربعة قناطير مصاغ، وعقود وذهب مصري وطشوت وطاسات من الفضة تزن ستة قناطير، وكان عنده من الملابس ثلاثمائة قباء بفرو قاقم[7]، وأربعمائة قباء

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص17-18.

(2) القباء هو ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، دار الدعوة، اسطنبول 1989 ص713 وسيشار له لاحقاً مصطفى، المعجم الوسيط.

(3) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص436. السنجاب حيوان أكبر من الفأر وشعره في غاية النعومة يتخذ من جلده الفراء يلبسه المتنعمون. وهو شديد الحيل إذا أبصر الإنسان صعد الشجرة العالية وفيها يأوي ومنها يأكل. وهو كثير ببلاد الصقالبة والترك. النويري، نهاية الأرب، ج9، ص278. شيخو، رزق الله بن يوسف (ت1346 هـ /1927م) مجاني الأدب في حدائق العرب، ج2، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1913 ص285 وسيشار له لاحقاً شيخو، مجاني الأدب في حدائق العرب.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص21-22.

(5) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص183. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص20، دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك. ص176 ويورد المؤلف قائمة بعقارات تنكز وأمواله في دمشق وحماة وبيروت والبقاع وقارة، ص177.

(6) البهرمان نوع من الياقوت لونه كلون العصفر الشديد الحمرة الناصع في القوّة الذي لا يشوب حمرته شائبة، ويسمّى: الرّمّانيّ لمشابهته حبّ الرّمان، وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمناً. القلقشندي، صبح الأعشى، ج2، ص108.

(7) القاقم حيوان صغير يشبه السنجاب وله فرو ثمين. الأبشيهي، محمد بن أحمد بن منصور (ت852 هـ /1448م) المستطرف في كل فن مستظرف، ط1، عالم الكتب، بيروت 1999 ص369 وسيشار له لاحقاً الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف.

حرير ملون بفرو سنجاب[1]، وألف تفصيلة طرد وحش وثلاثمائة خلعة ملونة وستة عشر خيمة سفر، ومن المواشي ثلاثمائة فرس، ومائة وعشرون قطار بغال، ومائة وعشرون قطار جمال، عدا ما وجد له من الأغنام والأبقار والجواميس[2]، وحفروا في بيته فوجدوا أكثر من حمل خمسين بغلاً من الذهب والفضة، وأُخرج من مكان آخر في بيته سبع وعشرون خابية مملوءة ذهباً[3].

وهذا الأمير قصروه[4] نائب الشام قد بلغت تركته 600,000 دينار[5]، وقام الأمراء ببناء بيوت على غرار بيوت بعض السلاطين إلا إنها اقل شأناً ورتب أصحابها أدنى[6]، واحتوت بعض قصور الأمراء على أواني تم نقش أسماء الأمراء عليها فقد وجد في قصر الأمير آقوش الأشرفي[7] نائب الكرك بعض الأواني التي تحمل اسمه[8].

---

(1) السنجاب حيوان بحجم اليربوع، أكبر من الفأر، وشعره في غاية النعومة، يتخذ من جلده الفراء، يلبسه المتنعمون. الدميري، محمد بن موسى بن عيسى (ت808 هـ /1405م) حياة الحيوان الكبرى، ط2، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت 2004 ص47 وسيشار له لاحقاً الدميري، حياة الحيوان الكبرى.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص21-23.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج9، ص18-23. العملة، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي، ص108-115.

(4) قصروه، تولى نيابة طرابلس ثم نقل إلى حلب ثم ناب في دمشق كان من أقبح الناس سيرة وأجمعهم لمال الحرام (ت839 هـ /1435م) المقريزي، السلوك، ج4، ق2، ص765. السخاوي، الضوء اللامع ، ج6، ص222.

(5) المقريزي، السلوك، ج4، ق2، ص984. ابن إياس، بدائع الزهور، ج2، ص165. ضومط، أنطوان خليل ، الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، ط1، دار الحداثة، بيروت 1980 ص73 وسيشار له لاحقاً المملوكية.

(6) ضومط، الدولة المملوكية، ص73.

(7) آقوش الأشرفي من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون، ترقى إلى أن صار من جملة أمراء الديار المصرية، ثم ولي نيابة الكرك، ثم نقل إلى نيابة دمشق وكان أميراً عارفاً ذا رأي وتدبير وعظمة، وثروة زائدة، غير أنه كان ظالماً، قبض عليه وسجن بالإسكندرية حتى مات بها سنة (737 هـ /1336م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9، ص195-197. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص470-471. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص112.

(8) غوانمة، يوسف، تاريخ شرق الأردن في عصر دولة المماليك الأولى (القسم الحضاري)، ج2، وزارة الثقافة، عمان 1979 ص101 وسيشار له لاحقاً غوانمة، تاريخ شرق الأردن.

وكان من ملكية الأمير جلباي بن عبد الله المؤيدي (ت859 هـ/1454م) [1] نائب طرابلس قرى علما، وكفرفو وبعيزق وبينو والحصين، وقد اشتراها الأمير المذكور من بيت المال بموجب كتاب بيع شرعي[2].

ولكن ما مصدر هذه الثروة؟

إن الإقطاع هو أول وأبرز هذه المصادر وهو يمنح الإقطاع بدل التزام الأمراء بمهام مثل المحافظة على الأمن في الداخل والذود عن الحدود في الخارج[3].

وقد استمر الإقطاع في بلاد الشام في العصر المملوكي، وكان الأمراء يتفاوتون في مقدار الاقطاعات[4]، فقد كانت مدينة الخليل تُعطى كإقطاع لنائب الكرك، إذ أنه في سنة (661هـ/1263م) منح السلطان الظاهر بيبرس الأمير عز الدين أيدمر بن عبد الله الصالحي النجمي بلد الخليل إقطاعاً له، ثم انتزعه منه ومنحه لنائب الكرك الجديد الأمير علاء الدين أيدكين الفخري[5]، وأحياناً كان السلاطين يبالغون في منح الاقطاعات حرصاً منهم على كسب

---

(1) جلبان المؤيدي من مماليك تنبك أمير آخور الظاهري تولى نيابة حماة ثم طرابلس، ثم نقله الظاهر إلى نيابة حلب بعد عصيان تغري برمش التركماني ثم إلى دمشق بعد موت أقبغا التمرازي وحمل إليه التقليد والتشريف دولات باي المحمودي المؤيدي كان عاقلاً سيوساً عارفا بمداراة الملوك مجربا للوقائع والحروب (ت859 هـ /1454م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص77-78.

(2) تدمري، عمر عبد السلام، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ط1، ج2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981 ص264 وسيشار له لاحقاً تدمري، تاريخ طرابلس. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص156.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص430. ضومط، الدولة المملوكية، ص118.

(4) العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص430. عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص4.

(5) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1285م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ج3، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، 1953 ص242. وسيشار له لاحقا ابن شداد، الأعلاق الخطيرة. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص63. الأمير علاء الدين أيدكين الشهابي أحد أمراء دمشق وصاحب الخانقاه الشهابية وهو منسوب إلى شهاب الدين رشيد الصالحي الخادم وقد ولي نيابة حلب مدة

قلوب البعض أوسد باب الفتنة أحياناً وأحياناً من قبيل المكافأة بعد نصر أو فتح، فبعد أن أتـم السلطان الظاهر بيبرس فتح صفد سنة (664هـ/1266م) أقطع أمراءه وأجنادهم الأراضـي المحيطة بها، وقد كانت قيمة هذا الإقطاع تقدر بنحو 80 ألف درهم(1)، وبعد فتح كسروان سنة (705هـ/1305م) أقطع السلطان الناصر محمد بن قلاوون أراضيها إلى عدة أمـراء مـن دمشق وبعلبك ليقوموا بحراسة المنطقة والمحافظة على الأمن(2)، وبعد الحملة علـى أرمينيـا سنة (738هـ/1337م) أقطع السلطان المـذكور آنفـاً للأميـرين عـلاء الـدين ألطنبغـا (ت744هـ/1343م) (3) نائب حلب، وللأمير تنكز نائب دمشق وغيرهم من الأمراء إقطاعات واسعة(4)، وهذا الأمير سلار سيف الدين الصالحي زاد السلطان الناصر محمد بن قـلاوون على إقطاعه سنة (709هـ/1309م) مناطق في الكرك إضافة إلى ما بيده من الشوبك(5)، مع العلم أن إقطاعات الشام هي ثلثي الإقطاع في مصر، ما عدا نائب الشام فان إقطاعـه يماثـل إقطاع أمراء مصر(6).

ومات بدمشق سنة (677هـ/1278م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج9، ص275. ابن تغـري بـردي، المنهل الصافي، ج3، ص152-153.

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص139. الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليـك، ط1، دار الآفاق، بيروت 1982ص153 وسيشار له لاحقاً الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك.

(2) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص16. طرخان، النظم الإقطاعية، ص197. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص153.

(3) ألطنبغا الأمير علاء الدين الحاجب الناصري تولى نيابة حلب ثم نيابة غزة وبعد أن قبض على تنكز رسم له بنيابة دمشق، وكان قد بنى في نيابة حلب جامعاً حسناً (ت744هـ/1343م) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص600-604؛- الوافي بالوفيات، ج9، ص208-210.

(4) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص280. طرخان، النظم الإقطاعية، ص73.

(5) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص83.

(6) العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص430.

وقد اتجه المماليك إلى توزيع الإقطاعات في أماكن عدة لا في مكان واحد، ويظهر أن هذا الإجراء جاء كخطوة لمنع التوريث، ولتأكيد صفة الإقطاعات بأنها إقطاعات خدمة وليست أملاكاً[1]، فذكر الصفدي مجموعة من إقطاعات الأمير بهادر آص (ت730هـ/1329م) [2] وهي (من دمشق نهر قلوط بكماله من حمص النهر بكماله وأرض المزارات من الجولان قرية سملين وقرية حلين بكمالهما من البقاع ثلث كفر رند) [3]، وقد أقطع السلطان المنصور بن حاجي أحد الأمراء بعد عزله من نيابة دمشق سنة (763هـ/1361م) قرية دومة[4] من أراضي دمشق، وقرية أخرى في بلاد طرابلس على سبيل الراتب[5]، وقد حرص بعض الأمراء المماليك مثل الأمير علم الدين سنجر الجاولي[6]وشيخ المحمودي[7] على اختيار أفضل

---

(1) الدوري، عبد العزيز، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط1، دار الطليعة، بيروت 1968 ص104 وسيشار له لاحقاً الدوري، مقدمة في التاريخ الاقتصادي. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص154.

(2) بهادر آص المنصوري كان طويلاً حسن الشكل متجملاً في مركبه وموكبه، وكان هو القائم بأمر الناصر لما قام بالكرك واستنابه بصفد سنة (711 هـ /1311م) ثم أعيد إلى إمرته بدمشق ثم غضب منه تنكز لشيء صدر منه فأغرى به الناصر فاعتقله مدة ثم أعاده (ت730 هـ /1329م) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص56-57. الوافي بالوفيات، ج10، ص186-187. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص35.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص187.

(4) دومة من قرى غوطة دمشق وهي غير دومة الجندل. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص486.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص337. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص154.

(6) الأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الجاولي، من أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون، ، وله معرفة بمذهبه، ورتب مسند الشافعي وشرحه في مجلدات. وكان أولاً نائب الشوبك بغير إمرة، ثم نقل منها وجعل أميراً أيام سلار وبيبرس الجاشنكير، ثم ناب في غزة وحماة (ت745 هـ /1344م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص316-319. الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص467-471. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص74-75.

(7) شيخ المحمودي الظاهري برقوق المؤيد أبو النصر الشركسي، اشتراه الخواجا محمود شاه اليزدي تاجر المماليك بثمن يسير، ناب في طرابلس ثم في دمشق، وفيما بعد أصبح سلطاناً، قيل أنه لما مات كان في الخزانة ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار من الذهب (ت824 هـ /1421م) . ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874 هـ /1469م) مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة،

الاقطاعات لهم ولمماليكهم[1]، وقد حصل الأمراء المماليك بالإضافة إلى الاقطاعات على الإنعامات والخلع السلطانية التي كانت تتضمن كسوة وخيول وسيوف ومجوهرات وأموال نقدية وغيرها[2]، فإنعام الأمير تنكز بلغ في بعض السنوات سبعمائة ألف ألف درهم، ما عدا الخيول والقماش وجميع ما على مركوبه من الذهب[3]، وبهذا يكون الأمراء المماليك قد وصلوا إلى درجة عالية من الثراء.

3 – علاقة المماليك بالعامة

أ – علاقة المماليك الإيجابية مع العامة

مع أن التاريخ بمجمله هو تاريخ سياسي يهتم بالدرجة الأولى بالقادة والحكام والملوك ويهمل في كثير من الأحيان الفئات الدنيا من المجتمع، إلا أن الباحث لا بد وأن يجد إشارات كثيرة عن هذه الفئات، وهي إشارات جاءت عن قصد أو غير قصد من المؤرخين. وإحدى هذه الفئات هي فئة العامة وهي الأكثر عدداً والأكثر فعالية في الكثير من المظاهر الحيوية للمجتمع، ولكن ما المقصود بالعامة؟ وكيف هي علاقتها بفئة المماليك. لم تأت المعاجم العربية على معنى واضح ومحدد لكلمة العامة، ولم تزد عن قولها إنها خلاف الخاصة[4]، وبالفعل لا خلاف بأنها الفئة التي تقابل الفئة الحاكمة وتضم التجار والصناع والكسبة ومن لا عمل لهم وتتركز أهداف هذه الفئة على نشر الأمن ورفع الظلم وتأمين الخبز[5]. وإن من الأمور الملفتة

ج2، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة 19 ص136–138 وسيشار له لاحقاً ابن تغري بردي، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص308–311. المقريزي، السلوك، ج4، ق2، ص597.

(1) طرخان، النظم الإقطاعية، ص105.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص52–55.

(3) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص183. ابن طولون، إعلام الورى، ص38.

(4) ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص426.

(5) ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي (ت321 هـ /933م) جمهرة اللغة، ط1، ج1، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1987 ص157 وسيشار له لاحقاً ابن دريد، جمهرة اللغة. مصطفى، المعجم الوسيط، ج2، ص629. الشلي، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية، ج175–176.

للنظر في إطار علاقة العامة بالمماليك هي نظام الوقف، فنظام الوقف وصل في العصر المملوكي إلى درجة النضج والاكتمال[1]، ويمكن اعتباره العصر الذهبي للوقف، فقد لجأ السلاطين الأيوبيون إلى نظام الوقف كوسيلة يدعمون ويثبتون به حكمهم ويكسبون العامة إلى جانبهم[2]، وحين جاء المماليك تفانوا في إقامة الأوقاف وتنظيم شؤونها لتحقيق مصالح سياسية واقتصادية واجتماعية، ويأتي على رأسها تثبيت شرعية الحكم المملوكي في مصر والشام ويظهر هذا واضحاً في موقفهم المساند تجاه الخلافة العباسية، بقصد أن يحقق ذلك لحكمهم الصبغة الشرعية[3]. وبإحصائية لما قام به المماليك كفئة حاكمة من سلاطين وأمراء وخواتين[4] من أوقاف كبيرة وكثيرة في بلاد الشام وجدت ثمانية بيمارستانات توزعت بين الخليل[5] وحلب[6] وصفد[7] وطرابلس[8] وغزة[9] والرملة[10] ونصيبين[11] وحصن الأكراد[12]، أما المدارس فقد أكثروا منها حتى قال القلقشندي:(بنوا من المدارس ما ملأ الاخطاط

---

(1) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648-923 هـ /1250-1517م) ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1980، ص17، وسيشار له لاحقاً أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية.

(2) الشرعة، أوقاف المرأة في دمشق، ص38.

(3) الحجي، حياة ناصر، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ط1، مكتبة الفلاح، لكويت 1983، ص49 وسيشار له لاحقاً الحجي، السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

(4) خواتين مفردها خاتون وهو لفظ تركي معناه السيدة. القلقشندي، صبح الأعشى،ج6، ص78. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص264-265.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص79.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص292.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص158. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص262.

(8) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص137. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص322. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص203.

(9) العمري، مسالك الإبصار، ج3، ص552. الغزي، عثمان مصطفى الطباع (ت1370 هـ /1950م)، إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، ط1، م2، تحقيق عبد اللطيف أبو هاشم، مكتبة اليازجي، غزة 1999، ص230 وسيشار له لاحقاً الغزي، إتحاف الأعزة. عطا الله، نيابة غزة، ص242-243.

(10) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص398.

(11) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي (ت779 هـ /1377م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "رحلة ابن بطوطة" ط2، دار النفائس، بيروت 2004، ص203 وسيشار له لاحقاً، ابن بطوطة، تحفة النظار.

(12) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص87. حصن الأكراد حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبك وحمص. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص264.

وشحنها)[1]، فكانت ستة عشر مدرسة في دمشق[2]، وأربعة عشر في بيت المقدس[3]، وستة في طرابلس[4] واثنتين في نابلس[5]، واثنتين في صفد[6]، وأربعة مدارس في غزة[7].

أما الخوانق والزوايا فيصعب حصرها لكثرتها، وهي كلها أوقاف أوقفها المماليك من باب الحرص على أن تكون العلاقة حسنة مع العامة، وعندئذ يحظون بتأييدهم وتتغير النظرة إليهم. ولقد عمل السلاطين ونواب السلطنة على التقرب من العامة وإنصافهم من الظلم، فهـذا السلطان الظاهر بيبرس لم يحتجب عن أهل الكرك وكان ينصفهم استجلاباً لقلوبهم[8]، كما أنه وسع مشهد جعفر بن أبي طالب سنة (673هـ/1361م)[9].

وفي سنة (664هـ/1266م) شارك والي نابلس الأمير بدر الدين محمد بن رحال في عمارة جسر دامية على نهر الأردن[10]، وقد جاءت عمارة الجسر تعبيراً عما أكنه السلطان الظاهر بيبرس لهذه المنطقة وأهلها من الاهتمام فهي تقع على طريق القوافل بين دمشق

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص416. عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة 1962 ص142 وسيشار له لاحقاً، عاشور، المجتمع المصري.

(2) النعيمي، الدارس ، ج1، ص91-177- 236-252-263-324-326-331-350-358-374-383.

(3) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص35-36-37-38-39-43-44-46.

(4) النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت1143 هـ /1731م) التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق هربر بوسة، بيروت 1971 ص72 وسيشار له لاحقاً النابلسي، التحفة النابلسية. كرد علي، خطط الشام ج6، ص128-129. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص199 .

(5) الذهبي، العبر، ج3، ص392. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص772. العزة، رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العصر المملوكي، دار الفاروق، نابلس 1999 ص146 وسيشار له لاحقاً العزة ، نابلس في العصر المملوكي.

(6) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج1، ص126. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص258-259.

(7) الغزي، إتحاف الأعزة، م2، ص140-142-184-224. عطا الله، نيابة غزة، ص245-246.

(8) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص487. البخيت، محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي، وزارة الثقافة، الأردن 2009 ص39 وسيشار له لاحقاً البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي.

(9) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص352. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص194.

(10) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص346. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص287.

والقاهرة، وقد ندب الظاهر بيبرس الأمير جمال الدين إبراهيم بن نهار[1] لعمارة هذا الجسر، وساعده الوالي ابن رحال وتمكنا من إنجاز هذا البناء الذي ساهم في خدمة أهالي المنطقة[2].

وكان للنصارى معاملة حسنة أيضاً، ففي سنة (700هـ/1300م) قدم البريد في أمر أهل الذمة إلى دمشق فاجتمع القضاة عند نائب دمشق الأمير آقوش الأفرم[3] وقُرئ عليهم مرسوم السلطان بذلك فنودي أن يلبس النصارى العمائم الزرق واليهود العمائم الصفر وهدّد من يتجرأ ويخالف ذلك، وذلك حتى يُميزوا عن المسلمين فقد بدا منهم بعض التطاول في اللباس والمركوب وهذا مخالف لما أوصت به الشريعة الإسلامية[4]، فالتزم اليهود والنصارى في مصر وبلاد الشام فيما أمروا به إلا نصارى الكرك فإن الأمير آقوش الأفرم رأى إبقاءهم على حالتهم[5].

كما حرص السلاطين على رد الجميل فلم ينس السلطان الناصر محمد بن قلاوون الوقفة الشجاعة التي وقفها أهالي حوران وعجلون معه في الفترة العصيبة، التي مرت به أثناء تقدمه لتوليه السلطنة في المرة الثالثة سنة (709هـ/1309م)، فعرب آل زبيد سكان تلك المنطقة

---

(1) الأمير جمال الدين إبراهيم بن نهار كان من أجود الناس وأحسنهم طباعاً تولى المهمندارية فترةً من الزمن، وكان له همة عالية ويندبه السلطان الظاهر للمهمات، لما تولى السلطان الصالح بن قلاوون بعد أبيه رتب الأمير جمال الدين استداراً إلى أن توفي سنة (687 هـ /1288م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص100. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص181-182.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص346. غوانمة، التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي، ج1، ص74. العزة ، نابلس في العصر المملوكي، ص72-73.

(3) جمال الدين آقوش الأفرم، نائب دمشق من قبل الملك الناصر ثم ناب في طرابلس، وكان من الأمراء الذين فروا إلى المغول وظل هناك في همذان حتى وفاته سنة (716 هـ /1316م) الصفدي، أعيان العصر،ج1، ص561-571. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص9-14.

(4) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص83-85. الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص48-50.

(5) الدوادار، زبدة الفكرة، ص379. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص233. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص912.

كانوا في صفوف قواته، ولذلك لم يتردد عند اعتلائه عرش السلطنة في إعفائهم من المكــوس التي كان يتم تحصيلها منهم[1]، وأمر سنة (716هـ/1316م) بإبطال كل المكوس في الــبلاد القبلية "حوران وعجلون والبلقاء[2]" وفي سنة (724هـ/1323م) أبطل مكوس بــلاد الـشام كلها[3].

وحين تولى الأمير جمال الدين النجيبي[4] نيابة دمشق سنة (662هـ/1263م) جلس لكشف ظلامات الناس والتوقيع على القصص بدار السعادة[5]، وكذلك فعل قبجق المنصوري، فحين تولى النيابة في دمشق سنة (696هـ/1296م) نودي في البلد أن من له مظلمة فليــأت يوم الثلاثاء إلى دار العدل[6]، وظل الناس يشكرون سيرته وحــسن إدارتــه[7]، أمــا توزيــع الصدقات ومساعدة الفقراء ومنح الهبات فكان لها أكبر الأثر في نفوس العامة، فحــين كــان

---

(1) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص171-173. غوانمة، يوسف، التاريخ السياسي لــشرق الأردن فــي العصر المملوكي، ط2، ج1، دار الفكر، عمان، 1982، ص191 وسيشار له لاحقاً غوانمــة، التــاريخ السياسي لشرق الأردن.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص86. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص912.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص143. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص128. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص254.

(4) الأمير الكبير جمال الدين آقوش بن عبد الله النجيبي الصالحي، استنابه السلطان الظاهر بيبرس في دمشق تسع سنين، ثم عزل عن نيابة دمشق برغبته عنها وتقصر بطالاً سبع سنين قبل موته، وحرمته في الدولة قائمةٌ، ومكانته عالية، ولما مرض عاده الملك الظاهر بيبرس (ت677 هـ /1278م) الصفدي، الــوافي بالوفيات، ج9، ص188-189. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص24-25.

(5) المقريزي ،السلوك ج1، ق2، ص549. دار السعادة اسم يطلق على دار الحكم، ودار الإمارة، أو مركز الحاكم الذي يباشر منه شؤون الولاية. النويري، نهاية الأرب، ج27، ص412. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص28(هامش).

(6) دار العدل هي الدار التي أنشأها في دمشق نور الدين محمود بن زنكي عند ما بلغه تعدّي ظلم نوّاب أسد الدين شيركوه بن شادي للرعية، وظلمهم الناس، واستمرت في العصر الأيوبي وفي عــصر المماليــك. المقريزي، الخطط، ج3، ص363-364.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص412.

حسام الدين لاجين نائباً بدمشق (680هـ/1281م-691هـ/1291م) كان ينعم ويهب وكانت له مكارم كثيرة على أهلها الخاصة والعامة فلذلك كان أهل الشام يحبونه ويتعصبون له[1].

أما تنكز نائب دمشق فقد أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأزال ما كان بدمشق وأعمالها من الفواحش والحانات والخمارات، وبالغ في العقوبة على ذلك حتى وصلت عقوبته للقتل أحياناً، وأنصف العامة والتجار، وساعدهم على استخلاص حقوقهم من الأمراء، وأجبر المتخاصمين على الاحتكام إلى القضاء، وامتنع عن قبول التقادم والهدايا جملة، وتتبع المدارس والمساجد والأوقاف فعمرها جميعاً، ومنع مستحقيها من تناول ريعها حتى كملت عمارتها، وجدد عدة أماكن قد دثرت أوقافها، وأعاد فيها وظائف العبادات بعدما بطلت[2].

وحين كانت تحل بالبلاد أزمات اقتصادية وقحط كانوا يتدخلون للتوسعة على العامة بقدر استطاعتهم، فقد عمل الأمير تنكز سنة (727هـ/1326م) عندما قلّ الماء بالقدس -حتى أنه بلغ شرب الفرس الماء مرة واحدة نصف درهم فضة- عمل على الكتابة إلى ولاة الأعمال بإخراج الرجال لفتح عين ماء بالقدس[3].

---

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص212. العيني، عقد الجمان، ج3، ص433.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص123. النويري، نهاية الأرب، ج33، ص315. المقريزي، السلوك، ج2، ق2، ص549.

(3) الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص125. المقريزي، السلوك، ج2، ق، ص289. علي، القدس في العصر المملوكي، ص219.

وفي سنة (735ه/1334م) حصل للناس غلاء، ووصلت الغرارةمن القمح بدمشق مائة وسبعين درهماً وقل الواصل من القمح إلى طرابلس، مما حدا بالأمير آقوش الأشرفي أن يسير إلى مصر من يحضر الغلال من ماله الخاص لأجل التوسعة على أهل طرابلس[1].

ويذكر الرحالة ابن بطوطة أن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان يجلس في قصره بالقاهرة للنظر في المظالم ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس بحضور القضاة الأربعة[2]، وقد كتب السلطان الناصر سنة (710هـ/1310م) كتاباً إلى نائب دمشق يلومه فيه على ظلمه وتعديه على الناس، ويطالبه بكف يد أعوانه عن الجباية في حوران التي كان الناصر نفسه قد أصدر مرسوماً بمسامحة أهلها من الجبايات المفروضة عليهم، وأمره أن يولي أشخاصاً يختارهم من أعيان الحلقة ومشايخها ممن عرفوا بالنزاهة والاستقامة كي يوصلوا حقوق الأجناد إليهم ويرحموا الفلاحين وسكان تلك البلاد[3]، وكان الناصر قد أصدر مرسوماً بمسامحة الجند والرعايا في الشام بباقي الضرائب المتبقية سنة (702هـ/1302م)[4]. وحين كانت تسند النيابة لشخص جائر كان السلطان يتابع الأمر ويستجيب لمطالب العامة إن أرادوا تغييره، فعندما كان كراي المنصوري[5] نائباً للشام سنة (711هـ/1311م) ضيق

(1) اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت759هـ/1357م) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ط1، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت 1986، ص236-237 وسيشار له لاحقاً اليوسفي، نزهة الناظر.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص45.

(3) العيني، عقد الجمان، ج4، ص . غوانمة، التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي، ج1، ص201-202.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج13، ص31. حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983، ص302-305 وسيشار له لاحقاً حمادة، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي.

(5) كراي المنصوري، من مماليك قلاوون، أمر في سلطة لاجين، تولى نيابة صفد ثم صرف عنها سنة (700 هـ /1300م) أمره الناصر على غزة ثم حضر نائباً إلى دمشق (ت719 هـ /1319م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص250؛- أعيان العصر، ج4، ص150-155. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص311.

على الناس، وفرض عليهم ضرائب كثيرة، فانزعجوا لذلك، فاجتمع القضاة وخطباء الجامع الأموي وساروا مع العامة على شكل مظاهرة يتقدمهم رجل يحمل المصحف العثماني على رأسه، ووقفوا للنائب بسوق الخيل، حين كان ماراً فيه، إلا أن سقوط المصحف من الرجل حين الفرار من جند النائب أثار العامة الذين رجموا النائب بالحجارة، وحين نقل ما جرى للناصر أنكر ذلك اشد الإنكار وأمر بإلقاء القبض عليه[1].

أما الأمير أرغون شاه الكاملي فإنه أراد الحد من تعديات الجند وسوء أدبهم مع العامة، فقد أمر سنة (752هـ/1351م) بالمناداة من وجد جندياً سكراناً فلينزله عن فرسه وليأخذ ثيابه، ومن أحضره إلى دار السعادة فله إقطاعه[2]، وهو الذي بنى بيمارستاناً في حلب حين ولي نيابتها سنة (755هـ/1354م) وأوقف عليه وقفاً يقوم بمصالحه[3]، وهذا الأمير بيدمر نائب السلطنة في حلب[4] أبطل سنة (762هـ/1360م) كثيراً من الضرائب إرضاءً للعامة[5]، بينما قام نائب صفد ارقطاي سنة (736هـ/1335م)[6] بعزل شاد الدواوين[7] بعد أن كثرت الشكوى عنه دون أخذ الإذن من نائب الشام[8].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص70. المقريزي، السلوك، ج2، ق، ص104.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص277.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج3، ص177.

(4) الأمير بيدمر بن عبد الله الخوارزمي ولي نيابة حلب سنة (760 هـ /1358م) عوضاً عن الأمير بكتمر المؤمني، فتح بلاد سيس وأذنه، وأقره السلطان نائباً بهما وقد خطب له بتلك البلاد، وضربت السكة باسمه، ثم نقل بيدمر المذكور في عدة ولايات، ووقع له أمور إلى أن مات سنة (789 هـ /1387م)، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص56-57؛- إنباء الغمر، ج1، ص339. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص498-499.

(5) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص56.

(6) ارقطاي، من مماليك الناصر محمد، تولى نيابة صفد، ثم نيابة طرابلس، ونيابة حلب مرتين سنة (746 هـ /1345م) و (748 هـ /1347م) ثم نيابة دمشق ولكنه توفي قبل وصولها (ت750 هـ /1349م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج1، ص420. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص328-329.

(7) شاد الدواوين، شاد هو المفتش، وشاد الدواوين هو مفتشها وضابط حساباتها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص23. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص95.

(8) اليوسفي، نزهة الناظر، ص318.

ب – علاقة المماليك السلبية مع العامة

لم تقتصر علاقة المماليك بالعامة على الجانب الايجابي، بل سادها بعض التعسف والظلم، إذ لم يخلُ الأمر من بعض السلاطين والنواب الجائرين فمثلاً سنة (677هـ/1278م) استدعى السلطان السعيد ناصر الدين بركة خان التجار الأثرياء واحداً بعد واحد لمصادرة أملاكهم دون سبب يُذكر[1]، وفي سنة (740هـ/1339م) قام الملك المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون[2] بأخذ أموال الناس لأغراض شخصية على سبيل القرض، وكان يقتل من يرفض ذلك ويصادره فمات جماعة من الناس تحت العقوبة، فقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون باستدعائه إلى القاهرة[3].

وفعل مثل ذلك نائب حماه الأمير قطلجيا الحموي [4] الذي حكم من (747هـ/1346م) حتى(750هـ/1349م) وأظهر من الظلم والتعدي وأكل الأموال بالباطل الشيء الكثير[5]، وفي سنة (746هـ/1346م) ركب الأمير طقتمر الصلاحي[6] البريد ليوقع

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص328.

(2) الملك المنصور أبو بكر بن الناصر محمد بن قلاوون، ولي الملك بعد أبيه بعهده منه له في مرضه في أواخر سنة (741 هـ /1341م) حسن له طاجار القبض على قوصون، فلما بلغ قوصون ذلك، خلع المنصور، وسلطن أخاه الملك الأشرف علاء الدين كجك، ثم أمسك طاجار المذكور وحبسه بالإسكندرية (ت742 هـ /1342م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص552-554. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص361.

(3) المقريزي، السلوك، ج2، ق2، ص492.

(4) قطلجيا، الحموي الجمدار، كان من المقربين للناصر ثم أمر بدمشق بعده أمير عشرة في أيام الناصر ثم أربعين بعده ثم ولي نيابة حماة سنة (747 هـ /1346م) ونقل بعد ذلك إلى نيابة حلب سنة (750 هـ /1349م) (ت750 هـ /1349م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص196-197. أعيان العصر، ج4، ص127-128. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص297.

(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج3، ص93. المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص812.

(6) الأمير طقتمر سيف الدين الصلاحي كان أميرا في أواخر الدولة الناصرية، لما تسلطن الملك الكامل شعبان اختص به كثيراً، ولما خلع الملك الكامل وتسلطن أخوه الملك المظفر حاجي أخرج طقتمر هذا إلى نيابة حمص، فتوجه إليها وأقام بها نحو الأربعين يوماً (ت747 هـ /1347م) الصفدي، أعيان العصر،

الحوطة على جميع أرباب المعاملات وأصحاب الرزق والرواتب بالبلاد الشامية من الفرات إلى غزة، وأن يستخرج منهم ومن الأوقاف ألف ألف درهم، وهذا كله لأن السلطان يريد السفر للحجاز ويريد أن يوفر النفقات اللازمة لذلك[1]، وكان لهذا الأمر أسوأ الأثر على العامة فكثر ابتهالهم وتضرعهم إلى الله تعالى في الدعاء على من قطع أرزاقهم[2].

إلا أن كل هذا يعد استثناءً في هذه الفترة، وذلك لأن المماليك كفئة حاكمة في الدولة المملوكية الأولى استطاعوا الحفاظ على علاقة جيدة مع عامة السكان، وحين يطل القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي مع قيام دولة الشراكسة تأخذ العلاقة شكلاً آخر يتسم بالظلم والتعدي والجور وأخذ الرشوة، حتى أن القريب والبعيد عرف هذا، وهذا نص الرسالة التي بعث بها تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة (796هـ/1393م) قال فيها : (وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وضيعتم جميع الأنام وأخذتم أموال الأيتام وقبلتم الرشوة من الحكام) [3]، فكانت هذه الرسالة هي توصيف لحالة العلاقة بين الطرفين في هذه الفترة وما بعدها حتى سقوط الدولة نهائياً سنة (923هـ/1516م) على يد العثمانيين، ولعل السبب في ذلك يعود إلى اضطراب أحوال الدولة الاقتصادية التي أجهدت مادياً بسبب حروبها مع

ج2، ص606. الوافي بالوفيات، ج16، ص265-266. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص418.

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص676. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص132.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص134.

(3) ابن عربشاه، أحمد بن محمد (ت854 هـ/1450م) عجائب المقدور في أخبار تيمور، ط1، كلكتا، 1817 ص136 وسيشار له لاحقاً ابن عربشاه، عجائب المقدور. ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص379. أحمد، عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979 ص31-32 وسيشار له لاحقاً أحمد، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك.

العثمانيين والقوى الفرنجية في البحر المتوسط[1]، فضلاً عن الحروب الداخلية التي شنها المماليك ضد العربان والتركمان واعتداءات قطاع الطرق[2]، يضاف لذلك موجات الجفاف والأوبئة والطواعين[3]، فكان لا بد من فرض الضرائب على الناس لتحصيل المال.

فمثلاً نجد من النواب من كان همه جمع المال مثل نائب طرابلس الأمير يونس بلطا[4] الذي أرهقت طلباته المالية كاهل العامة مما دفعهم إلى الثورة عليه سنة (802هـ/1399م) وكان يقال عنه :(قد فعل مالا تفعله الكفرة) [5].

وفي سنة (807هـ/1404م) فرض نائب القدس على الناس مالاً فأبوا عليه، فتركهم حتى اجتمعوا بالمسجد الأقصى وغلق الأبواب عليهم وألزمهم بالمال، فاستغاثوا عليه، عندها قاتلهم فقتل منهم بضعة عشر رجلاً وازدادت الأمور سوءاً لولا تدخل السلطان فرج بن برقوق[6].

وفي سنة (843هـ/1439م) أجبر نائب دمشق أقبغا التمرازي[7] التجار على جلب الأغنام إلى دمشق وبيعها بأسعار أدنى من أثمانها الحقيقية واعداً بالمقابل بإعفائهم من

---

(1) غوانمة، يوسف، أيلة والبحر الأحمر، ط1، دار هشام، اربد 1984 ص82 وسيشار له لاحقاً غوانمة، أيلة.

(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص290، 351. ج3، ص80. عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص112-114.

(3) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص302. ج3، ص277. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص529. ج9، ص245، ص346.

(4) يونس الظاهري برقوق ويعرف ببلطا وبالرماح، كان من أعيان خاصكية أستاذه ثم رقاه لنيابة حماة ثم طرابلس ثم كان بعده ممن وافق تنم الحسني نائب الشام، وآل أمره إلى القبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ثم قتل بمحبسه ودفن بصالحية دمشق سنة (802 هـ /1399م) السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص345-346. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص212-213.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص191.

(6) المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص1154.

(7) أقبغا التمرازي نائب الشام، تقدم في الأيام المظفرية ثم عمله الأشرف أمير مجلس ثم نائب الإسكندرية مع استمراره على إقطاع التقدمة ثم عاد إلى القاهرة على إمرة مجلس ثم استقر في الأيام الظاهرية أتابك

الضرائب ولكنه اخلف وعده فتوقف التجار عن الاستيراد مما اضر بالعامة الذين تمردوا وهاجموا مقر النائب[1]، ويورد العيني عن تنبك العلائي[2] نائب الشام واصفاً سيرته عبارة (وقد أراح الله أهل الشام منه إذ كان طماعا ويأخذ الرشوة ويشرب الخمر)[3].

وحين تكثر الشكوى على أحد النواب فإنه ينتقم بسلطته، ويتخذ منها وسيلة للتنكيل وإرهاق الناس، فدقماق الإينالي[4]نائب السلطنة في بيت المقدس كانت قد تزايد ظلمه وكثر طمعه وتضررت أحوال العامة وكثر السراق وأفحشوا في قطع الطرق وقتل الأنفس وبقي الناس في شدة[5]، وعندما شكاه الناس قام سنة (896هـ/1490م) (بكتابة أسماء أهل القدس في قوائم وعين على كل إنسان قناطير معينة وأمرهم بشراء الزيت كل قنطار بخمسة عشر ديناراً، ورسم على الناس وشدد عليهم وضربهم ضرباً مبرحاً وشرع يحمل كل أحد فوق طاقته، ومن لم يُطعه ضربه حتى يكاد يهلك، ومن غاب على منزل له وأخذ ماله من الأمتعة ومن لم يوجد له أمتعة أحضر زوجته وضربها وسجنها حتى تدفع ما على زوجها[6]، أما الأمير جان بلاط لما كان نائباً لدمشق فقد قام سنة (904هـ/1498م) بضرب جماعة من أهل

العساكر ثم نائب الشام (ت843 هـ /1439م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص476-478. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص316-317.

(1) العيني، عقد الجمان، ج5، ص551. لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص244.

(2) تنبك بن عبد الله العلائي، الأمير سيف الدين نائب الشام، المعروف بميق، من أكابر المماليك الظاهرية ومن أشرارهم، ناب في الشام حتى سنة (822 هـ /1419م) ثم عزل عن نيابة دمشق بالأمير جقمق الأرغون ولكنه عاد إليها حتى توفي سنة (826 هـ /1423م) المقريزي، السلوك، ج4، ق2، ص651. ابن تغري بردي، المنهل الصافي ج4، ص 13-16.

(3) العيني، عقد الجمان، ج5، ص213. الصيرفي، نزهة النفوس والأبدان، ج3، ص37.

(4) دقماق الإينالي، تولى بعد صرف الأمير نَاصِر الدّين بن النشاشيبي فظلم وعسف، وأعيد مرة أخرى دواداراً (ت896 هـ /1490م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص342.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص344.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص357-358.

دمشق ضرباً مبرحاً لأنهم شكوا إليه فقرهم وعجزهم عن ثمن الإبل التي طرحها عليهم[1] من كسب عرب آل مري[2] بل إنه طرح الإبل وأولادها على أهل دمشق، فالكبار على أهل الحارات، والصغار على الطباخين ونحوهم وكل واحد بأضعاف ثمنه[3].

وذكر عن نائب غزة آقباي[4] سنة (903هـ/1497م) أنه كان فاسداً ويقطع الطرقات هو وجماعته إذ يأخذون أموال الناس ودوابهم حتى تضرر العامة منهم[5]، أما نائب دمشق قانصوه البرجي[6] فقد أقدم سنة (907هـ/1501م) على فرض ضرائب على غالب حارات دمشق وأخذ الأموال لنفسه[7]، فما كان منهم إلا أن ثاروا عليه بسبب ظلمه في جباية أجر الأملاك والضرائب التي كانت تفرض على التجار والصناع وصغار الكسبه[8].

---

(1) الطرح والرمي هو أن يلتزم التجار وأهل السوق بقبول البضاعة العائدة لأرباب السلطة والشأن بسعر يزيد عن قيمة السوق ويخالف رغبة المشتري. صالحية، محمد عيسى، الطرح والرمي في العصر المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك (سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية)، جامعة اليرموك 1993، ص51-124. وسيشار له لاحقاً صالحية، الطرح والرمي في العصر المملوكي.

(2) آل مري وهم إخوة آل فضل ومنازلهم من الجولان إلى الزرقاء والضليل إلى بصرى وشرقا حتى حرة كشت قرب مكة. القلقشندي، قلائد الجمان، ص79-81. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص111-112.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص213.

(4) آقباي نائب غزة والقدس والرملة وبلد الخليل. آخر ذكر له كان سنة (905 هـ /1499م) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص226.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص200.

(6) قانصوه البرجي سمي بذلك لأنه كان نائب البرج الذي بناه قايتباي بالإسكندرية، ولي نيابة الشام سنة (907 هـ /1501م) توفي سنة (910 هـ /1504م) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 133. الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص78.

(7) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج1، ص258.

(8) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج1، ص 223.

والأعجب من هؤلاء كلهم نائب طرابلس الأمير إياس الجرجاوي[1] الذي أراد أن يأخذ جامع طرابلس ويعطيه للفرنجة حتى يعيدوه كنسبة مقابل كمية من الذهب، ولم يمنعه من ذلك إلا قيام القضاة وكبار البلد والعوام عليه، مما اضطر السلطان الظاهر برقوق لعزله وإرساله أتابكاً إلى دمشق سنة (799هـ/1397م)[2] وهذه عقوبة أن يرسل النائب كأتابك.

ويضاف إلى الجشع وراء جمع الثروة أياً كانت الوسيلة سوء الأخلاق وفسادها، فقد أورد ابن طولون في حوادث سنة (894هـ/1488م) أن امرأةً أقرت بحضرة نائب دمشق قانصوه اليحياوي[3] أن نائب بعلبك -الذي لم تفصح المصادر عن اسمه- فعل بها الفاحشة، بعد أن كان ادعى أنها أخته، وبعد أن أخذها من دمشق إلى بيته ببعلبك لما طلقها زوجها، وكان عقابه أن طلبه نائب دمشق من بعلبك ماشياً، فقابله وواجهه بما فعل بحضرة النائب بدار العدل وعاقبه على ذلك[4]، وذكر ابن طولون أن حاجب دمشق يلباي الأينالي والدوادار[5]

---

(1) إياس بن عبد الله الجرجاوي تنقلت به الأحوال في الخدم، وتأمر ثم ولي نيابة طرابلس حتى توفي سنة (799 هـ /1396م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص501. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص124.

(2) ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص192.

(3) قانصوه اليحياوي الظاهري جاوز الثمانين وهو عتيق الملك الظاهر جقمق تقلبت به الأحوال وولي نيابة حلب ونيابة الشام مرتين ونيابة طرابلس والإسكندرية. دفن بتربته التي جددها بباب الجابية سنة (902 هـ /1496م) البصروي، تاريخ البصروي، ص218-219.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص109.

(5) الدوادار هو المسؤول تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إلى السلطان والمشاورة على من يحضر إلى الباب. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص19. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص77.

جانبك الطويل[1] كان لهما خمارة سنة (892هـ/1486م) في دمشق، وبرغم مطالبة أهـالي دمشق بإغلاقها إلا أنه لم يستجب أحد[2].

وفي سنة (800هـ/1397م) أشيع عن الأمير شيخ الصفوي أحـد أمـراء الظـاهر برقوق [3] أنه كان يلاحق أولاد الناس ونسائهم في بيت المقدس يريدهم على الفاحشة[4]، أمـا نائب الشام جان بلاط فلما عزل سنة (905هـ/1499م) فرح الناس بعزله فرحاً شديداً وكانت حجتهم في ذلك أنه كان ظالماً ولا يحترم الكبار والشيوخ [5]، وذكـر الـسخاوي فـي التبـر المسبوك سنة (848هـ/1444م) أن بردبك العجمي[6] نائب حماة كان مفحشاً في القول فـي أهل حماة بحيث نفرت منه القلوب حتى تقاتل مع أهلها فقتل منهم أكثر من مائـة وعـشرين نفساً[7].

---

(1) جانبك الطويل الأشرفي قايتباي رقاه أستاذه لنيابة صفد ثم الكرك ثم لدواداريته بدمشق، كان عوناً لاينال الخصيف في الظلم والمعاصي والمخالفة على نائبها في الخروج مـع التجريـدة حتـى تـوفي سـنة (892 هـ /1486م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص57.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص84.

(3) شيخ الصفوي من أمراء الظاهر برقوق وأعيان دولته، تولى نيابة غزة (800 هـ /1397م) ثم اسـتعفي وسأل الإقامة بالقدس بطالاً فأجيب لذلك ولكنه نقل إلى حبس المرقب لشكوى المقادسة عليـه (ت801 هـ /1398م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص312-314. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص308.

(4) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3 ، ص666 .

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص221.

(6) بردبك العجمي تولى نيابة حماة وأقام بها إلى تنازع مع أهلها وقتل منهم جماعة وخرج عن الطاعـة ثـم سجن بالإسكندرية، لكنه عـاد مـرة أخـرى أحـد المقـدمين بدمـشق سـنة (853 هـ /1449م) (ت855ه/1451م) . ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874 هـ /1469م) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، ج1، تحقيق فهيم شلتوت، القاهرة 1990 ص288 وسيشار له لاحقاً ابن تغري بردي ، حوادث الدهور. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص7.

(7) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902 هـ /1496م)، التبر المسبوك في الـسلوك، مكتبـة الكليـات الأزهرية، القاهرة، د.ت، ص200 وسيشار له لاحقاً السخاوي، التبر المسبوك.

ولم يتوقف الأمر عند النواب فهناك إشارات كثيرة تدل على تعديات حصلت من الموظفين، فقد شكى أهل الشام سنة (852هـ/1448م) من تعديات وظلم النائب جلبان[1] الذي كان نائباً للسلطة في دمشق، ومن (دواداره، واستاداراه[2]، وخازنداره)[3].

وفي سنة (890هـ/1485م) حمل العامة الأعلام بالجامع الأموي على النائب قجماس الإسحاقي[4] بسبب سلاخوره[5] لأنه قبض على السيد الشريف المنتسب للشيخ عبد القادر الكيلاني لما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرق الحشيش[6]، وتكرر حمل الأعلام بالجامع الأموي والاستغاثة ورفع المصاحف في السنة التالية (891هـ/1486م) بسبب كثرة الضرائب[7].

وفرح العامة في دمشق لورود مرسوم سلطاني سنة (797هـ/1394م)، من السلطان برقوق إلى النائب تنبك الظاهري، يتضمن عزل الاستادار ابن البانياسي لظلمه وجوره[8]، أما

---

(1) جلبان المؤيدي نائب الشام ويعرف بالأمير آخور، تولى نيابة حماة بعد جارقطلو ثم نيابة طرابلس ثم نيابة حلب (ت859 هـ /1454م) السخاوي الضوء اللامع، ج3، ص70-71.

(2) الاستادار هو القائم على الشؤون الخاصة للسلطان والاستادارية موضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص31-32. دهمان، معجم الألفاظ، ص14.

(3) السخاوي، التبر المسبوك، ص200. الخازندار، المسؤول عن خزانة السلطان أو الأمير. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص21. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص68.

(4) قجماس الإسحاقي الظاهري نائب الشام بعد قانصوه اليحياوي، لما استقر الأشرف قايتباي رقاه وأسكنه في بيته بالباطلية ثم أرسله للشام لتركه نائبها بردبك البشمقدار ، ثم استقر به في نيابة الإسكندرية وأضاف إليه وهو بها تقدمة ثم نقله من النيابة لإمرة آخور وتحول إلى الديار المصرية له مدرسة فيها صوفية (ت893 هـ /1487م) ولم يخلف ولداً. السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص213. البصروي، تاريخ البصروي، ص120.

(5) السلاخور هو المسؤول عن الاصطبلات ويكلف بعلف الحيوان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص432. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص92.

(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص65.

(7) البصروي، تاريخ البصروي، ص112.

(8) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص170.

الدوادار في دمشق سنة (897هـ/1491م) فقد كان ظالماً لأهل المزة وكثيراً ما ضربهم وآذاهم[1].

وحين كان اركماس[2] دواداراً بدمشق تعدى على جماعة وضرب أحدهم بالمقارع[3]، وكانت العامة تبغضه وتحقد عليه، ومن طرائف الأمور أن أهل الصالحية صنعوا ضيافة عظيمة حضرها جمع غفير من الناس، وسبب ذلك عزل اركماس من منصبه سنة (899هـ/1493م)[4]، وفي حلب سنة (852هـ/1442م) طارد الأهالي بنيابة حلب نائبهم الأمير تنم بن عبد الرزاق المؤيدي[5]، ورجموه ومنعوه من الدخول إلى مدينة حلب، واستولوا على طبلخاناته[6]، فعزله السلطان جقمق استجابةً لرغبة الأهالي[7]، ومرد ذلك إلى أن أهالي حلب تعاطفوا مع أهل عزاز[8] الذين جاؤوا إلى نائب حلب يشكون له لرفع الظلم الواقع

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص147.

(2) اركماس دوادار السلطان بحلب ثم بدمشق وعزل وصار أمير الحاج الشامي. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص105.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص108.

(4) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج1 ص67. الحمصي، أحمد بن محمد بن عمر (ت934 هـ /1527م) حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عمر تدمري، ط1، م1، المكتبة العصرية بيروت 1999، ص246-247 وسيشار له لاحقاً الحمصي، حوادث الزمان.

(5) تنم بن عبد الرزاق المؤيدي ولاه الظاهر جقمق الحسبة ثم نيابة إسكندرية ثم حماة ثم حلب فلم يحمد فيها ورجم من أهلها فصرف وصار بالبذل أحد المقدمين ثم أمير مجلس ثم ولي نيابة الشام فلم تحمد سيرته أيضا لطمعه وشحه وشرهه وإسرافه على نفسه (ت868 هـ /1463م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج4، ص175-178. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص44.

(6) الطبلخانه وهو بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات؛ ويرأسها أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ولها مهتار يعرف بمهتار الطبلخاناه؛ وله رجال تحت يده ما بين دبندار: وهو الذي يضرب على الطبل، ومنفّر وهو الذي يضرب بالبوق، وكوسيّ، وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص13.

(7) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص165 .

(8) عزاز بلدة شمالي حلب فيها قلعة ولها رستاق بينهما يوم، وهي طيبة الهواء عذبة الماء . الحموي، معجم البلدان، ج4، ص118. القزويني، آثار البلاد، ج1، ص221. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص937.

عليهم، إلا أن النائب لم يسمع شكواهم، وزاد على ذلك بأن أساء لهم، فثاروا ضد نائب حلب الذي كثرت مصادراته لأهالي القرى المجاورة[1].

أما اجتماع أمراء المماليك لأي أمر فقد كان وبالاً على العامة حيث تكثر المفاسد ويزداد الظلم، ففي سنة (753هـ/1352م) حين عصى بيبغا أرس على السلطان وعاونه بعض الأمراء المماليك ودخل دمشق قام عسكره بنهب ضياع دمشق وبساتينها وقطعوا الأشجار التي بها، وكانوا يأخذون ما يأكلون وتأكل دوابهم، كما فجروا بالنساء والبنات ونهبوا ما في الضياع من القماش والخيول والمواشي ولم يبقوا شيئاً، ولما عاد بيبغا أرس من دمشق إلى حلب ارتكب جيشه أنواع المفاسد وضروب القبائح في جميع القرى الواقعة بين حلب ودمشق[2].

وعندما أعلن الأمير جكم نائب حلب ومعه بعض الأمراء خروجهم وتمردهم على السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة (807هـ/1404م) تضرر أهالي صفد كثيراً فقد انقطع حبل الأمن وعم الفساد وخربت القرى من ولايات بر صفد وتبنين[3] والشقيف[4]، وأبيحت صفد لنهب وسلب العشير[5] الذين تزايد فسادهم[6]، وتهدمت كثير من مباني المدينة، ونهبت

---

[1] ابن العجمي، كنوز الذهب ، ج2، ص210--214.

[2] ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص280. كرد علي، خطط الشام، ج2، ص149.

[3] تبنين بلدة في جبال بني عامر المطلّة على بلد بانياس بين دمشق وصور. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص14. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص253.

[4] ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص295. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص205. شقيف أرنون هي قلعة حصينة جدّا في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص356. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص807.

[5] العشير هم أبناء العشائر الذين يأتي بهم النائب من قراهم لمؤازرة المماليك في إخضاع المتمردين. ابن صصرى، الدرة المضيئة، ص5.

[6] المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص1151. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص322. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص205.

أموال أهلها وقطعت أشجارها، وقطعت عنهم المؤن[1]، وتكرر هذا الأمر حين اجتمع أمراء المماليك لأمر ما في دمشق سنة (895هـ/1489م) حيث رعت أغنامهم وخيولهم بساتين الناس وزروعهم ولم يتورعوا عن خلع أبواب البيوت لأجل استعمالها وقوداً[2].

وبلغ ببعض النواب من الظلم والتعدي ما يجعل المرء يشكك في الرواية أحياناً فقد روي أن إياس الجرجاوي المذكور آنفاً وحين كان أميراً في دمشق قطع ببلاد الغور[3] سبعين يد ظلماً وذات مرة قطع رجل شخص مسلم لكونه وطئ صليب إفرنجي[4]، ومهما بدت الرواية مبالغ فيها إلا أنها دليل على جور هذا النائب.

يظهر من ذلك أن المماليك في بلاد الشام ظلوا فئة متحكمة وباغية، لم يشعروا بما يعانيه العامة من مشاكل ولم يحاولوا إيجاد حلول لها بل ظلوا فئة مغلقة على نفسها.

---

(1) المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص1151. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص205.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص51.

(3) غور الأردنّ بالشام بين البيت المقدّس ودمشق، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمي الغور، طوله مسيرة ثلاثة أيام، وعرضه نحو يوم، فيه نهر الأردنّ وبلاد وقرى كثيرة، وعلى طرفه طبرية وبحيرتها. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص217. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص1004. الحميري، الروض المعطار، ص431.

(4) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص192.

الفصل الثاني

العلماء في بلاد الشام في العصر المملوكي

1 – أحوالهم ومكانتهم الاجتماعية

أ – مظاهر احترام العلماء

يقول سفيان الثوري: (صنفان إذا صلحا صلحت الأمة وإذا فسدا فسدت الأمة: السلاطين والعلماء)[1]، ومما لا شك فيه أن الإسلام مجد العلماء، ورفع منزلتهم ومكانتهم بين الناس، وقد فُضل العالم على العابد كما فضل القمر على سائر النجوم[2]، وجعلت مجالس العلم أفضل من مجالس العبادة، وحصرت الخشية من الله تعالى بطائفة العلماء قال تعالى (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[3].

وظل العالم طوال الفترة الإسلامية، المرجعية التي تعتمد عليها السلطة ويثق بها أفراد المجتمع، وكان للعالم صورة مثالية وتقدير يتجاوز في كثير من الأحيان منزلة الحاكم.

وحين نصل للدولة المملوكية نجد أن العلماء وصلوا فيها إلى مكانة رفيعة، حتى أنهم صار يخصص لهم حيز واسع من كتب التراجم ، فمثلاً ابن خلكان(ت681هـ/1282م) في كتابه وفيات الأعيان، والذهبي (ت748هـ/1347م) في كتابه العبر في خبر من غبر، والصفدي (ت764هـ/1362م) في كتابيه الوافي بالوفيات وأعيان العصر، وابن حجر

---

(1) الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان (ت333 هـ /915م) المجالسة وجواهر العلم، ج2، تحقيق مشهور آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين 1999ص308 وسيشار له لاحقاً الدينوري، المجالسة وجواهر العلم.

(2) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن (ت255 هـ /869م) سنن الدارمي، ط1، تحقيق فواز ازمرلي وخالد العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت 2007 ص52 وسيشار له لاحقاً الدارمي، سنن الدارمي.

(3) القرآن الكريم، سورة فاطر، آية28. البغوي، الحسين بن مسعود(ت510 هـ /1117م) شرح السنة، ط2، ج1، تحقيق شعيب الارناؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق1983 ص 280 وسيشار له لاحقاً البغوي، شرح السنة. سعد الدين، محمد منير، العلماء عند المسلمين مكانتهم ودروهم في المجتمع، ط1، دار المناهل بيروت 1992، ص7 وسيشار له لاحقاً سعد الدين، العلماء عند المسلمين.

العسقلاني (ت852هـ/1448م) في كتابه الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، والسخاوي (ت902هـ/1496م) في كتابه الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، والغزي (ت1061هـ/1651م) في كتابه الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة كانوا قد خصّوا العلماء بجانب مهم في تراجمهم للأعيان[1].

مع الإشارة إلى أن العلماء لم يكونوا طبقة مستقلة لوحدها بل كانوا مندمجين مع كل فئات المجتمع فمنهم من وصل لمناصب عليا في الدولة، ومنهم من لم يجد قوت يومه[2].

إن لفظة علماء لم تقتصر في معناها على فئة محددة، بل أطلقت على فئات كثيرة، منهم المفسر والمحدث والفقيه والأصولي والمتكلم والنحوي وغيره، ومع تشعب هؤلاء إلا أن الجميع يتفقون على هدف واحد وهو إرشاد المتعلمين واستفتاء المستفتين ونصح الطالبين[3].

وهناك ألقاب اقترنت بهؤلاء العلماء مثل (الشيخ) فهو في غالب الأحيان ملازم لهم، ذكر القلقشندي أنه لقب خاص بالعلماء والصلحاء ولقب به أهل العلم توقيراً لهم[4]، ومن ألقابهم المدرِّس وهو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف وغير ذلك[5].

---

(1) زيادة، خالد، العلماء والأهالي والحكام، مجلة الفكر العربي، بيروت 1988، ص167 وسيشار له لاحقاً زيادة، العلماء والأهالي والحكام.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص365، ج3، ص297. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص36–37. لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص225.

(3) السبكي، معيد النعم ، ص67.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص17. النهار، عمار محمد، عصر المماليك البحرية العصر المفترى عليه، ط1، دار النهضة، سوريا 2007 ص236 وسيشار له لاحقاً النهار ، عصر المماليك البحرية.

(5)القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص436. النهار، عصر المماليك البحرية، ص236.

ويرى بعض الباحثين أنهم كانوا يكوّنون ذلك الجزء المثقف من المجتمع الإسـلامي، من قضاة وأئمة وفقهاء ومدرسين وحفظة قرآن ورواة حديث ومتصوفين[1]، ولا أصدر حكماً تعميمياً إن قلت أنه كان للعلماء مكانة كبيرة، فهذا السلطان الظاهر بيبرس استقبل المؤرخ عز الدين بن شداد(ت684هـ/1285م) [2] بعدما وصله من حلب هارباً من طغيان المغول الـذين أسقطوا حلب سنة (658هـ/1260م)، وأحسن وفادته وشمله بالإنعام والإكرام، ورد ابن شداد الجميل بان ألف كتاباً مدح فيه السلطان الظاهر بيبرس وأثنى على إنجازاته[3]، ابتدأ في الكتاب من سنة (672هـ/1273م-678هـ/1279م) وتحدث في هذه الفترة عن أبـرز الأحـداث السياسية التي مرت بها الدولة المملوكية مع ذكر وفيات كل سنة، ثم ينتقل لعنوان يسميه " ذكر ما يزهو على زهر الخميلة من جمل سيرته الجميلة "، خصصه لسيرة السلطان وصفاته، مـع العلم أن السلطان الظاهر بيبرس كان من السلاطين الذين يُعنون بالعلم وأهله، ويروى أنه كان يهتم بالتاريخ اهتماماً خاصاً، فيقول ابن تغري بردي: (وكان يميل إلى التاريخ وأهلـه مـيلاً زائداً ويقول: (سماع التاريخ أعظم من التجارب)[4].

---

[1] لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص182.

[2] عز الدين محمد بن علي بن شداد الأنصاري الحلبي، مؤرخ، من رؤساء الكتّاب. ولد بحلب وقام برحلـة إلى حران ومصر. وصنف كتاباً عن سيرة الملك الظاهر بيبرس عنوانه (تاريخ الملك الظاهر بيبـرس)، ناب عن الملك السعيد بركة خان في مأتم الملك الظاهر بيبرس، في دمشق، سنة (676 هـ /1277م) وكان معظماً عند الأمراء محبوبا لديهم. تولى ديوان الرسائل عند هولاكو وغيره من الملوك، واستوطن الديار المصرية بعد استيلاء التتار على حلب. وتوفي بالقاهرة سنة (ت684 هـ /1285م) الـصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص6. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص358.

[3] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ج1، ق1، ص2. النهار، عصر المماليك البحرية، ص229.

[4] ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص182. عبد المهدي، عبد الجليل حسن، الحركة الفكرية فـي ظل المسجد الأقصى في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، مكتبة الأقـصى، عمـان، 1980 ص80 وسيشار له لاحقاً عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى.

وهناك من الحكام من كان يخافهم ويشعر عند موت أحدهم بأن عائقاً قد أزيل عن دربه، فلما مرت جنازة الشيخ عز الدين بن عبد السلام (ت660هـ/1260م)، تحت القلعة وشاهد السلطان الظاهر بيبرس كثرة الخلق، قال لبعض خواصه: (اليوم استقر أمري في الملك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس اخرجوا عليه لانتزع الملك مني)[1]، ثم إن السلطان الظاهر بيبرس لم يبايع الخليفة المستنصر والخليفة الحاكم إلا بعد أن تقدمه الشيخ عز الدين بن عبد السلام [2]. وروي أن السلطان الظاهر بيبرس كان يقول عن محي الدين النووي[3]:(أنا أفزع منه)[4]، وبرغم أنه كان يواجه السلطان الظاهر بيبرس بالإنكار عليه في أفعاله، إلا أن السلطان كان يلاطفه ويحتمل جفوة كلامه ويخاطبه:(يا سيدي) [5].

ويقول ابن بطوطة: (وقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوماً لجلسائه: (إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري(ت728هـ/1327م)[6]، وقد كان الحريري قد ولي

---

(1) السبكي، عبد الوهاب بن علي (ت771 هـ /1369م) طبقات الشافعية الكبرى، ط2، ج8، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر،الرياض 1992 ص215 وسيشار له لاحقاً السبكي، طبقات الشافعية الكبرى.

(2) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص215.

(3) محي الدين النووي، كان إماما بارعاً مفتياً له تصانيف جمة، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وقد رثاه غير واحد بأكثر من ستمائة بيت (ت676 هـ /1274م) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص255-256. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص219.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص255.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص384.

(6) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص45. محمد بن عثمان بن أبي القاسم الحريري الدمشقي ولي قضاء دمشق ودرس بالظاهرية وغيرها ثم طلب إلى مصر فولي القضاء بالديار المصرية في سنة (710 هـ /1310م) (ت728 هـ /1327م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص290-291.

قضاء دمشق ودرس بالمدرسة الظاهـرية الجوانية[1] وغيرها، ثم طلب إلـى مـصر فـولي القضاء بالديار المصرية في سنة (710هـ/1310م) وأضيف إليه تدريس المدرسة الصالحية[2] والمدرسة الناصرية[3]، وكان حريصاً على تخليص الحقوق وفصل القضايا موصوفاً بالنزاهة لا يقبل من أحد هدية[4]، وهذا مؤشر واضح على أن السلاطين كانوا يخشون غضب العلمـاء فلا يقدمون على أي عمل من شأنه أن يجلب نقمة العلماء عليهم.

وكان العلماء يعفون من عادة تقبيل اليد أو تقبيل الأرض التي يقف عليها السلطان أو كبار الأمراء مع أنها عادات كان المماليك يتمسكون بها وذلك احتراماً لعلمهم وفضلهم[5].

ومن مظاهر احترام المماليك للعلماء نهوض بعـض الـسلاطين وقيـامهم والمـشي خطوات لاستقبالهم ومعانقتهم ومحادثتهم وملاطفتهم[6]، فحين قدم شيخ الصلاحية[7] شمس الدين محمـد بـن عطـاء الله الـرازي الهـروي (ت829هـ/1426م) [8] إلـى القـاهرة سـنة

(1) المدرسة الظاهرية الجوانية داخل بابي الفرج والفراديس، شرع في بنائها سـنة (676 هـــ /1277م) وكانت تعرف بدار العقيقي لتجعل مدرسة وتربة للملك الظـاهر. النعيمـي، الـدارس، ج1، ص418. بدران، منادمة الأطلال، ص119.

(2) المدرسة الصالحية بين القصرين من القاهرة، كان موضعها من جملة القصر الكبير الـشرقيّ، أنـشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل سنة (639 هــ /1241م) المقريزي، الخطط، ج4، ص217.

(3) المدرسة الناصرية بجوار قبة الإمام محمد بن إدريس الشافعي من قرافة مصر، أنشأها السلطان الناصـر صلاح الدين يوسف الأيوبي. المقريزي، الخطط، ج4، ص259.

(4) الذهبي، العبر، ج4، ص84. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص153.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص292. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص270. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص108.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص275.

(7) الخانقاه الصلاحية أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الصوفية في القـدس سـنة (585 هـــ /1189م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص47.

(8) شمس الدين محمد بن عطا الله الرازي الهروي ، من ذرية الفخر الرازي أصله من الري ومولده بهراة ، انتقل الى فلسطين وولي تدريس الصلاحية بالقدس سنة (815 هــ /1412م) ثم ولي القضاء بمصر مدة،

(818هـ/1415م)، أمر السلطان شيخ المحمودي أحد الأمراء أن يتلقاه خارج القاهرة وأن يصعد به خارج قلعة الجبل[1]، ثم أقبل عليه السلطان وأكرمه وأنزله في دار خاصة أعدت له، وفي أثناء إقامته رتب له السلطان في كل يوم مائتي درهم[2]، ولما قدم الشيخ شمس الدين الديري الحنفي(856ه/1452م) [3] المفتي من بيت المقدس تلقاه السلطان شيخ المحمودي بالقبول وولاه قضاء قضاة الحنفية[4]، كما كان السلطان شيخ المحمودي يعقد مجلساً في منزله لقراءة صحيح البخاري، وكان يصرف الكثير من الذهب والفضة للقراء وغيرهم من العلماء[5]، وكان يجتمع بالعلماء يومي الأحد والأربعاء " يتباحثون بالعلوم الشريفة ويتذاكرون في المسائل العويصة، وهو يسمعهم وربما يشاركهم بلطف وأدب "[6]، وكان يجتمع عنده العلماء في ليالي الجمع أيضاً، فقد روي أنه كان يجتمع عنده في غالب ليالي الجمع عدد من

=استقر أخيرا في القدس إلى أن توفي سنة (829 هـ /1426م) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص161 . ابن قاضي شهبه، تقي الدين بن أحمد (ت851 هـ /1447م) طبقات الشافعية، ط1، ج4، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت 1986 ص104 وسيشار له لاحقاً ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية.

(1) قلعة الجبل هذه القلعة تتصل بجبل المقطم، وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة، فتصير القاهرة في الجهة البحرية منها، ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش في الجهة القبلية الغربية، والنيل في غربيها، وجبل المقطم من ورائها في الجهة الشرقية، بناها قراقوش بهاء الدين أبو سعيد لصلاح الدين الأيوبي. المقريزي، الخطط، ج3، ص351-352.

(2) المقريزي، السلوك، ج4، ق1، ص312 . غوانمة، يوسف، القدس الشريف، دار الفكر، عمان 2002 ص 84- 85 وسيشار له لاحقاً غوانمة، القدس الشريف.

(3) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الديري الحنفي، بحث في العلوم على أخيه قاضي القضاة سعد الدين، والشيخ عبد السلام البغدادي وغيرهما. وشارك في الفنون. ونظم ونثر وعرف بين الأدباء. مات سنة (856 هـ /1452م) السيوطي،الإمام جلال الدين عبد الرحمن (ت911 هـ /1505م) نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت 1980 ص126 وسيشار له لاحقاً السيوطي، نظم العقيان

(4) العيني، السيف المهند، ص227. عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص80.

(5) العيني، السيف المهند، ص227. عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص81.

(6) العيني، السيف المهند، ص274.

الفقهاء والقراء والوعاظ، يقرأون ويتباحثون وينشدون القصائد والموشحات، ويمضي كل وقت لا يوجد له نظير، وأعد لهم من الأطعمة المختلفة والمواكيل الطيبة والمشارب الرائقة والفواكه البديعة بحيث أنهم يأكلون من ذلك ويحملون، وهذا شيء لم يفعله أحد قبله من الملوك، ومع هذا يحسن إلى كل واحد منهم بحسب ما يليق بحاله"[1]. وتضفي مخاطبة العلماء مظهراً من مظاهر الاحترام فقد كانت مخاطبة قاضي القضاة الشافعية في دمشق ب(المجلس العالي) أما بقية القضاة والخطباء فكانت مخاطبتهم ب(المجلس السامي) ومن دونهم ب(مجلس القاضي) أو (الشيخ)[2]، وإذا ولي القاضي القضاء في إحدى النيابات يلبس الخلعة بدار النيابة ويذهب إلى الجامع لقراءة التوقيع[3]، يرافقه القضاة والحاجب والوزير والأعيان[4]، وأحيانا يقيم لهم النائب الولائم ويبادلونهم الهدايا والزيارات[5]. وتمثلت مكانة العلماء في تشييع جنائزهم، فحين توفي أحمد بن ناصر الباعوني سنة (816هـ/1413م)[6]، كانت جنازته مشهودة[7]، ووصفت جنازة

---

(1) العيني، السيف المهند، ص274. عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص81.

(2) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص99.

(3) الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد (ت837 هـ /1434م) ثمرات الأوراق ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت1997ص42 وسيشار له لاحقاً الحموي، ثمرات الأوراق.

(4) النعيمي، الدارس، ج2، ص56. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص15.

(5) ابن طولون، إعلام الورى، ص171-191.

(6) شهاب الدين أحمد بن ناصر بن خليفة الباعوني الشافعي مولده بقرية باعونة من قرى عجلون ، ولي قضاء القضاة بدمشق وخطابة بيت المقدس. ودرس وقال الشعر وقدم القاهرة (ت816 هـ /1413م) ابن خطيب الناصرية، أبو الحسن علي بن محمد (ت843 هـ /1440م) الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية ، شريط رقم1176 ص185وسيشار له لاحقاً ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902 هـ /1496م) المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء والنووي، ج1، تحقيق محمد الخطراوي ، دار التراث ، المدينة المنورة 1989 ص13 وسيشار له لاحقاً السخاوي ،المنهل العذب . الضوء اللامع، ج2، ص231-232.

(7) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج4، ص21.

الشيخ إبراهيم الباعوني سنة (870هـ/ 1465م)[1] بأنها(كانت جنازته حافلة حضرها نائب الشام والأمراء والأعيان)[2]، ويعتبر حضور الأعيان لجنازة العلماء تقديراً لهم.

وهناك الكثير من الألقاب التي أطلقت على العلماء، وهي ذات دلالة على سمو المكانة التي حظوا بها مثل: ذخر الطالبين، وزين الأئمة، وسيف المناظرين، وشمس الأفق، وشمس الشريعة، وشمس العصر، وشمس المذاهب، وشيخ المشايخ، وصدر المدرسين، وصلاح الإسلام، وصلاح الملة، وضياء الإسلام، ومذل البدعة، وناصر السنة وغيرها[3].

ومن الكتاب من كان يقدم ذكر العلماء على الوزراء ويشير إلى عظمة دورهم فهذا ابن شاهين الظاهري يقول: (وقضاة القضاة أعظم الأركان وقعاً وأعمها نفعاً، وعليهم مدار مصالح الأمة عقلاً وشرعاً، ويقصد بهم نصب ميزان العدالة في الأحكام، وفصل القضاء بين الأنام عند الخصام)[4].ويقول أيضاً:(وفضائل العلماء كثيرة لا تحصى ومزاياهم عديدة لا يدرك أمرها ولا يستقضى)[5].

---

(1) إبراهيم الباعوني الدمشقي الصالحي، ونشأ بدمشق وطلب العلم، وبرع في عدة علوم من فقه وعربية وأدب، وغلب عليه الأدبيات، وله نظم رائق ونثر فائق، وولي خطابة الجامع الأموي بدمشق، وولي مشيخة الخانقاه الباسطية، وامتنع عن القضاء (ت870 هـ /1465م) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص26. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص43.

(2) الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص324 .

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج6، ص58.

(4) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص 75-76.

(5) ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص77.

ب – حالتهم الاقتصادية

يظهر أن الدولة كانت تدفع الرواتب أو الجوامك[1] للقضاة والمحتسبين ومدرسي المدارس والوعاظ، وقد تراوحت مرتباتهم الشهرية ما بين 20-500 درهم شهرياً[2]، وأجريت عليهم كذلك الأرزاق العينية مثل اللحم والتوابل والدقيق والسكر في المناسبات والأعياد[3]، كما أنهم حصلوا على اليسق[4] ، وكان لهم نصيب من الخلع والإنعامات السلطانية من الصوف بغير طراز ولهم كذلك الطرحة، وأفضلها أن يكون أبيض وتحته أخضر، وكانت العادة أن خلع الخطباء وهي التي كانت تسمى (السواد) تُحمل من الخزانة إلى الجوامع، وهي دلق مدور وشاش[5] أسود وطرحة سوداء وعلمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب[6]، مع الإشارة إلى أن هذه الأعطيات كانت على الشافعية فقط، أما القضاة المالكية والحنبلية فلم يحصلوا على هذه الأعطيات إذ لم يكن لهم معلوم لعدم انتظام توليتهما[7]، ونستطيع أن نتبين

---

(1) الجوامك مفردها الجامكية وهي لفظ فارسي مشتق من جامه بمعنى اللباس، أي نفقات أو تعويض اللباس الحكومي، وترد بمعنى الأجر أو الراتب أو المنحة. ابن كنان، محمد بن عيسى (ت1152 هـ /1740م) حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت 1991 ص113-114 وسيشار له لاحقاً ابن كنان، حدائق الياسمين. دهمان ، معجم الألفاظ التاريخية، ص51.

(2) ابن طولون، محمد بن طولون الصالحي (ت953 هـ /1546 م) القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ج1، ط2، تحقيق محمد دهمان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1980، ص261، وسيشار له لاحقاً ابن طولون، القلائد الجوهرية . النعيمي، الدارس، ج1، ص429.

(3) ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن محمد (ت804هـ/1401م)، الدر المنتخب في مملكة حلب ، تحقيق عبد الله درويش ومحمد ادوار ، دار الكتاب العربي ، دمشق 1984 ص 115 وسيشار له لاحقاً ابن الشحنة، الدر المنتخب. عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين، ص35.

(4) اليسق هي القلائد. ابن منظور، لسان العرب، ج10، ص387.

(5) الشاش نسيج رقيق من القطن تضمد به الجروح ونحوها ويستعمل أيضا لفافة للعمامة. مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، ص499

(6) المقريزي، الخطط، ج3، ص397. عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص29.

(7) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج1، ص139. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص254.

مرتبة القضاة الأربعة من كيفية جلوسهم بدار العدل مع النائب حسب الترتيب التالي: القاضي الشافعي ثم القاضي الحنفي ثم القاضي المالكي ثم القاضي الحنبلي[1].

أما المورد الأكثر أهمية وإدراراً على العلماء فهو الأوقاف والأحباس التي كانت توقف على المساجد والمدارس والبيمارستانات[2]، سواء كان ذلك من خلال التدريس والإعادة والتولية والنظارة على المدارس أو الإمامة في المساجد والأذان والشهادة في بيوت القضاء، إلا أن هناك تبايناً في مستوى دخل العلماء من ريع الأوقاف المخصصة للوظائف التدريسية والدينية فشريحة القضاة هي الأعلى دخولاً وهناك إشارات كثيرة على أن قاضي القضاة الشافعية يتولى عدداً من الوظائف، فالقاضي شمس الدين بن خلكان (ت681ه/1282م) [3] أسند إليه القضاء ونظر الأوقاف وتدريس سبع مدارس وهي: المدرسة العادلية[4]، والمدرسة الناصرية[5]، والمدرسة العذراوية[6]، والمدرسة الفلكية[7]، والمدرسة الركنية[8]، والمدرسة

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199. تدمري، تاريخ طرابلس، ج2، ص21.

(2) جبران، نعمان، مملكة حماة في العهدين الأيوبي والمملوكي الأول، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية 1981 ص192 وسيشار له لاحقاً جبران، مملكة حماة.

(3) أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان، صاحب (وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان) انتقل إلى مصر فأقام فيها مدة، وتولى نيابة قضائها، وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام، وعزل بعد عشر سنين، فعاد إلى مصر فأقام سبع سنين، وردّ إلى قضاء الشام، ثم عزل عنه بعد مدة، وولي التدريس في كثير من مدارس دمشق، وتوفي سنة (681 هـ /1282م) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص74. الصفدي، فوات الوفيات، ج1، ص110-119. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص89. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص371.

(4) المدرسة العادلية داخل دمشق أول من أنشاها نور الدين زنكي، وأتمها بعده الملك العادل. النعيمي، الدارس، ج1، ص271.

(5) المدرسة الناصرية شمالي الجامع الأموي أوقفها صلاح الدين الأيوبي . النعيمي، الدارس، ج1، ص350.

(6) المدرسة العذراوية أوقفتها الست عذراء بنت أخت صلاح الدين الأيوبي. النعيمي، الدارس، ج1، ص 283.

(7) المدرسة الفلكية أوقفها فلك الدين سليمان أخو الملك العادل الأيوبي. النعيمي، الدارس، ج1، ص327.

(8) المدرسة الركنية واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان العادلي. النعيمي، الدارس، ج1، ص 190.

الاقبالية[1]، والمدرسة البهنسية[2]، وربما أن التدريس في أكثر من مدرسة كان وسيلة يتبعها العلماء لزيادة مداخيلهم، فما يتقاضونه في المدرسة الواحدة لا يكفي، فهذا بهاء الدين السبكي (ت773هـ/1371م)[3] كان قد تولى قضاء العسكر[4] والوكالة السلطانية ونيابة الحكم الكبرى في مصر، ثم تولى قضاء الشام سنة (762هـ/1360م) ثم قضاء القضاة بالديار المصرية مع الوظائف المضافة إلى القضاء ثم درس بعدة مدارس بعد ذلك[5]

وكذلك بدر الدين محمد بن عبيدان البعلبكي (ت801هـ/1398م) [6] الذي درس بالمدرسة القواسية[7] والمدرسة الشامية الجوانية[8] وتولى قضاء بعلبك ونظر البيمارستان النوري[9]، ثم ولي بعد ذلك قضاء حمص[10]، أما شهاب الدين بن الفرفور الشافعي

---

(1) المدرسة الاقبالية واقفها جمال الدين بن إقبال عتيق ست الشام. النعيمي، الدارس، ج1، ص 118.

(2) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص192 . المدرسة البهنسية بجبل الصالحية واقفها أبو الأشبال الحارث بن مهلب وزير الملك الأشرف الأيوبي. النعيمي، الدارس، ج1، ص162.

(3) بهاء الدين السبكي، أحمد بن علي بن عبد الكافي أذن له بالإفتاء والتدريس وعمره عشرون سنة، ونظم الشعر الجيد، ولما ولي أبوه قضاء دمشق ولاه المنصور وظائف أبيه: تدريس المنصورية، والسيفية، ومشيخة الحديث بالجامع الطولوني، والجامع الظاهري، فقام بذلك أحسن قيام توفي سنة (773 هـ /1371م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص247. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص408-414.

(4) قضاء العسكر وهي وظيفة جليلة قديمة كانت في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاة، ويسافر مع السلطان إذا سافر، وهم ثلاثة: شافعيّ، وحنفيّ، ومالكيّ، وليس للحنابلة منهم حظ. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص37.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج29، ص299. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص122.

(6) محمد بن عبيدان البعلبكي، تفقه وشهد عند الحكام وتميز فيهم وأجازه الشيخ سراج الدين البلقيني (ت802 هـ /1399م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج4، ص176. السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص139.

(7) المدرسة القواسية واقفها الأمير عز الدين إبراهيم بن أحمد القواس. النعيمي، الدارس، ج1، ص331.

(8) المدرسة الشامية الجوانية واقفتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان. النعيمي، الدارس، ج1، ص227.

(9) البيمارستان النوري بدمشق وينسب إلى نور الدين محمود بن زنكي، أنشأه ضمن ما أنشأ من مدارس ودور العدل والخوانق والبيمارستانات والخانات سنة (563هـ/1167م) النويري، نهاية الأرب، ج27، ص167.

(10) ابن حجي، أحمد بن حجي الحسباني (ت816 هـ /1403م) الذيل على تاريخ ابن كثير" تاريخ ابن حجي " تحقيق عمر الشامي ، جامعة اليرموك 1999ص121 وسيشار له لاحقاً ابن حجي، تاريخ ابن حجي .

(ت910هـ/1504م)[1] فقد تولى نظر الجيش والترجمة ونظر القلعة[2] إضافةً إلى النظر والتدريس في الكثير من المدارس والمساجد ومشيختها، مما تطلب منه أن يزيد عدد النواب الذين ينوبون عنه في القضاء ونظر هذه الوظائف حتى وصل عددهم خمسة عشر نائباً[3]، ومن القضاة من كان يتولى القضاء في أكثر من مدينة مثل محمد بن أحمد بن الخويي (ت693هـ/1293م)[4] الذي ولي قضاء حلب ودمشق ومصر[5].

ويذكر المقريزي أن راتب القاضي في الشهر كان يبلغ خمسين ديناراً عدا ما كانوا يحصلون عليه من الأوقاف التي يتولون إدارتها إضافة إلى ما يجري عليهم من الغلال والشعير والخبز واللحم والأكسية[6]، ونستطيع أن نؤكد أن ما قاله المقريزي هو الحد الأدنى من الراتب، فهذا أحمد بن محمد بن الصلاح الأموي (ت840هـ/1436م)[7] كان قد عرض

(1) أحمد بن محمود بن عبد الله الشهير بابن الفرفور وكان جامعاً بين العلم والرئاسة والكرم وحسن العشرة ، ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق، ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر، وأبيح له أن يستنيب في قضاء دمشق من يختار، فعين ولده القاضي ولي الدين واستمرت بيده الوظيفتان إلى أن مات سنة (911 هـ /1505م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص143-146. ابن العماد، شذرات الذهب، ج10، ص71-72.

(2) ابن طوق، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت915 هـ /1509م) التعليق، ط1، ج1، تحقيق جعفر المهاجر، بيروت 2002 ص225 وسيشار له لاحقاً ابن طوق، التعليق. البصروي، تاريخ البصروي، ص54.

(3) البصروي، تاريخ البصروي، ص110-123-128.

(4) محمد بن أحمد بن الخليل بن الخويي، سمع في صغره من ابن اللتي، وابن المقير والسخاوي وابن الصلاح، وأجاز له خلق من أصبهان وبغداد ومصر والشام، ولازم الاشتغال في كبره (ت693 هـ /1293م) الذهبي ، تاريخ الإسلام، ج50، ص254-256. الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص313. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج2، ص97-98.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص804.

(6) المقريزي، الخطط، ج2، ص324.

(7) أحمد بن محمد بن الصلاح الأموي تفنن في العلوم ودرس وأفتى وناب في القضاء مدة ودخل في قضايا كبار وفصلها، ولي تدريس مشيخة خانقاه سعيد السعداء ثم ولي قضاء دمشق وباشره بعفة وسار سيرة مرضية (ت840 هـ /1436م) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج4، ص83-84.

عليه قضاء دمشق مقابل ألف دينار[1]، مع الإشارة إلى أنه في العصر المملوكي الثاني مع تراجع هيبة المؤسسات الإدارية وانتشار الرشوة والبرطلة وشراء المناصب يصبح منصب القضاء متاحاً لمن يبذل أكثر والأمثلة على ذلك كثيرة[2].

وهذا الشيخ تقي الدين بن قاضي عجلون[3] كان بيده نظر مدارس الركنية والمدرسة الفلكية[4] والمدرسة الشامية البرانية[5] والشجرية وكان معلومه سنة (890هـ/1485م) من مال وقف المدرسة الشامية البرانية مبلغ 10000 أشرفية[6].

---

(1) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج4، ص84.

(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص141، ص220، ج2، ص256، ج3، ص536. ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت953 هـ /1546م) قضاة دمشق " الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام "، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق 1956 ص124-125، 164، 210، 260. وسيشار له لاحقاً ابن طولون، قضاة دمشق.

(3) ابن قاضي عجلون تقي الدين أبو بكر بن عبد الله، تفقه على أشياخ بلده وبرع في الفقه وهو من بيت علم ورياسة ، ونشير هنا إلى أن السخاوي كان معاصراً له (ت 928 هـ /1522م). السيوطي، نظم العقيان، ص94. الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص116-118.

(4) المدرسة الفلكية غربي المدرسة الركنية الجوانية أنشأها فلك الدين سليمان أخو الملك العادل سيف الدين أبي بكر سنة (596 هـ /1199م) النعيمي، الدارس، ج1، ص327. بدران، منادمة الأطلال، ص137-138.

(5) المدرسة الشامية البرانية أنشأتها ست الشام زمرد بنت أيوب أخت الملك الناصر صلاح الدين سنة (582 هـ /1186م) وهي من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقهاء وأكثرها أوقافاً. النعيمي، الدارس، ج1، ص208-234. بدران، منادمة الأطلال، ص104-106. الشرعة، أوقاف المرأة في دمشق، ص78.

(6) ابن طوق، التعليق، ج1، ص551. الدنانير الأشرفية سكت في عهد السلطان برسباي سنة (829 هـ /1325م) لتحل محل الدنانير الافرنتية. المقريزي، السلوك، ج4، ق2، ص710 . فهمي، عبد الرحمن، النقود العربية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، المؤسسة المصرية، القاهرة 1964 ص98-100 وسيشار له لاحقاً فهمي، النقود العربية. بني حمد، فيصل عبد الله ، الأسواق الشامية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1992م ص 206 وسيشار له لاحقاً بني حمد، الأسواق الشامية في العصر المملوكي.

أما شريحة المفتين والمدرسين فلم تكن تقل أهمية عن القضاة، ويظهر أن مرتباتهم تختلف من فئة لأخرى فالذين يعينون من قبل السلطة خصص لهم مرتبات منتظمة من خزينة الدولة، بالإضافة إلى ما يحصلون عليه من إنعامات من الولاة والسلاطين[1]، ففي سنة (877هـ/1472م) خصص السلطان الأشرف قايتباي لشيخ مدرسته في القدس راتباً شهرياً قدره خمسمائة درهم[2]، أما الأقل شاناً من المدرسين فكانوا يتقاضون مابين عشرين إلى مائة درهم[3]، والذين كانوا يعينون من قبل أصحاب الأوقاف بنص مكتوب فقد كانوا يأخذون رواتبهم من إيرادات الوقف، وهذا يرتبط بريع الوقف وشروط الواقف وشهرة المدرس، فقد كان مدرس المدرسة القيمرية[4] يتقاضى مائة وخمسين درهماً في الشهر[5]، وبهذا يظهر أن العلماء تقاضوا رواتب جيدة أمنت لهم مستوى لائق من العيش وخصوصاً إذا كان ناظر المدرسة كريماً ومتقيداً بشروط الوقف[6].

ومن الجدير بالذكر أن بعض نظار المدارس كانوا يماطلون المدرسين أحياناً فلا يحصلون على مرتباتهم إلا بصعوبة وبإرضاء ذوي المناصب العليا وهذا ما دفع أبو شامة

---

(1) المقريزي، السلوك، ج4، ق1، ص440.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص294. غوانمة، القدس الشريف، ص92.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص112. عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص164. لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص231.

(4) المدرسة القيمرية الكبرى بدمشق واقفها مقدم الجيوش الأمير ناصر الدين حسين بن عبد العزيز(ت665 هـ /1265م) النعيمي ، الدارس، ج1، ص335 . الذهبي، العبر، ج3، ص312.

(5) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص261.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص84-321. ضومط، أنطوان خليل، دمشق الشام على عهد الدولة المملوكية ، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، دمشق 2001، ص405 وسيشار له لاحقاً، ضومط، دمشق الشام على عهد الدولة المملوكية.

المقدسي (ت665هـ/ 1266م)[1] إلى أن ينقطع عن المدرسة ويشتغل بزراعة أرضه متعللاً بفساد نظام الوقف وما جره على المدارس من إبعاد أهل الكفاءة من بين مدرسيها[2]، ويشار هنا إلى أن ما حصل مع أبو شامة المقدسي هو في بدايات العصر المملوكي وفي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي هناك إشارات كثيرة عن فساد نظام الوقف والاستيلاء عليه من قبل النظار[3]. وأحياناً كانت الدولة تتدخل لتخفيض رواتب الموظفين نتيجة الحروب مثل غزوات المغول[4] التي كانت تضر بالاقتصاد، وكذلك الغزو الفرنجي لسواحل الشام[5]، مع العلم أن الحروب لم تكن وحدها التي أضرت بالاقتصاد فالكوارث الطبيعية كالجفاف وقلة الأمطار[6]، والسيول والفيضانات[7]، والعواصف الثلجية[8] والصقيع[9]، والآفات الزراعية

---

(1) شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي، الفقيه المؤرخ المعروف بأبي شامة شيخ دار الحديث الأشرفية، ومدرس الركنية، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة، له اختصار تاريخ دمشق في مجلدات كثيرة، وله شرح الشاطبية، وله في المبعث وفي الإسراء، وكتاب الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية، وله الذيل على ذلك (ت665 هـ /1266م) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص290-291. الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص270.

(2) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665 هـ /1266م) ذيل الروضتين، ط1، نشره عزت العطار، دمشق 1947 ص222 وسيشار له لاحقاً أبو شامة، ذيل الروضتين. بدوي، أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ، دار النهضة، القاهرة 1972 ص81 وسيشار له لاحقاً بدوي، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية .

(3) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص296-297-327-328-532-566.

(4) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص219. لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص129-130.

(5) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج2، ص186. المقريزي، السلوك، ج3، ق1، ص149.

(6) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص286. الجزري، شمس الدين محمد بن إبراهيم (ت768 هـ /1366م) تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه " تاريخ ابن الجزري " ، ط1، ج3، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت 1998 ص280 وسيشار له لاحقاً الجزري، تاريخ ابن الجزري.

(7) الدوادار، التحفة الملوكية، ص72. النويري، نهاية الأرب، ج30، ص177. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص128-129.

(8) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج3، ص63-64. ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج1، ص413. المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص673.

(9) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص98.

كالجراد والفئران[1]، كلها كانت وبالاً على اقتصاد الدولة المملوكية، وكان العلماء كغيرهم يقتطع من رواتبهم أحياناً، فقد تم اقتطاع مدفوعات شهرية من رواتب القضاة والمدراء وخطباء المساجد[2]، ومن شرائح العلماء هناك الشهود[3] وهؤلاء حصلوا على دخول مجزية من مخصصاتهم من الأوقاف[4]، ومما تقاضوه عن شهاداتهم في القضايا إلى جانب الوظائف التي يتولونها[5]، مثل شرف الدين قاسم بن قراكز الحنفي[6] أحد الرؤساء بجامع بني أمية والشهود بباب البريد[7]، أما حجم تركات العلماء فهي مؤشر دال على مستوى اقتصادي واجتماعي رفيع ففي سنة (886هـ/1481م) تسلم الشيخ شهاب الدين بن حجي[8] مبلغ عشرة آلاف درهم جامكية عن نصف الإعادة والمشارفة بالمدرسة البادرائية[9] وجرايته لآخر سنة (885هـ/1480م)[10]، وتسلم الشيخ محمد بن أحمد أبو الفضل القدسي[11] معلومه من تدريس

---

(1) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص239. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص176. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص923.

(2) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص219. لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص129-130.

(3) الشهود هم الذين يختارهم القاضي لمساعدته في عمله القضائي، ويختصون عادةً بالنظر في صحة الإجراءات القضائية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج10، ص279-280. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص40.

(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص153.

(5) ابن طوق، التعليق ، ج2، ص535.

(6) ابن قراكز الحنفي، قاسم الحنفي الشهير بابن قراكز الحنفي المؤذن بالجامع الأموي ، دفن بتربة الشيخ أرسلان (ت894 هـ /1489م). الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص216.

(7) ابن طوق، التعليق، ج2، ص857. باب البريد اسم لأحد أبواب جامع دمشق، وهو من أنزه المواضع، وقد أكثر الشعراء من ذكره ووصفه والتشوق إليه. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص306. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص143.

(8) أحمد بن حجي القاضي شهاب الدين الدمشقي أحد عقلاء دمشق (ت907 هـ /1501م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص135.

(9) المدرسة البادرائية داخل باب الفراديس بدمشق واقفها أبو محمد عبد الله بن عثمان البادرائي. النعيمي، الدارس ج1 ص154.

(10) ابن طوق، التعليق، ج1، ص177.

(11) محمد بن أحمد أبو الفضل القدسي الشافعي ويعرف بابن النجار برع وتميز في الفضائل وتصدى للإقراء والإفتاء، كان ورعاً متواضعاً فقيراً (ت887 هـ /1482م) السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص129.

المدرسة الركنية الجوانية الشافعية 2160 درهماً[1] وتوفي الشيخ الحويري وترك نحو 18000 درهم و 300 أشرفي[2]، وقد بلغت تركة شيخ المغاربة[3] وهو عبد الله القليني المغربي[4] في دمشق سنة (879هـ/1474م) عشرين ألف دينار[5] وعندما فتحت قاعة المتوفى شهاب الدين الصابوني (ت873هـ/1468م)[6] يقال أنهم وجدوا نحو خمسين ألف دينار[7] أما تركات ابن القطب فكانت 4300 اشرفي إضافة إلى القماش والنحاس والكتب والتحف والأواني الصينية، والمصاغ والدواب والخشب والأثاث والعقار والأرض والغراس وريع الأوقاف والاقطاعات[8].

ج – تنقل العلماء

إن من يتابع العلماء كقوة فاعلة يجد أنهم تنقلوا بين مدن دمشق والقاهرة والقدس وغزة وغيرها وهذا التنقل تتعدد أسبابه، فمنها ما هو نتيجة الغزو المغولي وهناك أسماء علماء بارزين فروا من وجه الغزو المغولي إلى مصر مثل كمال الدين عمر

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج1، ص288.

(2) ابن طوق، التعليق، ج1، ص504.

(3) قدم المغاربة الى دمشق منذ انهيار دولة الموحدين سنة (667 هـ /1268م) وكان للاضطرابات السياسية وسوء الأوضاع الاقتصادية أثر في ذلك. الناصري، أحمد بن خالد (ت1315 هـ /1897م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، تحقيق جعفر الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1997 ص27 وسيشار له لاحقاً الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب. الكوفحي، محمد تاج عبد الحميد، المغاربة في دمشق خلال القرن 18م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 2000م ص 25–38 وسيشار له لاحقاً الكوفحي، المغاربة في دمشق.

(4) عبد الله القليني المغربي المالكي، مات في المحرم سنة (879 هـ /1474م) في رجوعه من الحج وكان يذكر بالفضل. السخاوي، الضوء اللامع، ج5، ص76.

(5) البصروي، تاريخ البصروي، ص69.

(6) شهاب الدين الصابوني، توفي سنة (873 هـ /1468م) مرسماً عليه بجامع القلعة ودفن بالمدرسة التي جددها خارج باب الجابية، وقد أقام فيها فترات ومدة إقامته بالقلعة إحدى وثمانون يوماً. البصروي، تاريخ البصروي ، ص34.

(7) البصروي، تاريخ البصروي، ص36.

(8) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1293.

بن العديم (ت660هـ/1261م)[1] الذي لجأ إلى مصر بعدما شاهد ما حل بحلب من خراب وتولى في مصر عدة مناصب[2]، وعز الدين محمد علي بن شداد (ت684هـ/1285م)[3]، وكذلك جلال الدين إبراهيم بن محمد القلانسي (ت722هـ/1322م)[4] فقد هرب من المغول إلى مصر وأقام فيها لنفسه زاوية[5]، وللسبب نفسه انتقل عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيميّة الحرّاني(ت682هـ/1283م)[6] والد العالم المعروف ابن تيمية الحراني من حران[7] إلى حلب ثم دمشق ومعه أولاده ومنهم ابن تيمية العالم المعروف (ت 728هـ/1327م)[8].

---

(1) عمر بن أحمد العقيلي المعروف بابن العديم ، درس وأفتى وصنف وجمع تاريخاً لحلب في نحو ثلاثين مجلداً، ناب في سلطنة دمشق وله معرفة بالتاريخ والحديث وأيام الناس (ت660 هـ /1261م) الذهبي، العبر، ج3، ص300. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج22، ص259-260. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص273.

(2) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص308.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة ، ج1، ق1، ص1.

(4) جلال الدين إبراهيم بن محمد القلانسي، اشتهر وتردد إليه الكبار انشأ زاوية ثم تحول إلى القدس، قدم قبيل وفاته دمشق فنزل بمغارة العزيز توفي بالقدس سنة (722 هـ /1322م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج1 ص17

(5) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص17.

(6) عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن تيميّة الحرّاني قرأ المذهب حتّى أتقنه على والده، ودرّس، وأفتى، وصار شيخ البلد بعد أبيه، وخطيبه، وحاكمه. وكان إماما محقّقا، كثير الفنون وكان من أعيان الحنابلة، باشر بدمشق مشيخة دار الحديث السّكّرية بالقصّاعين (ت682 هـ /1283م) الذهبي، العبر، ج3، ص349-350. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج18، ص42.

(7) حران مدينة من جزيرة اقور هي قصبة ديار مضر وهي على طريق الموصل والشام. الحموي، معجم البلدان ج2 ص235. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص389. الحميري، الروض المعطار، ص191.

(8) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج51، ص105. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص142-151.

ومن أسباب تنقل العلماء الرحلة لطلب العلم فمحمد بن إبراهيم بن عبد الواحد الحنبلي (ت670ه/1271م)[1] ارتحل في طلب العلم إلى بلاد المشرق كلها وبغداد واربل[2] والموصل وحلب واستقر به المقام قاضياً للقضاة في القاهرة [3]، فالمدن الكبرى مثل دمشق وحلب والقدس كانت تستقطب العلماء نظراً لما امتازت به كمراكز حضارية، وقد حفظت كتب التاريخ والأدب أسماء مئات من رجال العلم والدين والأدب ارتحلوا في طلب العلم والتفقه في الدين وتولى كثير منهم وظائف مثل القضاء وغيره، فهذا إسماعيل بن خليفة الحسباني الشافعي (ت778هـ/1376م) [4] رحل في طلب العلم فقدم القدس وتفقه على علمائها ثم استقر في دمشق وواكب على الدراسة والتحصيل حتى انتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي وقد اشتغل بالتدريس بالمدرسة الفتحية[5] والمدرسة الجاروخية[6] والمدرسة الأمينية[7] بدمشق،

---

(1) محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد استوطن مصر بعد الأربعين ورأس بها مذهب احمد، وصار شيخ الإقليم في الأيام الظاهرية ، وكان إماماً محققاً كثير الفضائل توفي بالقاهرة سنة (670 هـ /1271م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص449.

(2) اربل مدينة كبيرة تقع بين الزابين، تعدّ من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص138. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص51.

(3) ابن رجب، عبد الرحمن بن احمد (ت795 هـ /1392م) ذيل طبقات الحنابلة، ج2، تحقيق محمد الفقي ، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1952، ص294 وسيشار له لاحقاً، ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة.

(4) إسماعيل بن خليفة بن عبد الغالب الحسباني الدمشقي تفقه بالقدس ثم دمشق وبرع حتى انتهت إليه رئاسة المذهب ببلده مع الدين والتواضع وشرح المنهاج في عشر مجلدات على نمط الإردبيلي مشيخة وشرع في تكميل شرح المهذب (ت778 هـ /1376م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص435. الطهطاوي، أحمد رافع بن محمد الحسيني (ت1355 هـ /1936م) التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ، مطبعة الترقي، دمشق1930 ص108 وسيشار له لاحقاً الطهطاوي، التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ.

(5) المدرسة الفتحية أنشأها الملك الغالب فتح الدين صاحب بارين نسيب صاحب حماة وبها قبر الواقف ووقفها بالديار المصرية وهي مجهولة المكان. النعيمي، الدارس، ج1، ص325. بدران، منادمة الأطلال، ص136.

(6) المدرسة الجاروخية داخل بابي الفرج والفراديس لصيقة الاقبالية الحنفية شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية أنشأها سيف الدين جاروخ التركماني. النعيمي، الدارس، ج1، ص169. بدران، منادمة الأطلال، ص92.

(7) المدرسة الأمينية قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي واقفها أمين الدين كمشتكين بن عبد الله الطغتكيني النعيمي، الدارس، ج1، ص132–133. بدران، منادمة الأطلال، ص86.

وناب في القضاء حتى قيل عنه أنه:(أحد أئمة المذهب المشار إليه)[1]. أما شمس الدّين محمد بن أحمد بن أبي بكر الطّرابلسي (ت799هـ/1396م)[2] فقد ارتحل إلى دمشق والقاهرة ليستزيد من العلم، كما درس بالمدرسة الصرغتمشية[3] في القاهرة، وعمل في القضاء ثم سافر إلى الحجاز وأقام في مكة ثم تولى القضاء بالديار المصرية مرات عديدة[4]، وهذا إبراهيم بن موسى الكركي الشافعي (ت853هـ/1449م)[5] رحل إلى دمشق وبيت المقدس والخليل سعياً لطلب العلم إلى أن استقر في مصر، وأخذ العلم في بلبيس ودمنهور[6] والقاهرة ثم تولى الإقراء والقضاء بالمحلّة[7] ثم أسند إليه قضاء منوف[8]، ومحمد بن عبد الله الهكاري

---

(1) السبكي، طبقات الشافعية، ج3، ص83-84. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص136-137. غوانمة، تاريخ شرق الأردن، ج2، ص141.

(2) محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي، تفقه بدمشق على صدر الدين بن منصور، وقدم القاهرة فتقرر طالباً بالصرغتمشية وأخذ عن السراج الهندي وناب عنه في الحكم، وسمع على الشيخ جمال الدين الأميوطي بمكة، وولي القضاء بالقاهرة مرتين استقلالاً وكان خبيراً بالأقضية عارفاً بالوثائق (ت799 هـ /1396م). ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص539.

(3) المدرسة الصرغتمشية خارج القاهرة بجوار جامع الأمير أبي العباس أحمد بن طولون، كان موضعها قديما من جملة قطائع ابن طولون، فأخذها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصريّ رأس نوبة النوب وهدمها وابتدأ في بناء المدرسة سنة (756 هـ /1355م) المقريزي، الخطط، ج4، ص264.

(4) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص539. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص157. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص615. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص204.

(5) إبراهيم بن موسى بن بلال بن عمر بن مسعود ، الشيخ برهان الدين الكركي، الشافعي، المقرئ. حضر دروس السراج البلقيني، واشتغل في الفقه، والنحو وغيرهما من الفنون على البدر الطنبدي، والولي العراقي، والبرهان البيجوري، والشمس البرماوي، وابن الهائم وغيرهم. وصنف كتبا منها: " الإسعاف في معرفة القطع والإستئناف " و" لحظة الطرف في معرفة الوقف " و " نكت على الشاطبية (ت853 هـ /1449م) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص175-176. السيوطي، نظم العقيان، ص29.

(6) دمنهور بلدة بينها وبين الإسكندرية يوم واحد في طريق مصر متوسطة في الصغر والكبر. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص472. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص535. الحميري، الروض المعطار، ص237.

(7) المحلّة مدينة مشهورة بالديار المصرية وهي عدة مواضع محلّة دقلا، ومحلة أبي الهيثم، ومحلة شرقيون ومحلة منوف، ومحلة نقيدة، ومحلة الخلفاء. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص63-64. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1236.

(8) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص175-176. الادنروي، أحمد محمد (من وفيات القرن 11 هـ /17م) طبقات المفسرين، ط1، تحقيق سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية 1997، ص331

الصلتي[1] رحل إلى دمشق فسمع على بعض العلماء والفقهاء وتولى قضاء كل من القدس ونابلس والخليل وآخر ما تولى قضاء حمص حتى توفي سنة (786هـ/1384م)[2].

أما حلب فلم تكن أقل نصيباً من المدن الأخرى فقد وفد إليها من الأندلس محمد بن عبد الله الطائي الجياني (ت672هـ/1273م) [3] وتزود من العلوم وجالس علماءها[4]، وجاءها عبد الله بن محمد النيسابوري (ت776هـ/1373م) [5] وكان بارعاً في الأصول والعربية[6]، وأيضاً أحمد بن يوسف بن مالك الرّعيني الغرناطي الأندلسي (ت779ه/1376م) [7] وكان عارفاً

وسيشار له لاحقاً الادنروي، طبقات المفسرين. غوانمة، تاريخ شرق الأردن، ج2، ص148. منوف من قرى مصر القديمة لها ذكر في فتوح مصر، ويضاف إليها كورة فيقال كورة رمسيس ومنوف. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص216. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1325.

(1) محمد بن عبد الله بن أحمد الهكاري ثم الصلتي، شمس الدين، ولي قضاء حمص أخيراً وكان اشتغل على أبيه بالصلت، وكان مدرساً ثم درس بعد أبيه ثم قدم دمشق فسمع بها، وكان لا يمل من الاشتغال بالعلم وتعليق الفوائد، وتنقل في قضاء البر، ولخص ميدان الفرسان في قدر نصفه (ت786 هـ /1384م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص297.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص126. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067 هـ /1657م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج2، مكتبة المثنى، بغداد 1941 ص1916 وسيشار له لاحقاً حاجي خليفة، كشف الظنون. غوانمة، تاريخ شرق الأردن، ج2، ص150.

(3) محمد بن عبد الله الطائي الجياني ، صاحب التصانيف المشهورة المفيدة، منها الكافية الشافية وشرحها، والتسهيل وشرحه، والالفية التي شرحها ولده بدر الدين شرحاً مفيداً، ولد بجيان، وأقام بحلب مدة، ثم بدمشق.وكان كثير الاجتماع بابن خلكان وأثنى عليه غير واحد (ت672 هـ /1273م) الذهبي، العبر، ج3، ص326. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص149-150.

(4) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص131. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص312-313.

(5) عبد الله بن محمد الحسيني النيسابوري، الشريف جمال الدين، ولي تدريس الأسدية بحلب وغيرها، وأقام بدمشق مدة وبالقاهرة مدة، وولي مشيخة بعض الخوانق، وكان يتشيع (ت776 هـ /1373م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص85.

(6) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج3، ص68-70.

(7) أحمد بن يوسف بن مالك الرّعيني الغرناطي الأندلسي كان شاعراً، عارفا بفنون الأدب، وكان رفيقه عالماً بالعربية، مقتدرا على النّظم، واستوطن البيرة من عمل حلب، وانتفع به أهل تلك البلاد (ت779 هـ /1376م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص189. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن

بالنحو وفنون اللّسان، مقتدرا على النّظم والنثر، كثير التأليف في العربية وغيرها[1]، ومن خرتبرت[2] جاء جمال الدّين يوسف بن موسى بن محمد الملطي الذي تصدى للتدريس والإفتاء بحلب وولي بالإضافة إلى ذلك قضاء حلب حتى وفاته سنة (803هـ/1400م)[3]. ويشار هنا إلى أن هجرة العلماء إلى المدن والحواضر الكبرى لم تكن حكراً على العرب فيذكر ابن إياس في وفيات سنة (890هـ/1485م) أن الأخبار جاءت بوفاة الشيخ سعد الله الحنفي الهندي [4] القادم من الهند إمام المسجد الأقصى[5].

ويذكر العليمي في كتابه الأنس الجليل أن مدينة بيت المقدس كانت حافلة بالكثير من العلماء المغاربة الذين وفدوا إليها في عصر سلاطين المماليك وكانت لهم مشاركات كثيرة في العلوم الدينية[6]، فقد كانت بيت المقدس إحدى المراكز العلمية الهامة في عصر سلاطين المماليك وما يدلل على ذلك أن كبار العلماء وفدوا إليها وتلقوا تعليمهم بها، مثل مؤرخ الشام

(ت911 هـ/1505م) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية لبنان 19 ص35 وسيشار له لاحقاً السيوطي، بغية الوعاة.

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص159-160.

(2) خرتبرت اسم أرمنيّ لحصن يعرف بحصن زياد، في أقصى ديار بكر، من بلاد الروم، بينه وبين ملطية مسيرة يومين، وبينهما الفرات. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص355. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص457.

(3) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص196-199. جمال الدّين يوسف بن موسى بن محمد الملطي اشتغل، وحصّل، وأفتى، ودرّس، وكان يستحضر الكشاف والفقه على مذهبهم، فاستدعاه برقوق لما مات الشمس الدّين الطّرابلسي، فحضر من حلب سنة (800 هـ/1397م) واستقرّ في قضاء الحنفية مدة قدرها مائة وعشرة أيام (ت803 هـ/1400م) السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص335-336.

(4) سعد الله بن حسين الفارسي السلماسي الحنفي المقري نزيل بيت المقدس وإمام الحنفية بالأقصى. قدم من بلاده وكان شافعياً فتحنف وأخذ بالقاهرة عن سعد الدين بن الديري وناب في قضاء دمشق عن العلاء بن قاضي عجلون، واستقر أخيراً في إمامة الحنفية بالأقصى (ت890 هـ/1485م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص246.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص745.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص152-210-244-245-255-362.

المعروف شمس الدين الذهبي (ت748هـ/1347) [1] وشهاب الدين أحمد بن حجي فقيه الشام (ت816هـ/1413م) [2]، وإن كثيراً من العلماء كانوا يفضلون الحياة في القدس على المعيشة في القاهرة ، فهذا جمال الدين عبد الله محمد البلخي (ت698هـ/1299م) [3] والذي كان يشتغل بالعلم بالقاهرة انتقل للقدس إلى أن توفي بها وله مصنف كبير جمع فيه خمسين مصنفاً من التفسير[4]. كما أن الشيعة الذين كانوا في بعض النيابات الشامية ارتحلوا أيضاً في طلب العلم حيث مشايخ الشيعة ومزاراتهم، فهذا الشيخ جمال الدين بن الحسام إبراهيم بن أبي الغيث الصفدي (ت736ه/1336م) [5] ارتحل إلى العراق ودرس على شيوخ الشيعة هناك[6]، والشيخ شمس الدين محمد بن جمال الدين مكي المشهور بالشهيد الأول (ت786هـ/1384م) الذي

---

(1) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الأصل الفارقي ثم الدمشقي ولي تدريس الحديث بتربة أم الصالح وبالمدرسة النفيسية جمع تاريخ الإسلام واختصر منه مختصرات كثيرة منها العبر وسير النبلاء وملخص التاريخ وطبقات الحفاظ وطبقات القراء، واختصر السنن الكبير للبيهقي فهذبه وأجاد فيه وله الميزان في نقد الرجال واختصر تهذيب الكمال لشيخه المزي وخرج لنفسه المعجم الكبير (ت748 هـ/1347) الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص315-317. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص66-68.

(2) النعيمي، الدارس، ج1، ص153-154. علي، القدس في العصر المملوكي، ص123. أحمد بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد بن غشم بن غزوان بن علي الحسباني درس وأفتى وأعاد وناب في الحكم وصنف وكتب بخطه الحسن ما لا يحصر وجمع فوائد في علوم متعددة في كراريس كثيرة سماها جمع المفترق وكتابا سماه الدارس من أخبار المدارس يذكر فيه ترجمة الواقف وما شرطه وتراجم من درس بالمدرسة إلى آخر وقت وكتب ذيلا على تأريخ ابن كثير (ت816 هـ/1413م) الفاسي، محمد بن أحمد بن علي(ت832 هـ/1429م) ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، ط1، ج1، تحقيق كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت 1990 ص304 وسيشار له لاحقاً الفاسي، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد. السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص12-14.

(3) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان بن حسن البلخي ثم المقدسي مدرس العاشورية بالقاهرة. قدم مصر فسمع بها من يوسف بن المخيلي، وصنف تفسيرًا كبيرًا إلى الغاية، وكان إمامًا زاهدًا عابدًا مقصودًا بالزيارة متبركًا به أمارًا بالمعروف كبير القدر (ت698 هـ/1299م) الذهبي، العبر، ج3، ص392-393.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص6.

(5) جمال الدين بن الحسام إبراهيم بن أبي الغيث الصفدي الفقيه الشيعي المقيم بمجدل سلم قرية من بلاد صفد من نواحي النباطية والشقيف، رحل إلى العراق وأخذ عن ابن المطهر كان ذا مجلسين أحدهما معد للوفود والآخر لطلبة العلم ونهاره مقيم تارة يجلس إلى من زاره وتارة يجلس لطلبة العلم وجوده يصل إلى المجلسين غداء وعشاء (ت736 هـ/1336م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص52-53.

(6) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص53. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص266.

ذهب إلى العراق سنة (750هـ/1349م) وأقام هناك حوالي خمس سنوات ثم عاد إلى جبل عامل[1]، والشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي (ت905هـ/1500م)[2] الذي ذهب إلى العراق وأقام مدة في كربلاء، ثم عاد إلى موطنه في جبل عامل[3].

ويلاحظ أن العلماء كانوا يحصلون بسهولة على فرص عمل في مدن غير مدنهم، ونالوا مكانة اجتماعية مرموقة مثل اسحق بن أبي بكر النحاس (ت710هـ/1310م)[4] الذي لجأ إلى دمشق لما استولى المغول على حلب فرتب دروساً بدار الحديث الأشرفية[5] بعد ابن مشرف[6]، وكذلك طيبغا الشريف(ت815هـ/1412م)[7]، نقيب الأشراف بحلب الذي هاجر إلى دمشق أثناء وقعة تيمورلنك سنة (803هـ/1400م)، وأقام بها وحدث وعلم الخط إلى أن

---

(1) الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج7، تحقيق حسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت 1973 ص36-44 وسيشار له لاحقاً الأمين، أعيان الشيعة. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص266.

(2) تقي الدين إبراهيم بن علي الكفعمي نسبته إلى قرية (كفر عيما) بناحية الشقيف، بجبل عامل، ومولده ووفاته فيها. أقام مدة في كربلاء، وصنف 49 كتاباً ورسالة، منها الجنة الواقية وحياة الأرواح ومشكاة المصباح ونهاية الأرب في أمثال العرب وغيرها(ت905 هـ/1500م) الأمين، أعيان الشيعة، ج5، ص280-283.

(3) الأمين، أعيان الشيعة، ج5، ص280-283. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص266.

(4) إسحاق بن أبي بكر بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق الأسدي، أبو الفضل الحلبي الحنفي النحاس. ورتب سمعاً بدار الحديث الأشرفية بعد ابن مشرف، وكان له حانوت، ثم تركه وبقي يحضر المدارس. (ت710 هـ/1310م) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص484-485. الفاسي، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، ج1، ص479.

(5) دار الحديث الأشرفية جوار باب القلعة الشرقي غربي العصرونية وشمالي القيمازية الحنفية، كانت داراً للأمير صارم الدين قايماز بن عبد الله النجمي فاشتراها الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل وبناها دار حديث سنة (630 هـ/1233م) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج45، ص52. النعيمي، الدارس، ج1، ص15. بدران، منادمة الأطلال، ص24.

(6) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، 423-424. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص356-357.

(7) طيبغا الشريف، عتيق الشريف شهاب الدين نقيب الأشراف بحلب، سمع مع أولاده من الجمال بن الشهاب محمود، وتعلم الخط معهم من الشيخ حسن ففاق في الخط الحسن وكتب الناس عليه، واستقر في وظيفة تعليم الخط بالجامع الكبير وتسمى عبد الله، ثم أجلسه الكمال ابن العديم مع العدول وفر في الكائنة العظمى إلى دمشق فأقام بها مدة وحدث بها وعلم الخط إلى أن مات سنة (815 هـ/1412م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، 528-529. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص13. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص165.

توفي[1]. ومن العلماء من تميز في مجال الطب وبرع فيه ونال حظوة عند السلاطين مثل إبراهيم بن عبد الله الخلاطي الحسيني (ت799هـ/1396م)[2] الذي هاجر إلى مصر وأصبح طبيب السلطان الظاهر برقوق إلى أن توفي[3].

وكانت مدينة دمشق تستقطب العلماء نظراً لما امتازت به كمركز حضاري فقد وفد إليها القاضي محب الدين أبو الفضل بن الإمام (ت909هـ/1503م)[4] الذي قدم من صفد[5] ووجيه الدين النويري العقيلي المكي الذي قدم من مكة إلى دمشق سنة (922هـ/1516م)[6]. أما زوال الوجود العربي الإسلامي في الأندلس فقد رافقه هجرات كثير من العلماء تجاه المشرق والمغرب ويظهر أن قسماً منهم وفد إلى دمشق سنة (897هـ/1491م) كما يذكر ابن طوق في التعليق : (جاؤوا في هذه السنة من بلاد الأندلس التي أخذها الكفرة)[7]، وسرعان ما استوعب المجتمع الشامي

(1) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص13.

(2) إبراهيم بن عبد الله الخلاطي الحسيني كان يعيش عيش الملوك ولا يتردد لأحد، وكان ينسب إلى الرفض لأنه كان لا يصلي الجمعة، ويدّعي من يتبعه أنه المهدي، وكان في أول أمره قدم حلب أي من بلاد العجم التي نشأ بها فنزل بجامعها منقطعا عن الناس، فذكر للظّاهر أنه يعرف الطب معرفة جيدة، فأحضره إلى القاهرة ليداوي ولده فلم ينجع، فاستمر مقيما بمنزله على شاطئ النيل إلى أن توفي سنة (799 هـ/1396م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص531. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص608.

(3) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص34.

(4) محب الدين أبو الفضل بن القصيف الدمشقي واشتغل وبرع وأفتى، ودرس بالمدرسة القصاعية سنين عديدة، وسمع الحديث من أبي الفتح المزي والتقي بن فهد وغيرهما، وصنف كتاب " دليل المختار إلى مشكلات المختار " ولم يتم وولي قضاء الشام مرات (ت909 هـ/1503م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص57-58.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص156.

(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج2، ص23.

(7) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1092.

هؤلاء العلماء حتى أن أحدهم وهو شرف الدين يحيى المغربي الأندلسي[1] أصبح قاضي قضاة المالكية في القدس سنة (888هـ/1483م)[2] ويُذكر أنَ الأندلسيين هاجروا إلى بلاد الشام دون غيرها لأنها أكثر ملائمة للأندلسيين من الناحية الطبيعية والاقتصادية التي تجسدت بتوفير فرص العيش، إضافةً إلى معاملة الأهالي هذه المعاملة التي يتميز بها الشاميون عن غيرهم من أهل المشرق[3]، وكان التعسف الفرنجي من أسباب التنقل فآل قدامه[4] هاجروا من جماعيل[5] وياسوف[6] وقراوى[7] وغيرها منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي من قرى نابلس واستقروا في دمشق وكان ضمنهم ثلة من العلماء[8].

---

(1) شرف الدين يحيى المغربي، كان من أهل العلم ماهراً في العربية اشتغل بالعلم بالأندلس على قاضيها ابن الأزرق تولى قضاء المالكية بالقدس ثم عزل عنها وتوجه للقاهرة ثم للحجاز وتوفي بجازان سنة (895 هـ/1489م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص253-254.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص253-254.

(3) أحمد، علي، الأندلسيون في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2008، ص443 وسيشار له لاحقاً أحمد، الأندلسيون في بلاد الشام.

(4) قُدامة بن جَرم: بطن من قضاعة، من القحطانية، وهم: بنو قدامة بن جرم، وهو عمرو بن علاف بن حلوان بن عمران بن الحافي بن قضاعة. النويري، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص397. كحالة، عمر رضا، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط7، ج3، مؤسسة الرسالة، بيروت 1994ص940 وسيشار له لاحقاً كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة.

(5) جماعيل قرية في جبل نابلس، من أرض فلسطين، بينها وبين بيت المقدس يوم، منها الإمام موفق الدين بن قدامة وأهله، وهي وقف عليهم، ولوقفها عليهم قصة. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص159-160. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص345.

(6) ياسوف قرية بنابلس من فلسطين توصف بكثرة الرّمان. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص425. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1471.

(7) قراوى قرية من أعمال نابلس يقال لها قراوى بني حسان. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص319. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1074.

(8) الذهبي، العبر، ج3، ص147. ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص66-73. البيشاوي، سعيد عبد الله، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية خلال الحروب الصليبية، د. ن 1990، ص209 وسيشار له لاحقاً، البيشاوي، نابلس خلال الحروب الصليبية.

ولا بد من الإشارة إلى أنه كان من نتيجة هذه الهجرات إلى المدن الرئيسة نشاط الحركة العلمية في المدارس، فمن يأخذ مدرسة واحدة وهي المدرسة الناصرية الجوانية[1] في دمشق يجد فيها أسماء المدرسين تنتهي بأسماء مثل الفارقي، والمقدسي، والخليلي، والأردبيلي، والرهاوي، والغزي، والحسباني، والنابلسي، والبعلبكي[2]، وفي هذا دليل على أن دمشق كانت مركزاً علمياً استقطب العلماء من مختلف أرجاء العالم الإسلامي آنذاك، ومن نتيجة الهجرات أيضاً نشوء كثير من الأسرات العلمية التي أثرت الحياة العلمية بما أنجبته من علماء، ومن أبرز هذه الأسر في القدس بنو كيكلدي[3] وبنو القلقشندي[4] وبنو جماعة[5] وبنو الديري[6] وبنو قدامه[7] وبنو غانم[8]، وظهرت في جنوب بلاد الشام عائلات أخذت شهرة علمية واسعة مثل عائلة الكركي[9]، وعائلة الباعوني[10].

---

(1) المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفراديس شمالي الجامع الأموي والرواحية بشرق وغربي الباذرائية بشمال وشرقي القيمرية الصغرى والمقدمية الجوانية أنشأها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي. النعيمي، الدارس، ج1، ص352--357.

(2) النعيمي، الدارس، ج1، ص350-357.

(3) المقريزي، السلوك، ج3، ق1، ص55. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص214.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص107-114-115-137-140-166-213

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص303-320-367. ج14، ص6-27-114.

(6) السيوطي، نظم العقيان، ص115-126.

(7) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص158.

(8) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص21-294، ج2، ص214، ج4، ص327.

(9) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص175، ج2، ص149-243-258، ج3، ص89، ج4، ص115. البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ص153-164.

(10) المقريزي، تقي الدين أحمد (ت845 هـ/1441م) درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق عدنان درويش ومحمد الحصري، ط1، ج2، وزارة الثقافة، دمشق 1995 ص56-63 وسيشار له لاحقاً المقريزي، درر العقود الفريدة.

2 – علاقة العلماء بالسلطة الحاكمة

أ – علاقة العلماء الإيجابية مع السلطة

لقد نشطت الحياة العلمية في العصر المملوكي، برغم ما أصاب العالم الإسلامي في العراق على أيدي المغول وفي الأندلس على يد الفرنج، هذا فضلاً عما أصاب بلاد الشام من ضرر نتج عن الحملات الإفرنجية والغزو المغولي، ونشطت تحديداً في مصر إذ وجد العلماء مؤئلاً ولقوا كل التشجيع من السلاطين ومن أهل مصر على السواء[1].

وبما أن الكثير من العلماء المهاجرين كانوا من أئمة الفكر الإسلامي فقد ساعدوا بما لديهم من علم ومعرفة على تنشيط الحياة العلمية في المدن التي اختاروها موطناً لهم[2].

وقد أكثر السلاطين المماليك من وقف المدارس ليتخذوا منها أداة تضمن بقاء الحكم في أيديهم وتساعدهم على تدعيم مركزهم في أعين الناس[3]، فدمشق مثلاً كان فيها اثنان وخمسون مدرسة كانت لتدريس الفقه الشافعي، وأحد عشر مدرسة للفقه الحنبلي[4].

وفي حلب سنة (803هـ/1400م) حين قدم الغزو المغولي بقيادة تيمورلنك كان بها ثلاثمائة مدرسة[5] إذن من الممكن القول أن المماليك قد أكملوا ما بدأه الأيوبيون من إنشاء

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج51، ص105. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص308. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص17. زيتون، عادل، تاريخ المماليك، ط7، منشورات جامعة دمشق، سوريا 2001، ص174، وسيشار له لاحقاً، زيتون، تاريخ المماليك.

(2) القدحات، محمد عبد الله، عائلة الباعوني ودورها في الحياة العامة في القرنين 8 و 9ه، ط1، ورد للنشر عمان 2007، ص12، وسيشار له لاحقاً القدحات، عائلة الباعوني.

(3) عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ج1، ص82.

(4) النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص113-358.

(5) الغزي، نهر الذهب، ج1، ص134.

المدارس وضمنوا استمراريتها بالوقف الذي اكتمل ونضج وأصبح منذ القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي نظاماً راسخاً متغلغلاً في المجتمع[1].

وهذا الجيل المؤهل من العلماء قدم للسلطة المملوكية أغلب مناصب الإدارة، وكان العلماء يعتمدون في تولي وظائفهم على رضا السلطان، إذ أن أي شكوى ضد نزاهتهم قد تعرض الواحد منهم للعزل[2]، فالسلطة هي التي تعين العلماء في مناصب الفتوى والتدريس والقضاء، وعليه فهم سيكونون أكثر ارتباطاً بها[3]، فحرصوا دائماً على أن يكونوا بجانب السلاطين ونيل رضاهم وإن كان ذلك الرضا يتم على حساب مطالب العامة.

إن العلماء هم الذين أمسكوا بالقضاء والنظام المدرسي وترأسوا جانباً من دواوين الدولة كجزء من الهيئة الحاكمة، ومن خلال دورهم الديني والقضائي والتجاري والمالي والروابط الأسرية كل هذا سهل لهم الاتصال والاحتكاك المستمر بكل عناصر المجتمع[4]، ولأن المماليك انحدروا من أصول غير عربية فقد عجزوا عن إتقان العربية ومعرفة الشريعة على الوجه الصحيح، فكان لا بد من قناة توصل المماليك بالمجتمع، وهم العلماء فنلاحظ انخراط واسع من العلماء في تسيير شؤون الدولة، فهذا محمود بن سلمان الحنبلي الحلبي

---

(1) أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648-923 هـ/1250-1517م)، ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1980، ص70 وسيشار له لاحقاً أمين، الأوقاف والحياة الاجتماعية.

(2) النقر، محمد حافظ، القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، دار المسار، المفرق2002 ص 166وسيشار له لاحقاً النقر، القوى الفاعلة في المجتمع.

(3) عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص148.

(4) ابن أجا، محمد بن محمود القونوي (ت881 هـ/1476م) تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق عبد القادر طليمات ، دار الفكر العربي، القاهرة 1973 ص16 وسيشار له لاحقاً ابن أجا، تاريخ الأمير يشبك الظاهري .علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، ص174.

(ت725هـ/1324م)[1] العالم المعروف بأعماله والذي صنف عدة مؤلفات مثل "حسن التوسل في صناعة الترسل" و"كتاب في وصف الخيل"و"مقامة العشاق"، وقد تولى عدة مناصب في الدولة إذ تولى كتابة الإنشاء في دمشق أولاً ثم انتقل إلى الديار المصرية وتولى ديوان الإنشاء فيها ثم عاد إلى دمشق ليتولى كتابة السر[2]، وكذلك العمري (ت749هـ/1348م)[3] صاحب مسالك الأبصار وممالك الأمصار، وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف عمل في ديوان الإنشاء وتولى القضاء وولي كتابة السر بدمشق[4]، وولده القاضي شهاب الدين بن فضل الله جاء في المنصب أعظم من والده[5]، وخليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت764هـ/1362م)[6] باشر كتابة الإنشاء في كل من دمشق والقاهرة، ثم تولى وكالة بيت المال في دمشق، وهو العالم في البلاغة وصاحب المصنفات المشهورة مثل "الكشف والتنبيه

---

(1) أبو الثناء محمود بن سلمان الحنبلي الحلبي تولى كتابة الإنشاء في الشام ومصر وكان شيخ صناعة الإنشاء في عصره فقد كان يكتب التقاليد الكبيرة والتواقيع بديهة من غير مسودة كما عرف انه شاعر مكثر(ت725 هـ/1324م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص82-97. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة ج6،ص82-86. ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد (ت884 هـ/1479م) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض 1990، ج2، ص546-547، وسيشار له لاحقاً ابن مفلح ،المقصد الأرشد.

(2) الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص372 . النهار، عصر المماليك البحرية، ص385.

(3) العمري، شهاب الدين بن فضل الله، قرأ على الشيخ ابن قاضي شهبه، وصنف فواصل السمر في فضائل آل عمر، وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ت749 هـ/1348م) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص157-161. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص393-395. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص261-266.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية. ج14، ص264. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج3، ص17. زيادة، العلماء والأهالي والحكام، ص169.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص216.

(6) خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي ولد بفلسطين وتعلم في دمشق ولع بالأدب وتراجم الأعيان، وله ما ينوف على المائتي مصنف (ت764 هـ/1362م) السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771 هـ/1369م) معجم الشيوخ، ط1، تحقيق بشار عواد وآخرون، دار الغرب الإسلامي 2004 ص178 وسيشار له لاحقاً السبكي، معجم الشيوخ . ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص343-344.

على الوصف والتشبيه"و"فض الختام عن التورية والاستخدام[1]، وأيضاً القلقشندي (ت821هـ/1418م)[2] تولى كتابة الإنشاء سنة (791هـ/1388م)، وهذا الأمر هو الذي دفع السلاطين لاحترام العلماء وإجلالهم(لأن بهم عرفوا دين الإسلام وفي بركتهم يعيشون)[3].

والعلاقة بين العلماء والمماليك لم تكن على نسق واحد وإنما كانت متذبذبة بين الرضا والسخط فحين أصدر السلطان المنصور قلاوون سنة (680هـ/1281م) أمراً بإراقة الخمور وإبطالها ساعده على تطبيق هذا القرار معاونة العلماء له[4]، وحين أصدر السلطان الأشرف شعبان بن حسين قراراً سنة (775ه/1374م) بإبطال ضمان المغاني ومكس القراريط[5] كان ذلك بهمة سراج الدين البلقيني (ت805ه/1402م)[6].

ويجب الإشارة هنا إلى أن انتشار الخمر أصبح ظاهرة مقلقة وعادت بآثار سلبية على المجتمع الشامي في العصر المملوكي، وقد حاربها بعض السلاطين وأول من أقدم على ذلك

---

(1) السبكي ، طبقات الشافعية، ج10، ص5-6. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص242 .

(2) أحمد بن علي الفزاري القلقشندي أحد موقعي الدست ونواب الحكم، ناب في الحكم سنين وله نظم ونثر ومصنفات ومن ذلك كتاب صبح الأعشى (ت821 هـ/1418م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص351-352. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص8. ابن العماد ، شذرات الذهب ج9، ص218-219.

(3) المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص448.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص294. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص688.

(5) مكس القراريط، هو أن يؤخذ من كل من باع ملكا عن كل ألف درهم، عشرون درهما. المقريزي، الخطط، ج1، ص200.

(6) السبكي، طبقات الشافعية، ج4، ص40. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص58. سراج الدين البلقيني، فقيه متكلم ومفسر ومحدث، ولي القضاء بالشام توفي بالقاهرة سنة (805 هـ/1402م) الفاسي، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، ج2، ص238-240. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج7، ص440. السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص85.

الظـــاهر بيبـــرس ســـنة (669هــــــ/1270م)[1]، وكـــذلك المنـــصور قـــلاوون ســـنتي (678هــ/1279م) و(680هــ/1281م)[2]، والسلطان الناصر محمد بن قـــلاوون لـــسنوات عديـــــدة (709هـــــــــ/1309م) و(714هـــــــ/1314م) و(720هـــــــــ/1320م) و(740هــ/1340م)[3]، وحاربها الأمراء أيضاً فقام الأمير بيبغا ارس بتسمير أحد المباشرين بالديوان لشربه الخمر في حلب، ثم بعـد تـسميره طيـف بـه علـى جمـل وذلـك سـنة (752ه/1351م)[4]، وأعلن الأمير أرغون الكاملي نائب دمشق سنة (752ه/1351م) بأن من وجد جندياً سكراناً فلينزله عن فرسه وله ثيابه[5]، وفعل مثل ذلك الأمير سيف الدين طرنطاي بن عبد الله[6] لما تولى الحجوبية في دمشق[7]، وقاوم العلماء كذلك الخمر تبعاً لنهـي القـرآن الكريم لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْـسٌ مِـنْ

---

(1) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص390. النويري، نهاية الأرب، ج30، ص180. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص302.

(2) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور، ص58. ابـن كثيـر، البدايـة والنهايـة، ج13، ص294. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص688.

(3) الذهبي، العبر، ج4، ص56. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص57-94. المقريزي، الـسلوك، ج2، ق1، ص211.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص293.

(5) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص214. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص277. دهمان، ولاة دمشق، ص204.

(6) سيف الدين طرنطاي بن عبد الله ولاه الظاهر برقوق نيابة دمشق فلما كانت فتنة الناصري وجهز الظاهر العسكر من مصر خرج معهم طرنطاي إلى خان لاجين فانكسروا وقـبض علـى طرنطـاي فاعتقلـه الناصري بقلعة حلب فلما خرج الظاهر من الكرك وبلغ كمشبغا وهو بحلب خبره أفرج عـن طرنطـاي وغيره وقاتل معه أهل بانقوسا بحلب وسار معه إلى شقحب فحضر الوقعة فقتل طرنطاي سنة (792 هـــ/1389م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص378-379. ابن تغـري بـردي، المنهـل الصافي، ج6، ص383-386.

(7) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص383. دهمان، ولاة دمشق، ص248-250.

عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[1]، ونهي النبي صلى الله عليه وسلم لقوله: (إِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمِ الْخَمْرَ، وَالْمَيْسِرَ، وَالْكُوبَةَ[2] وكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ)[3].

وهذا أحد العلماء يسمى أحمد بن الحسن الصيرفي (ت743هـ/1342م)[4] كان اليد اليمنى لنائب دمشق اياز الحراني (ت750هـ/1349م)[5] ومعاونته بالتشديد على أهل الأسواق بالصلاة[6]، فقد رأى أن البعض متهاون في أمر الصلاة، أما العالم برهان الدين الحوضي (ت762هـ/1360م)[7] فكان له وجاهة عند الدولة وقبول عند نواب السلطنة[8].

---

(1) القرآن الكريم، سورة المائدة، آية 90.

(2) الكوبة هي النرد وقيل الطبل. ابن منظور، لسان العرب، ج13، ص349. الزبيدي، تاج العروس، ج4، ص181-182.

(3) ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت241 هـ/855م) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ط1، ج4، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت 2001 ص381 وسيشار إليه لاحقاً ابن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل. ابن حبان، محمد بن حبان (ت354 هـ/965م) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، ط1، ج12، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998 ص187 وسيشار إليه لاحقاً ابن حبان، صحيح ابن حبان.

(4) ابن الصيرفي، أحمد بن الحسن بن علي اللخمي بن الصيرفي، سمع من أبيه والعز الحراني وخطيب المزه وغازي بن الحلاوي (ت743 هـ/1342م) السبكي، معجم الشيوخ، ج1، ص53. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص140.

(5) اياز الحراني ويقال إياس، أمر بطرابلس ثم بدمشق ثم ولي نيابة صفد ثم حلب ثم امسك في أيام الناصر حسن ثم أفرج عنه، ولكن قُبض عليه مرة أخرى ووسط بسوق الخيل سنة (750 هـ/1349م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص500.

(6) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ج2، ص204. المقريزي، المقفى، ج7، ص172.

(7) برهان الدين الحوضي (ت763 هـ/1361م) في داره بالقصاعين، وصُلّي عليه بجامع دمشق وخرج نائب السلطنة الأمير علي فصلى عليه. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص333.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص333.

ومن العلماء من كان يحسن للسلاطين فرض الضرائب على الناس مثل كمال الدين أحمد الشافعي (ت718هـ/1318م)[1] الذي كان يتولى بيت المال فشجع السلطان الظاهر بيبرس سنة (660هـ/1262م) على أخذ عشر الغلات، ومن جميع نيابات الدولة على أن يكون ذلك من حاصلات سنة (661هـ/1263م) وحسن له الحوطة على بساتين الغوطة، وأفتاه أن المياه التي تسقى بها تلك البساتين إنما هي للسلطان، وأقيمت الحوطة عدة شهور إلى أن وقع الاتفاق على حمل مليون درهم لبيت المال تدفع على دفعات سنوية[2]، وربما كانت حاجة الدولة إلى الإنفاق على الحملات العسكرية ضد الفرنج والمغول هو المبرر الوحيد لذلك التصرف.

كما كان المماليك يعتمدون عليهم ليجيزوا شرعية الضرائب التي كانت تفرض على الأحياء التي تتكرر معارضتها للنظام وللضرائب مثلما حصل في الشاغور والصالحية في دمشق سنة (901هـ/1495م)[3]. وهذا النوع من العلماء هم الذين أطلق عليهم اسم "فقهاء السلاطين"، وقد انتقدهم السبكي بكلام كثير فقال:(فمن هؤلاء من يطلب العلم في الدنيا والتردد إلى أبواب السلاطين وحب المناصب والجاه، فكم فقيهاً تردد إلى أبواب الملوك فذهب فقهه،

---

(1) كمال الدين أحمد الشافعي، ناب بدمشق في الحكم عن البدر محمد بن جماعة، وولي وكالة بيت المال مرتين ومشيخة دار الحديث الأشرفية بدمشق (ت718 هـ/1318م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص246. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص272-273. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص187.

(2) الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر (ت726 هـ/1326م) تالي وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سويلة، المعهد الفرنسي، دمشق 1974 ص38 وسيشار له لاحقاً الصقاعي، تالي وفيات الأعيان. النويري، نهاية الأرب، ج30، ص98. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص216.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص160. جيدة، أحمد خالد، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت 2001، ص25 وسيشار له لاحقاً جيدة المدارس ونظام التعليم.

ونسي ما كان يعلمه، وإن هذا التردد يؤدي إلى فساد عقيدة الأمراء في العلماء، فإنهم يستحقرون المتردد إليهم، ولا يزالون يعظمون الفقيه حتى يسألهم حوائجه)[1]، وكذلك فإن طلب وظيفة القضاء من جانب العلماء أمر لا يحسدون عليه، وليس له ما يبرّره)[2].

ومن العلماء من كان موضع ثقة السلاطين فهذا السلطان الظاهر بيبرس كان قد أرسل جمال الدين محمد بن سالم بن واصل (ت697هـ/1298م)[3] العالم الموصوف بذكائه المفرط، ومداومته على الاشتغال والتفكّر في العلم، وصاحب التصانيف الكثيرة في الحكمة، والمنطق، والعروض، والطبّ والأدبيات[4]، أرسله إلى صاحب صقلية الملك مانفرد[5] سنة (659هـ/1261م) وأقام هناك عدة سنوات[6]، وكان هدف الظاهر بيبرس تأمين حدوده مع الجبهات الخارجية كصقلية مثلاً، ليتفرغ لمجابهة المغول من جهة ومقارعة الفرنج في بلاد الشام من جهة أخرى، لذا قام بإرسال هذا الوفد إلى صاحب صقلية للتحالف معه[7]، وهذا تاج

---

(1) السبكي، معيد النعم، ص68.

(2) السبكي، معيد النعم، ص78.

(3) ابن واصل، جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم التميمي الحموي من مؤرخي القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي ارتحل لبلدان كثيرة مثل دمشق والقدس وحلب والكرك وبغداد، شهد حملة لويس التاسع على مصر له مؤلفات كثيرة (ت697هـ/1298م) الذهبي، العبر، ج3، ص390. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص71-75. نكث الهميان في نكت العميان، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2007 ص237 وسيشار له لاحقاً الصفدي، نكث الهميان في نكت العميان. السيوطي، بغية الوعاة ، ج1، ص108.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص71-75. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص766.

(5) الملك مانفرد بن فردريك ملك صقلية تولى الحكم بعد أخوه كرا بن فردريك، اشتهر مانفرد بحبه للمسلمين وللعلوم الإسلامية، استمر ملكاً حتى تآمر عليه البابا وملك فرنسا وحاربوه وقتلوه سنة (663 هـ/1264م). أبو الفداء، المختصر، ج4، ص38-39.

(6) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص38.

(7) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص38. شاكر، محمود، التاريخ الإسلامي، ط4، ج7، المكتب الإسلامي، بيروت 1991 ص47 وسيشار له لاحقاً شاكر، التاريخ الإسلامي.

الدين أحمد بن سعيد بن الأثير (ت691هـ/1291م)[1] بعثه السلطان المنصور قلاوون إلى الأمير سنقر الأشقر برسالة يلومه فيها على مكاتبة المغول والاستنجاد بهم، فلما وصل إليه تاج الدين بن الأثير وبخه ولامه حتى أناب ووعد بإرسال ولده[2]، وهذا أحمد بن ناصر بن الباعوني (ت816هـ/1413م) قاضي صفد، كان يكاتب السلطان الظاهر برقوق بما يريد فيرجع الجواب بما يختار[3]، ويبدو أن هذه الثقة الكبيرة التي نالها من السلطان لم تأت من فراغ، فمن يطلع على سيرته وصفاته التي أوردتها كتب التراجم يجد فيها مبرراً لثقة السلطان الكبيرة[4]، فقد كان ذكياً فطناً عفيفاً نزيهاً لا يحابي ولا يداهن وكان يتعانى الوعظ ويكثر البكاء[5]، أما بهاء الدين محمد بن يوسف الباعوني (ت916هـ/1510م)[6] ذلك الأديب الكبير فقد كان أشبه بسفير بين دمشق والقاهرة، فابن طولون يذكر في أكثر من موقع في كتابه ترؤس بهاء الدين وفوداً سافرت إلى القاهرة لعرض قضايا مختلفة على السلطان وعلى الأخص القضايا المتعلقة بالقضاء[7].

---

(1) تاج الدين أحمد بن سعيد بن الأثير، كان كبير القدر معظما في الدول، ولي كتابة السر بدمشق ثم بمصر للسلطان بيبرس ثم للمنصور قلاوون توفي بغزة سنة (691 هـ/1291م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص241-244. ابن تغردي بردي، المنهل الصافي،ج1، ص300-302 .

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص9. النويري، نهاية الأرب، ج31، ص10. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص728 .

(3) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج4، ص21. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص176. القدحات، عائلة الباعوني، ص88.

(4) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص185. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص20-22. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص231-232.

(5) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص185. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص233.

(6) محمد بن يوسف الباعوني ولد في صالحية دمشق، وقرأ القرآن العظيم، وحفظ المنهاج، وأخذ عن عمه البرهان الباعوني، والبرهان بن مفلح، والبرهان المقدسي الأنصاري، والبرهان الأذرعي، والقطب الخيضري وغيرهم، وغلب عليه الأدب، وجمع عدة دواوين (ت916هـ/1510م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص73-74.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص38-47-86-266 . القدحات، عائلة الباعوني، ص99 .

وأما العلماء الأكثر ارتباطاً بفئة المماليك فهم الذين يتولون الوظائف، أو كما يسميهم ابن طوق فئة العوانية[1]، ومخالطة الأتراك[2]، والتردد على السلطان[3]، وهي تسميات نلحظ فيها انتقاداً مبطناً من قبل المجتمع خاصة إذا علمنا أن ابن طوق هو كاتب يوميات، وحين كانت تحصل فتنة بين المماليك كان العلماء يقفون مع أحد الأطراف المتنازعة كما حدث بين الأمير منطاش والسلطان برقوق[4]، فقد عصى منطاش في نيابة ملطية[5]، ثم تبعه يلبغا الناصري نائب حلب، واستطاعا إنزال الظاهر برقوق عن عرش السلطنة وتسليم الأمير حاجي بن الأشرف شعبان السلطنة، ولكن استبداد منطاش بالأمر أوقع فتنة بينه وبين يلبغا الناصري، وترافق ذلك مع خروج الظاهر برقوق من منفاه في الكرك، الذي استطاع بمساعدة يلبغا الناصري استعادة السلطنة[6]، فهذا أحمد بن ناصر الباعوني (ت816هـ/1413م) وقف مع منطاش ومدحه بقصيدة تجاهل فيها السلطان الظاهر برقوق مما أثار عليه غضب أهالي صفد[7]، ولعل دافع هذا المديح هو محبة العلماء وغيرتهم لمنطاش فقد ورد عنه أنه كان

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج2، ص1037-1038. العوانية هم الذين يتجسسون على السكان لصالح الحكام. العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة، دمشق، 1982، ص 95 – 96 وسيشار له لاحقاً العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.

(2) البصروي، تاريخ البصروي، ص57-58.

(3) ابن طوق، التعليق، ج1، ص58-116-219-207.

(4) الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص323.

(5) ملطية من الثغور الجزرية بالشام، أخربها الروم فبناها أبو جعفر المنصور وأقام عليها سوراً محكماً، وعلى نحو ثلاثة أيام من ملطية يخرج سيحان وهو نهر أذنة من الثغر الشامي ويجري في بلاد الروم وليس للمسلمين عليه إلا مدينة أذنة بين طرسوس والمصيصة. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص192-193. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1308. الحميري، الروض المعطار، ص545.

(6) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، ص275-286. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص372-395. الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص248-255.

(7) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج2، ص57. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص239. الجالودي، عليان، الأسرة الباعونية ودورها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي الثاني، مجلة المنارة، م9، ع1، جامعة آل البيت، 2003 ص248 وسيشار له لاحقاً الجالودي، الأسرة الباعونية ودورها في الحياة العامة.

(كثير العطايا نهاباً وهاباً)(1)، وأحياناً كانوا يدعمون أحد الأطراف بالمال كما فعل علاء الدين المقيري (ت795هـ/1392م)(2) وأخوه عماد الدين مع السلطان برقوق سنة (791هـ/1388م)، فقد قدما له المال وحين خشي أهل الكرك من عاقبة برقوق وإنكار السلطان عليهم ما فعلوه اتفقوا على أن يقبضوا على برقوق وأن يكون ذلك عذراً لهم عند السلطنة، فأغلقوا باب الكرك بعد أن أخرج برقوق إيناته(3) وعسكره وتأخر هو ليكمل بقية مهماته، فلما وصل إلى الباب وجده مغلقاً، فاستعان بعلاء الدين المقيري حتى فتح له(4).

والأغرب من ذلك فتوى شهاب الدين أحمد بن عمر بن القرشي (ت793هـ/1390م)(5) قاضي قضاة دمشق الذي حظي بمكانة مرموقة عند الأمير يلبغا الناصري نائب السلطنة، ولما خرج برقوق لحصار دمشق سنة (793هـ/1390م) قام القرشي في وجهه وحرض عليه العوام، وأفتى أن قتال برقوق أكثر وجوباً من صلاة الجمعة، بالإضافة إلى أنه كان يكلف من يسبه على الأسوار(6)، وأحياناً كان لهم دور الوساطة لفض المنازعات بين بعض الأمراء المماليك كنواب السلطنة، مثلما حصل سنة (906هـ/1500م) إذ قام قضاة وعلماء حلب بالمصالحة بين نائب حلب أركماس بن ولي الدين وبين نائب دمشق

---

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج6، ص129.

(2) علاء الدين المقيري الكركي، كاتب السر في الكرك ثم الديار المصرية، دفن خارج باب النصر في القاهرة (ت794 هـ/1391م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص132. غوانمة، تاريخ شرق الأردن، ج2، ص131.

(3) وردت عند ابن حجر العسقلاني في إنباء الغمر هكذا (إيناته) ولم نهتد لمعناها، ونعتقد أن العسقلاني أراد القول (آلاته) فحصل تصحيف عند النسخ، وما يؤيد ما ذهبنا إليه قول ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة: (وبرّز أثقاله إلى ظاهر الكرك) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص354.

(4) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص375.

(5) شهاب الدين أحمد بن عمر بن مسلم القرشي الدمشقي، كان فاضلاً بالوعظ وكان العوام يعجبون به جداً ويعتقدونه ولي قضاء الشام أيام المناصرة لما استتبت الأمر برقوق ضربه بالمقارع فدس عليه من خنقه (ت793 هـ/1390م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص423. الدرر الكامنة، ج1، ص274.

(6) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص416. الدرر الكامنة، ج1، ص274. الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص323.

الأمير قصروه (ت906هـ/1500م)[1] إذ إن الأخير جهز جيشه للسيطرة على نيابة حلب، وحلب هي ثاني أكبر النيابات الشامية بعد دمشق، ولا يخفى أن طموح السيطرة على هاتين النيابتين هو طموح للوصول إلى السلطنة[2].

وفي كثير من الأحيان كان سلاطين المماليك يقدمون لهم الهدايا، فقد عرف عن السلطان شيخ المحمودي (815-824هـ/1412-1421م) أنه كان يرسل إلى عز الدين بن جماعة (ت819هـ/1416م)[3] في كل مرة من الذهب الأحمر خمسين ديناراً بما يعادل إثنا عشر ألف درهماً[4] وكانوا يساندونهم في وقت الأزمات ففي سنة (819هـ/1416م) وقع غلاء مفرط في مصر والشام بحيث أصبح الدقيق شحيحاً في الأسواق، فأرسل السلطان شيخ المحمودي إلى كل واحد من المدرسين في المدارس والمشايخ في الخوانق والزوايا مبلغ عشرة دنانير وإردباً[5] من القمح[6]، وكانوا يبادلونهم الزيارات[7]، وكان العلماء أيضاً يهدون

---

(1) قصروه ناب في دمشق وكان ينوي إعلان نفسه سلطاناً (ت906 هـ/1500م) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص99.

(2) ابن طولون، إعلام الورى، ص135.

(3) محمد بن أبي بكر بن سعد الله بن جماعة أجاز له جماعة من الشاميين والمصريين وصنف التصانيف الكثيرة المنتشرة منها المعول والشرح، وسبك النضير في حواشي الشرح الصغير، وهو من العلماء الذين لم يتزوجوا (ت819 هـ/1416م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص115-117. السخاوي، الضوء اللامع، ج7، ص171-174.

(4) العيني، السيف المهند، ص266.

(5) الإردب مكيال تقدر به الحبوب يسع أربعة وعشرين صاعاً. ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الكريم (ت606 هـ/1210م) النهاية في غريب الحديث والأثر، ج1، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت 1979 ص37 وسيشار له لاحقاً ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر. قلعجي، محمد رواس، وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط2، دار النفائس، بيروت 1988 ص19 وسيشار له لاحقاً قلعجي، معجم لغة الفقهاء.

(6) العيني، السيف المهند، ص267.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص271.

المماليك[1]، وهذه دلالة واضحة على الأهمية التي حظي بها العلماء عند سلاطين المماليك، وقد ساعد على وجود هذه المكانة ما اتسمت به العصور الوسطى من مسحة دينية واضحة[2].

وكان هناك تعاون بين السلطة الحاكمة والعلماء في سبيل القضاء على أي حركة تمرد مثل "الكسروانيين الشيعة"، فقاموا بإصدار فتاوى تطالب السلطة الحاكمة بحملات عسكرية ضد العناصر غير السنية من سكان البلاد، مثل فتاوى ابن تيمية بحق سكان جبال لبنان سنة (705هـ/1305م) بسبب استمرارهم بالعصيان ورفضهم الدخول في الطاعة بعد أن عجز ابن تيمية بالوصول لتسوية معهم[3]، فقد كان أهالي الجبال يشكلون عنصراً مقلقاً للسلاطين المماليك، فعندما جاء السلطان الظاهر بيبرس لمحاصرة طرابلس سنة (666هـ/1268م) قام أهالي الجبال بمهاجمة العسكر من الخلف، فاقتص منهم بتخريب قراهم ومطاردتهم في الجبال[4]، وقدموا لبوهمند السابع أمير طرابلس سنة (688هـ/1289م) المساعدة وذلك حتى يكسبوا إلى جانبهم حليفاً في وجه الدولة المملوكية التي كانت تظهر لهم العداء[5]، فأغضب ذلك السلطان المنصور قلاوون، فجرد إليهم حملة أخرى في هذه السنة استطاعت كسر شوكتهم واستئصال شأفتهم ونهب أموالهم وسبي ذراريهم[6]، وفي عهد الأشرف خليل حين تم طرد

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج1، ص124.

(2) عاشور، سعيد، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، عالم الفكر، الكويت، 1980 ص93 وسيشار له لاحقاً عاشور، الحياة الاجتماعية.

(3) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص268. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص173.

(4) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص126. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص566. تدمري، تاريخ طرابلس السياسي، ج2، ص93.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص261. القلقشندي، صبح الأعشى، ج14، ص36. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص550-560. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص136. عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص314.

(6) بيبرس، زبدة الفكر، ص284-285. النويري، نهاية الأرب، ج31، ص163. ابن يحيى، صالح، تاريخ بيروت ، دار المشرق، بيروت 1986 ص53 وسيشار له لاحقاً ابن يحيى، تاريخ بيروت. صليبي، كمال، منطلق تاريخ لبنان، منشورات كارفان نيويورك، بيروت 1979 ص133 وسيشار له لاحقاً صليبي، منطلق تاريخ لبنان.

الفرنج، شكل أهالي الجبال جيوباً يقطعون الطرقات على التجار والمسافرين، وكانوا عصاةً على نائب الشام وغيره[1]، فجرد إليهم السلطان الأشرف خليل حملة بقيادة الأمير بدر الدين بيدرا سنة (690هـ/1291م)، ولكن بيدرا عاد مهزوماً[2]، يقول المقريزي في ذلك: (وفيه خرج الأمير بدر الدين بيدرا...... ومعه معظم العسكر إلى جبال كسروان من جهة الساحل فلقيهم أهل الجبال، وعاد بيدرا شبه المهزوم واضطرب العسكر اضطراباً عظيماً فطمع أهل الجبال فيهم وتشوش الأمراء من ذلك وحقدوا على بيدرا، ونسبوه أنه أخذ منهم الرشوة، فلما عاد إلى دمشق تلقاه السلطان وترجل له عند السلام عليه وعاتبه سراً فيما كان منه)[3]، وزاد ضرر الكسروانيين حين هزم جيش المماليك خارج حمص من المغول سنة (699هـ/1299م) ، وهرب العسكر إلى الجبال وتفرقوا فيها" فحصل لهم الأذية من المفسدين خصوصاً من أهل كسروان.........[4]".

وهذا كان دافعاً للأمير جمال الدين آقوش الأفرم بتجهيز حملة جديدة لغزوهم سنة (704هـ/1304م) استطاع من خلالها السيطرة عليهم فترة من الزمن[5]، إلا أن هذا النجاح لم يؤمن للمماليك سيطرة ثابتة وكاملة على كسروان، ولم تمض فترة قليلة حتى عادوا إلى التمرد على الدولة، وكان ابن تيمية على رأس وفد لمفاوضة الكسروانيين أواخر سنة

---

(1) النويري، نهاية الإرب، ج31، ص147-149.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص128-129. العيني، عقد الجمان، ج3، ص128-129. صليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص134.

(3) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص338. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص779. تدمري، تاريخ طرابلس السياسي،ج2، ص98.

(4) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص17. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص903. صالح، تاريخ بيروت، ص77-78. تدمري، تاريخ طرابلس السياسي، ج2، ص99.

(5) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص12. العيني، عقد الجمان، ج4، ص89.

(704هـ/1304م) للرجوع إلى الطاعة ولكنه لم ينجح في مهمته[1]، وعاد إلى دمشق وأخذ يدعو إلى حملة جديدة ضد أهل كسروان[2]، وكان قائد الحملة مرة أخرى سنة (705هـ/1305م) الأمير جمال الدين آقوش الأفرم واستطاع هزيمتهم في عين صوفر[3]، وبذلك نستطيع أن نؤكد أن المماليك حاولوا جذب العلماء للسلطة المملوكية التي قربتهم ورعتهم ليبرروا إجراءاتها ويسوغوا أحكامها ولم يكن ذلك إلا لأجل تأكيد هيمنتهم على مجتمع يرى فيهم عدم الأهلية لأن يصبحوا حكاماً.

ب ـ علاقة العلماء السلبية مع السلطة

لم تكن علاقة العلماء بالسلاطين المماليك حسنة على الدوام، بل كان يشوبها بعض الاختلال أحياناً، وهناك إشارات على بعض المواقف الصدامية والزجرية نشبت بين الطرفين، وتتعدد الأسباب في ذلك، فرغبة السلاطين في الاستيلاء على أملاك معينة قد يوجد نوعاً من هذا الصدام، فحين أراد السلطان الظاهر بيبرس سنة (665هـ/1266م) السيطرة على بساتين دمشق وقراها وضياعها- بناءً على فتوى الفقهاء الحنفية الذين أجازوا له ذلك- على اعتبار أنها انتزعت من أيدي المغول، فلا تعود ملكاً لأصحابها، تصدى له القاضي عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي(ت673هـ/1274م)[4]وقال له: لا يحل لمسلم أن يتعرض لهذه الأملاك فإنها بيد أصحابها[5]، وعارضه أيضاً القاضي علي بن محمود الشافعي الشهرزوري

---

(1) ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن قدامه المقدسي (ت744 هـ/1343م) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت 19- ص197-198 وسيشار له لاحقاً ابن عبد الهادي، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص77. صليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص136.

(3) الدوادار، التحفة الملوكية، ص178. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص268. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص14. العيني، عقد الجمان، ج4، ص284. تدمري، تاريخ طرابلس السياسي،ج2، ص101-102. خرابشة، نيابة طرابلس في العهد المملوكي، ص137.

(4) عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفي، تفقه وصار المشار إليه في الحنفية وتولى تدريس مدارس عدة وناب في الحكم بدمشق عن قاضي القضاة صدر الدين أحمد بن سني الدولة (ت673 هـ/1274م)، اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص96.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص98. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص95-96. الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج17، ص314.

(ت675هـ/1276م)[1] وقال له:(الماء والكلأ والمرعى لله ،لا يملك وكل من بيده ملك فهـو له)[2]، وهذا مما أغضب السلطان الظاهر بيبرس ودفعه للقيام من المجلس، وقال :(إذا ما كنا نحن مسلمين ايش قعودنا)[3]. ولما اقترب المغول من الشام سـنة (675هـ/1276م) عقـد السلطان الظاهر بيبرس مجلساً بدمشق للأمراء والعلماء لأخذ حاجة الدولة من أموال الرعية، فأفتاه علماء الشام بجواز بذلك، فلما علم الإمام محي الدين النووي بذلك توجه لمقابلة السلطان في مجلسه وقال له:(جئتك ناصحاً لما بلغني أنك طلبت من الناس المساعدة، وفرضت عليهم ما لا يجوز أن تفرضه عليهم، وأنت تشتري المملوك بعشرين ألـف درهـم....) فقـال لـه السلطان:(ألك دار أو بستان فنأمر بمسامحتك ؟ فرد عليه النووي:(ما جئت في شأن نفسي، وإنما جئت في الله ورسوله وحق المسلمين) ثم قام وخرج، فغضب عليـه الـسلطان وأمـر بخروجه من الشام، فامتثل لأمر الظاهر وتوجه إلى بلدة نوى[4]، فوقف العلماء والفقهاء إلـى السلطان وقالوا: (إن هذا من كبار علمائنا وصلحائنا وممن يقتدى به) فرسم السلطان برجوعه إلى دمشق ولكنه رفض وظل في نوى حتى وفاته سـنة (676هـ/1274م) [5] وإن كـلام النووي كان سبباً في إفشال ما أراده السلطان[6].

ومن أسباب التنافر بين سلاطين المماليك والعلماء تأييد العلماء للثورات أو مشاركتهم فيها في بعض الأحيان، فعندما خلع السلطان المنصور قلاوون الأمير بدر الدين سلامش بن

---

(1) علي بن محمود الشافعي الشهرزوري، مدرس القيمرية بدمشق كان عارفاً بالمذهب موصـوف بجـودة النقل وحسن الديانة، ناب في القضاء عن ابن خلكان (ت675 هـ/1276م) الذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج50، ص189–190. ابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج2، ص142.

(2) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774ه/1372م) طبقات الـشافعية، ط1، ج2، تحقيـق عبـد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت 2004 ص821 وسيشار له لاحقاً ابـن كثيـر، طبقـات الشافعية. النعيمي، الدارس، ج1، ص336.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص98. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص95–96. الصفدي، الوافي بالوفيات ، ج17، ص314.

(4) نوى مدينة قديمة من أعمال دمشق وبها قبر النبي أيوب عليه السلام. الحمـوي، معجـم البلـدان،ج3، ص525. العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص525.

(5) السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص104–105.

(6) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص286.

السلطان الظاهر بيبرس وحل محله، قامت ثورة كان من أبرز أعضائها المؤرخ المعروف ابن خلكان (ت681هـ/1282م)، وظل ابن خلكان ملاحقاً حتى أصدر السلطان مرسوماً بالعفو عنه وإعادته إلى وظيفة القضاء[1].

وثار الفقهاء سنة (788هـ/1386م) على السلطان برقوق يقودهم الشيخ أحمد بن محمد بن إسماعيل المعروف بابن البرهان (ت808هـ/1406م)[2]، وذلك أنه عندما استولى برقوق على الحكم وحبس الخليفة محمد المتوكل سنة (785هـ/1383م) غضب ابن البرهان من ذلك وخرج إلى الشام ثم إلى العراق يدعو إلى طاعة رجل من قريش، ولكن لم يسانده أحد، ثم عاد إلى الشام مرة أخرى وتبعه جماعة كانت ترى في فساد الأحوال وكثرة المعاصي وانتشار الرشوة عذراً لها في الخروج[3]، وزحفوا إلى دمشق وحاولوا أن يجدوا المساعدة لدى المماليك والعربان في دمشق، ولكن يظهر أن في ثورتهم غربة عن المجتمع، فلهذا السبب لم يكتب لها النجاح، فكان اعتراضهم أن برقوق غير مؤهل للحكم، وعندما أُحضر ابن البرهان بين يدي السلطان في القاهرة قال للسلطان :(أنه غير أهل القيام بأمر المسلمين وعدد له ما هو عليه

---

(1) ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت692 هـ/1292م) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ط1، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة 1961، ص70 وسيشار له لاحقاً ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور .المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص679.

(2) أحمد بن محمد بن إسماعيل ، المعروف بابن البرهان هو أحد من قام على الظّاهر برقوق، اشتغل بالفقه على مذهب الشافعي، وكانت نفسه تطمح إلى المشاركة في الملك وليس له قدم فيه، رحل إلى الشام والعراق يدعو إلى طاعة رجل من قريش، فاستقرأ جميع الممالك فلم يبلغ قصدا، ثم رجع إلى الشام فاستغوى كثيرا من أهلها ومن أهل خراسان، وآخر الأمر قبض وحبس مدة طويلة ثم أطلق وتوفي سنة (808 هـ/1406م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص332. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص96. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص110-111.

(3) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص332-333.

من أخذ المكوس ونحو ذلك وأنه لا يقوم بأمر المسلمين إلا إمام قرشي) فكانت عقوبتهم الضرب والسجن[1].

وفي سنة (768هـ/1366م) وقعت فتنة بين القضاة والحجاب بسبب تعدي الحجاب على الأحكام الشرعية، فأهان قاضي دمشق الشافعي بدر الدّين محمد بن يعقوب النابلسي بن الجواشنيّ (ت773هـ/1371م) [2] حاجب الحجاب الأمير عمر شاة[3]، وفي سنة (887هـ/1482م) وقع بين القضاة ونائب الشام يشبك العلائي خلاف بسب نهر القنوات ونهر بانياس[4]، فيظهر أن النائب حجز قسماً من الماء ربما لمزروعاته، فاحتج القضاة معبرين عن ذلك برفع الأعلام والصياح بصوت عالي حتى انصاع النائب لرغبتهم[5]، وفي سنة (895ه/1489م) كانت العلاقة سيئة بين نائب دمشق قانصوه اليحياوي(ت902ه/1496م)[6] والقاضي شمس الدين بن المزلق (ت902ه/1496م)[7] الذي

---

(1) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص157-158. المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص554. عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص148.

(2) بدر الدّين محمد بن محمد بن يعقوب النابلسي ثم الدمشقي بن الجواشنيّ الحنفي، سمع من عيسى المطعّم، وابن عبد الدائم، وغيرهما. وعني بالعلم، وناب في الحكم (ت773 هـ/1371م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص31. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص163.

(3) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شبهه، ج2، ص296.

(4) نهري القنوات وبانياس هما فروع لنهر بردى في دمشق. النعيمي، الدارس، ج1، ص257-ج2 ص274. ابن طولون ،إعلام الورى ص81 .

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص57.

(6) قانصوه اليحياوي الظاهري جاوز الثمانين وهو عتيق الملك الظاهر جقمق تقلبت به الأحوال وولي نيابة حلب ونيابة الشام مرتين ونيابة طرابلس والإسكندرية. دفن بتربته التي جددها بباب الجابية سنة (902 هـ/1496م) البصروي، تاريخ البصروي، ص218-219.

(7) شمس الدين بن المزلق، قاضي القضاة الشافعية بدمشق، دخل الحرامية عليه فقتلوه وأخذوا من النقد وغيره ما اختلف الناس في قدره ، ويقال أن جواريه قتلته (ت902 هـ/1496م) البصروي، تاريخ البصروي، ص207.

كان سداً منيعاً أمام النائب يمنعه من التعدي على أملاك الأوقاف، وبالفعل لم يعتد النائب على الأوقاف حين كان ابن المزلق في منصب القضاء[1].

وقريب من هذا ما قام به علماء القدس إذ وقفوا في وجه النائب في القدس الأمير دقماق لظلمه، ففي عهده ضعفت أحوال الناس وكثر قطع الطرق وبقي الناس في شدة، فقد عمل سنة (897هـ/1491م) على رمي الزيت على أهالي القدس، فكتب أسماءهم في قوائم وألزم كل منهم بشراء القنطار بخمسة عشر ديناراً، وشدد عليهم وضربهم على ذلك، فشكوه إلى السلطان الأشرف قايتباي وعقدوا مجلساً في المسجد الأقصى وكتبوا بذلك كتاب إلى السلطان وشاركهم العامة في ثورتهم ضد النائب ولكن السلطان في النهاية انتصر للنائب[2].

وكانت العلاقة تسوء بين الطرفين إلى أن تصل للعزل والمصادرة كما حصل مع العالم حمزة بن أسعد بن مظفر القلانسي (ت729هـ/1328م)[3] الذي صادر ماله الأمير سيف الدين كراي المنصوري لما ولي النيابة بدمشق وحبسه ومنع أن لا يدخل إليه أحد، وكان كل يوم يسير إليه الطعام والشراب وهو تحت الترسيم[4]، ولم تذكر المصادر عن أسباب هذه المصادرة شيئاً، وكذلك مع القاضي محمد بن عثمان بن أبي الحسن الحريري

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص119.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص300-353- 358. عبد المهدي، الحركة الفكرية في ظل المسجد الأقصى، ص254.

(3) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص143. بني عيسى، عبد المعز عصري، الغزو المغولي لدمشق، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك 1997 ص165 وسيشار له لاحقاً بني عيسى، الغزو المغولي لدمشق. حمزة بن أسعد بن مظفر القلانسي، أحد رؤساء دمشق الكبار، سمع الحديث من جماعة ورواه وله رياسة باذخة وأموال كثيرة ثم ألزم بوكالة بيت السلطان (ت729 هـ/1329م) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص297-300. السبكي، معجم الشيوخ، ج1، ص176. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص169

(4) الذهبي، العبر، ج4، ص87. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج13، ص116.

(ت728هـ/1327م) [1] الذي رفض طلب السلطان الناصر باستبدال أراض موقوفة فتم عزله وتولية شخص آخر لبى رغبة السلطان [2]،وأحياناً تصل للسجن، ففي سنة(793هـ/1390م) سجن كل من القاضي شهاب الدين أحمد بن محمد الطرابلسي المعروف بابن الحبال(ت833هـ/1430م) [3]، وأحمد بن عمر بن مسلم القرشي(ت793هـ/1390م) لوقوفهما ضد السلطان الظاهر برقوق أثناء عودته إلى السلطنة سنة (791هـ/1389م) بعد أن استغل الفوضى الواقعة في مصر وبايعه أهل الكرك بالسلطنة والتف حوله كثير من الشراكسة [4].

وكانت العلاقة تسوء بين العلماء والسلاطين وتتطور أحياناً إلى درجة أن يقوم السلاطين بالتطاول وضرب العلماء، مثلما حصل مع شهاب الدين الباعوني الذي أحضره السلطان الظاهر برقوق عنده وقربه وزاد في إكرامه وولاه خطابة الجامع الأموي بدمشق ثم القضاء بها، وفي سنة (816هـ/1413م) طلب منه السلطان قرضاً من مال الأيتام فرفض ذلك، حينها لفقت له تهم كثيرة حول تلاعبه بأموال الأيتام وأوقاف البيمارستان النوري،

---

(1) محمد بن عثمان بن أبي الحسن المعروف بابن الحريري، ولي قضاء دمشق ودرس بالظاهرية وغيرها ثم طلب إلى مصر فولي القضاء بالديار المصرية كان متشددا في الأحكام غير ملتفت لذوي الجاه، عزل عن القضاء ثم أعيد إليه واستمر حتى توفي سنة (728 هـ/1327م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج4، ص67. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص290-291. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص153.

(2) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902ه/1496م) الذيل على رفع الإصر، أو بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال ومحمد صبح، الدار المصرية للنشر، القاهرة 1970 ص 202- 203 وسيشار له لاحقاً السخاوي، الذيل على رفع الإصر.

(3) أحمد بن علي بن عبد الله الطرابلسي المعروف بابن الحبال ولي القضاء في طرابلس وصار يتعصب للحنابلة، ثم انتقل لقضاء دمشق واستمر به الى أن عزل لضعف بصره (ت833 هـ/1430م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص442. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص26.

(4) المقريزي، السلوك، ج4، ق1، ص83. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر ج1، ص423 .الدرر الكامنة، ج1، ص274. الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص249.

والتركات، والاستيلاء على موجودات الجامع الأموي، وتلاعبه بأموال الأوقاف المخصص ريعها للإنفاق على الحرمين، فتعرض للعزل من الوظيفة ثم سُجن وضرب في السجن [1]، وتتطور في بعض الأحيان إلى أن تصل للقتل، فقد قتل محمد بن إبراهيم النابلسي المعروف بابن الشهيد (ت793هـ/1381م)[2] ذلك أنه لما خرج منطاش ويلبغا الناصري وملكا الأمر ونفي برقوق إلى الكرك ثم خلص منها وحاصر دمشق قام ابن الشهيد وجمع لمحاربته، فلما آل الأمر إلى برقوق قبض عليه وأودعه السجن ثم قتله سنة (793هـ/1381م)[3].

ج - علاقة العلماء مع القوى الغازية لبلاد الشام

شهد العصر المملوكي ثلاث حالات تعرضت فيها بلاد الشام لقوى خارجية الأول هو الغزو الفرنجي الذي كان قد بدأ سنة (492هـ/1198م) واستمر حتى سنة (690هـ/1291م)، والثاني هو الغزو المغولي وكان ثلاث حملات الأولى، بقيادة هولاكو خان سنة (656 هـ /1258م)، والثانية بقيادة غازان سنة (699 هـ /1300م)، والثالثة بقيادة تيمورلنك سنة (803هـ/1400م)، وآخر القوى كان الدخول العثماني الذي أنهى الوجود المملوكي سنة (922هـ/1516م).

---

(1) قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، ص513-514-519. ابن حجر العسقلاني، الذيل على رفع الإصر، ص106.

(2) محمد بن إبراهيم النابلسي الأصل الدمشقي الشافعي كان أوحد عصره في النظم والنثر كتب في ديوان الإنشاء فتنقلت به الأحوال الى أن صار صاحب الديوان بدمشق وولي مشيخة الشيوخ بها، قتل بالقاهرة سنة (793 هـ/1381م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص22. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج3، ص218.

(3) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص426-427 . الصيرفي، نزهة النفوس، ج2، ص68. العزة، نابلس في العصر المملوكي، ص84.

أما موقف العلماء من الغزو الفرنجي فيتضح من خلال دورهم في الجهاد، الذي هو امتداد للدور الذي قاموا به زمن الأيوبيين[1]، وقد برز دورهم بشكل واضح في المقاومة خلال حصار قلعة ارسوف التي كانت تحت الحكم الفرنجي سنة (663هـ/1265م) فيذكر ابن عبد الظاهر في كتابه الروض الزاهر" وحضر العباد والزهاد والفقهاء والفقراء إلى هذه الغزاة المباركة"[2]، وهناك بعض أسماء أولئك الذين حضروا وشاركوا في تحرير القلعة الحصينة ومنهم المؤرخ المعروف شمس الدين بن خلكان[3]، كما برز دورهم في فتح صفد (664هـ/1265م) [4] ويقول المقريزي خلال حديثه عن فتح المسلمين لمدينة صفد :(وقدم الفقهاء للجهاد) [5]، وكذلك خلال خروج الجيش لحصار الشقيف[6] سنة (666هـ/1267م)[7].

---

(1) البواعنة، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي، ص162-177.

(2) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص238 .

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص238 . المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص528. شاهين، رياض أحمد، دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، سوريا 2005، ص35 وسيشار له لاحقاً، شاهين، دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين.

(4) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص258-260.

(5) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص565. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص142.

(6) شقيف ارنون قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص356. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص807.

(7) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص296 . المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص565 . ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص142.

وفي موقعة حمص سنة (680هـ/1281م) التي كانت بين المسلمين والمغول شارك عدد من العلماء كان أبرزهم عبد الله بن محمد بن اليونيني[1] الذي قاتل حتى استشهد[2]، وكذلك محمد بن أحمد بن مكتوم[3]، وتاج الدين الكردي[4]، وذكر الذهبي في العبر أن حسام الدين الحنفي[5] قاتل حتى تم أسره في الموقعة[6].

كما شكل العلماء أحد عناصر المتطوعة في المقاومة الشعبية خلال حصار مدينة طرابلس سنة (688هـ/1289م) حيث حضر عدد من العلماء هذا الحصار، ومنهم نجم الدين

---

(1) عبد الله بن محمد بن عبد الله اليونيني، الملقب (أسد الشام) كان كثير التعبد، متواضعاً خيراً كريم الأخلاق (ت680 هـ/1281م) البرزالي، علم الدين القاسم الاشبيلي الدمشقي (ت739 هـ/1338م) المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تحقيق عمر تدمري، ط1، ج1، المكتبة العصرية ، بيروت 2006ص523 وسيشار له لاحقاً البرزالي، تاريخ البرزالي. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، ص112-113.

(2) البرزالي، تاريخ البرزالي، ج1، ص523. الرواحي، خميس، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة آل البيت 2011 ص159 وسيشار له لاحقاً ، الرواحي، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي.

(3) البرزالي، تاريخ البرزالي، ج1، ص524. شمس الدين محمد بن أحمد البعلبكي تفقه على المذهب الشافعي، كان معيداً بمدرسة أمين الدولة علي بن العقيب بجامع بعلبك، حفظ المقامات الحريرية وأتقنها استشهد في وقعة حمص سنة (680 هـ/1281م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص121.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص376-377 . يحيى بن محمد بن إسماعيل الكردي نائب الحاكم بدمشق لابن الصائغ، ولي قضاء حمص وقضاء بعلبك ثم ولي قضاء حلب استشهد في وقعة حمص سنة(680 هـ/1281م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص133. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص376-377 .

(5) حسام الدين الحنفي، ولي قضاء ملطية أكثر من عشرين سنة، ثم نزح إلى الشام خوفاً من التتار وولي قضاءها سنة (677 هـ/1278م) كان آخر العهد به سنة (699 هـ/1299م) إذ أسره الفرنج. الصفدي، الوافي، ج11، ص305.

(6) الذهبي، العبر، ج3، ص398. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج5، ص473. ابن تغري بردي، النجوم، ج8، ص152. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص779.

أبو العباس أحمد بن قدامه المقدسي(ت689هـ/1290م)[1]، وفي أحداث تحرير عكا من قبل المماليك سنة (690هـ/1291م) اشتركت عناصر الفقهاء والمدرسين والعلماء[2]وكان لهم دور واضح في الصدام مع الفرسان الفرنج من الاسبتارية والداوية[3].

ومن لم يستطع القتال كان يحرض على الجهاد مثل عبد الوهاب بن علي السبكي (ت771هـ/1371م)[4] الذي كان يحرض على مقاومة الغزو الفرنجي لسواحل الشام (نيابة طرابلس) سنة (769هـ/1367م)، فقد خطب كعادته وحرضهم على الجهاد وألبس جماعة من غلمانه العتاد والخوذ وعزم على المسير مع الناس[5].

وفي الاجتياح المغولي الأول للمشرق الإسلامي نلحظ دوراً مميزاً للعلماء تنوع بين القيام بالسفارات بين أصحاب السلطة في البلاد الإسلامية وبين قادة المغول من جهة، وبتقديم النصح والمشورة من جهة أخرى، ومن أبرز العلماء الذين قاموا بالسفارات المؤرخ عز الدين بن

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص368. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، 759. أحمد بن شيخ الإسلام شمس الدّين عبد الرحمن بن محمد بن قدامه المقدسي، قيل عنه: درّس بدار الحديث الأشرفية بالسفح، وشهد فتح طرابلس مع السلطان الملك المنصور، وكان مليح البزّة، ذكياً مليح الدروس. له قدرة على الحفظ (ت689 هـ/1290م) الذهبي، العبر، ج3، ص368. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص759. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص712.

(2) الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص301. النويري، نهاية الأرب، ج31، ص125 . شاهين، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي، ص35.

(3) الدوادار، زبدة الفكرة، ص295-296 . شاهين، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي، ص36.

(4) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي المشهور بتاج الدين، نسبته إلى سبك من أعمال المنوفية بمصر، ولد في القاهرة ثم انتقل إلى دمشق مع والده فسكنها وتوفي بها وانتهى إليه قضاؤها، ثم عزل بعد ذلك من مؤلفاته "طبقات الشافعية"و"معيد النعم ومبيد النقم" (ت771 هـ/1371م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج19، ص209-210. ابن حجر العسقلاني،الدرر الكامنة، ج3، ص232-235. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص378-379.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص366.

شداد(ت684هـ/1285م) الذي أرسله الملك الناصر صاحب دمشق إلى المغول النازلين على ميافارقين[1] في مستهل سنة (657هـ/1259م) للتفاوض معهم، وكان ابن شداد جريئاً في طلبات أخرى لم يكلف بها، حيث طلب منهم مدينة حران[2] أو عوضاً عنها، فاغتاظ المغول من ذلك وهددوه بالقتل[3]، وعندما أمره المغول بالتوجه إلى الملك الكامل صاحب ميافارقين ليحتال عليه ويخرج من ميافارقين رفض ذلك – رغم تهديدهم له بالقتل– وعلل رفضه بقوله: (هؤلاء يريدون أن يعملوا بي حيلة حتى أُخرج صاحبها فيقتلوه ويملكوا البلد، ويقتلوا من فيه وأكون أنا السبب)[4]، وأُرسل قاضي القضاة مهذب الدين محمد بن علي على رأس سفارة لهولاكو[5] أواخر سنة (657هـ/1259م)، حيث أن هولاكو بعث رسله إلى الملك السعيد نجم

---

(1) ميافارقين من أرض أرمينية، بين حدود الجزيرة وحدود أرمينية، البعض يعدها من أرمينية، وبعضهم يعدها من بلاد الجزيرة، وهو في شرقي دجلة على مرحلتين منها، وبينها وبين آمد خمسة فراسخ، وهي منيعة مسورة حصينة وليست بالكبيرة. مجهول، حدود العالم من الشرق إلى المغرب، ص166. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص235-238. الحميري، الروض المعطار، ص567.

(2) حران قصبة ديار مضر، بينها وبين الرّها يوم، وبين الرقّة يومان. وهي أوّل مدينة بنيت بعد الطوفان، وكانت منازل الصابئة الحرانيين الذين يذكرهم مصنّفوا الملل والنحل. مجهول، حدود العالم من الشرق إلى المغرب، ص163. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص235-236. الحميري، الروض المعطار، ص191-192.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج3، ق2، ص493-494. الرواحي، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي، ص112.

(4) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج3، ق2، ص496.

(5) هولاكو بن تولي قان بن جنكيز خان ملك التتار ومقدمهم؛ كان طاغية من أعظم ملوك التتار، فتح بلاد خراسان وفارس وأذربيجان وعراق العجم وعراق العرب والشام والجزيرة والروم وديار بكر، وقتل الخليفة المستعصم وأمراء العراق وصاحب الشام وصاحب ميافارقين (ت664 هـ/1265م) الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص240-241. ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص276-280. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج27، ص233-234.

الدين إيلغازي[1] صاحب ماردين[2] يستدعيه إليه، فسير إليه الملك السعيد سفارة برئاسة مهذب الدين محمد بن علي، فلما وصل أعضاء السفارة غضب هولاكو لعدم قـدوم الملـك الـسعيد بنفسه، فرد القاضي وحده وأبقى الباقين عنده[3]، مع أن هذه السفارات لم يكن الهدف منهـا إلا كسب المزيد من الوقت وتأخير الخطر المغولي بعض الشيء، إذ أن المغول منذ انهيار الدولة الخوارزمية انفتح أمامهم ما بعدها من المدن والممالك وانتشروا في غالـب مـدن الجزيـرة الفراتية ولم يعد يقف في وجههم شيء[4].

أما تقديم النصح والمشورة فكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام نموذجاً فيه، حيث أخذ يحرض الجيش على الخروج لمواجهة المغول في عين جالوت شاحناً هممهم وزارعـاً الثقـة فيهم بقدرتهم على الانتصار، ومطمئناً إياهم بنصر الله تعالى قائلاً لهم : (اخْرُجُوا وَأَنا أضمن لكم على الله النَّصْر) [5].

وفي حملة غازان سنة (699هـ/1300م) برز لبعض العلماء دور في التحـريض على الجهاد، ففي سنة (697هـ/1297م) قبيل دخول غازان لبلاد الشام قام ابن تيمية بعمـل

---

(1) الملك السعيد نجم الدين أبو الفتح صاحب ماردين بن أرتق بن إيلغازي، كان حازماً بطلاً شـجاعاً ملـك ديار بكر مدة، توفي سنة (658 هـ/1260م) بعد أن دخل التتار وملكوا البلد. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص18-19.

(2) ماردين مدينة من ديار ربيعة بعمل الموصل، بينها وبين مدينة دارا نصف مرحلة، وهي في سفح جبـل في قمته قلعة كبيرة، وهي من قلاع الدنيا الشهيرة. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص39. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1219. الحميري، الروض المعطار، ص518.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيـرة، ج3، ق2، ص559. الـذهبي، تـاريخ الإسـلام، ج48، ص43-44. الرواحي، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي، ص114.

(4) ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص247.

(5) السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص215. الرواحي، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي، ص122.

مجلس جليل حرض فيه على الجهاد وبالغ في إعداد المجاهدين[1]. ولما احتلت جيوش غازان دمشق كان ابن تيمية يحض ارجواش بن عبد الله المنصوري [2] نائب القلعة علــى وجــوب الإمتناع عن تسليمها[3] وأرسل إلى(ارجواش)يحثه على عدم التسليم قائلاً:(لو لم يبق فيــه إلا حجر واحد فلا تسلمهم إن استطعت)[4].

ومن القضاة من فتح المساجد والمدارس في دمشق للتدريبات العــسكرية مــن أجــل الاستعداد للدفاع عن المدينة ضد قوات غازان، فقد رسم قاضي القضاة بدر الدين بن جماعــة بإقامة التدريبات في مدارس ومساجد الديار المصرية، وأن يتعلم الفقهاء الرمي، وأن يكونــوا على أهبة الاستعداد لقتال المغول، وكتب بذلك إلى جميع البلاد الشامية[5]، ولما رأى العلماء أن المدينة أصبحت تحت سيطرة غازان قاموا بالمبادرة للتفاوض معه وهو في النبك[6]، واشترك في هذا الوفد الكثير من العلماء مثل بدر الدين بن جماعة[7] وابن تيمية والشيخ زيــن الــدين

---

(1) البرزالي، تاريخ البرزالي، ج2، ص554. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص416.

(2) سنجر أرجواش بن عبد الله المنصوري، الأمير سيف الدين نائب قلعة دمشق في أيام المنصور قــلاوون نكب في أيام الأشرف ثم أعيد إليها وله اليد البيضاء في حصار التتار دمشق في وقعة غازان كان ســليم الباطن له حكايات عجيبة في ذلك وأحبه الناس لما ظهر منه من الثبات في حفظ القلعة وســاس الأمــر أحسن سياسة (ت702 هــ/1302م) الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص91–92. الــصفدي، الــوافي بالوفيات، ج8، ص220–221. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص316. ابن تغري بــردي، المنهل الصافي، ج2، ص294–295.

(3) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص159. المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص1036.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص10.

(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص224. البرزالي، تاريخ البرزالي، ج3، ص105–106.

(6) النبك قرية مليحة بذات الذخائر بين حمص ودمشق فيها عين عجيبة صافية عذبة يقولون مخرجها مــن يبرود. ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد (ت280 هــ/893م) المسالك والممالك، دار صــادر، بيــروت 1889ص76 وسيشار له لاحقاً ابن خرداذبه، المسالك والممالك. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص258. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1354.

(7) محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي،المشهور ببدر الدين بن جماعــة،درس وأفتــى وولي خطابة القدس ،ثم تولى قضاء مصر ثم قضاء الشام ثم أعيد لقضاء مصر،كان يخطب من إنــشائه وصنف في علوم الحديث والأحكام (ت733 هــ/1733م) الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص297–298 . ابن كثير،البداية والنهاية، ج14، ص188–189.

الفارقي[1] والقاضي شمس الدين الحريري وفخر الدين بن الشيرجي[2] ونجم الدين بن صصري[3] وعز الدين بن الزكي[4] والشيخ وجيه الدين بن المنجا[5] وجماعة كبيرة من القراء والفقهاء والعدول[6]، ولما طلبوا الأمان أخبرهم بأنه أرسله مع الشريف القمي[7]، فعادوا إلى مدينتهم واجتمعوا بالمسجد الأموي وتلا عليهم أمير مغولي اسمه إسماعيل صورة الأمان سنة

---

(1) زين الدين الفارقي عبد الله بن مروان بن عبد الله بن فيره خطيب دمشق ومفتيها أبو محمد الشافعي وشيخ دار الحديث الأشرفية سمع من كريمة القرشية وابن رواحة وابن الصلاح والسخاوي وابن خليل وطبقتهم ثم تحول إلى مصر وبرع في الفقه درس بالشامية والناصرية أخذ عنه ابن أبي الفتح وابن الخباز والبرزالي والمزي وابن حبيب وطائفة (ت703 هـ/1303م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج17، ص323. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج3، ص89-90.

(2) نجم الدين بن صصري أبو العباس احمد بن العدل، درس بالعادلية وبالامينية وبالغزالية ، وتولى قضاء العسكر في دولة العادل كتبغا . ثم تولى قضاء الشام سنة (702 هـ/1303م) (ت723 هـ/1322م) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748 هـ/1347م) معجم المحدثين، ط1، تحقيق محمد الهيلة، مكتبة الصديق الطائف، السعودية 1987 ص19 وسيشار له لاحقاً الذهبي، معجم المحدثين. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص122.

(3) سليمان بن محمد بن عبد الوهاب هو الرئيس الصاحب فخر الدين أبو الفضل ابن الشيرجي الأنصاري الدمشقي ولي نظر الديوان الكبير وكان من أكابر البلد ورؤسائها الموصوفون بالكرم والحشمة لما استولى التتار على البلد ألزموه بوزارتهم والسعي في تحصيل الأموال فدخل في ذلك مكرهاً (699 هـ/1299م) الذهبي، العبر، ج3، ص399. الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص452-453. الوافي بالوفيات، ج15، ص259.

(4) قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز بن محي الدين بن الزكي، من أعيان دمشق ، درس بالعزيزية وبعدة مدارس، وولي نظر الجامع ومات كهلاً (ت699 هـ /1299م) الذهبي، العبر، ج3، ص400. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص191.

(5) محمد بن عثمان بن أسعد بن المنجا بن بركات بن المؤمل التنوخي وجيه الدين تفقه ودرس وكان كثير المال والبر أنشأ دار القرآن بدمشق ورباطا بالقدس وباشر نظر الجامع الأموي متبرعا، وكان مع سعة ثروته مقتصدا في أموره (ت701 هـ /1301م) الذهبي، العبر، ج4، ص4. الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص566-567. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص289 .

(6) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص 243-246. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص60. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص19. المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص888-889. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص123.

(7) مرتضى العلوي الشريف المعروف بالقُمّي، داخل التتار لما أتى غازان إلى دمشق وتوجه إليهم وعاد إلى دمشق ومعه أربعة من التتار، وكسر أقفال باب توما، ونزلوا بالبادرائية. وأخذ يدلّ التتار على عورات المسلمين إلى أن أمسك وحمل إلى القلعة، وقتل مع جماعة (699 هـ/1299م) الصفدي، أعيان العصر، ج5، ص134.

(699هـ/1300م) [1] . وهنا يظهر وكأن العلماء قد عاونوا غازان على إنشاء سلطة بديلة للمماليك، وكانت دمشق حين سقطت لجيش غازان لم تسقط قلعتها معها وحاول المغول احتلال القلعة، ولقد ذهب العلماء لمقابلة نائب القلعة أرجواش لإقناعه بتسليم القلعة، وحدث حوار عنيف بين وفد العلماء وبين (أرجواش) وقالوا له:(دم المسلمين في عنقك إذا لم تسلمها) فأجابهم قائلاً: (دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى غازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها) ثم وبخهم ولم يسلم القلعة [2]. وعندما عاد غازان ثانية إلى دمشق وتخلى المماليك عنها سعى كبار العلماء من جديد للتفاوض معه باستثناء ابن تيمية الذي كان يحرض سكان المدينة ويقنعهم بعدم النزوح عنها، كما أنه أقنع السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإمكانية النصر، وكان من نتائج ذلك معركة شقحب التي انتصر فيها المماليك سنة (702هـ/1302م) [3].

وحين هاجم تيمورلنك بلاد الشام في سنة (803هـ/1400م) انسحب الجيش المملوكي إلى مصر [4]، وكان سبب الانسحاب محاولة انقلاب على السلطان الناصر فرج بن برقوق، فقد اختفت مجموعة من الأمراء ومماليك السلطان ومن الخاصكية وأشيع بين الجند أن المجموعة التي اختفت توجهت إلى مصر للسيطرة عليها، فقام السلطان الناصر فرج بن برقوق بالانسحاب وكر راجعاً إلى مصر [5]، عندها سعى كبار العلماء من جديد للتفاوض مع

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص243-246. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص62-64. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج52، ص75-78. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص175.

(2) الدوادار، زبدة الفكرة، ص360. النويري، نهاية الأرب، ج31، ص247. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص65. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص7-10. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص125.

(3) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص81-87. النويري، نهاية الأرب، ج32، ص30. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص23-27.

(4) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر،ج4، ص200. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص46.

(5) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص167-168.

تيمورلنك، – وهذا كان بعد أن أرسل تيمورلنك يطلب قدوم رجل عاقل ليكلمه –[1] وكان تقي الدين بن مفلح ومجموعة من العلماء يطلبون الاستسلام فانتصر رأيهم، ويبدو أن تيمورلنك أقنعهم بضرورة التسليم فقال لهم:(هذه بلدة الأنبياء والصالحين ، وقد أعتقتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة عني وعن أولادي، ولولا حنقي من سودون نائب دمشق عند قتله لرسولي ما أتيتها، وقد صار سودون المذكور في قبضتي وفي أسري)[2]، فقد استطاع ابن مفلح التأثير على الناس وإقناعهم بضرورة الصلح ، فأخرج الطقزات[3] إلى تيمورلنك واتجه مع الوفد إلى معسكره ، فرحب بهم وعينهم في عدة وظائف للمرحلة القادمة تراوحت ما بين قضاة القضاة والوزارة ومستخرج الأموال وغير ذلك ، ثم ردهم إلى دمشق ومعهم كتاب الأمان فقرئ بالجامع الأموي، عندئذ فتحت أبواب دمشق لتيمورلنك[4]، وكان المؤرخ ابن خلدون من ضمن هذه المجموعة ، حيث طلب منه تيمورلنك كتاباً يصف فيه شمال إفريقيا[5]، حتى قال الفقهاء:(أن الحاكم القادر وإن كان فاجراً خير من الحاكم الصالح إن كان عاجزاً لأن فجور الأول على نفسه وخبرته للمسلمين والآخر صلاحه لنفسه وعجزه وغباؤه على المسلمين)[6].

---

(1) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص167–168.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ج12، ص239. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص411.

(3) الطقزات، كلمة تركية تعني تسعة، وذلك أن تيمورلنك كانت عادته إذا أخذ مدينة صلحاً أن يخرج إليه أهلها من كل نوع من أنواع المأكولات والمشاريب والدواب والملابس والتحف تسعة، ويسمون ذلك طقزات. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص239.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص238–240–245. الصيرفي، نزهة النفوس، ج2، ص85.

(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص732. ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص230–233. ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص182.

(6) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت728 هـ /1328م) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ط1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية 1998 ص12 وسيشار له لاحقاً ابن تيمية، السياسة الشرعية.

وإن بعض العلماء تبنى موقف الممانعة ولم يرض بالاستسلام، مثل سراج الدين عمر البلقيني (ت805هـ/1402م) الذي كان يحرّض على القتال قبيل دخول تيمورلنك بلاد الشام [1]، بينما ظل إبراهيم بن محمد بن علي الصنهاجي[2] يقاتل حتى استشهد أثناء دخـول جـيش تيمورلنك حلب [3].

وفي سنة (922هـ/1516م) تخلى العلماء عن النظام المملوكي واعترفوا بالعثمانيين وقرروا عدم المقاومة فقد كانوا مدركين أن الدولة المملوكية قد أدبر أمرها، فبعد أن انتـصر الجيش العثماني في مرج دابق[4] ودخل السلطان سليم الأول إلى مدينة حلب توجه إليه العلماء معلنين ولاءهم له[5]، وخطبوا باسمه ودعي له على المنابر، فما كان من السلطان سليم إلا أن منح العلماء العطايا استجلاباً لقلوبهم[6]، وفي دمشق اجتمع العلماء مع الوجهـاء والمتنفـذين واستقر رأيهم على تسليم المدينة خوفاً من تعرض العسكر العثماني للأهالي[7].

إذن نلاحظ أن العلماء كانوا يتبنون مبدأ الاعتراف بالقوة الغازية المسلمة، ولم يحاولوا إنشاء نظام بديل عن النظام المملوكي وكانت خشيتهم من خلو البلد من السلطان لأن حـدوث

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص228-229.

(2) إبراهيم بن محمد بن علي الصنهاجي المالكي أبو سالم بركات الدين الشهير بالبادي قاضي قضاة حلب، ظل يقاتل التتار حتى استشهد سنة (803 هـ /1400م) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص48.

(3) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص48.

(4) دابق قرية قرب حلب من أعمال عزاز، بينها وبين حلب أربعة فراسخ، عندها مرج معشب نـزه كـان ينزله بنو مروان إذا غزا الصائفة إلى ثغر مصيصة، وبه قبر سليمان بن عبد الملك. الحمـوي، معجـم البلدان، ج2، ص416. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص503. الحميري، الروض المعطـار، ص231.

(5) ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي (ت881 هـ/1476م) العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مـع رحلة الأمير يشبك بن مهدي الدوادار، ط1، تحقيق محمد دهمان، دار الفكر، دمـشق 1986 ص255 وسيشار له لاحقاً ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك. الغزي، نهر الذهب، ج3، ص198.

(6) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص255-257.لابيدوس، مدن إسـلامية فـي عهـد المماليك، ص222.

(7) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص264.

هذا الأمر يجعل من غير الممكن إبرام عقود الزواج أو تطبيق أحكام الشريعة والحفاظ على الأمن والنظام العام ودرء المخاطر الداخلية[1].

والسبب الآخر أنه في حال غياب السلطة كانت التنظيمات الاجتماعية في المدن الشامية الكبرى هي التي تسيطر على الأوضاع الداخلية وتوجه المجتمع فيورد ابن كثير في حوادث سنة (699هـ/1300م) حين اقترب غازان ما يدلل على ذلك قائلاً:(وعاثت الحرافشة في ظاهر البلد، فكسروا أبواب البساتين، وقلعوا من الأبواب والشبابيك شيئاً كثيراً وباعوا ذلك بأرخص الأثمان...)[2]، ويظهر من هذه الحادثة أن العلماء سارعوا لمهادنة المغول لحفظ النظام، وكانوا يمقتون هذه التنظيمات وهذا واضح من خلال كتابات ابن طولون التي يظهر فيها الكثير من التحامل ضد التنظيمات الاجتماعية، ففي سنة (902هـ/1496م) حين توفي النائب قانصوه اليحياوي[3] تمادى الزعر وأضروا الناس، فتصدى لهم الحاجب وقتل جماعة وقطع أيدي آخرين منهم ويعلق ابن طولون على ذلك بقوله:(أعانه الله على الخير)[4]. وفي سنة (903هـ/1497م) وسط النائب رجلين من زعر دمشق، أحدهما من زقاق البركة، يعرف بابن الفكيك، لقتله رجلاً مغربياً، والثاني من محلة الشاغور، يعرف ببركات، ويعلق ابن طولون مرةً أخرى بقوله:(ولله الحمد)[5]، وفي سنة (907هـ/1501م) وسط النائب أخطر الزعر المعروفين في دمشق آنذاك والمدعو بالجاموس ونلحظ من تعليق ابن طولون ارتياح لزوال هذا الخطر فيقول:(وأراح الله منه العباد والبلاد)[6].

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص28-29.

(2) ابن كثير ،البداية والنهاية، ج14، ص9.

(3) قانصوه اليحياوي الظاهري جاوز الثمانين وهو عتيق الملك الظاهر جقمق تقلبت به الأحوال وولي نيابة حلب ونيابة الشام مرتين ونيابة طرابلس والإسكندرية، دفن بتربته التي جددها بباب الجابية سنة (902 هـ /1496م) البصروي، تاريخ البصروي، ص218-219.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص176.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص196.

(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص247.

3 - علاقة العلماء بالعامة

أ - علاقة العلماء الإيجابية مع العامة

أما عن علاقة العلماء بالعامة فقد كانوا بجانب أفراد المجتمع يدافعون عنهم ويحصلون حقوقهم ويحتجون بمختلف الوسائل والطرق، وكان لهم دور في تصديهم للتعسف الذي كـان يقوم به بعض المماليك فيذكر ابن شاكر الكتبي شجاعة ابن تيمية وعمله على رفع الظلم، فقد قدم إليه رجل من الناس شكا إليه من ظلم قطلوبك الكبير نائب صفد (ت716هـ/1316م)[1] وكان هذا فيه جبروت، ويأخذ أموال الناس غصباً، فدخل عليه ابن تيمية غير هياب، وتكلـم معه فيما جاء به إليه فقال له قطلوبك الكبير:(أنا كنت أريد أن أجيء إليك لأنك عالم زاهد)، يعني الاستهزاء به، فقال له ابن تيمية: (موسى كان خيراً مني وفرعون كان شراً منك، وكان موسى يجيء إلى باب فرعون كل يوم ثلاث مرات ويعرض عليه الإيمان وأنا آمرك أن تدفع لهذا حقه)، فلم يسعه إلا الامتثال لأمره ووفى الرجل حقه[2]، وفي هذا دليل على جـرأة هـذا العالم.

وهذا شرف الدين أبو الروح عيسى المغربي (ت854هـ/1450م)[3] كان مـن قـضاة العدل لا يخاف في الله لومة لائم، والـذي تـصدى لنائـب القـدس الأميـر مبـارك شـاه

---

(1) قطلوبك الكبير من مماليك المنصور ولي الشد بدمشق، وولي نيابة طرابلس ثم نيابة صفد، سـجن فـي الكرك بعد أن خرج على الناصر إلى أن قتل سنة (716 هـ /1316م) الصفدي، أعيان العـصر، ج4، ص121-124. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص294-296.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص75.

(3) شرف الدين أبو الروح عيسى بن شمس الدين محمد المغربي الشحيني المالكي، كان من أكابر أهل العلم ولي قضاء بيت المقدس بعد البساطي، وباشر بعفة وشهامة ولم يل القضاء مثله في العفة والتقوى والعلم وكان له هيبة زائدة ووقع في القلوب وكان من قضاة العدل واستمر على القضاء بالقدس إلى أن تـوفي سنة (854 هـ /1450م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص248-249.

(ت854هـ/1450م) [1] حين دخل مدينة القدس والياً عليها، وقبض على جماعة من الفلاحين، فلما وصل بهم إلى باب الخليل وقصد شنقهم، تقدم إليه شرف الدين عيسى وقال: (ما الذي تريد تفعل بحضورنا، فقال له: اشنق هؤلاء فقال: بأي طريق قال: لصوص قاتلون للنفس، فقال له: هل ثبت عليهم هذا بالطريق الشرعي، فقال النائب لا نحتاج إلى ثبوت، فقال له: تقتل مسلماً بحضوري بغير حق هذا لا سبيل له، وحين تشدد النائب في أمرهم وقال لا بد من قتلهم قال له العالم: والله لو قتلتهم لكنت أقتلك بيدي وأعلقك إلى جانبهم، كما أنت بخلعة السلطان) [2]، فلم يقدر النائب على مراجعته لهيبته ودخل المدينة ولم يستطع قتلهم[3].

ويذكر ابن طولون الكثير من الممارسات التي قام به القضاة كضغوط على المماليك الحكام بدمشق لإطلاق من اعتقل ظلماً وعدواناً، أو للشفاعة بمن اعتقل أثناء الصراع بين المماليك والسكان[4]، ففي سنة (890هـ/1485م) حمل العلماء الأعلام مع العامة بالجامع الأموي احتجاجاً على النائب قجماس لقبضه على أحد شيوخ الصوفية لما أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحرق الحشيش[5]، وقد سارع القاضي شهاب الدين بن الفرفور الشافعي إلى إطلاق أحد الشيوخ الموصوفين بالتقوى بعد أن ضرب وحبس في سجن النائب في دمشق سنة(899هـ/1493م)[6].

---

(1) الأمير مبارك شاه نائب القدس الشريف كان متوليا في دولة الملك الظاهر جقمق في سنة نيف وخمسين وثمانمائة وكان حاكماً معتبراً (ت854 هـ /1450م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص277. السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص290.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص248.

(3) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص248. علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، ص175.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص115-158-160-162.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص65.

(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص158.

وتدخل العلماء في فك قيد الأسرى الذين أخذهم غازان ونائبه، وقد وصف ذلك العالم ابن تيمية الذي قام هو بنفسه بطلبهم من القائد المغولي حيث أنه أقام عنده ثلاثة أيام يحادثه ويعظه ويكلمه في فك ما بيده من الأسرى، فاستطاع إنقاذ مجموعة منهم، وقد وصف ذلك ابن تيمية قائلاً: (لما خاطبت في إطلاق الأسرى، وأطلقهم غازان وقطلوشاه[1]، وخاطبت مولاي فيهم فسمح بإطلاق المسلمين قال لي: (لكن معنا نصارى، أخذناهم من القدس فهؤلاء لا يطلقون، فقلت له بل جميع من معك من اليهود والنصارى، الذين هم أهل ذمتنا، فإنا نفكهم ولا ندع أسيراً من أهل الملة ولا من أهل الذمة، وأطلقنا النصارى من شاء الله)[2]، أما الشيخ تقي الدين أبو بكر بن عبد الله بن قاضي عجلون (ت928هـ/1524م)[3] فقد ساهم في إطلاق سراح المسجونين والمرسم[4] عليهم في السجون المملوكية بشكل كبير[5].

وفي سنة (852هـ/1448م) حصل بين نائب القدس تمراز المصارع (ت855هـ/1451م)[6]، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الديري (ت856هـ/1452م)[7]

---

(1) قطلوشاه كان أحد أكابر المغول في وقعة شقحب، أمره خربندا بعد ذلك بالتوجه إلى أهل كيلان وقتل في هذه الحملة، ويقال إن خربندا فرح بقتله وكان ذلك في سنة (707 هـ /1307م) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص50. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص297.

(2) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت728 هـ /1328م) الرسالة القبرصية، تحقيق علاء الدين دمج، ط1، دار ابن حزم 1987، ص40، وسيشار له لاحقاً ابن تيمية، الرسالة القبرصية.

(3) تقي الدين أبو بكر بن عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بابن قاضي عجلون كان أفقه أهل زمانه، درس بالجامع الأموي والشامية البرانية والعمرية وبالقاهرة وانتهت إليه مشيخة الإسلام ورياسة الشافعية ببلاد الشام وله كتاب«إعلام النّبيه مما زاد على المنهاج من الحاوي، والبهجة، والتنبيه» (ت928 هـ /1524م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص115-118. ابن العماد، شذرات الذهب، ج10، ص217.

(4) الترسيم هو الوضع تحت الحوطية والمراقبة. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص266.

(5) ابن طوق، التعليق، ج1، ص50-51-63-141-164-183-275-672.

(6) تمراز المصارع، تنقل في الخدم ثم أمره الظاهر عشرة وأرسله إلى القدس نائباً مرة بعد أخرى ثم انتقل إلى القاهرة بطالاً وعمل شاداً لبندر جده قتل سنة (855ه/1451م) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص35-36 . ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص291.

(7) عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الديري المقدسي ولي مشيخة المهمندارية بعد الشمس بن الجندي ونظر القدس والخليل والجوالي وغيرها من الوظائف هناك كوظيفة أبيه المعظمية، أراد الاستقرار في نظر الاسطبل والجوالي فما تهيأ له ذلك (ت856 هـ /1452م) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص134.

ناظر الحرمين الشريفين[1] قتال عظيم بآلة الحرب، مما دفع ابن الديري للمناداة بغلق المسجد الأقصى وبالجهاد في تمراز بسبب ما وقع من هذا النائب في حق أمير جرم [2]، ولكن السلطان الظاهر جقمق وقف إلى جانب تمراز فأمر بوضع الجنزير في رقبة ابن الديري وإرساله إلى سجن المقشرة[3]، ويؤكد السخاوي أن أحد العلماء لم يسكت على ظلم وقع على أحد الرعية، وجاهد ليس فقط بالقول ولكن بالسلاح لمنع هذا الظلم ولم يهدأ العالم حتى عزل النائب[4]، وفي سنة (896هـ/1490م) وقف العلماء الدمشقيون يساندهم العامة بوجه نائب الشام بسبب والي الصالحية، ولم يزالوا على ذلك حتى قال لهم النائب:(اختاروا واحداً يصلح لها لنوليه ونعزل الأول) فاختاروا شخصاً يقال له ابن بغلان وألبس الخلع وتولى[5]، وحين كثرت الشكوى على نائب القدس الأمير خضر بك (ت896هـ/1490م)[6] كتب شيخ

---

[1] ناظر الحرمين ومن مهامه النظر في كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم، والإشراف والتصرف بالأموال المخصصة بهذين الحرمين، وكذلك الإشراف على موارد المياه التي تمد الحرمين بالمياه اللازمة للمصلين. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص271. علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، ص51.

[2] العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص277. قبيلة بنو جرم بطن من طي من القحطانية، وقد تفرع عنهم كثير من البطون مثل جذيمة، وشبل، ورضيعة، ونيف، والعذرة، والأحامدة، والرفتة، وموقع، وبنو غور، والعاجلة، والصمان، والعبادلة، وبنو تمام، وقد سكن كثير من القبائل في مدينة القدس. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص209-210. علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، ص73.

[3] ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص200. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص134. سجن المقشرة بجوار باب الفتوح، كان يقشر فيه القمح، ومن جملته برج من أبراج السور على يمنة الخارج من باب الفتوح، استجدّ بأعلاه دور لم تزل إلى أن هدمت خزانة شمائل، فعين هذا البرج والمقشرة لسجن أرباب الجرائم، وهدمت الدور التي كانت هناك سنة (828 هـ /1425م) وعمل البرج والمقشرة سجناً ونقل إليه أرباب الجرائم، وهو من أشنع السجون وأضيقها. المقريزي، الخطط، ج3، ص330.

[4] السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص286. علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، ص175،

[5] ابن طوق، التعليق، ج2، ص1007.

[6] خضر بك، ناظر الحرمين ونائب السلطنة في القدس، تولى مرتين الأولى أساء السيرة فيها، وفي الثانية باشر مباشرة حسنة واظهر العدل في الرعية (ت896 هـ /1490م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص361.

الصلاحية[1] النجمي بن جماعة (ت883هـ/1478م) [2] في أمره للسلطان، وحين عقد المحضر ووقف السلطان عليه ضرب النائب وصدر الأمر بأن يدفع ما عليه من الحقوق لأصحابها وتم عزله من النيابة[3].

وفي طرابلس كان لشرف الدين محمود الطرابلسي (ت802هـ/1399م) [4] دورٌ في تأليب الأهالي ضد نائب السلطنة فيها يونس بلطا الذي وصف بأنه (فعل مالا تفعله الكفرة) فقد أرهقت طلباته المالية كاهل العامة مما دفعهم إلى الثورة عليه سنة (802هـ/1399م) [5].

ولم يقتصر دورهم على رفع المظالم، بل شاركوا في التدخل للتخفيف من الضرائب التي أرهقت كاهل العامة، فقد ورد عن العالم أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي (ت761هـ/1360م)[6] أنه كان جريئاً على الملوك والسلاطين وأنه أبطل عدة مكوس ومظالم كثيرة[7]. لقد كان العلماء هم الصلة بين السلطان والرعية، فحين كانت تحصل شده لا يجد الناس إلا العالم ليوصل كلمهتم للسلطة، مثلما حصل سنة (674هـ/1372م) إذ أصاب أهل الشام ضيق شديد، وضعف بسبب قلة الأمطار، فارتفعت الأسعار وقلت الغلات، فكتب محي

---

(1) الخانقاه الصلاحية أوقفها صلاح الدين الأيوبي على الصوفية في القدس سنة (585 هـ /1189م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص47.

(2) شيخ الإسلام النجمي بن جماعة كان عنده قيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يزل كذلك حتى وقعت الفتنة بسبب كنيسة اليهود بالقدس الشريف وطلب السلطان أهل بيت المقدس وكان هو بالقاهرة فاختفى وتوجه إلى الحجاز ومات بمكة سنة (883 هـ /1478م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص199.

(3) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص339. علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، ص175.

(4) شرف الدين محمود الطرابلسي، خطيب طرابلس الشافعي (ت802هـ/1399م) المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص991.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج2، ص191. خرابشة، نيابة طرابلس في العهد المملوكي، ص205.

(6) أحمد بن موسى الحنبلي، كان فيه إقداماً على الملوك وأبطل مظالم كثيرة، كان من كبار أصحاب ابن تيمية وكان له وجاهة عند العام والخاص ولديه تقشف وزهد (ت761 هـ/1360م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص383. ابن مفلح، المقصد الأرشد، ج1، ص198 .

(7) الذهبي، العبر، ج4، ص192. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص255. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص12 .

الدين النووي (ت676هـ/1374م) للسلطان الظاهر بيبرس يستعطفه على أهل الشام ويتوسل إليه في إنصافهم والرفق بهم، فاستجاب السلطان لذلك ولكن بعد تردد ومماطلة[1].

وقد حاول ابن تيمية مراراً الوقوف ضد أساليب الدولة المتبعة في جباية الضرائب وإعفاء الرعية منها ولكنه لم ينجح في ذلك[2]، وهناك نموذج آخر وهو جمال الدين الملطي (ت803هـ/1400م)[3] فحين وصلت الأخبار في أوائل سنة (803هـ/1400م) بقدوم تيمورلنك نحو الشام اجتمع السلطان بالأمراء والقضاة وشاورهم بأخذ الأموال من التجار استعداداً للغزو المغولي، لم يوافق القضاة على ذلك، وتكلم باسمهم جمال الدين الملطي المذكور قائلاً:(...فلا يجوز أخذ مال أحد، ويخاف من الدعاء على العساكر إن أُخذ مال التجار)، كما أنه اعترض على أخذ نصف الأوقاف، وأيده بقية القضاة والعلماء في ذلك[4]، وكانت وسائل العلماء تأخذ أشكالاً متعددة للتعبير عن رفض الضرائب وغلاء الأسعار مثل التكبير على المساجد، ورفع الأعلام على المآذن، وحمل المصاحف والاستغاثة والتهليل والتكبير، ورفع عرائض الاحتجاج، وإغلاق المساجد والمدارس، والتوقف عن الفتوى والتدريس[5].

---

(1) ابن كثير ،البداية والنهاية، ج13، ص288.

(2) المقريزي، المقفى الكبير، ج8، ص173

(3) جمال الدين يوسف بن موسى الملطي، أصله من ملطية سكن بحلب واشتغل بالعلم حتى مهر به، اشتغل بالإفتاء والتدريس، تولى قضاء حلب سنة (800 هـ/1397م) واستمر به إلى أن توفي سنة (803 هـ /1400م) ابن قاضي شهبه ، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص250-251 .ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص64.

(4) ابن قاضي شهبه ، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص250-251. المقريزي، السلوك، ج3، ق3، ص1028-1029. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص175-176. الرواحي، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي، ص238-239.

(5) ابن طوق، التعليق، ج1، ص62-82-120، ج2، ص598-627-671-713-719-726.

ومن المسؤوليات التي كانت على عاتقهم رفع مستوى الأخلاق والالتزام بالشريعة فقد قام الشيخ خضر أبي بكر محمد بن موسى (ت671هـ/1272م) [1] شيخ الظاهر بيبرس مع علماء آخرين بتفتيش بيوت أهل الذمة سنة (668هـ/1296م) لإلزامهم بأن يكتبوا على أنفسهم كتاباً بعدم تعاطي الخمر وعدم اقتنائه [2]، وكان ابن تيمية (ت728هـ/1328م) يدور على الخمارات والحانات التي استحدثها غازان وتركها بعد رحيله، فكان يدور عليها ويكسر أواني الخمر ويشتم أهل الحانات [3]، وفي سنة (885هـ/1480م) ركب الشيخ محب الدين والشيخ إبراهيم الاقباعي مع حاجب الحجاب لإزالة المنكرات وإراقة الخمور، فأراقوا شيئاً كثيراً [4]، وفي سنة (887هـ/1482م) قام الشيخ إبراهيم الجناوي مع جماعة من الفقراء بإزالة الخمور، ووجدوا شيئاً كثيراً وأزالوه، منها خمارة دوادار السلطان والحاجب كما أحرقوا الكثير من الحشيش [5]، ووقفوا ضد البدع المستحدثة مثل عادة الوقيد [6] بجامع دمشق في ليلة النصف من شعبان التي بطلت سنة (751هـ/1350م) [7].

---

(1) خضر أبي بكر محمد بن موسى المهراني العدوي شيخ الظاهر بيبرس، كان الظاهر ينزل لزيارته في الشهر مرات ويحادثه بأسراره ويصحابه في أسفاره (ت671 هـ /1272م) الدوادار، زبدة الفكرة، ص146. الدواداري، الدرة الزكية، ج8، ص220-224. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص245 .

(2) الذهبي، العبر، ج5، ص288. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص167.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج31، ص251. المقريزي، المقفى الكبير، ج1، ص459.

(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص36. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص13.

(5) ابن طوق، التعليق، ج1، ص164.

(6) ليالي الوقود هي الليالي التي يزداد فيها إضاءة ووقود القناديل في المساجد وبيوت الصوفية والبيمارستان في ليالي معينة مثل مستهل رجب وليلة السابع والعشرين منه، وأول شعبان ومنتصفه وثبوت هلال رمضان وليلة السابع والعشرين منه (ليلة القدر) وليلة المولد النبوي. القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص574. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص33-316 .

(7) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج2، ص9.

لقد ظل العالم محتفظاً بهيبته ومكانته لدى العامة في هذا العصر (المملوكي) فقد أكرمهم الناس وأعطوهم ألقاباً فيها من التفخيم والإجلال ما يليق بمكانتهم مثل: (فقيه زمانه) (وعالم عصره) (وانتهت إليه رياسة المذهب)، وفي زحام الأسواق عند البيع والشراء اعتاد الناس أن يقوموا للعالم[1]، فهذا الفقيه الشافعي العز بن عبد السلام (ت660هـ/1261م) كان العامة يحبونه لوقوفه معهم حتى قالوا :(ما أنت إلا من العوام ولو كنت ابن عبد السلام)[2].

وكان العامة في دمشق يحبون ابن تيمية، فقد حضر ابن بطوطة له درساً في الجامع الأموي سنة (747هـ/1346م)، وحين عارضه فقيه مالكي في مسألة فقهية[3]، قامت العامة إلى هذا الفقيه وضربوه بالأيدي والنعال[4]، أما عماد الدين بن أحمد بن عيسى الكركي (ت801 هـ /1398م)[5] الذي ولي قضاء الكرك بعد والده في الفترة (772 هـ /1370م-794 هـ /1391م) فقد عظم قدره وأحبه أهل بلده حتى كانوا لا يفعلون شيئاً إلا بمشورته ولا يصدرون إلا عن رأيه[6]، فكان إذا رضي عن نائب من نواب السلطنة بالكرك مشت أحواله مع الرعية واستقام أمره، وإن كره نائباً ثوَّر عليه العامة وأغراهم به فيفسد سلطانه،

---

(1) السخاوي، التبر المسبوك، ص366-367.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص352.

(3) يذكر ابن بطوطة أن سبب معارضة الفقيه المالكي لابن تيمية لأن الأخير كان من جملة كلامه أن قال: (إن الله ينزل إلى السماء الدنيا كنزولي هذا ونزل درجة من درج المنبر). ابن بطوطة، تحفة النظار، ص95.

(4) ابن بطوطة، تحفة النظار ، ص95.

(5) عماد الدين أحمد بن عيسى الكركي، مولده في الكرك وتولى قضاء الكرك وطالت مدته الى أن حبس الملك الظاهر برقوق في الكرك، ثم ذهب لمصر وتولى قضاء الشافعية فيها مع عدة وظائف أخرى (ت801 هـ /1398م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص60-62. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج2، ص54-55.

(6) ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852 هـ /1448م) رفع الإصر عن قضاة مصر، ج1، تحقيق إبراهيم أبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1980 ص93، وسيشار له لاحقاً ابن حجر العسقلاني، رفع الإصر. البخيت، مملكة الكرك في العهد المملوكي، ص157.

ويأتي هذا لما اشتهر به من الديانة والحزم[1]، وها هم أهل دمشق يقيمون احتفالاً سنة (806هـ/1403م) بمناسبة خطابة شهاب الدين أحمد بن حجي (ت816هـ/1413م) فيقول ابن قاضي شهبه:(حيث تزاحم الناس على درسه واحتفلوا بخطابته في الجامع الأموي...)[2].

ويعتبر قولهم هو القول النافذ فقد روي أن أبا عبد الله محمد البايرتي (ت855هـ/1451م)[3]كان له هيبة عند الناس ونفذ أمره حتى تكلم في الأسعار فكان يطلب اللحامين والخبازين وغيرهم من أرباب الحرف ويأمر ببيع بضائعهم بسعر معين فلا يخالفه أحد[4]، وقد عرف عن شمس الدين محمد بن عبد الله البلاطنسي الطرابلسي (ت863هـ/1458م)[5] قول الحق أمام الملوك والنواب حتى كثرت أوامره، وكثر التفاف الناس حوله[6]، فقد ذكر ابن تغري بردي في كتابه حوادث الدهور أن أبا الخير بن النحاس[7] وكيل بيت مال دمشق وناظر جواليها قد ظلم وعسف ولم تحمد سيرته، فذهب البلاطنسي إلى القاهرة فشكا عليه إلى السلطان، حتى عزله السلطان وأمر بقتله[8]، وفي سنة (896هـ/1490م) أراق جمع من الناس حمل خمر كبير، يصل إلى نحو عشرة أحمال بغال،

---

(1) المقريزي، درر العقود الفريدة، ج1، ص211.

(2) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص356-357.

(3) أبو عبد الله محمد البايرتي، أخذ العلم عن والدة وجماعة، وله رواية في الحديث وباشر الحكم في القدس، ثم ولي القضاء ودرس بالمدرسة المعظمية الحنفية، وتوفي مسموماً سنة (855هـ/1451م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص224.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص224.

(5) شمس الدين محمد بن عبد الله البلاطنسي، تعلم الفقه في طرابلس وتصدى للتدريس والإفتاء في الشامية البرانية وفي الناصرية، له تصانيف كثيرة وولي كتابة بيت المال بدمشق (ت863 هـ /1458م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص199. السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص86-88. السيوطي، نظم العقيان، ص150.

(6) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص199. السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص86-88. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص445. خرابشة، نيابة طرابلس في العهد المملوكي، ص209.

(7) أبو الخير محمد النحاس قدم حلب في خدمة معين الدين سبط بن العجمي ثم عاد إلى القاهرة فترفع بصحبة الظاهر جقمق وقدمه على أقرانه، وأثرى وكثر ماله، ثم غضب عليه السلطان، وأمر بنهب بيته فأخذوا ما في بيته وقتل سنة (854 هـ /1450م) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص232.

(8) حوادث الدهور، ج1، ص254. السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص141.

وكانوا قد قبضوا عليها، صدفة في نهر عقربا بإشارة أحد العلماء[1]، وفي سنة (899هـ/1493م) خرب العامة كوة (قناة) في نهر ثورا[2] لأن القاضي أمرهم بذلك[3] وكان العامة يقدمون الهدايا للعلماء مثل الفاكهة والخضار والثياب[4].

وما أوردت هذه الأمثلة إلا للتأكيد على أن نفوذ العالم يفوق في كثير من الأحيان نفوذ السلطة الحاكمة، وخاصة حين يتعلق الأمر بقضية دينية أو أخلاقية، فمن السائد لدى الناس أن العلماء هم المؤتمنون على مصالح الأمة وعلى دينها وأنهم الأفضل بناءً على قوله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}[5].

– علاقة العلماء السلبية مع العامة

لم يكن كل العلماء بهذا الشكل فمنهم من كان منعزلاً عن العالم الخارجي منقطعاً عن الناس[6]، وعلى الجانب الآخر نلحظ صورة سيئة لبعض العلماء وتتعدد الأسباب في هذه الحالة، فمثلاً القاضي محمد بن علي بن الزكي (ت685هـ/1286م)[7] توجه هو وأولاده للقاء القائد المغولي هولاكو خان سنة (658هـ/1260م) في حلب الذي خلع عليه وولاه قضاء الشام[8]، وهنا يهاجم ابن كثير هذا العالم قائلاً:(وقرى التقليد هناك والحالة كذلك، وحين ذكر

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج2، ص1011.

(2) ثورا اسم نهر عظيم بدمشق. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص86.

(3) ابن طوق، التعليق، ج1، ص358.

(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص352.

(5) القرآن الكريم، سورة المجادلة، آية11.

(6) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج1، ص623. الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص352.

(7) محمد بن علي بن محمد بن الزكي القرشي برع في العلم بذكائه المفرط وقدرته على المناظرة وحل المعضلات، وهو آخر من ولي القضاء من هذا البيت، وقد درس في عدة مدارس في دمشق (ت685 هـ /1286م) الذهبي، العبر، ج3، ص361. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص362. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص688.

(8) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص356. أبو الفداء، المختصر، ج3، ص202-203 . ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص144.

اسم هولاكو نثر الذهب والفضة فوق رؤوس الناس، قبح الله ذلك القاضي..)[1]، أما القاضي إبراهيم بن علي الكردي (ت705هـ/1305م)[2] فبعد وصول المغول بقيادة غازان لحمص سنة (699هـ/1299م) فقد لجأ إلى غازان وولي له حكم حمص، وحكم وظلم وتولى قضاء خلاط وظل على ذلك إلى أن توفي[3].

وهذا القاضي شهاب الدين أحمد العينتابي كان حنفياً، ولكنه تحنبل (غير مذهبه) لأجل الوظيفة، حتى قيل عنه:(وهو عار من جميع المذاهب غير متلبس بالعفة والديانة)[4] وفي سنة (830هـ/1426م) عين بهاء الدين محمد بن حجي الشافعي عوضاً عن والده، وقد بلغ من العمر حين ولي القضاء ما ينوف على ستة عشر سنة وهو عارٍ عن العلوم ويقول الصيرفي:(وهذه ثلمة في الإسلام)[5]، وحين جاء تيمورلنك ودخل دمشق وقف معه قاضي الحنابلة شمس الدين محمد النابلسي (ت805هـ/1402م)[6] وأخذ أموال الناس بغير وجه حق، وزاد على ذلك بأن باع كثيراً من أملاك الأوقاف بدمشق، ويعلق ابن حجي على فعله قائلاً: (إنه ما أبيع في الإسلام من الأوقاف قدر ما بيع في أيامه) ووصفه أخيراً بأنه من قضاة

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص256.

(2) إبراهيم بن علي بن إبراهيم بن خشنام ولي قضاء حمص للحنفية وعزل ثم ولي إمامة جامعها، خدم غازان وداخل التتار وولي قضاء حمص من جهة غازان وحكم وظلم ثم خاف فسافر مع التتار وولي عنهم قضاء خلاط وأقام هناك نحو ستة أعوام ثم إنه مات على قضائها وسمع منه البرزالي وغيره (ت705 هـ /1305م). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص45.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص350. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص45.

(4) الصيرفي، نزهة النفوس، ج3، ص41.

(5) الصيرفي، نزهة النفوس، ج3، ص121.

(6) شمس الدين محمد النابلسي، قدم دمشق واشتهر أمره وعلا صيته، ولم يزل يترقى حتى ولي القضاء سنة (796 هـ /1393م) درس بدار الحديث الأشرفية والحنبلية، باع من الأوقاف كثيراً (ت805 هـ /1402م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص250. ابن مفلح ،المقصد الأرشد، ج2، ص366-367 . ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص82.

السوء[1]، ولم يتردد البدري في كتابه (نزهة الأنام) عن إتهام المتشبهين بالفقهاء بالاستيلاء على أوقاف جامع تنكر وإظهارهم فيها المفاسد[2].

وفي سنة (816هـ/1413م) وجدت حالة اتفاق بين القضاة والسلطة المملوكية على الأهالي لإقطاع الأوقاف والأملاك بحجة عمارة القلعة، ففرضوا الكثير من الضرائب وقاموا بإقطاع الأوقاف والأملاك[3]، ويبدو أن تراجع هيبة الدولة المملوكية الثانية (البرجية) وتزايد مساوئ النظام الحاكم، وانتشار الفساد والرشوة والبذل والبرطلة، قد وصل إلى العلماء فأصبحت الوظائف العلمية تشتري بالبذل، فهذا ابن النحاس (ت799هـ/1396م)[4] تولى قضاء نابلس ببذل بذله على يد إبراهيم النابلسي[5]، وأيضاً محمد بن عثمان الأسليمي (ت804هـ/1401م) [6] قاضي قضاة الشافعية بدمشق يذكر أنه دفع مائة ألف درهم كرشوة ولم تحمد سيرته[7]، وشهاب الدين أبو العباس الحمصي (ت816هـ/1413م) [8] قاضي

---

(1) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص327-228.

(2) البدري، عبد الله بن محمد (ت894 هـ /1489م) نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، مصر،1923 ص71 وسيشار له لاحقاً البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام.

(3) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص570-571.

(4) ابن النحاس محمد بن محمد بن الخواجا المكي الأصل تولى القضاء إلى أن طلب للقاهرة لشكوى بعضهم فيه، فحضر وتمثل بين يدي السلطان وبان بطلان ما انهي عنه، وقد عرف بثروة زائدة من نقد وعقار(ت799 هـ /1396م). السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص44-45 .

(5) السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص45. العزة، نابلس في العصر المملوكي، ص58.

(6) محمد بن عثمان الأسليمي المعروف بأصيل الدين تكسب بالشهادة ثم ناب في الحكم بالقاهرة ثم سعى في قضاء القضاة فقرر في قضاء دمشق، فوليه سنة (801 هـ /1398م) في أواخر دولة الظاهر فلم تحمد سيرته، ونالته بالقاهرة محنة بسبب الديون التي تحملها وسجن بالصالحية مدة ثم أطلق (ت804 هـ /1401م). ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص220. السخاوي، الضوء اللامع، ج8، ص142.

(7) الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص487. أحمد، أحمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1979 ص111 وسيشار له لاحقاً أحمد، البذل والبرطلة.

(8) شهاب الدين أبو العباس الحمصي اشتغل ببلده، وولي قضاءها، وقدم القاهرة مرارا ونزل في خانقاه سعيد السعداء، ثم سعى في قضاء دمشق فوليه في آخر سنة ست وثمانمائة، ثم عزل عن قرب، وكان نبيها في الفقه مع طيش فيه (ت816 هـ /1413م). ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص18،

الشافعية بدمشق عرف بقبح السيرة وبتناول الرشوة[1]، وزين الدين محمد بن القاضي المارداني (ت831هـ/1427م)[2] ولي نيابة القضاء في دمشق سنة (829هـ/1425م) بمال بذله فأنكر الناس ولايته[3]، وعرف عن قاضي دمشق عمر الحمصي (ت861هـ/1457م) [4] أنه كان يأخذ الرشوة ويظلم في حكمه[5]، واتهم سلمان بن نوح بأنه كان متساهلاً في القضاء إلى أقصى غاية مع تمرير قضايا الزور[6]، ويورد ابن طوق عن زين الدين عبد الرحمن الحسباني (ت900هـ/1494م)[7] قاضي الشام الحنفي (أراح الله الإسلام والمسلمين من هؤلاء القضاة السوء)[8]، وتعدى الأمر ببعض العلماء إلى فساد أخلاقي وعادات حرمها الإسلام ارتكبها بعضهم مثل شرب الخمر فهذا الفتح أحمد بن الثقفي (ت701هـ/1301م) [9] من أهل حماة قتل بسبب شربه للخمر[10]، وقد تعرض القاضي صدر الدين بن الوكيل

---

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص298. أحمد، البذل والبرطلة، ص111.

(2) زين الدين أبو عبد الله محمد بن القاضي المارداني المعروف بابن قاضي صور تلقى عن والده تدريس الماردانية ونظرها ونظر التربة الجركسية بالصالحية وباشر ذلك مباشر سيئة (ت831 هـ /1427م). النعيمي، الدارس، ج1، ص455.

(3) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص112.

(4) عمر بن موسى بن الحسن الحمصي فقيه أصولي متكلم، ولي القضاء بدمشق وتوفي ببيت المقدس سنة (861 هـ /1457م) ومن كتبه توضيح المبهم والمجهول في شرح منهاج الأصول للبيضاوي. السخاوي ، الضوء اللامع ،ج6، ص139-142.

(5) البقاعي، إبراهيم بن عمر (ت885 هـ /1480م) إظهار العصر لأسرار أهل العصر، ج2، تحقيق محمد العوفي، دار هجر مصر د. ت، ص46، وسيشار له لاحقاً البقاعي، إظهار العصر.

(6) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص259.

(7) زين الدين عبد الرحمن بن الشهاب أحمد الحسباني قاضي قضاة الحنفية بدمشق توفي بالصالحية سنة (900 هـ /1494م) النعيمي، الدارس، ج1، ص496.

(8) ابن طوق، التعليق، ج2، ص879.

(9) الفتح أحمد بن الثقفي كان من أهل حماة رمي بالزندقة فمسك وسجن بالقاهرة لما ثبت عنه من الاستهزاء بالآيات وتحليل المحرمات، هذا وقد كان له فضيلة وقد ذكر أنه حفظ كتباً كثيرة وكان ذكياً مفرطاً وحفظ سائر كتب الفقه ودواوين الأشعار حكم عليه بالقتل سنة (701 هـ /1301م) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص76-78. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص21. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص957.

(10) الدواداري، الدر الفاخر، ج9، ص76-78. مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص104-105. ابن كثير، البداية والنهاية ،ج14، ص21. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص957.

(ت716هـ/1316م) [1] للعزل بسبب شربه للخمر وثار الناس بسبب ذلك وادعوا أن الصلاة لا تجوز خلفه[2].

وبالإضافة لما سبق وجد من العلماء من كان يتناول الحشيشة مثل أحمد بن إبراهيم بن راجح (ت710هـ/1310م)[3] الذي انحرف عن مزاجه لتناوله الحشيشة فقد أكثر منها حتى أدت لوفاته[4]، وفي سنة (704هـ/1304م) أحضر ابن تيمية الشيخ إبراهيم القطان وأمره بترك الصياح والفحش وأكل الحشيشة وأكل جميع ما يغير العقل ويذهبه وأفتى ابن تيمية بكفر من استحلها[5]، ومن العلماء من تعلق بالغلمان والصبيان وهام بهم عشقاً، ومن هؤلاء المؤرخ شمس الدين محمد بن خلكان (ت681هـ/1282م) الذي رمي بالميل إلى بعض أولاد الملوك حتى أنه نظم أشعاراً في ذلك [6].

أما العالم ضياء العجمي[7] فكان يتهتك بالغلمان ويخرج عن طور العقل والعفة، فكان يمشي وفي يده خرقة من الرياحين فمن لقيه من المرد أدناها من أنفه فيشمها، ثم تعلق بأحد

---

(1) صدر الدين بن الوكيل المعروف بابن المرحل درس بدمشق وبالقاهرة أفتى وعمره اثنتان وعشرون سنة كان يشتغل بالفقه والتفسير ولي مشيخة دار الحديث الأشرفية (ت716 هـ /1316م). الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص13-27. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص233-234. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص233.

(2) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص923. العيني، عقد الجمان، ج4، ص177-178.

(3) أحمد بن إبراهيم بن أحمد راجح، تفقه واشتغل ودأب ولكن ما أتم العلم وحصل له جنون، وكان يقف في الطريق وينشد أشياء ممفيدة، وكان له تلاميذ (ت710 هـ /1310م) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص157-159. الوافي بالوفيات، ج6، ص141.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص141.

(5) ابن كثير ،البداية والنهاية، ج14، ص39.

(6) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص160. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص112. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص203.

(7) ضياء العجمي قدم إلى دمشق وقرر في الخانقاة السميساطية وأقرأ في الكلاسة بالنحو، وكان مغرماً بمشاهدة المردان، اتفق أن دخل مصر فرأى نصرانياً نازعه في أمر من الأمور فضربه بعكازه ضربة قضى منها في الحال، فأمر السلطان بقتله. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص370.

الصبيان من أبناء الجند فكان يخرج إلى سوق الخيل ليشاهده إذا ركب[1]، وفي سنة (892هـ/1486م) اتهم الشيخ موسى الديري فقيه جوبر[2] (الرجل الصالح) بصبي دون البلوغ اشتكى عليه للنائب[3]، وفي سنة (894هـ/1488م) سمع عن أحد مدرسي المدرسة البادرائية أنه أدخل صبياً أمرداً إلى خلوته في الليل وأغلق عليه الباب[4]، ومن سلوكياتهم السيئة الحسد والتباغض فيما بينهم فقد اتهم التاج السبكي (ت771هـ/1369م) بشرب الخمر والزنا وأنه كان يلبس الغيار[5] ويشد الزنار بالليل ويخلعهما بالنهار، وتحزب عليه البعض من العلماء وأتوا به مقيداً مغلولاً إلى مصر[6]، وأحيانا يصل الأمر للتكفير فيما بينهم[7]، أو الضرب في بعض الأحيان[8] والحط من قدر بعضهم البعض[9].

كما أن خلافاتهم الفقهية كانت توجد بينهم عداءً واضحاً للعيان، فقد أنكر العلماء على ابن تيمية قوله:(إن الطلاق بالثلاث لا يقع إلا بلفظ واحد)[10]، وأنكروا على ابن قيم الجوزية

---

(1) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص370. الشوكاني، محمد بن علي بن عبد الله (ت1250 هـ /1834م) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج1، دار المعرفة، بيروت 19 ص300-301 وسيشار له لاحقاً الشوكاني، البدر الطالع.

(2) جوبر قرية بالغوطة من دمشق وقيل بها نهر. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص176.

(3) ابن طوق، التعليق، ج2، ص702.

(4) ابن طوق، التعليق، ج2، ص893.

(5) الغيار هو علامة أهل الذمة كالزنار للمجوس ونحوه. الزبيدي، تاج العروس، ج13، ص289.

(6) الآلوسي، نعمان بن محمود بن عبد الله (ت1317 هـ /1899م) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، ج1، تقديم علي المدني، مطبعة المدني، الرياض 1981 ص38 وسيشار له لاحقاً الآلوسي، جلاء العينين.

(7) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج4، ص395-398. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص263. البصروي، تاريخ البصروي، ص87-88 .

(8) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص290.

(9) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص306-307.

(10) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتخب، ص104-105. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص203. علي، القدس في العصر المملوكي، ص176.

(ت751هـ/1350م) [1] كلامه بمدينة القدس سنة (726هـ/1325م) بعدم جواز الشفاعة والتوسل بالأنبياء، وكذلك آخذوه على نكرانه مجرد القصد للقبر الشريف دون قصد المسجد النبوي، واشتدت معارضة علماء القدس لتلك الآراء فاجتمعوا وكتبوا في ابن القيم إلى قاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت739هـ/1338م) [2] وغيره من قضاة دمشق، ولما وصلت كتب العلماء المقادسة في ابن القيم، كتب قضاة دمشق فيه وفي أستاذه ابن تيمية إلى السلطان، فكان جزاء ابن تيمية الحبس وجزاء ابن القيم الضرب المبرح والتشهير على حمار بدمشق [3].

ومن هنا أستطيع القول أن من بعض العلماء نجح في لعب دور الوسيط في مجتمعاتهم المحلية بين الأهالي من جهة والسلطة الحاكمة من جهة أخرى، ويرتبط بهذا الأمر أن من العلماء من واجه امتحاناً دقيقاً ووضع نفسه أمام أزمات ومواقف صعبة من أجل قضايا آمنوا بها ونذروا حياتهم للدفاع عنها.

---

(1) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرعي الدمشقي، مولده ووفاته في دمشق، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، بل ينتصر له في جميع ما يصدر عنه. وهو الّذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وأطلق بعد موت ابن تيمية، أغري بحب الكتب، فجمع منها عدداً عظيماً، وكتب بخطه شيئا كثيراً، وألّف تصانيف كثيرة منها (إعلام الموقعين) و (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية) و (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل) و (كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء) (ت751 هـ /1350م). الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص366-370. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص135-140. ابن مفلح، المقصد الأرشد، ج2، ص384-385.

(2) محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعيّ، أصله من قزوين، ولي القضاء في ناحية بالروم، ثم قضاء دمشق فقضاء القضاة بمصر سنة (727 هـ /1327م) ونفاه السلطان الملك الناصر إلى دمشق ثم ولاه القضاء بها، فاستمر إلى أن توفي، من كتبه (تلخيص المفتاح) في المعاني والبيان، و(الإيضاح) في شرح التلخيص، و (السور المرجاني من شعر الأرجاني) (ت739 هـ /1338م) الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص492-499. الوافي بالوفيات، ج3، ص199-206. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص249-253.

(3) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص203. علي، القدس في العصر المملوكي، ص176.

الفصل الثالث

الصوفية في بلاد الشام في العصر المملوكي

1- الجذور والنشأة

أ- المفهوم

تعددت الآراء واختلفت في الأصل الذي أخذت منه كلمة "التصوف" فهناك من يرجعها إلى أنها مشتقة من لبس الصوف ، فقال محمد بن إبراهيم الكلاباذي (ت380هـ/990م)[1] : (وقال قوم إنما سموا الصوفية للبسهم الصوف)[2]، وسئل أبو علي الروزباري عن الصوفي فقال:(من لبس الصُّوف على الصفاء وَأطْعم الْهوى ذوق الْجفَاء وكَانَت الدُّنْيَا مِنْهُ على الْقَفَا وسلك منهاج الْمُصْطَفى)[3]، لأن لبس الصوف دأب الأنبياء، وشعار الأولياء والأصفياء، وتكثر في ذلك الروايات والأخبار[4]، ونسب بعض الصوفية أنفسهم إلى الصفاء، فلصفاء أسرارهم وانشراح صدورهم وضياء قلوبهم صحت معارفهم بالله فلم يرجعوا إلى الأسباب ثقة بالله عز وجل وتوكلاً عليه ورضاً بقضائه[5]، وأن الصوفي هو أحد خاصة أهل الله الذين طهر الله قلوبهم من كدورات الدنيا[6]، وفي ذلك يقول بشر بن الحارث(ت227هـ/841م)[7] :

---

(1) محمد بن إبراهيم بن يعقوب الكلاباذي، من حفاظ الحديث من أهل بخارى له بحر الفوائد والتعرف لمذهب أهل التصوف (ت380 هـ /990م) الادنروي، طبقات المفسرين، ص85 .

(2) الكلاباذي، محمد بن إبراهيم (ت380 هـ /990م) التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت19 ص21 وسيشار له لاحقاً الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف.

(3) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص25.

(4) السراج، عبد الله بن علي (ت378 هـ /988م) اللمع، دار الكتب الحديثة، مصر 1960، ص41، وسيشار له لاحقاً، السراج، اللمع. G. annmuller and others .Sufi. Shorter Encyclopedia of Islam .Leiden ,E,J,Brill 1974 p581.

(5) الالوسي، شهاب الدين أبو الثناء محمود (ت1270 هـ /1853م)، الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد، المطبعة الكستلية، د. م. 1861م، ص100-101، وسيشار له لاحقاً الالوسي، الفيض الوارد.

(6) نيكلسون، رينولد، في التصوف الإسلامي وتاريخه، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفي ، لجنة التأليف والنشر القاهرة 1956، ص66 وسيشار له لاحقاً نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه.

(7) بشر بن الحارث بن علي بن عبد الرحمن المروزي، أبو نصر، المعروف بالحافي: من كبار الصالحين. له في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل (مرو) سكن بغداد وتوفي بها سنة (227 هـ /841م). ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت230 هـ /845م) الطبقات الكبرى، ط1،ج7،

(الصوفي من صفا قلبه لله)[1]، ومنهم من أرجعها إلى أصحاب الصف الأول بين يدي الله تعالى، فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث القرب من اللّه تعالى، يقول شهاب الدين السهروردي[2] :(قيل سموا صوفيه لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله تعالى بقلوبهم ووقوفهم بين يديه)[3]، وقيل هم أهل الصفة وهم فقراء المهاجرين على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى فيهم (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ)[4].

وذهب ابن الجوزي بعيداً ونسب أصل الكلمة إلى آل صوفه يقول:(ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد فتخلوا عن الدنيا وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها وأخلاقاً تخلقوا بها، وأول من انفرد بخدمة الله تعالى عند بيته الحرام رجل يقال له صوفه...)[5]، وتنسب الصوفية أيضاً إلى " صوفة القفا " وهي الشعرات النابتة في مؤخرة الرأس[6].

تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968ص342 وسيشار له لاحقاً ابن سعد الطبقات الكبرى. الصفدي، الوافي بالوفيات،ج10، ص91-92.

(1) الكلاباذي، التعرف لمذهب أهل التصوف، ص21.

(2) أبو حفص عمر بن محمد البكري الملقب بشهاب الدين السهروردي، كان فقيهاً شافعي المذهب كثير الاجتهاد في العبادة توفي في بغداد (632 هـ /1234م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص447-448. ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، ص81-82.

(3) السهروردي، عمر بن محمد (ت632 هـ /1234م) عوارف المعارف، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت 1966 ص65 وسيشار له لاحقاً السهروردي، عوارف المعارف.

(4) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية 273.

(5) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597 هـ /1200م)، تلبيس إبليس، ط1، دار الفكر، بيروت 2001، ص145-146 وسيشار له لاحقاً ابن الجوزي، تلبيس إبليس.

(6) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، ص146.

ومنهم من ربط أصل الكلمة بمصادر غير عربية مثل الكلمة اليونانية (Sophy) وهي كلمة يونانية تعني "الحكماء"[1] وأن التصوف الإسلامي كان أشد تأثراً بالتصوف اليوناني المسيحي قبل الإسلام، وأن رواد الصوفية الأوائل كابن عربي (ت638هـ/1240م)[2] استقوا فلسفتهم من هذه الكلمة، وقد بقيت الكلمة اليونانية (Sophy) كما هي بنفس اللفظ والمعنى (صوفي)، ويبدو أن هذا الرأي هو الأضعف من بين هذه الآراء، فلا يوجد دليل إيجابي يرجح افتراض أن الكلمة مشتقة من أصل يوناني[3].

ويأتي عبد الكريم بن قاسم القشيري (ت466هـ/1072م)[4] ليهدم كل هذه الآراء قائلاً: (وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه انه كاللقب، فأما قول من قال أنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص فذلك وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، ومن قال أنهم منسوبون إلى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فالنسبة إلى الصفة لا تجئ على نحو الصوفي، ومن قال إنه من الصفاء فاشتقاق الصوفي في الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، وقول من قال إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث الحاضرة من الله تعالى فالمعنى صحيح،

---

(1) البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت440 هـ /1047م) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذوله، ط2، عالم الكتب، بيروت 1983 ص27 وسيشار له لاحقاً البيروني، تحقيق ما للهند. عفيفي، أبو العلا، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب، بيروت 1969، ص37 وسيشار له لاحقاً عفيفي، التصوف الثورة الروحية.

(2) محمد بن علي بن عربي الطائي الأندلسي لقب بمحي الدين بن عربي، ولقب بالشيخ الأكبر من أئمة المتكلمين، وهو صاحب القول بوحدة الوجود، من مؤلفاته الحكم، الفتوحات المكية، الوصايا، (ت638 هـ /1240م) ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، ج2، ص334.

(3) نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص80.

(4) أبو القاسم عبد الكريم بن قاسم القشيري النيسابوري، مصنف الرسالة القشيرية، كان إماماً فقيهاً أصولياً مفسراً كاتباً ذا فضائل جمة (ت466 هـ /1072م) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص403. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج18، ص142.

ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف، ثم أن هذه الطائفة أشهر مـن أن يحتـاج فـي تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق)[1].

خلاصة القول واستناداً إلى الآراء السابقة، نتوصل إلى تعليل التسمية كما أجمع معظم الباحثين بأنها اشتقاق من الصوف ظاهر لبسهم، فهو لباس الأنبياء من ناحية وقد تميـز بـه الصوفية من ناحية ثانية، وهو وسيلتهم في القسوة على أبدانهم بخشونة ملمسه من ناحية ثالثة، وهذا ما يميل إليه عبد الله بن علي الطوسي (ت378هـ/988م)[2] صـاحب كتـاب اللمـع، والكلاباذي (ت380هـ/990م) في كتاب التعرف، وابن خلدون (ت808هـ/1405م)[3] فـي المقدمة.

ب- بدايات الحركة الصوفية

إن كلمة (صوفية) مستحدثة إذ لم تكن من الألقاب التي أطلقت على الـصحابة أو أهـل الجيل الثاني (التابعين) لأن الإقبال على الدين والزهد في الدنيا كان عاماً بين المسلمين في هذه الفترة، فما كانت هناك حاجة إلى اسم خاص يمتاز به الزهاد[4]، ولكن لما فشا الإقبـال علـى الدنيا وجنح الناس إلى متاع الحياة، دعت الحاجة إلى وجود صفة يمتاز بها الخواص الـذين

---

(1) القشيري، عبد الكريم بن قاسم (ت466 هـ /1072م)، الرسالة القشيرية، تحقيق زكريا الأنصاري، دار أسامة، بيروت 1987ص 115 وسيشار له لاحقاً القشيري، الرسالة القشيرية.

(2) عبد الله بن علي الطوسي الزاهد شيخ الصوفية، وصاحب كتاب اللمع في التصوف، وروى عن جعفـر الخلدي (ت378 هـ /988م) الصفدي، الوافي بالوفيات ،ج17، ص182. ابن العماد، شذرات الـذهب، ج4، ص413.

(3) عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن خلدون خرج من تونس بعدما نهل من العلوم وتـصدر للإفتـاء بالقاهرة ثم تولى قضاء المالكية بمصر واشتهر بالمقدمة (ت 808 هـ /1405م) ابـن تغـري بـردي، المنهل الصافي ج7 ص205-210. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص114.

(4) الرومي، صهيب، التصوف الإسلامي، ط1، بيسان للنشر، بيروت 2007، ص58 وسيشار لـه لاحقـاً الرومي، التصوف الإسلامي.

كانت لهم عناية بأمر الدين[1]، أما أول من أطلق عليه لقب صوفي، فقد دار البحث حول ثلاث أشخاص عاشوا في نفس الفترة الزمنية تقريباً، وهم أبو هاشم الكوفي وجابر بن حيان وعبدك الصوفي، أما أبو هاشم الكوفي (ت150هـ/767م) [2]، فكان عربياً من الكوفة قضى معظم حياته في الشام[3]، ويقول الجامي في ذلك:(إن أبا هاشم أول من دعي بالصوفية، ولم يسم أحد قبله بهذا الاسم)[4]، ويُروى أن أبا هاشم هو أول من بنى خانقاه للصوفية في الرملة[5] بالشام[6] دون أن يحدد السنة، ولكن يذكر الجامي أن الذي بناها هو أميرها النصراني، وذلك (أن الأمير ذهب للقنص، فشاهد شخصين من هذه الطائفة الصوفية ، فسر من معاملتهما وأخلاقهما ، فسألهما : هل لكم من مكان تأوون إليه ؟ قالا: لا، قال: فإني أقيم لكما محلاً تأويان إليه ، فبنى لهما هذه الخانقاه في الرملة وكان ذلك في حدود المائتين من الهجرة)[7].

(1) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808 هـ /1405م)، مقدمة ابن خلدون، مكتبة الأسرة، وزارة الثقافة 2009، ص517 وسيشار له لاحقاً ابن خلدون، المقدمة.

(2) أبو هاشم الكوفي (الصوفي) كان مشهوراً بكنيته شيخاً في الشام وكوفي الأصل كان معاصراً لسفيان الثوري (ت150 هـ /767م) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت430 هـ /1038م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ط4، ج10، دار الكتاب العربي، بيروت 1984 ص225 وسيشار له لاحقاً الأصبهاني، حلية الأولياء.

(3) عميرة، عبد الرحمن، التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. د. ت، ص7، وسيشار له لاحقاً، عميرة التصوف الإسلامي منهجاً.

(4) الجامي، الملا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت898 هـ /1492م)، نفحات الأنس من حضرات القدس، تحقيق محمد الجادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص45-46 وسيشار له لاحقاً الجامي، نفحات الأنس من حضرات القدس.

(5) الرملة مدينة بفلسطين وكانت قصبتها، وكانت رباطاً للمسلمين، طولها خمس وخمسون درجة وثلثان، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلثان، وبينها وبين بيت المقدس اثنا عشر ميلاً. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص69-70. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج2، ص633. الحميري، الروض المعطار، ص25.

(6) الجامي، نفحات الأنس من حضرات القدس، ص45-46. نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص3.

(7) الجامي، نفحات الأنس من حضرات القدس، ص46-47.

والثاني هو جابر بن حيان(ت200هـ/815م)[1]، يقول ماسينيون في ذلك: (ورد لفظ صوفي لأول مرة في التاريخ في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، إذ نعت به جابر بن حيان، وهو صاحب كيمياء شيعي من أهل الكوفة له في الزهد مذهب خاص، ثم تبدو أيضاً في حوالي ذلك الوقت في مؤلفات المحاسبي[2] والجاحظ مطلقةً على فرقة من العارفين كانت قد نشأت في الكوفة)[3]، ولكن من المستبعد أن يكون لجابر بن حيان علاقة بالتصوف والزهد، إذ لم يرد في سيرته ما يدل على زهده في الدنيا، بل ورد عنه اشتغاله بالعلوم الطبيعية ونبوغه فيها[4]، ويضاف لذلك أنه لم يرد اسمه في كتب التراجم الصوفية على أنه منهم. والثالث هو عبدك الصوفي (ت220هـ/835م) [5] وكان رجلاً معتزلاً الناس زاهداً في بغداد، وكان أول من لقب بلقب الصوفي، وهذا اللفظ كان يطلق في تلك الأيام

---

(1) جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، فيلسوف كيميائي، كان يعرف بالصوفي، من أهل الكوفة، وأصله من خراسان. اتصل بالبرامكة، وانقطع إلى أحدهم جعفر بن يحيى، وتوفي بطوس سنة (200 هـ /815م) له تصانيف كثيرة قيل: عددها 232 كتاباً، وقيل: بلغت خمسمائة، ضاع أكثرها، ومن كتبه (مجموع رسائل)، و (أسرار الكيمياء) و (علم الهيئة) و (أصول الكيمياء). الصفدي، الوافي بالوفيات، ج11، ص27-29. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص275.

(2) الحارث بن أسد المحاسبي الزاهد من أهل بغداد كان عالماً فهماً وله مصنفات في أصول المعاملات وكتب في الزهد (ت243 هـ /857م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص57-58. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص110-111.

(3) ماسينيون، (تصوف)، دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص266.

(4) القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت646 هـ /1248م) أخبار العلماء بأخبار الحكماء، ط1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2005 ص124 وسيشار له لاحقاً القفطي، أخبار العلماء بأخبار الحكماء.

(5) عبدك الصوفي من قدماء المشايخ البغداديين قبل السري وبشر بن الحارث، وكان من أورع المشايخ وأهيبهم (ت210 هـ /825م). ابن الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت (ت463 هـ /1072م) تاريخ بغداد وذيوله، ط1، ج16، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1997 ص252-253 وسيشار له لاحقاً ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله.

على بعض زهاد الشريعة من الكوفيين)[1]، ولكن ورد أنه كان يرأس فرقة من الزنادقة زعموا أن الدنيا كلها حرام لا يحل الأخذ منها بشيء إلا القوت[2]، وقيل أنه كان ممن يحرم على نفسه أكل اللحم[3]، وكل ما ورد في سيرته لا يدل على أنه كان مشهوراً بالصلاح ولا بالتقوى، وإنما كان رجلاً يرأس فرقة من المتطرفين، فلا يوجد ما يؤهله لأن يكون هو أول صوفي، إذن يظهر أن أبا هاشم أحق بأن يكون أول من سمي صوفياً من بين المذكورين، وأن اسم صوفي هو حديث لم يكن في فترة النبوة أو فترة الصحابة والتابعين ونلاحظ شبه اتفاق على أن القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي شهد بدايات الحركة الصوفية.

ويؤيد ذلك المؤرخ ابن خلدون بقوله:(لما فشا الإقبال على الدنيا وجنح الناس إلى متاع هذه الحياة، دعت الحاجة إلى وجود صفة يمتاز بها بعض الخواص، فظهرت هذه التسمية وانفرد بها المقبلون على العبادة وقد اشتهر هذا الاسم قبل المائتين)[4]، فالقرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي شهد إقبال الناس على الدنيا، وكثرت المعاصي مقارنةً مع القرن الذي

---

(1) ابن الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، ج16، ص253. ماسينيون، تصوف، دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص266.

(2) الملطي، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت377 هـ /987م) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر1949 ص93 وسيشار له لاحقاً الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع.

(3) الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، ص93-94. ماسينيون، تصوف، دائرة المعارف الإسلامية، م5، ص266.

(4) ابن خلدون، المقدمة، ص517.

سبقه، فأعرض الصالحون والزهاد عن ذلك وهالهم إقبال الناس إلى الدنيا فانزووا جانباً يتدارسون أمور دينهم غير مبالين بأمور الدنيا(1).

وفي القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، نلحظ تطوراً آخر يختلف تمام الاختلاف عن العصور السابقة في شخصية معروف الكرخي (ت200هـ/817م)(2)، إذ وصف بأنه رجل غلب عليه الشوق إلى الله تعالى، وكان تصوفه مغايراً لما سبقه لأن من سبقوه كان هدفهم وغايتهم عملية، وهي النجاة بالنفس من عذاب الآخرة، أما تصوفه فهو وسيلة للمعرفة كما يدل عليه تعريفه للتصوف الذي يقول فيه:(إنه الأخذ بالحقائق، واليأس مما في أيدي الخلائق)(3)، ومع ذا النون المصري (ت245هـ/859م)(4) حدث تطور آخر للتصوف، إذ يعتبر واضع أسس التصوف والذي يقول عنه ابن تغري بردي:(أنه أوّل من تكلّم في مصر عن الأحوال والمقامات)(5)، ونستطيع القول أن الحركة الصوفية ظلت إلى جانب

(1) الأدفوي، جعفر بن ثعلب (ت748 هـ /1347م)، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، تحقيق محمد صالحية، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت، 1988، ص5 وسيشار له لاحقاً، الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف.

(2) معروف الكرخي، أبو محفوظ معروف بن فيروز، الكرخي الصالح، كان مشهوراً بإجابة الدعوة وأهل بغداد يستسقون بقبره ومن تلاميذه سري السقطي (ت200 هـ /815م) وقيل (ت201 هـ /816م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج5، ص232-233. الذهبي، العبر، ج1، ص262 .

(3) القشيري، الرسالة القشيرية، ص116. العطار، فريد الدين (ت627 هـ /1230م) تذكرة الأولياء ، ط1، تحقيق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2010 ص 302 وسيشار له لاحقاً، العطار، تذكرة الأولياء. نيكلسون، في التصوف الإسلامي وتاريخه، ص4-5.

(4) أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المعروف بذا النون المصري، أحد رجال الطريقة، كان أوحد وقته علماً وورعاً، وهو أول من تكلم بمصر في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية توفي بالجيزة سنة (245 هـ /859م)، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص315. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج11، ص532.

(5) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج1، ص753.

الزهد بصورة عامة حتى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بالرغم مما خالطها من ابتعاد عن جادة الصواب أحياناً[1].

إلا أن الأحداث التي جرت في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة/ الحادي عشر والثاني عشر والثالث للميلاد كالغزو الفرنجي الذي بدأ منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي واستمر في القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثاني عشر والثالث الميلاديين واحتلالهم لأجزاء من بلاد الشام، وكذلك الغزو المغولي وانتشار الأوبئة والأمراض والفقر والمجاعات ويضاف لذلك الإحساس بالضياع للعرب تحت وطأة الغزاة، أدت لردة فعل معاكسة لدى المسلمين إذ انصرف الناس عن شؤون حياتهم وأصابهم اليأس والخنوع وصار الزهد نوعاً من اللامبالاة[2].

ومن المعروف أن نور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي ، عرف عنهما الميل إلى الصوفية فبنوا لهم الربط والخوانق والزوايا في جميع بلاد الشام إضافةً إلى المساجد والمدارس ودور الحديث والبيمارستانات، هادفين من وراء ذلك تشجيع التصوف السني والقضاء على المذهب الشيعي في بلاد الشام والنهوض بالشعور الديني لدى المسلمين ورفع استعدادات الأمة الإسلامية لمواجهة الأخطار المحدقة بها، ويضاف لذلك إعادة الطابع الإسلامي والقضاء على ما تركه الفرنج في المنطقة من آثار[3].

---

(1) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص5.

(2) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص5-7.

(3) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص6.

وعندما جاء المماليك استمروا على نهج الأيوبيين فبنوا المؤسسات الدينية والعلمية التي سبق وأقامها الزنكيون والأيوبيون وتباروا في تقديم الأموال والهدايا للصوفية وأوقفوا على المؤسسات الصوفية الأوقاف، فنجم عن ذلك كثرة المتصوفة والمنتمين لها.

فالسلطان الظاهر بيبرس بنى عدداً من الزوايا للشيخ خضر، وهذا كان على علاقة وثيقة مع الظاهر بيبرس سنوضحها عند الحديث عن علاقة الصوفية بالسلطة الحاكمة، فقد بنى له زاوية في القدس وزاوية بجبل المزة[1] بدمشق، وزاوية ببعلبك وزاوية بحماة وأخرى بحمص[2].

وقد ألحقت بزوايا الصوفية حمامات ومطابخ ومدافن ومدت أرضيتها بالفرش وآلات النحاس والقناديل وغيرها من الأدوات النفيسة [3]، ومن خلال ذلك يتبين مدى الدعم الذي حظي به الصوفية، ولكن برغم ذلك وجد الكثير من المدعين المتظاهرين بالتصوف، فنتيجة لسوء الأحوال المعيشية كثر ادعاء التصوف، فلبسوا الصوف والمرقعات وحلقوا الرؤوس تشبهاً ولكنهم لم يتخلقوا بأخلاق القوم[4]، فقيل ذماً لهؤلاء المتشبهة "أكلة بطلة سطلة لا شغل ولا مشغلة[5]، وقيل أيضاً " رجل يظهر الإسلام ويبطن فاسد العقيدة في نهاية الإقدام وفي رجله جمجم وعذبته من قدام ويكون غالباً من بلاد الأعجام"[6].

فهؤلاء القوم كما يقول السبكي :(اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور وأكل الحشيش والانهماك على حطام الدنيا، لا سترهم الله وفضحهم على رؤوس الأشهاد...)[7]، وحتى نكون

---

(1) المزة قرية كبيرة وسط بساتين دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ. الحموي. معجم البلدان، ج5، ص122. القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، ص263. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1266.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص405.

(3) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص6.

(4) السبكي، معيد النعم، ص97. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر المملوكي، ج1، دار المعارف الإسكندرية 1994، ص263 وسيشار له لاحقاً سلام، الأدب في العصر المملوكي.

(5) السبكي، معيد النعم، ص125.

(6) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص6.

(7) السبكي، معيد النعم، ص125.

منصفين نشير إلى أن السبكي ليس له أي موقف تجاه الصوفية، بل يمدحهم في أحد المواضع قائلاً:(حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم) [1]، وإنما قصد بكلامه تلك الفئة المتكسبة من الخوانق .

- **أحوالهم وطرائقهم**

أ- الربط والخوانق والزوايا

أقام المتصوفة في أمكنة أخذت التسميات التالية، الأربطة، والزوايا، والخوانق، فالرباط، مفردها ربط، والرباط من المرابطة أي ملازمة ثغر العدو وأصلها أن يربط كل واحد من الفريقين خيله، ثم صار الثغر رباطاً، وربما سميت الخيل أنفسها رباطاً[2]، أما اصطلاحاً فان الرباطات هي المدن التي يرابط فيها المسلمون للجهاد في سبيل الدفاع عن الوطن وحماية الدعوة الإسلامية في دار الإسلام، وفي العصور الإسلامية المتأخرة، تحولت هذه الكلمة عن مفهومها العسكري حتى أصبحت تعني نفس ما تعنيه كلمة الزاوية والخانقاه[3].

وقد قرن شهاب الدين السهروردي بين المعنى اللغوي للرباط والمعنى الصوفي فقال: (وأصل الرباط ما يربط فيه الخيول ثم قيل لكل ثغر يدفع أهله عمن وراءهم رباط، فالمجاهد المرابط يدفع عمن وراءه ، والمقيم في الرباط على طاعة الله يدفع به وبدعائه البلاء عن العباد والبلاد) [4]، ولم يكن في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم غزو يربط فيه الخيل ،

---

(1) السبكي، معيد النعم، ص93.

(2) المطرزي، ناصر بن عبد السيد (ت610 هـ /1213م) المغرب في تشكيل المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب، سوريا 1979 ص316 وسيشار له لاحقاً المطرزي، المغرب في تشكيل المعرب. ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص302.

(3) المقريزي، الخطط، ج3، ص600. ماوريس، ديلافوس، الرباط، دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص19-24. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، ج6، دار الاجتهاد، بيروت 1990، ص62 وسيشار له لاحقاً الولي، المدينة في الإسلام.

(4) السهروردي، عوارف المعارف، ص66.

ولكن الرباط حينها كان انتظار الصلاة بعد الصلاة فالرباط جهاد النفس[1] ، والرباط هو بيت الصوفية ومنزلهم وقد شابهوا أهل الصفة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم[2].إذن يظهر أن الرباط نشأ من أجل جهاد العدو وارتباط الخيل وإعدادها ولكن أصبح يشار له لاحقاً أنه مكان لإقامة الصوفية، أما الزاوية لغةً فهي مأخوذة من فعل زوى وانزوى، بمعنى تنحى وابتعد وانعزل[3]، ثم أصبحت تطلق على الدار الصغيرة التي تتسع لأشخاص قليلين يقيمون فيها في الغالب للعبادة وهي أصغر من الرباط، وربما كانت جزءاً منها حيث كانت تعد لإقامة بعض الصوفية والفقراء والأيتام وغيرهم[4] ، وأصبحت الزاوية مرادفة لكلمتي خانقاه ورباط[5]، فاسم "الزاوية" جاء لأن الذين أقاموا فيها اختاروا الانزواء والابتعاد عن البشر، أما الخانقاه فهي كلمة فارسية ومعناه في الأصل المائدة، وهو المكان الذي يأكل فيه الملك[6]، كما أنها تعني محلاً للتعبد والزهد والبعد عن الناس، قال السمعاني:(هي بقعة يسكنها أهل الخير) [7]، وتعني أيضاً البيت، ودخلت هذه الكلمة للعربية منذ انتشار التصوف في الإسلام [8]، وقيل سميت بهذا الاسم (خانقاه) من الخنق لتضييق الصوفية على أنفسهم[9].

---

(1) السهروردي، عوارف المعارف، ص66.

(2) المقريزي، الخطط، ج4، ص280.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص363.

(4) حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة 1968 ص105 وسيشار له لاحقاً حمزة، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي.

(5) بروفنسال، ليفي ، زاوية، دائرة المعارف الإسلامية، ج10، ص331-333.

(6) المقريزي، الخطط، ج4، ص302.

(7) السمعاني، الأنساب، ج5، ص27.

(8) دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص66. النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، ط1، دار الفكر العربي، بيروت 1981 ص264 وسيشار له لاحقاً النباهين، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك.

(9) حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980 وسيشار له لاحقاً حنفي، معجم مصطلحات الصوفية.

ولا يخفى أن هناك خلط بين مهمة كل من الزاوية والرباط والخانقاه، وأفضل من ميز بينها ابن طولون في كتابه القلائد الجوهرية، فالخانقاه اسم لدار الصوفية ينقطعون فيه للعزلة والعبادة[1]، والربط هي المسبل للأعمال الصالحة، وقد اشتهر أنها تكون في البراري، وغلب عليها أن تكون للعجائز والأرامل والنساء[2]، أما الزوايا فهي المصلى الصغير الذي يقيم فيه أحد الشيوخ أو الأولياء[3]، وبإحصائية لما في المصادر المتوفرة عن الخوانق والربط والزوايا، نلاحظ انتشاراً واسعاً لها في بلاد الشام فدمشق مثلاً ذكر العلموي فيها 27 خانقاه و21 رباط و27 زاوية[4]، وفي حلب 28 خانقاه و 3 ربط و 4 زوايا[5] وفي القدس 19 زاوية وخانقاوان و 8 ربط[6] وفي الخليل 23 زاوية و3 ربط[7] وفي طرابلس وجدت 4 زوايا[8]،

---

(1) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص283.

(2) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص283-359.

(3) العلبي، أكرم حسن، خطط دمشق، ط1، دار الطباع 1989، ص390- 391 وسيشار له لاحقاً العلبي خطط دمشق.

(4) العلموي، عبد الباسط (ت981 هـ /1573م) مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق 1947، ص140- 177 وسيشار له لاحقاً العلموي، مختصر تنبيه الطالب.

(5) ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت684 هـ /1285م) الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة دمشق 1953 تحقيق دومنيك سورديل، ج1، ق1، ص93-96.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص34 وما بعدها.

(7) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص79.

(8) المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص782-1089-1121. السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص93. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص202.

وخانقاه واحدة[1]، وفي صفد خانقاه واحدة و3 زوايا[2]، وفي حماه 3 خوانق و7 زوايا[3]، وفي غزة زاوية واحدة[4].

وكان لكل من الرباط والزاوية والخانقاه شيخ مهمته الإشراف على المكان واستقبال المريدين الذين التحقوا بالرباط والخانقاه، وتدريبهم والتواصل معهم كل على قدر استيعابه وفهمه، وأن لا يتلفظ بألفاظ جديدة، على المريد لأن في ذلك تنفير له، بل يبدأ معه بالتدريج المتواتر من الأذكار[5].

وعلى الشيخ أن يتحلى بصفات مميزة فهو كما يقولون: (والمشايخ بالزوايا أليق لما تدعو إليه النفس من النوم والراحة، والاستبداد بالحركات والسكنات ووجود الشيخ بين الجماعة يضبطهم ويقوم بخدمة المبتدئين...)[6]، وعليه تهيئة الطعام للواردين والمجتازين ومؤانستهم عند قدومهم بحيث يزول خجل الغربة عنهم ويستحسن إفراد مكان (منعزل) للوارد الجديد لئلا يستحي[7].

---

(1) تدمري، تاريخ طرابلس، ج2، ص367. تدمري، عمر، تاريخ وآثار ومساجد ومدارس طرابلس في العصر المملوكي، دار البلاد، طرابلس 1974 ص340-341 وسيشار له لاحقاً تدمري، تاريخ وآثار ومساجد ومدارس.

(2) كرد علي، خطط الشام، ج6، ص152. الطراونة، مملكة صفد في عهد المماليك، ص262.

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص30-31. السبكي، طبقات الشافعية، ج7، ص318. جبران، مملكة حماه، ص225-228.

(4) عطا الله، نيابة غزة، 244.- vollers, k, littman, e"Ahmad albadawi, E,I, , Vol.1, p280-281.

(5) السبكي، معيد النعم، ص97.

(6) حنفي، معجم مصطلحات الصوفية، ص109.

(7) السبكي، معيد النعم، ص126.

وهناك الخادم ومهمته تأمين الراحة للنزلاء، والسهر على خدمتهم لأنه بذلك يكون في حال عبادة، وعليه المحافظة على أوقاف الرباط فلا يرمي شيئاً مما فضل أو زاد من طعام أو نحوه، ومن مهماته أيضاً المحافظة على النظافة(1).

يقول السهروردي في عوارف المعارف: (الخادم يدخل في الخدمة راغباً في الثواب، وفيما أعد الله تعالى للعباد ويتصدى لإيصال الراحة ويفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى من مهام معاشهم) (2). كما وجد المريد وهو سالك الطريق الصوفي الذي يسير في الطريقة حسب إرشادات شيخه، فيسلك طريقه كما يرسمه له شيخه حتى يصل إلى غايته(3)، ويرتبط المريد بشيخه ويخلع عليه خرقة التصوف(4) وعن سبب لبس الخرقة يشير الفقيه الهجويري(5)، بأن مشايخ الطرق الصوفية أمروا المريدين بأن يتحلوا بالمرقعات ويتزينوا بها، لتكون لهم علامة

---

(1) السبكي، معيد النعم، ص126.

(2) السهروردي، عوارف المعارف، ص91.

(3) القاشاني، الشيخ عبد الرزاق (ت730 هـ /1329م)، اصطلاحات الصوفية، تصحيح عاصم الكيلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2005، ص1870-1890 وسيشار له لاحقاً القاشاني، اصطلاحات الصوفية. تركي، إبراهيم محمد، التصوف الإسلامي، أصوله وتطوره دار الكتب القانونية، القاهرة 2009، ص237 وسيشار له لاحقاً، تركي، التصوف الإسلامي أصوله وتطوره.

(4) خرقة التصوف هو ما يلبسه المريد من يد شيخه الذي يدخل في إرادته ويتوب على يده لأمور منها التزيي بزي المراد، يلتبس بصفاته كما يلبس ظاهره بلباسه. القاشاني، اصطلاحات الصوفية، ص25.

(5) علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي الهجويري الغزنوي اللاهوري، وينسب إلى هجوير من بلاد الأفغان، كان من الرجال المعروفين بالعلم والمعرفة ، ساح معظم أرجاء المعمورة وحج وزار صنف كتاب " كشف المحجوب " في التصوف، توفي سنة (ت465 هـ /1072م) الشريف عبد الحي، عبد الحي بن فخر الدين الحسني (1341 هـ /1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ط1، ج1، دار ابن حزم، بيروت 1999 ص69 وسيشار له لاحقاً الشريف عبد الحي، نزهة الخواطر.

بين الخلق، ويكون الخلق رقباء عليهم، فإن أخطؤوا فإن الخلق يلومونهم وإن هموا بمعصية فلا يستطيعون النجاة من الخلق[1].

وأشير هنا إلى أن خرقة التصوف، كانت تتألف من مزق[2] مرقعة وكانت ذات لون أزرق[3]، وقال السهروردي:(ففي الخرقة معنى المبايعة، والخرقة عتبة الدخول إلى الصحبة.....وبالصحبة يرجى للمريد كل خير، فإذا دخل المريد تحت حكم الشيخ وصحبه يسري من باطن الشيخ حال إلى باطن المريد كسراج يقتبس من سراج)[4]، كانوا يهدفون ليجعلوها أصلاً لطريقتهم ونحلتهم فرفعوها إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع أنه لم يختص بين الصحابة بنحلة ولا طريقة في لباس ولا حال[5].

وإذا لبس المريد خرقة التصوف تصبح العلاقة مع الشيخ إلى حد كبير بحيث أنه يلزم السكون بحضرة الشيخ ولا يقول شيئاً إلا إذا استأمر الشيخ، وألا يحدث نفسه بطلب منزلة فوق منزلة الشيخ، وأن يراعي خطوات الشيخ في جزئيات الأمور وكلياتها، وألا يستقل بوقائعه وكشفه دون مراجعة الشيخ[6]، وقد عبر عن هذه

(1) الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان (ت465 هـ /1072م) كشف المحجوب، تقديم إسعاد قنديل، دار النهضة العربية، بيروت 1980، ص245 وسيشار له لاحقاً الهجويري، كشف المحجوب.

(2) المزق هي القطع من الثوب الممزوق، والقطعة منه مزقة. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت393 هـ /1003م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط4، ج4، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987 ص1554 وسيشار له لاحقاً الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية.

(3) هوارت، الخرقة، دائرة المعارف الإسلامية، ج8، ص294-295.

(4) السهروردي، عوارف المعارف، ص61.

(5) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج1، ص473.

(6) السهروردي، عوارف المعارف، ص404-405-411.

العلاقة الفقيه عبد الوهاب بن أحمد الشعراني(ت973هـ/1565م) [1] بقوله:(إن المريد مع شيخه على صورة الميت لا حركة ولا كلام ولا يقدر أن يتحدث بين يديه إلا بإذنه ولا يعمل إلا بإذنه، من زواج أو سفر أو خروج أو دخول أو عزلة أو مخالطة، أو اشتغال بعلم أو قرآن أو ذكر أو خدمة لزاوية أو غير ذلك)[2].

ويسمى الزمن الذي يمضيه المريد مع الشيخ "زمن الارتضاع" وتصل المدة التي يقضيها المريد قبل أن يؤذن له بالعهد ما يقرب من ثلاث سنوات، فالسنة الأولى يقضيها المريد في خدمة القوم والثانية في خدمة الله والثالثة في مراقبة كلية[3].

وبالغ بعض شيوخ الصوفية في عصر المماليك، فاشترطوا في العهد الذي يأخذونه على مريديهم إن المريد لا يبقى له تصرف في ماله ولا نفسه إلا بمراجعة الشيخ وأمره [4]، وقيل أيضاً مَن قال لشيخه لِمَ؟ لا يفلح أبداً، وقال بعض المشايخ: عقوق لا توبة عنها[5].

ومن مظاهر احترام المريد للشيخ أن يكتفي بشيخ واحد لأنه كلما أيقن بتفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته له، وعليه مراعاة كل حركات الشيخ وأن يراجعه في كل

---

(1) عبد الوهاب بن أحمد الشعراني من علماء الصوفية ولد في مصر بقلقشندة ونشا بساقية أبي شعرة من قرى المنوفية بمصر واليها نسب فقيل الشعراني له تصانيف منها "الأجوبة المرضية عن أئمة الفقهاء والصوفية وأدب القضاة وغيرها توفي بالقاهرة سنة (973 هـ /1565م) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص157-158.

(2) السهروردي، عمر بن محمد (ت632 هـ /1234م) آداب المريدين، تحقيق حسين حميد مجيد، دار اليازوري، عمان 2010 ص123-124 وسيشار له لاحقاً السهروردي، آداب المريدين. الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية ج1 تحقيق طه سرور والسيد محمد الشافعي، مكتبة المعارف، بيروت 1985 ص189 وسيشار له لاحقاً الشعراني، الأنوار القدسية.

(3) السهروردي، عوارف المعارف، ص387.

(4) السهروردي، عوارف المعارف، ص411-412. النقر، القوى الفاعلة، ص194.

(5) السهروردي، آداب المريدين، 125.

صغيرة وكبيرة[1]، وبالمقابل فإن الشيخ عليه مجموعة من الواجبات لا بد من أن يلتزم بها، إذ عليه أن يرفق بالمريدين ويتعطف على أصحابه ويقضي حقوقهم، وأن يتنزه عن مال المريد ولا يطمع به، وعليه حفظ الأسرار وعدم إفشائها[2].

وكانت العادة أن يخصص للقادم الجديد مكان ينفرد فيه عن الجماعة حتى يتعلم النظام ويتم تدريبه على مراسمه وكانت عادة فقراء الصوفية[3]، حلق الرؤوس وتقصير اللباس ولبس الصوف[4]، أما لباس الصوفية فهو اللباس الخشن (الصوف) والمرقع وقد فضلوا لبس الصوف وكان شارة الزهد، وقد جعله الفقيه أبو حامد الغزالي (ت505هـ/1111م) [5] من صفات من يصرف إليهم ما يوصى به للصوفية، وقد كره بعض شيوخ الصوفية لبس المرقعة خوفاً من طوارق الرياء، ومن التعرض للسؤال، وكان نزعها من علامات الإقبال على الدنيا[6].

---

(1) السهروردي، عوارف المعارف، ص411-412.

(2) السهروردي، عوارف المعارف، ص419-421. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص182.

(3) سلام، الأدب في العصر المملوكي، ص258.

(4) أطلق الصوفية على أنفسهم اسم الفقراء وعلى اعتبار أن من يدخل الخانقاه يدخلها للتعبد وليس حباً بجمع المال والتلذذ بأمور الدنيا. النعيمي، الدارس، ج2، ص109. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص200 .

(5) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي فيلسوف متصوف له مئتي مصنف مولده ووفاته في طوس بخراسان، رحل إلى نيسابور ثم إلى العراق والحجاز والشام ومصر نسبته إلى صناعة الغزل أو إلى غزالة من طوس (ت505 هـ /1111م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج4، ص216-218. الذهبي، سير أعلام النبلاء ج19، ص329-342.

(6) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505 هـ /1111م) إحياء علوم الدين، ج3، دار المعرفة، بيروت 1970 ص297-298 وسيشار له لاحقاً الغزالي، إحياء علوم الدين. العليمي. الأنس الجليل، ج2، ص160، السهروردي، عوارف المعارف، ص127

كما لبسوا الدلق مع عمامة لطيفة يرخى منها عذبة[1] قصيرة من الأمام[2]، وقد أورد المؤرخ الصفدي وصفاً لأحد رجال الصوفية، ويمكن من خلالها رسم صورة تقريبية للباس الصوفية فقال: (شيخ مسن فقير، حرفوش، مكشوف الرأس منفوش الشعر، عليه دلق رقيق، بالي الخلقة رقيق، وقد تمكن منه الوسخ ونبت فيه ورسخ، قد جمعه من عدة زقاق، له مدفأة يستدفي بنارها)[3].

أما عن حياتهم داخل الخوانق والزوايا والربط فقد دونها ابن بطوطة في رحلته فقال: (إن ترتيب أمورهم عجيب فقد كانوا يسيرون على نظام دقيق ففي الصباح يقدم خادم الزاوية لكل شخص ما يريده من الطعام كل على حدة، أما نوع الطعام المقدم فكان خبزاً ومرقة، ويقدم هذا الطعام مرتين، ومن الشروط المتبعة في هذه المؤسسات الالتزام بحضور الصلوات الخمس، والمبيت في الزاوية ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة خاصة)[4].

وأستطيع أن أجزم بأن ما أورده ابن بطوطة لا يعدو كونه وصفاً ظاهرياً ربما نقله أو سمعه من أحدهم، إذ إن المؤسسات الصوفية حظيت باهتمام سلطاني واسع وأوقاف ضخمة فلا يعقل أن تكون الخوانق بهذا الشكل الذي يمكن اعتباره شحيحاً.

---

(1) عَذَبَةُ كل شيء طرفه. ابن سيده، علي بن إسماعيل (458 هـ /1066م) المحكم والمحيط الأعظم، ط1، ج2، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000 ص85 وسيشار له لاحقاً ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم. الزبيدي، تاج العروس، ج1، ص98.

(2) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص47.

(3) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج17، ص371.

(4) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج1، ص26. المقابلة، معن علي، المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1992 ص94 وسيشار له لاحقاً المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية.

ب- الوقف على الصوفية

أما عن مصادر التمويل للخوانق والربط والزوايا فكانت الأوقاف والأحباس، والوقف لغةً هو خلاف الجلوس، ويقال وقف بالمكان وقفاً ووقوفاً فهو واقف[1]. وقد اختلف العلماء في تعريف الوقف شرعاً، فعند الحنفية عرف بأنه حبس العين على ملك الواقف، والتصرف بالمنفعة على الفقراء أو على وجه من وجوه الخير[2]، أما عند المالكية فهو إعطاء منفعة شيء مدة وجوده، ويلزم أن يبقى في ملك معطيه ولو تقديراً[3]، وعند الشافعية هو حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه، بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح موجود[4]، وعند الحنابلة هو تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة[5]، ومن ناحية مشروعية الوقف فقد ذهب إلى لزومه جمهور العلماء[6]، ولم ينكر لزومه إلا الأحناف[7].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج9، ص361.

(2) المرغيناني، علي بن أبي بكر (ت593 هـ /1197م) الهداية شرح بداية المبتدي، ج3، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، د . ت. ص13 وسيشار له لاحقاً المرغيناني، الهداية شرح بداية المبتدي.

(3) الحطاب، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي (ت954 هـ /1547م) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ط3، ج6، دار الرشاد الحديثة، المغرب1992ص18 وسيشار له لاحقاً الحطاب، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل.

(4) الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب (ت977 هـ /1570م) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، ج2، دار الفكر، بيروت.د.ت. ص376 وسيشار له لاحقاً الشربيني، مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج.

(5) المرداوي، أبو الحسن علي بن سليمان (ت885 هـ /1485م) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، ط1، ج7، تحقيق محمد الفقي، دار السنة المحمدية، القاهرة 1957 ص3 وسيشار له لاحقاً المرداوي، الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف.

(6) الزحيلي، وهبه، الفقه الإسلامي وأدلته، ط3، دار الفكر، دمشق 1989 ص154-156 وسيشار له لاحقاً الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته.

(7) الشوكاني، محمد بن علي بن عبد الله (1250 هـ /1834م) نيل الأوطار، ط1، ج6، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر 1993 ص30 وسيشار له لاحقاً الشوكاني، نيل الأوطار.

ففي القرآن الكريم قوله تعالى:(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)[1] ، وفي السنة النبوية قول النبي صلى الله عليه وسلم:(إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)[2] وهذه الأوقاف كانت تمول من الأفران والمعامل والمستودعات والأراضي الزراعية والبساتين التي يوقفها أبناء الأمراء الذين لا يستطيعون وراثة مناصب آبائهم فيعينون ورثتهم كمنتدبين دائمين بدخل ثابت فراراً بأموالهم من مصادر الدولة[3]. وقد قسم الوقف إلى قسمين: هما الوقف الذري والوقف الخيري، أما الوقف الذري فهو ما نسب إلى الواقف ومن بعده إلى ذريته وذوي قرباه، وفي حال انتهاء الذرية يتحول الوقف إلى جهة من جهات الخير[4]، والوقف الخيري هو الذي يكون لأعمال الخير مباشرةً، والمراد منه مرضاة الله عز وجل، ومن الأوقاف الخيرية ما ينفق على عمارة المساجد والزوايا والمدارس، وطلبة العلم وعلاج مرضى المسلمين وإصلاح الجسور والطرقات العامة وما يعطى قروضاً للتجارة[5].

وتعتبر قضية الوقف على الصوفية قضية جدلية لم يتفق فيها الفقهاء على رأي واحد، وقد بحثها الادفوي، ويبدو أنه تبع من سبقه من العلماء فكان رأيه موافقاً لهم، فالإمام الشافعي

---

(1) القرآن الكريم، سورة آل عمران، الآية 92.

(2) النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت676 هـ /1278م) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط2، ج11، دار إحياء التراث، بيروت1972 ص85 وسيشار له لاحقاً النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

(3) قدورة، فاطمة، التصوف في العصر المملوكي، أثره الاجتماعي والسياسي والديني، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ الشام، جامعة دمشق 2001، ص647 وسيشار له لاحقاً قدورة، التصوف في العصر المملوكي.

(4) الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج8، ص161.

(5) الصالح، صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1965 ص369 وسيشار له لاحقاً الصالح، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها.

(ت204هـ/820م) لم يجز الوقف على الصوفية وهذا واضح من قوله:(رجل أكول جهول، كثير الفضول، وفي بعض طرقه نؤوم)[1]، ولعله يعني هنا الفئة المتطفلة على الصوفية التي جعلت من الخوانق والربط ملاجئ يجدون فيها الطعام والشراب دون عناء، وتبعه في ذلك الإمام عبد الله بن يوسف الجويني (ت438هـ/1046م) [2] ومن الشافعية اللاحقين ابن النجار البغدادي (ت643هـ/1245م)[3]، ومنهم من أجاز الوقف على الصوفية إن كان يصرف إلى المشتغلين بالعبادة فقط، أما الفئة التي انشغلت بالأكل والسماع والرقص فلا يجوز الوقف عليهم[4]، ومن هؤلاء أبو سعيد المتولي (ت478هـ/1085م)[5] وعبد الكريم بن محمد القزويني الرافعي (ت623هـ/1225م)[6]، والحسين بن محمد المروروذي الشافعي

---

(1) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص49.

(2) أبو محمد الجويني، عبد الله بن يوسف الشافعي، تفقه بنيسابور وبمرو وتصدر بنيسابور للفتوى والتدريس والتصنيف، كان مجتهداً في العبادة (ت438 هـ /1046م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج3، ص47-48. الذهبي، العبر، ج2، ص274، سير أعلام النبلاء، ج17، ص617-618.

(3) الحافظ الكبير محب الدين بن النجار البغدادي صاحب التاريخ الذي ذيل به على تاريخ الخطيب، كان اماماً ثقة حجة مقرئاً رحل سبعة وعشرين سنة (ت643 هـ /1245) الكتبي، فوات الوفيات، ج4، ص36-37 . ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص226.

(4) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ص49-50.

(5) المتولي، عبد الرحمن بن مأمون النيسابوري، شيخ الشافعية برع في الفقه والأصول والخلاف، صنف كتاباً في أصول الدين وكتاباً في الخلاف ومختصراً في الفرائض توفي ببغداد (478 هـ /1085م) ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج8، ص302. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج5، ص106.

(6) عبد الكريم بن محمد بن الفضل القزويني الرافعي، كان أوحد عصره في العلوم الدينية أصولاً وفروعاً، صنف شرحاً لمسند الشافعي، وشرحاً للوجيز وكان زاهداً ورعاً توفي بقزوين (623 هـ /1225م). الكتبي، فوات الوفيات، ج2 ص377، السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج8، ص281.

(ت662هـ/1263م)[1]، وكان الحنابلة على رأي الشافعية في هذه القضية[2]، أما الحنفية فقالوا: (يصح الوقف واشترطوا صرفه إلى من لا يملك نصاب الزكاة)[3].

فالقدس مثلاً وجد فيها رباط البصير[4]، والرباط المنصوري[5]، ورباط الكرد[6]، والخانقاه الدوادارية[7]، والخانقاة التنكزية[8]، والخانقاة الفخرية[9]، فهذه ربط وخوانق أوقفها الأمراء والسلاطين في بيت المقدس، والذي يتابع وقفيات هذه الخوانق والربط يجد سخاءً مفرطاً على الصوفية، وأحياناً كانوا يحصلون على الإنعامات السلطانية، فالسلطان المنصور قلاوون فرض للشيخ محمد بن الشيخ غانم المقدسي (ت699هـ/1299م)[10]، في كل شهر

---

(1) الحسين بن محمد بن أحمد المروروذي شيخ الشافعية في زمانه، وكان يلقب بحبر الأمة، له الفتاوى المشهورة وكتاب أسرار الفقه وله التعليقة المشهورة في الفقه (ت662 هـ /1263م) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، ج4، ص307.

(2) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، ص50.

(3) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي ، ص50.

(4) رباط علاء الدين البصير واقفه الأمير علاء الدين أيدغدي سنة (666 هـ /1267م) وجدد كتاب وقف هذا الرباط سنة (742 هـ /1341م) بسبب ضياع الكتاب الأول . العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص43.

(5) الرباط المنصوري، بباب الناظر وقف السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي سنة (681 هـ /1282م). العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص43.

(6) رباط الكرد، انشأه المقر السيفي كرد صاحب الديار المصرية سنة (693 هـ /1293م)، العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص37.

(7) الخانقاة الدوادارية، واقفها الأمير علم الدين أبو موسى سنجر سنة (695 هـ /1295م) ويسميها العمري في مسالك الأبصار الرباط العلمي الداواداري. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1، ص 219. العسلي، كامل جميل، معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطابع التعاونية عمان 1981، ص320 وسيشار له لاحقاً العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس.

(8) الخانقاه التنكزية أنشأها الأمير تنكز الناصري سنة (729 هـ /1328م)، كانت مدرسة وخانقاه للصوفيين ودار حديث ومكتب أيتام. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص35.

(9) الخانقاه الفخرية، مجاورة لجامع المغاربة، واقفها المقر العالي القاضي فخر الدين أبو عبد الله محمد بن فضل الله ناظر الجيوش الإسلامية (ت732 هـ /1331م). العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص34.

(10) محمد بن سلمان بن حمائل المقدسي، عرف بابن غانم كان من أعيان الناس معروفاً بالكتابة والكفاية والمعرفة والتقدم وحسن المحاضرة، حصل كتباً نفيسة وولي التدريس بالمدرسة العصرونية

غرارتين قمحاً بالمكيال النابلسي بشكل مستمر[1]، أما السلطان الظاهر برقوق فإنه كان ينفق على مشايخ الزوايا القمح من الأهراء[2] لكل واحد بحسب حالته، وقدر فقرائه، هذا فضلاً عن الرواتب التي كان يجريها عليهم في كل سنة[3]، وقد عرف عن الأمير لاجين بن عبد الله الجوكنداري (ت662هـ/1264م)[4] أنه كان كثير الاهتمام بالمتصوفة، ويتفقدهم بالنفقة والكسوة وغير ذلك، وكان يعمل لهم حلقات الذكر التي يطلقون عليها السماعات[5] ويحضر فيها من المآكل والمشارب والأراييج[6] الطيبة ما يبهر العقل ويتجاوز الحد[7]، أما النائب سيباي[8] فقد قرر سنة (922هـ/1516م) لثلاثين صوفياً في مدرسته التي أنشأها في دمشق عشرين درهماً في كل شهر، ولكل واحد منهم في كل يوم رغيفان وجعل النظر عليهم لدواداره ولشيخهم "شيخ الصوفية"[9]، وهناك بعض الصوفية لم يقبلوا بعطاء السلاطين

(ت699 هـ /1299م) الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص452. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص207. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص788.

(1) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص151.

(2) الأهراء مفردها(الهُرِيُ) وهو بيت ضخم يُجمع فيه طعام السلطان، وهي كلمة معربة دخيلة. الأزهري، محمد بن أحمد (ت370 هـ /981م) تهذيب اللغة، ط1، ج6، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت 2001ص212 وسيشار له لاحقاً الأزهري، تهذيب اللغة.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص74.

(4) العزيز بن حسام الدين لاجين العزيزي، من كبار الأمراء بدمشق، كان محباً للفقراء وكثير البر بهم توفي وخلف تركة عظيمة (662 هـ / 1264م) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص118-119. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص294. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص216.

(5) السماع بمعنى الذكر المسموع الحسن الجميل والغناء. مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، ص449.

(6) الأراييج مفردها الأرج وهي نفحة الريح الطيبة، ولعله قصد بها هنا العطور ذوات الروائح الطيبة. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج7، ص486. ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص207. الزبيدي، تاج العروس، ج5، ص402.

(7) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص119.

(8) سيباي الأشرفي تولى نيابة دمشق سنة (911 هـ /1505م) وبقي نائباً فيها حتى سنة (922 هـ /1516م) ابن طولون، إعلام الورى، ص175-215. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص128.

(9) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص169.

والأمراء فأبو العباس الزرعي الحنبلي (ت761هـ/1359م)[1] كان يعمل بيده ويتقوت من عمل العباءات[2]، ولعل في ذلك إشارة إلى زهده وورعه.

وهناك نص من كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود لعبد الوهاب بن أحمد الشعراني (ت973هـ/1565م)، وضح فيه كيفية توزيع الحصص على الصوفية، ويلاحظ على هذا النص أنه يشدد على الشيخ ويلزمه بأقصى درجات العفة والنزاهة في توزيع الحصص حتى لا يتهم في ذلك، فهو قدوة تلاميذه ومريديه، فيقول:(يجب على الشيخ إذا وقع على يده قسمة دنيا بين الفقراء أن لا يخص أحداً منهم بشيء زائد على غيره، إلا أن تكون حاجته ظاهرة للفقراء كلهم بحيث يحنوا عليه ويرقوا لحاله، وليحذر أن يأخذ مع الفقراء نصيباً له أو لولده فيكون كأحدهم في دناءة المروءة وتذهب رياسته عليه، بل يجب عليه أن يرفق كلما دخل على المساكين والأرامل وغيرهم، ولا يلحس منه لحسة، ولا يأخذ منه فلساً ولا يدخله بيته أبداً ثم يخرجه للفقراء بعد ذلك فإنهم يتهمونه في الأخذ منه قياساً على نفوسهم لو أخلوا به، فمن فعل ما ذكر مع الفقراء أعظم في أعينهم وهذه شروط خاصة بالفقراء الصادقين)[3].

---

(1) أبو العباس أحمد بن موسى الزرعي الحنبلي من حبراص في بلاد الشام كان يخاطب الملوك كما يخاطب الحرافيش وله على ذلك قوة وشدة (ت761 هـ /1359م)، الذهبي، العبر، ج4، ص192.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص74. العباءات، مفردها عباءة وهي ملحفة صغيرة مفتوحة من الجهة الأمامية لا أكمام لها. دوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد 1971 ص238 وسيشار له لاحقاً دوزي، المعجم المفصل بأسماء الملابس.

(3) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م)، البحر المورد في المواثيق والعهود "العهود الصغرى" تحقيق محمد أديب الجادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003، ص245-246 وسيشار له لاحقاً الشعراني، البحر المورود.

ويذكر المقريزي أن معظم الحجج المعاصرة له الخاصة بأوقاف الزوايا حرصت على وضع الشروط الكفيلة بانقطاع الصوفية للعبادة وعدم تغيبهم عن الزوايا والربط والخوانق أكثر من ثلاثة أيام في الشهر الواحد، وكثيراً ما نصت شروط الوقف على (الأفقر والأحوج للنزول بالخانقاه أو الرباط أو الزاوية) وبعد ذلك يأتي (الفقراء المغتربين) وكذلك كان يُفضل (الأعزب على المتزوج للمبيت في الخلاوي حتى يكون منقطعاً للعبادة متفرغاً لها)، ولم تكن من مصلحة أهل الزاوية أن يزداد عددهم، لأن الوقف ثابت فتؤدي زيادة العدد إلى انخفاض مستوى معيشة الأعضاء.."[1].

فالخانقاة السميساطية[2] في دمشق مثلاً أوقفت في بداية أمرها على الفقهاء المجردين من الصوفية فقط، ولكن في سنة (824هـ/1421م) أسقطِ شيخ الخانقاه المتزوجين، وأهل البلد منها، وقررت على العزاب والغرباء[3] ويفسر هذا لقلة الحاصل وقد انقطع كلياً في وقت لاحق، والخانقاه الدوادارية في بيت المقدس أوقفت على ثلاثين نفراً من المتصوفة، سواء أكانوا عرباً أم عجماً، واشترطت الوقفية أن يكون عشرون منهم عزاباً وعشرة متزوجين وألا يغادروها مطلقاً إلا لحاجة، وزادت الوقفية بأن الضيافة تكون لمن يرد إليها من المتصوفة عشرة أيام[4].

---

(1) المقريزي، الخطط، ج4، ص283.

(2) الخانقاه السميساطية نسبة للسميساطي أبي القاسم علي بن محمد من أكابر الرؤساء بدمشق (ت453 هـ/1061م) النعيمي، الدارس، ج2، ص118.

(3) بدران، عبد القادر (ت1346 هـ /1927م)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت 1985، ص277 وسيشار له لاحقاً بدران، منادمة الأطلال.

(4) العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص338،" أخذها المؤلف عن نقش على باب الدوادارية." علي، القدس في العصر المملوكي، ص155.

وأشير هنا إلى أن هذه الخوانق والزوايا- التي وجدت في معظم مناطق بلاد الشام - كان الواقفون لها يجتهدون في بنائها وزخرفتها وإلحاقها بإضافات من شأنها خدمة الرواد، وهذا ما دفع الرحالة ابن جبير إلى أن يصفها معجباً بها فقال:(وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر)[1].

أما الخانقاة الباسطية[2] في دمشق فكانت تشتمل على (إيوان قبلي به شباكان تحتها جرن ماء للسبيل يقدم خدماته لرواد الخانقاه، وغربي هذا الإيوان وشرقية قبتان وقبالته أيضاً مربع بثلاثة شبابيك، وله باب مطل على جهة الغرب، وبين هذا المربع والإيوان صحن الخانقاه وبه بركة ماء بنوافير وشرقيها حوضان للزراعة، وغربي هذه الخانقاه عدة خلاوي وقبالتها من جهة الشرق قاعة لشيخ الخانقاه، وبيت الخلاء ومن ثم الدهليز الواصل إلى الخارجي وبأعلاه مكتب للأيتام...)[3].

أما أبرز زوايا دمشق فكانت الزاوية الداوودية[4] في الصالحية، إذ وصفها ابن طولون بأنها مكونة من مغارة جيدة، ورواق به إيوان ومسجد وخلاوي كثيرة وميضأة ومكتبة ومساكن

---

(1) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص107.

(2) أنشاها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش الإسلامية، وكانت هذه الخانقاه داراً فلما نزل السلطان الأشرف برسباي إلى آمد سنة (836 هـ /1432م) خاف من نزول العسكر بها فجدد لها محراباً وأوقفها . النعيمي، الدارس، ج2، ص111.

(3) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص277-278.

(4) الزاوية الداوودية أنشأها زين الدين عبد الرحمن بن أبي بكر القادري الصوفي، وكان ذا مكانة عند حكام الشام ومصر وله عدة مصنفات (ت856 هـ /1452م) النعيمي، الدارس، ج2، ص158. بدران، منادمة الأطلال، ص302.

للنساء[1]، وفي بيروت يصف ابن عبد الغني النابلسي زاوية ابن الحمراء فيقول:(وهي متسعة وبها إيوان به محراب كبير، وفيها بركة ماء بجانبها بئر يستخرج منه ماء غزير يصب في تلك البركة) [2].

لقد شيدت الكثير من الخوانق والربط والزوايا في العصر المملوكي حتى ظهر أمراء المماليك وكأنهم يتنافسون في بناء الزوايا[3]، مما يدلل على اهتمام المماليك بهذه الفئة ورعايتهم لها، وإذا اكتمل بناء إحدى الزوايا افتتحها السلطان أو بعض كبار الأمراء في حفل كبير يحضره رجال القضاة ومشايخ الصوفية[4].

وقد حظيت هذه الزوايا والخوانق بحصة هائلة من الأوقاف، فالزاوية البسطامية[5] المنسوبة للشيخ أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي (ت261هـ/875م) [6] في القدس ندرك من خلال ما أوقف عليها في العصر المملوكي فقط حجم ما كان يتمتع به الصوفية، فقد أوقف عليها:

---

(1) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص300.

(2) النابلسي، التحفة النابلسية، ص41.

(3) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص104.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص286 .

(5) الطريقة البسطامية بحارة المشارقة نسبةً للشيخ طيفور بن عيسى البسطامي النيسابوري (ت261 هـ /875م)، السلمي محمد بن الحسين (ت412 هـ /1021م)، طبقات الصوفية، مطبعة بريل، ليدن 1960ص60-67 وسيشار له لاحقاً السلمي، طبقات الصوفية. ابن العجمي، كنوز الذهب، ج1، ص409. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص48.

(6) أبي يزيد طيفور بن عيسى البسطامي كان جده مجوسياً ثم أسلم، وله مقالات كثيرة ومجاهدات مشهورة وكرامات ظاهرة (ت261 هـ /875م). ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص531. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج13، ص86-89.

1. غراس بأرض التفاح خارج القدس الشريف وقف الحاج عمر بن عبد الله المهدي سنة (774ه/1382م).

2. غراس ظاهر القدس الشريف وقف خليفة بن إسماعيل النقيب سنة (776هـ/1374م).

3. غراس الكرم مع عمارة السور ظاهر القدس الشريف سنة (776هـ/1374م).

4. غراس ظاهر القدس الشريف بحارة بني سعد، وقف مقبل الطواشي على الزاوية البسطامية سنة (792هـ/1389م).

5. غراس الكرم في أرض حارة مرشد مع عمارة السور سنة (792هـ/1389م).

6. غراس الكرم في حارة بني زيد مع عمارة البيوت سنة (792هـ/1389م)[1].

أما الوقف الخاص بالخانقاه الباسطية في دمشق فهو بستان الشيخ بقرية كفربطنا[2] من قرى غوطة دمشق، والجنات الثلاث الملاصقات والمقابلات لها من الجانب القبلي وحكر لطاحون الدورة، وحكر طاحون ثانية بأرض المرجه[3]، وحكر بستان الناعمة، وحكر طاحون

(1) المغربي، عبد الرحمن، أوقاف الطريقة البسطامية في القدس المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام الجامعة الأردنية 2006، ص8-9 وسيشار له لاحقاً المغربي أوقاف الطريقة البسطامية. أوقاف وأملاك المسلمين في فلسطين في ألوية غزة ، القدس الشريف، صفد، نابلس، عجلون. حسب الدفتر رقم 522 من دفاتر التحرير العثمانية المدونة في القرن 10 الهجري تحقيق محمد ابشرلي ومحمد التميمي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول 1982 ص 24-37 وسيشار له لاحقاً أوقاف وأملاك المسلمين.

(2) كفر بطنا من قرى غوطة دمشق من إقليم داعية. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص468. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1169.

(3) المرجه قصبة سوق تطل على نهر بردى كانت عامرة آهلة وهي من المحاسن التي لا تدرك. بدران، منادمة الأطلال، ص401.

ابن الجاموس وقاعة بباب البريد[1]، ونصف الدكاكين مقابلة المؤيدية[2] في دمشق وستة عشر دكاناً، وحكر بجانب الجنينة التحتانية لصيق الخانقاة العزية[3] وذلك سنة (824هـ/1421م)[4].

ولكل زاوية أو خانقاه أو رباط شيخ يرجع إليه في أمور جماعته وأتباعه، ويتولى منصبه بتوقيع من السلطان كما في الخانقاه الصلاحية في القدس[5]، ومن مهامه الاهتمام برواد الخانقاه وروادها كما عليه تربية المريدين العدل في المعاملة بينهم دون تمييز[6]، أما الناظر فهو الذي يدير شؤونها واحتياجاتها من لوازم[7]، وهناك مباشر الوقف الذي عليه أن يشرف على وقف الخانقاه وتنميته وعمل الحساب له[8]، وكان هؤلاء جميعاً تحت إمرة شيخ الشيوخ[9]، وشيخ الشيوخ لقب يطلق على متولي الإشراف على رجال الطرق الصوفية، وهو أعلى مرتبة في الخوانق والزوايا والربط، وقد حظي بمكانة اجتماعية مرموقة ولم يكن يقل

---

(1) باب البريد اسم لأحد أبواب جامع دمشق، وهو من أنزه المواضع، وقد أكثر الشعراء من ذكره ووصفه والتشوق إليه. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص306. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص143.

(2) المدرسة المؤيدية، لم يورد النعيمي عنها أية معلومات وقال بدران في منادمة الأطلال:(ولم نعلم لها أثراً ....وقد اندرست). بدران، منادمة الأطلال، ص97.

(3) المدرسة العزية واقفها عز الدين أيبك المعظمي (ت646 هـ /1248م)، النعيمي، الدارس، ج1، ص428.

(4) بدران، منادمة الأطلال، ص273. تجدر الإشارة هنا إلى أن بدران لم يكن دقيقاً في تحديد سنة الوقف، فهو يورد أنها سنة (823 هـ /1420م) ولكن بناءً على نص الوقفية الذي وصلنا إليه تكون سنة الوقف (824 هـ /1421م). T.D.Istanbul.602.p 54.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص327.

(6) السبكي، معيد النعم، ص124.

(7) البصروي، تاريخ البصروي، ص242.

(8) بدران، منادمة الأطلال، ص293.

(9) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص181.

دوره عن دور القضاة وكبار العلماء فكان حلقه اتصال بين الصوفية والسلطان، وكان للصوفية مكانة خاصة في نظر الدولة إذ إن باستطاعتهم أن يخلقوا مشاكل للدولة[1].

وكان على شيخ الشيوخ أن يشرف على الخوانق والفقراء والاعتناء بما تحتاجه هذه الخوانق وعليه أن يحث الشيوخ على إتباع سنة الله ورسوله في جميع أعمالهم وأن يستقبل الوفود التي ترده من السلطان ويقوم بإكرامهم وتنفيذ مطالبهم، وأن يستقبل كل مسافر ويساعده بما يحتاج إليه[2]، وجرت العادة أن يكون شيخ الخانقاه السميساطية بدمشق هو من يتولى وظيفة مشيخة الشيوخ وتكون ولايتها من النائب وبتوقيعه[3].

ويبدو أنه لا أهمية للعمر في تعيين شيخ الشيوخ سواء كان كبيراً أو صغيراً لكن العبرة بقدرة ذلك الشخص ومكانته ومقامه بين الناس ويتم التعيين بأمر السلطان المملوكي[4]، وكان النظر على أوقاف الصوفية يُسند في الأغلب إلى شيخ الشيوخ[5]. ويذكر في هذا المقام

---

(1) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص409. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص366. زيادة، نقولا، دمشق في عصر المماليك، فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت نيويورك، مكتبة لبنان 1982، ص162 وسيشار له لاحقاً زيادة، دمشق في عصر المماليك. دوزي، تكملة المعاجم، ج6، ص371.

(2) العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، ص181-185.

(3) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص200.

(4) ابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم (ت971 هـ /1564م)، درر الحبب في أعيان حلب، ج2، ق1، تحقيق محمود الفاخوري، دمشق 1974 ص338. وسيشار له لاحقاً ابن الحنبلي، درر الحبب. حمزة، عادل عبد الحفيظ، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2000 ص244 وسيشار له لاحقاً حمزة، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك.

(5) بدران، منادمة الأطلال، ص277.

أن لقب شيخ الشيوخ كان يطلق حصراً في العهد الأيوبي على شيخ خانقاه سعيد السعداء[1] التي بناها صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة (569هـ/1173م)[2].

وفي العهد المملوكي كان هناك مشيخة للشيوخ في بلاد الشام وأخرى في مصر، وأحياناً كانت مشيخة الشيوخ في بلاد الشام تتبع لشيخ الشيوخ في مصر، فالسلطان الناصر محمد قلاوون أصدر مرسوماً بتقليد الشيخ نظام الدين الأصفهاني (ت783هـ/1381م)[3] مشيخة الشيوخ في مصر وبلاد الشام فقد خوله المرسوم الإشراف على مواريث الصوفية وأوقافهم بحيث (لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث......ولا يكون لأحد من الحكّام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث) [4]، وأحياناً يكون شيخ الشيوخ من الشام وليس من مصر فقد تولاها شرف الدين أبو بكر بن محمد الجويني(ت678هـ/1279م) [5].

(1) خانقاه سعيد السعداء أوقفها السلطان صلاح الدين بن أيوب، وكانت دارا لسعيد السعداء قنبر عتيق الخليفة المستنصر، فلما تملك الناصر صلاح الدين بالأمر، أوقفها على الصوفية في سنة (569 هـ /1173م) ورتب لهم كل يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وهي أول خانقاه عملت بديار مصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، وما زال ينعت بذلك إلى أن بنى الناصر محمد بن قلاوون خانقاه سرياقوس، فدعي شيخها بشيخ الشيوخ. المقريزي، الخطط، ج4، ص282. السيوطي، حسن المحاضرة، ج2، ص260.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج12، ص409. حمزة، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ج1، ص243. الباشا، الألقاب الإسلامية، ص366.

(3) نظام الدين اسحق بن عاصم بن سعد الدين الأصفهاني شيخ خانقاه سرياقوس (ت783 هـ /1381م) المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص461. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص217.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، ج11، ص368. حمادة، محمد ماهر ، دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، ط1، بيروت ، مؤسسة الرسالة ،1998 ص402-405 وسيشار له لاحقاً حمادة ، دراسة وثقية.

(5) الذهبي، معجم الشيوخ، ج1، ص322. العبر، ج3، ص338. عبد الله بن عبد الله بن عمر بن علي محمد بن حمويه، شيخ الشيوخ شرف الدين أبو بكر بن شيخ الشيوخ تاج الدين الجويني الدمشقي الصوفي ، سمع من أبيه، ومن أبي القاسم بن صصرى، وأبي صادق، وابن صباح، وروى عنه: ابن الخباز، وابن

وقد اقتصر هذا المنصب على مدن: دمشق وحلب والقدس ، ففي دمشق كان يوكل إلى شيخ الخانقاه السميساطية(1) ، أما في حلب فكان يتولاها الشيخ المسؤول عن الخانقاه القديمة(2) تلك الخانقاه التي أوقفها نور الدين محمود زنكي بحلب سنة (543ه/1148م) (3)، وفي القدس كان يتولاها شيخ الخانقاه الصلاحية(4)، حتى اعتبرت هذه الوظيفة من الوظائف " السنية(5) بمملكة الإسلام"(6)، وقيل أنه عند التعيين يدخل شيخ الصلاحية المدينة ويشق أسواقها، وقد ارتدى التشريف السلطاني(7)، يحف به العلماء والفقهاء والنائب والناظر وينتهي إلى المسجد الأقصى حيث يُقرأ المرسوم السلطاني(8)، وسنذكر أبرز من تولاها في كل مدينة، ففي دمشق تولاها عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن (ت662هـ/1264م) (9) وسعد الدّين الخضر

العطار، والمزي، والبرزالي، وكان شيخاً جليلاً (ت678 هـ/1279م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج7، ص92.

(1) النعيمي، الدارس، ج2، ص151.

(2) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص228.

(3) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، قسم حلب، ج1، ق1، ص93.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص171-190-204-343. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص37.

(5) السنية من السناء وهو الرفعة، والوظائف السنية أي مرتفعة المنزلة والقدر. ابن منظور، لسان العرب، ج14، ص403. الزبيدي، تاج العروس، ج38، ص318.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص41.

(7) التشريف هو الخلعة التي يلبسها السلطان أو يمنحها لأحد رجال الدولة كي يلبسها عند قراءة التقليد، وتسمى هذه الثياب بأسماء تطابق المناسبة التي منحت من أجلها مثل:(خلعة النيابة، خلعة الوزارة، خلعة السفر، خلعة الرضا)، ورفض ثوب التشريف يعتبر إساءة خطيرة، والخلعة عادةً تكون كاملية من الصوف مبطنة بفرو سمور، أو ثوباً من الأطلس الأبيض به بنود مطرزة. ماير، ليواري، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة 1972 ص108-111 وسيشار له لاحقاً ماير، الملابس المملوكية. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص41.

(8) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص291. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص37.

(9) عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن رحل به والده وسمعه جزء ابن عرفة من ابن كليب، برع في العلم والأدب، وكان من الأذكياء المعدودين، وله محفوظات كثيرة، وسكن بعلبك مدة، وسكن دمشق وحماة (ت662 هـ /1264م) الذهبي، العبر، ج3، ص304. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص210. الصفدي، فوات الوفيات، ج2، ص354. السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص258.

بن تاج الدّين عبد الله بن حمّوية الجويني(674هـ/1275م) (1) ويوسف بن أبي بكر بن محمد بن عثمان بن حمويه الجويني(ت701هـ/1301م) (2) وبدر الدين بن جماعة (ت703هـ/1303م) (3)، وذلك بناءً على طلب الصوفية(4) وصفي الدين الهندي (ت715ه/1315م) (5)، ونجم الدين بن صصري (ت723هـ/1323م)(6). وعلي بن إسماعيل القونوي (ت729هـ/1328م) (7) وجمال الدّين سليمان بن عمر بن سالم بن عثمان الزّرعي

---

(1) سعد الدين الخضر الجويني الدمشقي، عمل للجندية مدة ثم لزم الخانقاه، وله تاريخ مفيد وشعر متوسط، (ت674 هـ /1275م) الذهبي، العبر، ج3، ص328. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص131. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص251. النعيمي، الدارس، ج2، ص121.

(2) يوسف بن أبي بكر بن محمد بن عثمان بن حمويه الجويني (ت701 هـ /1301م) واستقر بعده في مشيخة الشيوخ بدر الدين ابن جماعة قاضي دمشق. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج6، ص256.

(3) بدر الدين بن جماعة سمع من ابن البرهان بالقاهرة وجلس مدة مع الشهود بدمشق توفي بحماة سنة (703 هـ /1303م) الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص297-298. الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص495.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص21.

(5) صفي الدين محمد عبد الرحيم الشافعي الهندي، خرج منها حاجاً ثم دخل اليمن ثم مصر واستقر أخيراً بدمشق ودرس في مدارسها وصنف في الأصول والكلام (ت715هـ/1315م) الذهبي، العبر، ج4، ص41. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص85.

(6) نجم الدين بن صصري أبو العباس أحمد بن العدل الشافعي، درس بالعادلية وتولى قضاء العسكر في دولة العادل كتبغا وقضاء الشام سنة (702ه/1302م) وأضيفت إليه مشيخة الشيوخ وكان معظماً عند السلطان والدولة (ت723هـ/1323م) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص125-131. الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص327-340. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص122. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص249-251. النعيمي، الدارس، ج2، ص122.

(7) علي بن إسماعيل القونوي قدم دمشق، وتصدر للإشغال بالجامع، ودرس بالإقبالية، ثم تحول إلى مصر، وتولى تدريس الشريفية، ومشيخة الميعاد بالجامع الطولوني. (ت729ه/1328م) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص282. السبكي، طبقات الشافعية، ج10، ص132-134. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص29-30. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص271-273.

(ت734هـ/1333م)[1]، وعلي بن محمود بن حميد القونوي الحنفي (ت749هـ/1348م)[2].

ومحمد بن إبراهيم بن محمد النابلسي المعروف بفتح الدين بن الشهيد (792هـ/1389م)[3]، وقطب الدين محمد بن عبد الله الخيضري الشافعي(ت894هـ/1488م)[4] وشهاب الدين بن الفرفور الشافعي (911هـ/1505م)[5].

وأبرز من تولاها في حلب عبد اللطيف بن نصر بن سعيد الشيخي الحلبي(ت697هـ/1297م)[6]، ونجم الدين عبد اللطيف بن محمد بن موسى بن أبي الفتوح

---

(1) جمال الدّين سليمان بن عمر بن سالم بن عثمان الزّرعي، وولي قضاء زرع مدة، ثم تنقلت به الأحوال، ثم ولي قضاء القضاة بالدّيار المصرية، ثم ولي قضاء الشام بعد ابن صصرى. (ت734هـ/1333م). الذهبي، العبر، ج4، ص98. السبكي، طبقات الشافعية، ج10، ص39-40.

(2) علي بن محمود بن حميد القونوي الحنفي المدرس تولى مشيخة الشيوخ بالشام (ت749هـ/1348م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج22، ص118.

(3) محمد بن إبراهيم بن محمد النابلسي الدمشقي كتب في ديوان الإنشاء ثم صار صاحب الديوان بدمشق وولي مع ذلك مشيخة الشيوخ بها ثم جرت له محنة اختفى بسببها مدة (ت792 هـ /1389م) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج3، ص161-162.ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص22. إنباء الغمر، ج1، ص427.

(4) قطب الدين محمد بن عبد الله الخيضري ألف " شرح ألفية العراقي "، و " الخصائص النبوية "، و " طبقات الشافعية "، وولي قضاء الشافعية بدمشق، وكتابة السر بها، وعدة مدارس بدمشق(ت894 هـ /1488م) البصروي، تاريخ البصروي، ص57. السيوطي، نظم العقيان، ص162. الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص10. شمس الدين بن الغزي، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن(ت1167 هـ /1745م) ديوان الإسلام، ط1، ج2، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت 1990 ص235-236. وسيشار له لاحقاً شمس الدين بن الغزي، ديوان الإسلام.

(5) أحمد بن محمود بن عبد الله الشهير بابن الفرفور ولي قضاء القضاة الشافعية بدمشق، ثم جمع له بينه وبين قضاء مصر، وأبيح له أن يستنيب في قضاء دمشق من يختار، فعين ولده القاضي ولي الدين واستمرت بيده الوظيفتان إلى أن مات سنة (911 هـ /1505م) الذهبي، معجم الشيوخ، ج1، ص415، تاريخ الإسلام، ج52، ص332. الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص166. الوافي بالوفيات، ج19، ص80. الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص143-146. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص49.

(6) البصروي، تاريخ البصروي، ص108.

الحلبي(ت787هـ/1385م)[1]، وأحمد بن محمد بن زهرة بن الحسن العلوي(ت795هـ/1392م)[2]، ومحمد بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي (ت803هـ/1400م)[3]، وشمس الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن سحلول (ت844هـ/1440م)[4]، وعلي بن يونس الخطيب (ت920هـ/1514م)[5]. أما في القدس فكان محب الدين أبو البقاء أحمد بن برهان الدين إبراهيم بن جمال الدين الكناني (ت897هـ/1491م)[6]، وبرهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن نجم الدين أحمد بن غانم الأنصاري (ت839هـ/1435م)[7]، وابنه نجم الدين محمد (ت869هـ/1464م)[8]، وجمال

---

(1) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج1، ص386-387. حمزة، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ص243.

(2) أحمد بن محمد بن زهرة بن الحسن العلوي الحلبي شيخ الشيوخ بحلب يكنى أبا طالب، كان جليلا فاضلا ساكنا لم يضبط عليه في حق أحد من الصحابة ما يكره بل ذكر أبو بكر عنده مرة فقال شخص رضي الله عنه فقال هو أبو بكر جدي يشير إلى أن جعفر بن محمد الصادق جده الأعلى (ت795 هـ/1392م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص355.

(3) محمد بن أحمد بن عبد العزيز الهاشمي، شيخ الشيوخ بحلب، كان من بيوت الحلبيين وأحد أعيانها، مات في أسر تيمورلنك سنة (803 هـ /1400م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص182-183. السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص313. حمزة، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، ص243.

(4) شمس الدين محمد بن ناصر الدين محمد بن سحلول، انتقل للقاهرة، وكان دينا، خيرا، محدثا متواضعا حسن الأخلاق (ت844 هـ /1440م) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص160-163. السخاوي، الضوء اللامع، 10، ص294-297.

(5) علي بن يونس، السيد الشريف الخطيب علاء الدين بن شيخ الشيوخ بحلب شرف الدين الحسيني، الشافعي، كان كأبيه خطيباً بجامع المهمندار، ذهب إلى زبيد من بلاد اليمن، لما بلغه وصول أخيه الرشيد الشريف زين العابدين إليها(ت920 هـ /1514م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص280.

(6) محب الدين أبو البقاء أحمد بن برهان الدين أبي اسحق إبراهيم بن جمال الدين الكناني ولي الخطابة بالمسجد الأقصى مشاركا لبقية الخطباء، ثم عزل ثم أعيد وولي نصف مشيخة الخانقاه الصلاحية ثم عزل منها ثم أعيد إليها (ت897 هـ /1491م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص142.

(7) برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ نجم الدين أحمد بن غانم الأنصاري ولي مشيخة الخانقاه في سنة (797 هـ /1395م) هو الذي عمرها وأقام نظامها فعمر المنارة والبوابة الكبرى والدركاه التي بداخلها والإيوان الكائن بصدر الدركاه والمحراب السفلي ثم فوض لولده الشيخ نجم الدين مشيخة الخانقاه والنظر عليها (ت839ه/1435م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص171.

(8) نجم الدين محمد بن إبراهيم بن غانم الأنصاري ولي المشيخة بعد وفاة والده، ثم نزل عن نصفها للشيخ عماد الدين وحصل بينهما نزاع (ت869 هـ /1464م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص190.

الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن غانم الأنصاري (ت890هـ/1485م)[1]، وأبو حفص عمر بن محمد بن علي الجعبري (ت893هـ/1487م)[2]، وسعد بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الديري العبسي (ت892هـ/1486م)[3]، وموسى بن شهاب الدين أحمد بن جمال الدين عبد الله بن الصامت القادري (ت898هـ/1492م)[4]، ويذكر العليمي أن آخر من تولاها في القدس هو أبو الفرج عبد الرحمن بن الأمير ناصر الدين محمد بن أبي شريف الشافعي وكان معاصراً له[6].

ج – الطرق الصوفية

تعرف الطريقة بأنها الأسلوب الخاص الذي يعيش الصوفي بمقتضاه في ظل جماعة من جماعات الصوفية تابعةً لأحد كبار المشايخ، أو هي مجموعة التعاليم والآداب والتقاليد التي تختص بها جماعة من هذه الجماعات[6]، وقد كانت الطرق الصوفية تشترك بمبادئ عامة مثل التوبة والورع والزهد والحب والمحبة والمعرفة والتوحيد والفناء، وزادوا على ذلك بالسكر والوجد والشطح والاتصال والاتحاد وغيرها، أما الطرق التي انتشرت في بلاد الشام فهي:

---

(1) جمال الدين أبو محمد عبد الله بن محمد بن غانم الأنصاري كان كريماً حسن الأوصاف له مروءة تامة (ت890 هـ /1485م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص190–204.

(2) أبو حفص عمر بن محمد بن علي الجعبري درس وأفتى وحدث ببلده وبالقدس والقاهرة وسمع عليه الفضلاء وولي نصف مشيخة حرم الخليل وكان رأس الفقهاء ببلده ثم انجمع وترك ذلك وكان عالما خيرا متواضعا لطيفا حسن النادرة (ت893 هـ /1487م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص209–210.

(3) سعد بن شمس الدين أبي عبد الله محمد بن الديري درس بالمعظمية نيابة عن والده وناب عنه في القضاء بالديار المصرية ثم ولي قضاء الحنفية بالقدس ثم توجه إلى القاهرة وفوض إليه والده مشيخة المؤيدية (ت892هـ/1486م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص238.

(4) موسى بن شهاب الدين أحمد بن جمال الدين عبد الله بن الصامت القادري من أهل الخير والصلاح، كان منعزلاً عن الناس لا يخالط أبناء الدنيا ولا يتردد إليهم (ت898 هـ /1492م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص243.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص343.

(6) الرومي، التصوف الإسلامي، ص93.

1. الطريقة القادرية وهذه الطريقة انتشرت في كل النيابات الشامية وهي منسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني (ت561هـ/1166م) [1]، وذكر الشعراني أن من خصائص الطريقة القادرية الذبول تحت مجاري الأقدار بموافقة القلب والروح، واتخاذ الباطن والظاهر وانسلاخه من صفات النفس، وقيل إن طريقته هي تجريد التوحيد مع الحضور في موقف العبودية[2]، ومن أبرز أعلامها في بلاد الشام أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي (ت711هـ/1311م) [3]، وشيخ الخانقاه الشبلية[4] نجم الدين إبراهيم بن بركات البعلبكي (ت740هـ/1339م) [5]، وشهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن الرسام الحموي (ت844هـ/1440م)[6] وعبد الرحمن بن تقي الدين أبي بكر بن داود الحنبلي (ت856هـ/1452م)[7] ومحمد الجلجولي(ت910هـ/1504م) [8] وقد أثنى ابن تيمية على

---

(1) عبد القادر بن موسى بن جنكي الحسني الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية، انتقل إلى ببغداد واتصل بشيوخ العلم والتصوف وبرع في أساليب الوعظ وتصدى للتدريس والإفتاء في بغداد (ت561 هـ /1166م)، الكتبي، فوات الوفيات، ج2، ص373.

(2) الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973 هـ /1565م) لوافح الأنوار في طبقات الأخيار، ج1، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر 1897 ص109 وسيشار له لاحقاً الشعراني، لوافح الأنوار.

(3) أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي صنف في السلوك وشرح منازل السائرين وكان منقبضا عن الناس حافظاً لوقته لا يحب الخوانك تسلك به جماعة وكان ذا ورع وإخلاص (ت711 هـ /1311م) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص56. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص140. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص103.

(4) الخانقاه الشبلية أنشأها شبل الدولة كافور المعظمي (ت623 هـ /1226م) بسفح قاسيون. النعيمي، الدارس، ج2، ص127-128. بدران، منادمة الأطلال، ص280-281.

(5) نجم الدين إبراهيم بن بركات ابن أبي الفضل البعلبكي، من أكابر الفقهاء القادرية ولي مشيخة الشبلية والأسدية توفي بدمشق سنة (740 هـ /1339م) الذهبي، العبر، ج4، ص116. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص222. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص219. النعيمي، الدارس، ج2، ص127. زيادة دمشق في العصر المملوكي، ص128.

(6) شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن الرسام ولي قضاء حماة، ثم قضاء حلب، وقدم الشام والقاهرة مرارا، وأسمع «الصحيح» من شمس الدين بن اليونانية، وسمع من العراقي، وأجاز له جماعة، وله كتاب في الوعظ (ت844 هـ /1440م) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص162. السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص249-250.

(7) عبد الرحمن بن تقي الدين أبي بكر بن داود الحنبلي، نشأ على طريقة حسنة، ملازما للذكر وقراءة القرآن والأوراد، اشتغل في فنون كثيرة، وكتب وألّف كتبا عديدة، منها «الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(ت856 هـ /1452م) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص247. السخاوي، الضوء اللامع، ج11، ص80. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص421.

(8) محمد الجلجولي كان كثير القرى للواردين عليه من الغرباء وغيرهم، وكان تفد إليه الناس بالهدايا والنذور وللزيارة والتبرك بأنفاسه، وكانت شفاعته مقبولة، وكلمته نافذة عند الملوك والأمراء (ت910ه/1504م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص75.

الشيخ عبد القادر الجيلاني واعتبره من ضمن أئمته فقد قال: (والذي نختار قول أئمتنا ومن متأخريهم الشيخ الإمام أبو محمد عبد القادر الجيلاني)[1]، فهو يتوافق في آرائه الفقهية مع آراء ابن تيمية.

2. الطريقة الرفاعية مؤسسها أحمد بن علي الرفاعي (ت578هـ/1182م)[2]، وهذه الطريقة انتشرت في دمشق والقدس[3]، ومن أبرز أعلام هذه الطريقة طالب بن عبدان بن فضائل الرفاعي (ت683هـ/1284م) المقيم بقصر حجاج وكان الناس يكثرون من التردد إليه[4]، ويعتبر الشيخ حسن بن علي الرفاعي (ت777هـ/1375م)[5] من أبرز مشايخ هذه الطريقة في دمشق[6]، وأحمد بن محمد بن الشيخ تاج الدين الرفاعي (ت700هـ/1300م)[7] وصالح الأحمدي الرفاعي (ت707هـ/1307م)[8] شيخ المنيبع[9] كان المغول يكرمونه لما قدموا دمشق، ولما جاء قطلوشاه نائب المغول نزل عنده، وهو الذي قال للشيخ تقي الدين بن تيمية

---

(1) ابن تيمية، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت728 هـ /1327م)، مجموع الفتاوى، ط3، ج5، تحقيق أنور الباز وعامر الجزار، دار الوفاء، دمشق 2005، ص85 وسيشار له لاحقاً ابن تيمية، مجموع الفتاوى.

(2) ابن كثير،البداية والنهاية، ج12، ص382 . أبو العباس أحمد الرفاعي، شيخ الطائفة الأحمدية الرفاعية البطائحية، التف علية خلق كثير (ت578 هـ /1182م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص172.

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص214. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص48.

(4) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص214.

(5) حسن بن علي الرفاعي شيخ الطريقة الرفاعية بدمشق (ت777 هـ /1375م)، ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص111.

(6) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص164.

(7) أحمد بن محمد بن الشيخ تاج الدين الرفاعي القدر كان وقوراً عاقلاً فاضلا يكثر من دخول النار وأخذ الأفاعي وكان الشيخ محمد السفاري يثني عليه (ت700هـ/1300م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص364.

(8) صالح الأحمدي الرفاعي كان الملوك يكرمونه غاية الإكرام، قدم إلى القاهرة، وحضر مجلس السلطان مرات عديدة، ثم عاد إلى دمشق وأقام بها، وكان يسكن بالمنيبع إلى أن طرقها التتار، فلما وصل قطلوشاه مقدم التتار نزل عنده وأظهر من المحبة له ما لا يوصف (ت707هـ/1307م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص334-335.

(9) المنيبع هي متنزه كان به سويقة وحمام وأفران وكان به المدرسة الخاتونية ويمر بصحنها نهر بانياس ونهر القنوات. بدران، منادمة الأطلال، ص401.

بالقصر: (نحن ما ينفق حالنا إلا عند التتر، وأما عند الشرع فلا)[1]، ومحمد بن محمد بن أحمد الصيداوي الرفاعي المعروف بابن شيخ الرميلة[2].

3. الطريقة البكائية وهذه وجدت في القدس وتنسب إلى الشيخ علي البكا (ت670هـ/1271م)[3] ومن مشايخها في القدس أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن خليل بن أبي العباس الجعبري (ت749هـ/1348م)[4] وابنه عمر(ت785هـ/1383م) الذي أجازه جمع كبير من العلماء[5] ثم ابن أخيه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن نور الدين علي بن إبراهيم الجعبري (ت841هـ/1437م)[6].

4. الطريقة البيانية نسبة لأبي البيان نبا بن محمد بن محفوظ القرشي (ت551هـ/1156م)[7] وهذه انتشرت في دمشق وحوران وحماة ومن أبرز شيوخها إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الحموي (ت675هـ/1276م) شيخ الطائفة البيانية في

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص52-53.

(2) السخاوي، الضوء اللامع، ج9، ص3.

(3) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص154-155. علي البكا، مات ببلد الخليل، عرف عنه الصلاح وله كرامات كثيرة، توفي أول رجب سنة (670 هـ /1271م) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص604.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص154-155.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص155.

(6) العليمي، الأنس الجليل ج2 ص156. شمس الدين أبو عبد الله محمد الجعبري ولي مشيخة الزاوية البكائية بعد عمه الشيخ عمر، ومشيخة الحرم بعد أبيه (ت841 هـ /1437م). العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص156.

(7) أبو البيان نبا بن محمد بن محفوظ القرشي كان عالماً إماماً شافعي المذهب سلفي العقيدة، له مؤلفات كثيرة (ت551 هـ /1156م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص188. الذهبي، العبر، ج3، ص15 . الذهبي، تاريخ الإسلام، ج38، ص68 . ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج1، ص326.

حماة[1]، وعيسى بن ثروان بن محمد التدمري (ت701هـ/1301م)[2]، وعبد الرحيم بن غنائم التدمري (ت724هـ/1324م)[3].

5. الطريقة الحريرية، وهم أتباع أبو محمد أبي الحسن علي الحريري(ت645ه/1247م)[4]، وقد أقام بدمشق يعمل الحرير ثم ترك ذلك وتصوف واتبعه طائفة من الناس سموا بالحريرية[5]، ويظهر من خلال التراجم أنها اقتصرت على مدينة دمشق، ومن أشهر أتباعها: عمر بن محمد بن خواجا الفارسي(ت702هـ/1302م)[6]، وأحمد بن عبد الله بن يحيى القرشي المعروف بالقاضي شقير(ت715هـ/1315م)[7]، والشيخ عبد الله

---

(1) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن ياقوت (ت626 هـ /1229م) معجم الأدباء، ط1، ج6، تحقيق إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993 ص2742 وسيشار له لاحقاً الحموي، معجم الأدباء. إبراهيم بن سعد الله بن جماعة يعتبر شيخ الطريقة البيانية توفي بالقدس سنة (675هـ/1276م) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص178. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص231. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج1، ص64.

(2) عيسى بن ثروان بن محمد التدمري شيخ البيانية كان له صيت وقبول وكلمة نافذة (ت701هـ/1301م) الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص710. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص237-238.

(3) عبد الرحيم بن غنائم التدمري كان رجلاً مباركاً معروفاً بالصلاح والديانة من البيانية، كان حسن الأخلاق، أخبر الناس باليوم الذي، يموت فيه وصدق (ت724 هـ /1324م) الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص24. ابن رافع، محمد بن هجرس السلامي (ت774 هـ /1372م) الوفيات، ط1، ج2، تحقيق صالح مهدي وبشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982ص333 وسيشار له لاحقاً ابن رافع، الوفيات. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص254.

(4) أبو محمد الحريري ولد بقرية بسر في دمشق كان مستخفاً بأمر الصلوات وانتهاك الحرمات(ت645ه/1247م) الذهبي ، تاريخ الإسلام، ج47، ص278.

(5) النعيمي، الدارس، ج2، ص154. ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج2، ص237.

(6) عمر بن محمد بن حسن بن خواجا الفارسي، سمع من ابن الزبيدي وابن اللتي وفخر الدين ابن الشيرجي، كان أبوه ناظر الناصرية فحصل له مشيخة الحديث بها بعد موت الشيخ تقي الدين الواسطي وكان دينا كريما من بقايا الفقراء الحريرية (ت702 هـ /1302م) الذهبي، معجم الشيوخ، ج2، ص78. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص222.

(7) أحمد بن عبد الله بن الزكي القرشي المعروف بالقاضي شقير، تجرد للفقر خمساً وستين سنة ثم إنه جاور بمسجد الكهفت التحتاني بجبل قاسيون (ت715 هـ /1315م) الذهبي، معجم الشيوخ، ج1، ص48-49. الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص528. الوافي بالوفيات، ج7، ص93. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص209-210.

الملطي(ت766هـ/1364م)[1]، وإبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي (ت806هـ/1403م)[2]، ومن النساء عرفت فاطمة بنت محمد الزعبي(ت688هـ/1289م)[3] كأشهر من انتسب لهذه الطريقة[4]، وزوجها نجم الدين بن إسرائيل (ت677هـ/1278م)[5]، وشمس الدين محمد المغربي الحريري (ت925هـ/1519م) مفتي المالكية بدمشق[6].

6. الطريقة الأحمدية وهي ذاتها الرفاعية المنسوبة لأحمد بن علي الرفاعي (ت578هـ/1182م)[7]، ومن هنا جاءت التسمية " الأحمدية " إلا أن أتباعها في بلاد الشام تميزوا بتصرفات أنكرها عليهم الفقهاء وكفروهم عليها فصنف ابن تيمية كتاب "كشف حال المشايخ الأحمدية وأحوالهم الشيطانية"[8] بين فيه أحوالهم ومسالكهم وتخيلاتهم وما في طريقتهم من مقبول ومردود بالكتاب[9] إذ أنكر عليهم دخولهم في النيران المشتعلة وأكلهم الحيات ولبسهم الأطواق الحديد في أعناقهم وتقلدهم بالسلاسل على مناكبهم وعمل

(1) عبد الله الملطي كان مشهوراً بالمجاورة بالكلاسة في الجامع الأموي ويلبس على طريقة الحريرية ومن الناس من كان يعتقد فيه الصلاح (ت766 هـ /1364م)، ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص356.

(2) إبراهيم بن محمد بن صديق الدمشقي أجاز له عدد كبير من العلماء وحدث بمكة والمدينة ودمشق وطرابلس وحلب، وكان صوفياً بالخانقاه الأندلسية بدمشق (ت806 هـ /1403م) الفاسي، ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، ج1، ص441-444. السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص147-148.

(3) فاطمة بنت محمد الزعبي زوجة نجم الدين بن إسرائيل كانت مليحة وهي على الطريقة الحريرية (ت688 هـ /1289م) الذهبي، تاريخ الإسلام،ج51، 339.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص369-370.

(5) نجم الدين بن إسرائيل الشيباني الدمشقي كان فقيراً ظريفاً رائق النظم مليح المعاني (ت677 هـ /1278م) الذهبي، العبر، ج3، ص336. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج3، ص383-390.

(6) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص90-91.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص381.

(8) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص83. الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص245.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، 41.

الأساور الحديد في أيديهم وتلبيدها[1]، وقد اشتهرت هذه الطريقة تحديداً في مدينة دمشق ومن أشهر مشايخها الشيخ طالب الرفاعي (ت683هـ/1284م)[2]، وأحمد بن محمد بن تاج الدين بن الرفاعي (ت704هـ/1304م)[3]، وقاسم الأحمدي الدمشقي (ت917هـ/1511م)[4]، ومحمد السطوحي (ت923هـ/1516م)[5]، وأحمد بن شعبان بن شهاب الدين (ت916هـ/1510م)[6].

7. الطريقة الوفائية، ونرجح أن هذه الطريقة منسوبة لمحمد وفا الإسكندري (ت765هـ/1364م)[7] والد بني وفا المشهورين، واشتهرت بالتحديد في القدس، وكانت لهم زاوية تسمى الحمراء، بالقرب من الخانقاه الصلاحية[8]، ومن شيوخها تقي الدين أبو

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص16.

(2) الشيخ طالب أحد مشايخ الأحمدية بقصر حجاج، رجل صالح وقور، يعمل السماع، وله زبون وأصحاب، مات سنة (683 هـ /1284م) وله شيعة من الخلق. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص214. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج51، ص144.

(3) أحمد بن محمد بن تاج الدين بن الرفاعي، كان كبير القدر بقي مدة في المشيخة وكان وقوراً عاقلاً فاضلاً يكثر من دخول النار وأخذ الأفاعي (ت704هـ/1304م) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص364.

(4) قاسم المعتقد الأحمدي الدمشقي، كان لا يزال مستور الوجه متطيلساً بمئزر أحمر، وكان للأتراك فيه اعتقاد عظيم (ت917 هـ /1511م) الكواكب السائرة، ج1، ص295.

(5) محمد المنير المشرقي الحلبي الأحمدي السطوحي، كان منيراً بحانوت داخل باب النصر بحلب، وكان من أرباب الأحوال مع أنه كان أمياً(ت923هـ/1516م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص88.

(6) أحمد بن شعبان بن شهاب الدين لبس الخرقة القادرية والسهروردية والأحمدية من الشيخ أبي العباس أحمد الأسياطي، ولبس الخرقة القادرية من الشيخ كمال الدين ابن إمام الكاملية، ولبس الخرقة الأحمدية أيضاً عن الشيخ الكبير سيدي إبراهيم المتبولي (ت916هـ/1510م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص136-137.

(7) محمد وفا الإسكندري اشتهر في إخميم، وكان لوعظه تأثير في القلوب، ثم سكن القاهرة، ولم يزل أمره يشتهر وذكره ينتشر مع جميل الطريقة وحسن السيرة إلى أن توفي سنة (765هـ/1364م) ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص352-353.

(8) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص47.

بكر بن تاج الدين محمد الحسيني (ت859هـ/1454م)[1]، وعبد الكريم بن داود بن سليمان المقدسي الوفائي (ت895هـ/1490م)[2]، وعبد الرحمن بن أبي بكر بن عبد الرحمن الحموي[3] وأحمد بن عمر بن سليمان الجعفري (ت919هـ/1513م)[4] وحسن بن أحمد الوفائي الحلبي (ت930هـ/1524م)[5].

8. الطريقة اليونسية وينسب هؤلاء للشيخ يونس بن يوسف الشيباني (ت620هـ/1223م)[6] الذي عرف عنه الشطح، والشطح كلمات يتكلمون بها ظاهرها مخالفة الشريعة[7]، ولكنهم عرفوا الشطح بما يبرر الكفر والزندقة التي يتلفظون بها، معتبرين أن ما قالوه هو في حالة سكر بما تجلى لهم من حقائق وبما عاينوا من علوم وزعموا أنها أسكرتهم وأفقدتهم صوابهم[8]، وعرف عنه أيضاً الشطارة وله أحوال ومقامات ومكاشفات[9]، وتعتبر الطريقة

(1) تقي الدين أبو بكر بن تاج الدين الحسيني، كان معظماً للواردين، انتهت إليه رياسة الفقراء بالقدس الشريف، وألبس خرقة الوفائية (ت859هـ/1454م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص185-186.

(2) عبد الكريم بن داود بن سليمان المقدسي الوفائي تقدم في القراءات وصار المشار إليه فيها ببلده مع فضائل وأوصاف حسنة (ت895هـ/1490م) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص309.

(3) عبد الرحمن بن أبي بكر الحموي قدم القاهرة فقرأ عليه ابن أخي الفخر عثمان المقسي الزهراوين لأبي عمرو مع منظومة الأمين عبد الوهاب بن أحمد بن وهبان الحنفي القاضي المسماة غاية الاختصار في أصول التجويد ولم يذكر السخاوي تاريخ وفاته. السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص64.

(4) أحمد بن عمر بن سليمان بن شهاب الدين الجعفري الوفائي، له كتاب لطيف شرح فيه حكم ابن عطاء الله وضعه على أسلوب غريب، وكلما تكلم على حكمة اتبعها بشعر (ت919هـ/1513م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص142-143.

(5) حسن بن أحمد الوفائي الحلبي، كان خياطاً ومحبوه يترددون إلى حانوته ويتبركون بخياطته، وكان متقشفاً مخشوشناً ملازماً للذكر في مريديه بمسجد قرب داره في بحلب (ت930هـ/1524م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص178-179.

(6) يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني المخارقي، كان صاحب حال وكشف ويحكى عنه كرامات (ت620هـ/1223م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج7، ص256-257. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج44، ص471. اليافعي، مرآة الزمان، ج4، ص37-38. النعيمي، الدارس، ج2، ص156.

(7) قلعجي، معجم لغة الفقهاء، ص262.

(8) اليوسف، عبد الرحمن بن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط3، مكتبة ابن تيمية، الكويت 1986 ص305 وسيشار له لاحقاً اليوسف، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة.

(9) الذهبي، العبر، ج3، ص180.

اليونسية أشد الطرق تطرفاً، فلهم أعمال تدل على الاستهتار والانحلال قولاً وفعلاً[1]، وقد وجدوا في بيت المقدس[2]، ونفى ابن العجمي في كتابه كنوز الذهب في تاريخ حلب أن يكون لهم زاوية في مدينة حلب قائلاً:(ولا أعلم بحلب زاوية للطائفة اليونسيه)[3]، ومن أبرز شيوخها سيف الدين الرجيحي بن سابق بن هلال (ت706هـ/1306م)[4]، ومحمد بن عزيز الواعظ (ت817هـ/1414م)[5] ، وشمس الدين بن عوض الحنفي (ت830هـ/1427م)[6]، وعبد القادر بن محمد الرجيحي (ت910هـ/1504م)[7].

9. الطريقة القلندرية (الحيدرية)، وهؤلاء دخلوا دمشق سنة (655هـ/1257م) ومن شعارهم لبس الفراجي[8] والطراطير[9] وقص اللحى وترك الشوارب، وهو خلاف السنة وهذا تأسياً بشيخهم حيدر الذي عرفت الطريقة باسمه فقيل لها(حيدرية)، فحين أسره منافسوه قصوا

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام ، ج44، ص472. النعيمي، الدارس، ج2، ص167.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص43-387.

(3) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج1، ص414.

(4) سيف الدين الرجيحي بن سابق بن هلال (شيخ اليونسية) كانت له حرمة كبيرة عند الدولة وعند طائفته، حضر جنازته خلق كثير من الأعيان والقضاة والأمراء (ت706هـ/1306م) الصفدي، أعيان العصر، ج2، ص495-496. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص49. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص333.

(5) محمد بن عزيز الواعظ كان فاضلاً ذكياً، ولي مشيخة اليونسية ودرس بغير مكان، وكان حسن الخط والعشرة كريم النفس، كتب بخطه كثيراً (ت817هـ/1414م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص46-47. النعيمي، الدارس، ج1، ص423.

(6) شمس الدين بن عوض الحنفي اشتغل في الفقه وأم بجامع يلبغا مدة وولي مشيخة الخانقاه اليونسية، (ت830ه/1427م) النعيمي، الدارس، ج2، ص148.

(7) عبد القادر بن محمد الرجيحي حفظ القرآن العظيم، اشتغل في العلم، ثم تصوف ولبس الخرقة وكانت سيرته حسنة، وسكن بالصالحية، وبنى بها زاوية وحماماً وسكناً (ت910هـ/1504م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص242.

(8) الفراجي جمع الفرجية وهي الثوب الواسع الطويل الأكمام يتزيا به علماء الدين. مصطفى، المعجم الوسيط، ج2، ص679.

(9) الطراطير جمع الطرطور وهي القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس. الرازي، مختار الصحاح، ج1، ص189. الزبيدي، تاج العروس، ج12، ص425. مصطفى، المعجم الوسيط، ج2، ص555.

لحيته وتركوا شواربه فاقتدوا به في ذلك [1]، ومن هنا أطلق عليهم اسم (قلندرية) وهي كلمة أعجمية بمعنى المحلقين[2]، وقد بنيت لهم زوايا بظاهر دمشق قريباً من العوينة[3]، واشتهرت هذه الطريقة في دمشق والقدس، ومن شيوخها محمد الساوجي (ت685هـ/1286م)[4] وأبو القاسم الكاشغري (ت716هـ/1316م) [5]، والشيخ حسن العجمي الجواليقى (ت722هـ/1322م) [6] الذي ذهب للقاهرة وبنى زاوية للقلندرية [7]، وقد عرف عنهم حلق اللحى والحواجب ولبس زي الأعاجم وتناول الحشيشة إلا أن السلطان أمرهم بترك هذا كله سنة (762هـ/1361م) [8].

هذه هي الطرق التي انتشرت في بلاد الشام، ويلاحظ تبايناً فيما بينها، فمنها ما كان مقبولاً ومنها ما كان متطرفاً، وإن من يدرس الصوفية في العصر المملوكي لا بد وان يلاحظ

---

(1) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص29. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص229. النعيمي، الدارس، ج2، ص165-166.

(2) زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص321.

(3) النعيمي، الدارس، ج2، ص165. العوينة تصغير عين من أرض حرستا، ويظن أنها بقايا قرية، وهناك عوينة القصارين، وهي التي عرفت مؤخراً بعين القصارين تحت مدرسة التجهيز في الشرف الأعلى. كرد علي، غوطة دمشق، ص175.

(4) محمد بن يونس بن جمال الدين الساوجي، قدم دمشق وسكن قاسيون، حصل له زهد وفراغ عن الدنيا، حلق وجهه ورأسه فوافقه أتباعه وفعلوا مثله توفي بدمياط سنة (685هـ/1286م)، الذهبي، تاريخ الإسلام، ج45، ص424. الكتبي، فوات الوفيات، ج5، ص193.

(5) محمد بن عبد الرحمن أبو القاسم الكاشغري، كان شيخ الخانقاه السمسياطية بدمشق ثم صرف عنه في سنة (711هـ/1311م)، وتوفي سنة (716هـ/1316م)، ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص247. النعيمي، الدارس، ج2، ص163.

(6) الشيخ حسن العجمى الجواليقى القلندري، كان قريباً من المنصور قلاوون عمّر زاوية بالقاهرة خارج باب النصر، وهى إلى الآن تعرف بزاوية القلندرية، مات بدمشق سنة (722هـ/1322م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص256-257. المنهل الصافي، ج5، ص145-146.

(7) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص256-257. المنهل الصافي، ج5، ص145-146. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج2، ص160-161.

(8) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص314.

اتجاهين متناقضين: الأول يعريهم من كل فضيلة وخلق حسن، وينسب إليهم شطحات وأحوال ومجاهدات تروح بهم إلى الكفر والإلحاد.

والثاني: يرى فيهم فئة كانت ذات علاقة حسنة مع السلاطين والنواب والعامة وأدت دوراً فاعلاً في خدمة المجتمع من خلال الخوانق والربط وما أوقف عليها، وسأحاول استجلاء رأي كل فريق.

فقد أُنكر عليهم أصحاب الاتجاه الأول السماع والرقص، إذ يجتمعون في الليالي على شكل حلقات ينشدون ويرقصون، وفي عرفهم أن السماع يولد حالة في القلب تسمى الوجد، وهذا بدوره يحرك أعضاء البدن، فإن كانت الحركات غير موزونة كانت اضطرابات، وإن كانت موزونة فحينئذ تكون تصفيقاً ورقصاً[1].

ويعتبر أحمد بن عثمان الشرنوبي (ت994هـ/1585م)[2] أن السماع لا بأس به، وحجته في ذلك أن سفيان الثوري وذا النون المصري وشيخ الشيوخ صدر الدين محب كانوا يحبون السماع ولم ينكروه، ويضع للسماع شروط أهمها أن يكونوا في مكان لا يطلع عليهم

(1) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج2، ص270.

(2) أحمد بن عثمان الشرنوبي رحل إلى بلاد الروم رحلتين توفي في ثانيتهما، له رسالة في مناقب بعض الأولياء سميت طبقات أحمد الشرنوبي، وله أيضاً تائية السلوك إلى ملك الملوك (ت994هـ/1585م). سركيس، يوسف البان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة 1928 ص 1118-1119 وسيشار له لاحقاً، سركيس، معجم المطبوعات.

فيه غيرهم، وأن يكون بغير أجرة، وأن لا يكون معهم شبان، وأن يكون سماعهم مع السكوت والأدب لا مع الحركة والرقص وضرب الأرض بالأقدام[1].

ويبدو أنه لم يلتزم أحد من الصوفية بهذه الشروط وإلا لما أقدم الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي (ت620هـ/1223م)[2] على تصنيف رسالة ذم فيها ما يفعله بعض المتصوفة من الغناء والرقص والتواجد وضرب الدف وسماع المزامير ورفع الأصوات المنكرة بما يسمونه ذكراً وتهليلاً بدعوى أنها من أنواع التقرب لله تعالى[3]، وقد انتقدهم إدريس بن بيدكين التركماني فقال:(مساكين استزلهم الشيطان واستغوى عقولهم في حب الأغاني والسماع واعتقدوه من الدين الذي يقربهم لرب العالمين)[4].

وهذا ما حاولت الدولة المملوكية منعه لاحقاً عندما أصبحت ظاهرة مزعجة فيذكر السخاوي أنه صدر مرسوم سنة (852هـ/1448م) يقضي بترك المزمار والرقص وغيرها من البدع التي كانت تمارس في بعض الزوايا[5]، وعرف البعض منهم تناول الحشيشة واشتهر

---

(1) الشرنوبي، أحمد بن عثمان (ت994هـ/1585م) تائية السلوك إلى ملك الملوك، شرحها الشيخ عبد المجيد الشرنوبي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2002، ص112-114 وسيشار له لاحقاً الشرنوبي، تائية السلوك.

(2) موفق الدين عبد الله بن أحمد المقدسي فقيه، من أكابر الحنابلة، تعلم في دمشق، ورحل إلى بغداد فأقام نحو أربع سنين، وعاد إلى دمشق، له تصانيف كثيرة أهمها مختصر الخرقي، في الفقه، وروضة الناظر " في أصول الفقه، (ت620ه/1223م) الذهبي، العبر، ج3، ص180-181. سير أعلام النبلاء، ج16، ص149-153.

(3) الأدفوي، الموفي بمعرفة التصوف، ص13.

(4) التركماني، اللمع في الحوادث والبدع، ص91.

(5) السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م) وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ط1، ج2، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1995، ص 621-622 وسيشار إليه لاحقاً السخاوي، وجيز الكلام.

بها تحديداً أصحاب الطريقة القلندرية وممن اشتهر بتناولها أحمد الرويس الاقباعي الصوفي (ت715هـ/1310م)[1] وسويد المجذوب[2] بحلب.

وأشير هنا إلى أن السلطان الظاهر ببيرس بعد أن استولى على الرملة سنة (664هـ/1265م) أبطل فيها ضمان الحشيشة الخبيثة وأمر بتأديب من أكلها وهذا يدلل على مدى انتشارها في بلاد الشام في هذه الفترة[3]، وينسب دخولها إلى العراق والشام ومصر إلى الشيخ حيدر (ت618هـ/1221م)[4] الذي جعلها وقفاً على رفاقه من متصوفة خراسان[5] وأوصى أن يزرعوها على قبره بعد وفاته، ثم انتقلت إلى العراق فالشام ومصر[6]، ومنهم من تطرف وتزندق وأنكر من ثوابت الدين مثل عفيف الدين بن سليمان التلمساني الصوفي

---

(1) أحمد الرويس الاقباعي الصوفي قتل في دمشق لاستحلاله المحارم وتعرضه للنبوة ضل به الجهلة وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة (ت715هـ/1315م) الذهبي، العبر، ج4، ص41. اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص191. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص65.

(2) سويد المجذوب الحلبي كان خير بك نائب حلب يعتقده وقربه إليه واكل معه من غير أن يعاف وسخه، ويظهر أنه نائب حلب المذكور ظل على اعتقاده به حتى وفاته. الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص213.

(3) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص266. المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص55.

(4) شيخ الشيوخ حيدر، كان كثير الرياضة والمجاهدة، قد فاق في الزهد وبرز في العبادة، وكان مولده في خراسان، ومقامه بجبل بين نشاور ومارماه وكان قد اتخذ بهذا الجبل زاوية وفي صحبته جماعة من الفقراء، (ت618هـ/1221م) المقريزي، الخطط، ج3، ص227.

(5) خراسان بلاد واسعة، أول حدودها مما يلي العراق أزاذوار قصبة جوين وبيهق، وآخر حدودها مما يلي الهند طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، وتشتمل على أمّهات من البلاد منها نيسابور وهراة ومرو، وهي كانت قصبتها، وبلخ وطالقان ونسا وأبيورد وسرخس وما يتخلل ذلك من المدن التي دون نهر جيحون. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص350-353. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص455-456.

(6) المقريزي، الخطط، ج3، ص227.

الدمشقي (ت690هـ/1291م)[1] الذي وصف بأنه أحد زنادقة الصوفية[2]، وكذلك محمد بن جمال الباجريقي (ت724هـ/1323م)[3] الذي تصوف حتى أصبحت تنسب إليه الباجريقية والمشهور عنه إنكار الله جل جلاله[4]، وقد كثر أتباع هذا الرجل في بلاد الشام حتى أن المؤرخين أبا الفداء وابن الوردي يذكران في حوادث سنة (741هـ/1340م) وجود أتباع له "وفيها ضربت رقبة عثمان الزنديق بدمشق على الإلحاد والباجريقية إذ سمع منه من الزندقة ما لم يُسمع من غيره[5].

أما أحمد الرويس الاقباعي (ت715هـ/1315م) السالف الذكر فقد استحل المحارم وكان يقول أتاني النبي صلى الله عليه وسلم وحدثني وكان يأكل الحشيشة ويترك الصلاة[6].

وفي حلب ظهر نسيم الدين التبريزي (ت841هـ/1417م)[7] وقرر أن الشرائع أباطيل لا حقائق وأنه لا إله، وقد وصل في ضلاله إلى أن وطأ ابنته، واتخذها كالزوجات إلى

---

(1) عفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله الأديب، وهو من عظماء الطائفة القائلين بالوحدة المطلقة، له عدة تصانيف منها شرح مواقف النفزي وشرح الفصوص (ت690هـ/1291م) الذهبي، العبر، ج3، ص372-373 . ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص719-720.

(2) الذهبي، العبر، ج3، ص372-373.

(3) كان الباجريقي في الأصل فقيهاً بالمدارس ثم تصوف وصحب الفقراء وصار له أتباع غير انه كان يتفوه بالمكفرات، وقد حكم القاضي المالكي يضرب عنقه مرة بعد أخرى لثبوت أمور فظيعة فتغيب عن دمشق وأقام بمصر.... وأخيراً جدد القاضي المالكي الحكم بقتله (724هـ/1323م) النويري، نهاية الأرب، ج32، ص66-67. الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص398.

(4) ابن كثير ، البداية والنهاية، ج14، ص132.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج2، ص52. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص319.

(6) الذهبي، العبر، ج4، ص41. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص719.

(7) نسيم الدين التبريزي نزيل حلب وشيخ الحروفية كثر أتباعه وشاعت بدعته إلى أن قتله السلطان (820 هـ /1417م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص136-137. السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص173. وقد سمي أتباع نسيم الدين التبريزي الحروفية أو النسيمية وهي فرقة ابتدعها فضل الله التبريزي (ت804هـ/1401م) وزعم أن الحروف هي عين الآدميين إلى خرافات كثيرة لا أصل لها

أن أولدها ولداً فأمر السلطان بقتله فقتل وسلخ جلده وصلب[1]، وهذا أبــو محمــد الحريــري (ت654 هـ /1256م)[2] مقدم الطائفة الحريرية، كان له شأن عجيب إذ كان مظهــراً ســنة الزندقة والاستهزاء بأوامر الشرع ونواهيه، وكان مستخفاً بأمر الصلوات وانتهاك الحرمات[3].

وهنا لا بد من التنبيه إلى أن بعض المؤرخين تجنوا على الصوفية وحملوهم كل مــن تزندق وخرج عن الدين، وكما أشرت سابقاً فإن الطرق الصوفية منها ما كان مقبــولاً مثــل الطريقة القادرية التي أثنى عليها ابن تيمية، ومنها ما كان شاذاً مثل الطريقة اليونسية.

وبرزت كرامات الصوفية بشكل واضح في العــصر المملــوكي واعتقــدها النــاس والمؤرخون حتى فرضت نفسها كما لو أنها حقائق، والواقع فقد غلا الصوفية في شأن الكرامة وتجاوزوا فيها الحد حيث ادعوا باسم الكرامة للأولياء ما هو من خصائص لله وحــده كقــول بعضهم: (أن لله عباداً لو شاؤوا من الله ألا يقيم القيامة لما أقامها)، وقول بعضهم:(أنه يعطي في أي شيء أراده قول كن فيكون)، وقول البعض ألا يعزب عن قدرته ممكن كما لا يعــزب عن قدرة ربه محال إلى غير ذلك من الضلالات الواضحة والكفريات الظاهرة[4].

ودعا تيمورلنك إلى بدعته، فأراد تيمورلنك قتله ولكن قتله ولده أمير زاده. ابن حجر العسقلاني، إنبــاء الغمر، ج2، ص219.

(1) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص219.

(2) أبو محمد بن أبي الحسن بن منصور الحريري الدمشقي، نشأ بدمشق، ثم عظم أمره وكثر أتباعه وسموا الحريرية (ت654هــ/1256م) الذهبي، العبر، ج3، ص252. ابن تغري بردي، النجوم الزاهــرة، ج6، ص360.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج47، ص278.

(4) الصنعاني، الأمير محمد بن إسماعيل (ت1182هــ/1787م) الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم مــن الكرامات والألطاف، تحقيق عبد الرزاق البدر، ط1، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة 2001، ص3، وسيشار له لاحقاً الصنعاني، الإنصاف في حقيقة الأولياء.

وقد عرف عن الطائفة الأحمدية في دمشق دخولهم النيران المشتعلة وأكلهم الحيات[1]، ويذكر الذهبي أن بعض مشايخ هذه الطائفة دخل النار أمام هولاكو، وكان لهولاكو طفل صغير هو أحمد، فأخذه الشيخ ودخل به النار ولم يحصل لهم أي ضرر[2]. ولكن يظهر أن هذه الأعمال هي نوع من الخدع التي تنطوي على مهارة عالية يُخدع بها العامة، فيتسارع إلى أذهانهم أنها كرامات وهي ليست كذلك.

أما الشيخ إبراهيم الهدمة (ت729هـ/1328م)[3] الكردي الأصل والذي استقر في بيت المقدس، فكان من كراماته أنه يأكل مرة واحدة في الأسبوع مع الحشيش ويستمر بقية الأسبوع لا يأكل شيئاً[4]، وفي هذا خداع أيضاً فالحشيشة تمنح شعوراً بالراحة والشبع لمدة أيام، وبما أن هذه المادة كانت محتكرة لدى الصوفية في الفترة الأولى وهذا اقتداءً بالشيخ حيدر الذي أمرهم أن لا يعلموا بها أحدا من عوامّ الناس[5]، فإن العامة لم يكونوا على دراية بها فيعتقدون أن الامتناع عن الطعام لهذه المدة من الكرامات.

ويروي عبد القادر بدران في منادمة الأطلال قصة عن كرامة الشيخ الحريري نلمح فيها شكاً ضمنياً إذ يلقي بالمسؤولية على من رواها قائلاً :(وَهِي خبر والعهدة على الرَّاوِي)[6] وفحواها أن جماعة خرجوا إلى قرية وبعد أن أنهوا عملهم قالوا نمشي إلى عند الشيخ

---

(1) المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص16.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج51، ص140.

(3) إبراهيم الهدمة أصله كردي من بلاد المشرق قدم للشام وأقام ببيت المقدس والخليل وكان يُقصد للزيارة ويحكي الناس عنه كرامات صالحة.(ت729ه/1328م) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص283. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص174.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص252.

(5) المقريزي، الخطط، ج3، ص227.

(6) بدران، منادمة الأطلال، ص300.

الحريري، فقال أحدهم :إنه سيطعمنا حلوى وقال الآخر: بل حمصاً اخضر وقال الثالث: يسقينا فقاعاً[1] عليه الثلج، فلما وصلوا عنده تلقاهم بالرحب وأُدخل عليهم كل الذي ذكروه من طعام أثناء مسيرهم[2].

ومنهم من جاءت كراماته بعد موته فعمر بن إبراهيم الواسطي (ت684هـ/1285م)[3] المدفون في القدس أجاب على من قرأ عند القبر قوله تعالى: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)[4] أجاب من قبره وقال: وجدنا وجدنا، حتى إن بعض من نقل الحجارة عن القبر إلى مكان آخر، أصبح ووجدها قد عادت إلى مكانها"[5]!.

كما وجدت كرامة الطي وهو أن ينتقل الشيخ من مكان لآخر في لمح البصر أو نحوه[6]، فهذا إبراهيم بن عبد الله الكناني (ت675هـ/1276م)[7] رآه جماعة من الناس في التاسع من ذي الحجة بعرفة، ولكنه حضر خطبة عيد الأضحى في اليوم التالي مسقط رأسه بحماه [8]!.

---

(1) الفقاع شراب يتخذ من الشعير، سمي بذلك لما يعلوه من الزبد والفقاعات. ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ج1، ص237. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص118.

(2) بدران، منادمة الأطلال، ص300.

(3) عمر بن إبراهيم بن عثمان بن كعب الواسطي (ت684هـ/1285م) دفن بماملا وقبره عليه بناء عظيم العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص151.

(4) القرآن الكريم، سورة الكهف، آية 49.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص151-152.

(6) منصور، أحمد صبحي، العقائد الدينية في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2000، ص351 وسيشار له لاحقاً منصور، العقائد الدينية.

(7) أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله بن جماعة الكناني الحموي، له معرفة بالفقه والحديث، وقد اشتهر ولده أكثر منه بدر الدين بن جماعة (ت675هـ/1276م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص187. السبكي، طبقات الشافعية، ج8، ص115. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص320.

(8) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص152.

وقد تعرض الجويري لهؤلاء المتصوفة الذين يدعون أنهم أصحاب كرامات في كتابه المختار في كشف الأسرار، فكان يذكر الكرامة ثم يتبعها بكشف سرها، فمثلاً "من يتعاطى النزول في التنور[1] وقد أوقد فيه قنطاراً من الحطب فينزل فيه ثم يغيب ساعة ويطلع"[2]، ويشرح الجويري تصميم التنور وكيف أن حرارته تكون في أعلاه، بينما أسفله بارد فلا تضر الشيخ وأن الشيخ يطلي جسده بمادة عازلة، وهي التي يعملونها لمنع النار، فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت، ثم يرفع عن النار حتى يبرد، فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء، فيؤخذ الدهن ويضاف إليه شيء من البارود الثلجي ثم يلطخ بها جسده، ويدخل النار فلا تضره[3].

أما من يبقى أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ويزعمون أن طعامهم التسبيح وشرابهم التقديس، فهم يستعملون بذرة القمحاء أو كبد الغزال العطشان حين يمتنع عن شرب الماء، أما من يمتنع عن الطعام فيستعين بمسحوق من أكباد الخراف.....[4].

أما رأي الفقهاء في هذا الموضوع فيتجلى في موقف الإمام ابن تيمية الذي وضع قواعد واضحة للتمييز بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة شيء عظيم لا يحدث إلا بشيء، إلا أن الكرامة من التوابع والنوافل " التي لا يعتمد عليها استقلالاً في الشهادة على صدق الأنبياء "

---

(1) التنور هو الفرن الذي يخبز فيه. الرازي، مختار الصحاح، ج1، ص47. مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، ص89.

(2) الجويري، زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقي (ت626 هـ /1228م) المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار، تحقيق عصام شبارو، دار التضامن، بيروت 1992، ص21-22، وسيشار له لاحقاً الجويري، المختار في كشف الأسرار. منصور، العقائد الدينية، ص332-333.

(3) الجويري، المختار في كشف الأسرار، ص21-22. منصور، العقائد الدينية، ص332-333،

(4) الجويري، المختار في كشف الأسرار، ص23-24.

وهي لا تصل إلى حد المعجزات الكبرى[1]، أما ما كان يراه ابن تيمية من هؤلاء الصوفية فإنه لم يعتبره كرامة، بل عده من الأعمال المنافية للشرع وأنها عمل شـيطاني [2]، بينمـا دافـع الصوفية عن كراماتهم فاعتبر الأدفوي أن لا مانع شرعي وعقلي من وقوعها[3].

لقد حفلت كتب التاريخ المملوكي بهذه الأخبار عن كرامات وقدرات شيوخ الصوفية، ولكن الواضح أن هذه الأخبار والاعتقاد بها مرتبط إلى حد كبير بتدهور الأوضاع الاجتماعية وشيوع الفقر وتفشي الجهل وكثرة الأوبئة والمجاعات، وانتشار الفتن والاضطرابات وغير ذلك من الأسباب التي دفعت الناس للاعتقاد بها وتصديقها، وليس العامـة وحـدهم آمنـوا بهـذه الكرامات فالسلاطين أيضاً اعتقدوا بها وهو ما سيأتي عند الحـديث عـن علاقـة الـصوفية بالسلطة، ويرتبط بهذا الأمر – ادعاء الكرامات وإتيان الخوارق– تطور حصل في العـصر المملوكي، وهي المساجد المبنية على القبور، إذ لما كان شيوخ الصوفية يـأمرون المريـدين بالذهاب إلى قبر الشيخ والعكوف عليه، وصاروا يعتقدون ببركته، ويـذبحون الـشاه باسـم شيخهم، ويضفون عليه قداسة، تزايدت أهمية هذه القبور حتى أنها صارت مزارات ومراكـز لقضاء الحاجات والاستغاثة من قبل العامة وقد انتشرت هذه المزارات والمشاهد في كل أركان العالم الإسلامي[4].

---

(1) بناني، أحمد بن محمد، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، ط1، دار العلم، السعودية 1986 ص231 وسيشار له لاحقاً بناني، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية.

(2) ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت728 هـ /1328م) مجموعة الرسائل والمـسائل، علـق عليه محمد رشيد رضا، ج5، لجنة التراث العربي، ص8 وسيشار له لاحقاً ابن تيمية. مجموعة الرسائل والمسائل.

(3) الأدفوي، جعفر بن ثعلب (ت748 هـ /1349م) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الـصعيد، تحقيـق حسن وطه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001، ص370–371.

(4) قدورة، التصوف في العصر المملوكي، ص661–662.

3 - علاقات الصوفية

أ- علاقات الصوفية مع السلطة المملوكية

إن من يبحث علاقات الصوفية مع السلاطين المماليك، يجد اهتماماً كبيراً من السلاطين بهذه الفئة، وأن هذا الاهتمام اعتبره ابن خلدون من محاسن المماليك فقال:(أهل هذه الدّولة التركية بمصر والشام معنيّون بإنشاء المدارس لتدريس العلم، والخوانق لإقامة رسوم الفقراء في التخلق بآداب الصوفية ..... فيختطون مبانيها ويقفون الأراضي المغلة للإنفاق منها على طلبة العلم، ومتدربي الفقراء .... فكثرت لذلك المدارس والخوانق وأصبحت معاشاً للفقراء من الفقهاء والصوفية، وكان ذلك من محاسن هذه الدولة التركية وآثارها الجميلة الخالدة)[1]، ومع نهاية عصر المماليك كان في دمشق وحدها ما ينوف على الستة وتسعين خانقاه وزاوية، وهذا الأمر انسحب على كل من بيت المقدس وحلب وحماة وطرابلس[2].

اهتم البعض من سلاطين وأمراء المماليك بالصوفية وأوليائها وكرامات شيوخها، بل إن بعضهم قربوهم في كثير من الأحيان، وأبرز مثال على ذلك السلطان الظاهر بيبرس مع الشيخ خضر المهراني العدوي، فقد تغاضى السلطان الظاهر بيبرس عن الانحلال الخلقي للشيخ لأنه يعتقد في ولايته، ومعرفته للغيب[3].

وكان سبب معرفة الشيخ خضر بالسلطان الظاهر بيبرس أنه لما كان مقيماً بجبل المزة وكان يقول له:(لا بد ما يتسلطن بيبرس البندقداري)، فلما ملك بيبرس

---

(1) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون، ج7، ص667-668.

(2) النعيمي، الدارس، ج2، ص139-221. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص 34-36-41-48-78-79. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة- قسم دمشق- ص191-196. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص106-109-123-125.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص176. ابن كثير، النهاية والبداية، ج13، ص309.

صار له عقيدة وقربه وأدناه، وكان ينـزل إلـى زيارتـه فـي الأسـبوع مـرة ومـرتين وثلاثاً على قدر ما يتفق ولم يكن ينقطع عنـه، وكـان يطلعـه علـى غـوامض أسـراره ويستشيره في أموره ولا يخرج عن رأيه ويستصحبه فـي سـائر أسـفاره، وكـان يخبـر بيبرس بأمور قبل وقوعها فتقع على ما يخبـر بـه، وهـذا مـا كـان محفـزاً للـسلطان بيبرس لبناء الزوايا فبنى زاوية بدمشق (بجبل المزة)، وزاويـة بظـاهر بعلبـك، وزاويـة بحماة، وزاوية بالقاهرة، وزاويـة بالحـسينية[1]، وزاويـة علـى الخلـيج محاذيـة لأرض الطبالة[2]، ووقف عليها بساتين يأتي منها في كل سـنة فـوق ثلاثـين ألـف درهـم وفـي جميع الزوايا يوجد فقراء[3].

وكان من عظيم منزلته عند السلطان تصرفه وكأنه أمير فقد دخل مرة كنيـسة فـذبح قسيسها بيده ونهب ما فيها لأصحابه، وحولها مدرسة انفق عليها أموالاً كثيرة من بيت المـال وسماها المدرسة الخضراء، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق دخلها ونهب ما فيها ومد بهـا سماطاً وعمل فيها سماعاً واتخذها مسجداً مدة[4]، ومع أن هذه الرواية التي تناقلها المؤرخون

---

(1) الحسينية من أحياء القاهرة منسوبة لجماعة من الأشراف الحسينيين، وكانوا في الأيام الكاملية قدموا من الحجاز، فنزلوا خارج باب النصر واستوطنوها، وبنوا بها مدابغ صنعوا بها الأديم المـشبه بالطـائفي، فسمّيت بالحسينية. المقريزي، الخطط، ج3، ص42.

(2) أرض الطبالة على جانب الخليج الغربيّ بجوار المقس، كانت من أحسن منتزهات القاهرة، يمـرّ النيـل الأعظم من غربيها عندما يندفع من ساحل المقس، وقد سميت بذلك نسبةً إلى امرأة مغنية تعرف بنسب، وقيل بطرب. المقريزي، الخطط، ج3، ص225.

(3) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص242. ابـن الفـرات، ناصـر الـدين محمـد بـن عبـد الـرحيم (ت735 هـ /1334م) تاريخ ابن الفرات، م7، تحقيق قسطنطين زريق، جامعة بغـداد، بغـداد 1970 ص102 وسيشار له لاحقاً، ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات.

(4) ابن كثير، النهاية والبداية، ج13، ص309. العيني، عقد الجمان، ج1، ص136. ابـن تغـري بـردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص162.

عن ابن كثير فيها مبالغة إلا أن فيها دلالة واضحة على عظيم منزلته عند السلطان، حتى عندما حبس لم يحبس في السجون العادية بل حبس في القلعة وكانت تأتيه المآكل المفتخرة[1].

وقد كان السلطان يحبه كثيراً حتى إنه سمَّى بعض أولاده خضرا موافقة لاسمه[2]، كما عرف عن السلطان الظاهر بيبرس أنه كان يجمع حوله عناصر من الصوفية ومشايخهم، ويمضي برفقتهم وكثيراً ما يقوم بالإنفاق عليهم بالأعطيات[3]، وعرف عن السلطان المنصور قلاوون أنه كان ينفق على الصوفية بكثرة، ودفن بمقابر الصوفية عند وفاته[4]، وحرص على إنشاء الأربطة لهم فنسب إليه الرباط المنصوري[5] في بيت المقدس، ومن بعده كان السلطان الأشرف خليل ينفق إنعامات كثيرة على عمائر الصوفية[6].

وكان السلاطين كثيراً ما يمرون على الزوايا ويتفقدونها، فقد زار السلطان الأشرف قايتباي زاوية الشيخ إبراهيم بن أدهم (ت161هـ/778م)[7] في جبلة[8] سنة

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص265. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص277 . ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص613-614.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص309.

(3) ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، ص271-272.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص273. رمضان، المجتمع الإسلامي، ص155.

(5) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص43.

(6) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، ج8، ص111. المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص764.

(7) إبراهيم بن أدهم من الثقات التابعين، كان من أبناء الملوك ثم تزهد وصحب الإمام أبو حنيفة وسكن الشام (ت161هـ/778م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص31-32. المزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن (ت742ه/1341م) تهذيب الكمال، تحقيق بشار معروف، ج2، مؤسسة الرسالة، بيروت 1980، ص27 وسيشار له لاحقاً المزي، تهذيب الكمال . العطار، تذكرة الأولياء، ص121-140.

(8) جبلة قلعة مشهورة بساحل الشام، من أعمال اللاذقيّة قرب حلب. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص105. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص312.

(882هـ/1477م) أثناء تفقده للقلاع الشامية[1]، ويظهر اعتقاد الأشرف قايتباي بالصوفية من خلال اصطحابه لعشرة من الصوفية من مريدي الشيخ محمد بن إبراهيم الرحبي الكواكبي (ت897هـ/1491م) واشتراكهم في حملته العسكرية ضد السلطان العثماني بايزيد الثاني[2] في منطقة أضنة[3] في شمال بلاد الشام، وكان الهدف من اشتراكهم في هذه الحملة هو الحصول على الدعم الديني والمعنوي والتبرك بهؤلاء الصوفية[4]، وذكر أن السلطان الأشرف شعبان كان تابعاً لإحدى الطرق الصوفية[5]، وهذا أحد الصوفية يسمى أحمد بن أحمد الزهوري (ت801هـ/1398م)[6] كان إذا جلس عند السلطان الظاهر برقوق وكلمه يأخذ

---

(1) ابن الجيعان، أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر (ت902هـ/1496م) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام (882هـ/1477م) تحقيق عمر تدمري، ط1، منشورات جروس برس 1984، ص57 وسيشار له لاحقاً ابن الجيعان، القول المستظرف. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص202.

(2) السلطان العثماني بايزيد الثاني وهو ابن السلطان محمد الفاتح، كان تمرد أخيه جم من المشاكل الكبيرة التي تؤرقه، وقد كانت مدة سلطنته إحدى وثلاثون سنة توفي في الطريق أثناء ذهابه إلى محل يسمى (سوكودرلي دره) سنة (918هـ/1512م). محمد فريد بك (ت1338هـ/1919م) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط1، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت 1981 ص179-187 وسيشار له لاحقاً محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية. بك حليم، إبراهيم، التحفة الحليمية في الدولة العثمانية، ط1، مكتبة العلا، الإمارات العربية المتحدة 2003ص99-106.

(3) أضنة ويقال لها أذنة بلد بساحل الشام عند طرسوس بينها وبين المصيصة اثنا عشر ميلاً بناها هارون الرشيد وأتمها الأمين وبها كانت منازل ولاة الثغور لسعتها. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص132. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص48. الحميري، الروض المعطار، ص20.

(4) ابن الطباخ، محمد راغب بن محمود (ت1370هـ/1951م) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط2، ج5، دار القلم العربي، دمشق 1988 ص316-317 وسيشار له لاحقاً ابن الطباخ، إعلام النبلاء.

(5) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص841. محاميد، محمد، دراسات في تاريخ القدس الثقافي في العصر الوسيط، دار ورد، عمان 2009 ص126 وسيشار له لاحقاً محاميد، دراسات في تاريخ القدس.

(6) أحمد بن أحمد بن عبد الله الزهوري العجمي نزيل دمشق، كان يحضر مجلس السلطان برقوق ويدخل على حريمه فلا يحتجبن عنه وكان للناس فيه اعتقاد (ت801هـ/1398م) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص215.

السلطان كلامه على سبيل المكاشفة، وكان يقيم عنده غالباً في الدور السلطانية عند الخواندات[1] كما كان يجلس مع السلطان على المقعد الذي كان يجلس عليه ويسبه بحضرة الأمراء وربما بصق في وجهه فلا يتأثر لذلك[2]، وهذا لأنه كان يعتقد أنه من أصحاب الكرامات، وهذه زوجة السلطان الظاهر خشقدم خوند شكرباي (ت870هـ/1465م)[3] لم تغط نعشها ببشخاناه[4] على عادة الخوندات بل جعل على نعشها خرقة مرقعة للطريقة الأحمدية، وجعل أمام نعشها أعلام الأحمدية بناءً على وصية منها[5]، وكثيراً ما كان السلاطين ينزلون في خانقاوات الصوفية للتبرك وكانوا ينفقون على الفقراء أثناء إقامتهم[6]، فقد زار السلطان الظاهر برقوق سنة (797هـ/1395م) شيخ الزاوية الأمينية[7]، وكذلك اجتمع السلطان برسباي بشيخ

---

(1) خوند لفظ فارسي ومعروف كذلك باللغة التركية، أصله خداوند ويعني السيد أو الأمير ويخاطب بها الذكور والإناث، غلب استخدامه كلقب عام تخاطب به السيدة أو الأمير. النويري، نهاية الأرب، ج6، ص78. ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص121. دوزي، تكملة المعاجم، ج4، ص244.

(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج4، ص36-37. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج13، ص10.

(3) شكر باي الناصرية كانت من سراري الناصر فرج تزوجت بداية الأمير الجكمي، وبعد موته تزوجها خشقدم ودامت معه حتى تسلطن وصارت خوند العظمى (ت870هـ/1465م) السخاوي، الضوء اللامع، ج12، ص68-69.

(4) بشخاناه والجمع بشاخين وهو لفظ فارسي معرب ومعناه الناموسية أو ما يشبهها من حلية حول السرير أو الغرفة كلها، ومن معناها أيضاً السرير أو الغرفة التي بها ناموسية. المقريزي، السلوك، ج2، ق1، ص249. زناتي، معجم مصطلحات التاريخ، ص63.

(5) ابن تغري، بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص346.

(6) أقام السلطان شيخ المحمودي في خانقاه سرياقوس من 24 شعبان وحتى غزة رمضان سنة (817هـ/1414م) وفي العام التالي انفق على الصوفية في الخانقاه المذكورة مائة ألف درهم. العيني، السيف المهند، ص328-341.

(7) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، ص559-560. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص164. الزاوية الأمينية تقع بجوار المسجد الأقصى من جهة الشمال وواقفها أمين الدين عبد الله سنة(730هـ /1330م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص39.

الخانقاه الباسطية سنة (838هـ/1433م) وعمل على زيادة إيراد الخانقاه المذكورة[1].

أما آخر سلاطين المماليك قانصوه الغوري فقد ظهر قبيل معركة مرج دابق وقد أحاط نفسه بشيوخ الصوفية من الطريقتين القادرية والرفاعية، وكان يلتفت إليهم بين الحين والآخر أثناء المعركة قائلاً:(ادعوا إلي الله تعالى بالنصر فهذا وقت دعاكم) [2].

وكان للأمراء أيضاً علاقات حسنة مع الصوفية فالأمير لاجين بن عبد الله الجوكنداري (ت662هـ/1262م)[3] أحد أمراء دمشق كان يحب الفقراء ويكثر من الإحسان إليهم والبر بهم، وافتقادهم بالنفقة والكسوة وغير ذلك، وكان يعمل لهم السماعات ويحضر من المآكل والمشارب والأرابيج والشموع ما يبهر العقول ويتجاوز الحد فكان يقدر ما ينفقه على السماع الواحد تقريباً ثمانية آلاف درهم[4]، وكذلك ازدمر الطويل (ت857هـ/1453م)[5] كان له ميل ومحبة للصوفية[6]، أما نائب طرابلس الأمير برسباي بن عبد الله البجاسي

---

(1) ابن طولون، إعلام الورى، ص274-275.

(2) ابن أجاء، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص249-250.

(3) حسام الدين الجوكندار من أكبر أمراء دمشق ناب في حلب مدة كان محباً للفقراء مؤثراً لراحتهم (ت662هـ/1262م) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص282. الذهبي، العبر، ج3، ص306. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص540.

(4) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج49، ص118-119.

(5) ازدمر الطويل ويقال له جقمق شركسي الأصل تولى أتابك العسكر في دولة الأشرف برسباي ولما مات الأشرف ولي ابنه العزيز يوسف واستمر جقمق أتابك ومدبراً للدولة (ت857ه/1453م) ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص242.

(6) السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص273.

(ت871هـ/1466م)[1] فقد كان إمامه أحد الصوفية[2]، أما الأمير جان بلاط (ت906هـ/1500م) الذي ولي نيابة حلب فقد أقام بالخانقاه الكججانية[3] بدمشق مدة[4]، وظهر الأمير سيباي نائب الشام محباً للصوفية وأهلها، حتى أنه أوقف قرية طابغة وحاصلها على الصوفية الرفاعية الموجودين في الزاوية الرفاعية في نيابة صفد سنة (916هـ/1510م)[5].

وكان بعض الصوفية يستغل محبة السلطان له مثل الشيخ أبو عبد الله الكركي(ت800هـ/1397م)[6] الذي حظي بمحبة السلطان وميله إليه، فاستغل ذلك في الدعوة إلى مقالة ابن العربي وراح يناضل عليها ويناظر عنها[7]، وهذا الحاجب الكبير في دمشق طقتمش (ت799هـ/1397م)[8] كان يتقرب منهم للحصول على بركتهم فقد بنى اصطبلاً كبيراً في الزاوية الصوابية[9] بدمشق لتكون مأوى لخيوله أثناء زيارته لهذه الزاوية، ونتيجة

---

(1) برسباي البجاسي، ناب في الإسكندرية ثم ولي الحجوبية الكبرى ثم الاخورية الكبرى ثم تولى نيابة طرابلس ثم نيابة الشام (ت871هـ/1466م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج16، ص352. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص7-8.

(2) السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص7-8. تدمري، تاريخ طرابلس، ج2، ص496.

(3) الخانقاه الكججانية ظاهر دمشق بالشرف الأعلى بين خانقاه المعروفة بالطواويس والمدرسة العزية البرانية الحنفية. أوقفها إبراهيم الكججاني سنة (744هـ/1344م) وقال الحسيني: أنها أوقفت سنة (761هـ/1360م). الحسيني، ذيول العبر، ج4، ص188. النعيمي، الدارس، ج2، ص132. بدران، منادمة الأطلال، ص285.

(4) ابن طولون، إعلام الورى، ص119.

(5) أوقاف وأملاك المسلمين، ص58.

(6) محمد بن سلامة التوزري المغربي الكركي، كان عند السلطان بمنزلة مكينة جداً والناس فيه بين مفرط في مدحه وبين مفرط في النيل منه (ت800هـ/1397م) وبعث السلطان مائتي دينار لقراءة القرآن على قبره مدة أسبوع. المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص913.

(7) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص29. غوانمة، تاريخ شرق الأردن، ج2، ص158.

(8) طقتمش بن عبد الله الحسني، ترقى بعد قتل أستاذه حتى صار أمير طبلخانات (ت799هـ/1397م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج6، ص417.

(9) الزاوية الصوابيه في صالحية دمشق نسبة للخادم بدر الجيش الصوابي، كان أميراً مقدماً أكثر من أربعين سنة وجنده مائة فارس (ت698هـ/1298م)، النعيمي، الدارس، ج2، ص197-198. بدران، منادمة الأطلال، ص342.

لهذه الزيارات المتكررة للزاوية من قبل نائب الشام قجماس (ت893هـ/1487م) قام بتوسيع رواقها حتى تليق برواد هذه الزاوية ونيل شيئاً من بركة شيخها[1]،

وهنا استطيع أن أؤكد أن الصوفية بلغوا من المكانة عند السلطة المملوكية ما لم يبلغه أحد غيرهم، حتى بلغ الأمر بمنع من يتكلم في حقهم أو ينال منهم، ففي دمشق عنف ابن رمضان الشاهد بكلام قاسي سنة (885هـ/1480م)، لأنه تكلم في حق الصوفية وضرب حتى طلب التوبة والاستغفار[2]، كذلك انخرط بعض الصوفية في وظائف الدولة كالقضاء، وهذه نستطيع أن نعتبرها كنوع من التودد لهم من قبل السلطة وكإرضاء لهم، فهذا يوسف بن يحيى بن محمد أبو الفضائل(ت668هـ/1269م)[3] والذي كان من أشد المعجبين بابن عربي تولى قضاء دمشق مرتين[4]، أما خير الدين العجمي (ت801هـ/1398م) [5]، وهو من صوفية الخانقاه الشيخونية[6] فقد تقرر في منصب قاضي القضاة الحنفية بالقدس الشريف [7]، وخُلع على موفق الدين العجمي (ت809ه/1406م) [8] من نقيب الخانقاه الشيخونية المذكورة بقضاء غزة سنة (785ه/1383م) [9]، إلا أن بعض الصوفية فَضّلَ البقاء بعيداً عن السلطة

---

(1) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص296.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان،ج1، ص8.

(3) محي الدين أبو الفضل ولي قضاء دمشق مرتين وله في ابن العربي عقيدة تتجاوز الوصف (ت669هـ/1270م) الذهبي، العبر، ج3، ص318-319.

(4) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص128. ابن العماد، شذرات الذهب، ج5، ص328.

(5) خير الدين العجمي ولي قضاء القدس وكانت سيرته حسنة وطريقته مشكورة (ت801هـ/1398م). الغزي، تقي الدين عبد القادر التميمي (ت1010هـ/1601م) الطبقات السنية في تراجم الحنفية، ج2، تحقيق عبد الفتاح الحلو، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة 1970، ص274 وسيشار له لاحقاً الغزي، الطبقات السنية.

(6) الخانقاة الشيخونية واقفها الأمير سيف الدين قطليشا بن علي بن محمد من رجال حلقة دمشق كان مجاوراً بالقدس الشريف وجعل نظرها لنفسه ثم من بعده لولده شيخون فسميت بالشيخونية نسبة لولد الواقف. العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص41.

(7) المقريزي السلوك، ج3، ق2، ص480. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص228.

(8) موفّق الدين العجمي الروميّ، ولي قضاء غزّة ثم قضاء حلب ثم قضاء العسكر بالقاهرة ثم قضاء القدس. (ت809هـ/1406م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص377.

(9) المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص480. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج11، ص228.

واعتزل الوظائف العامة، فالشيخ شهاب الدين بن المحوجب (ت912هـ/1506م)[1] لم يقبل هدية من أحد، وأرسل إلى بعض الكبار ألا يرسلوا له شيئاً فانه عاهد الله ألا يقبل لأحد شيئاً[2].

والشيخ سعد الحوراني من صوفية جامع العداس، كان رجلاً مباركاً متسبباً يعمل السنبوسك[3] والبسيس[4]، والشيخ عبد اللطيف الحمصي كان متقللاً في الدنيا ويلبس الخَلَق (القَدِيم) من الثياب وكان نازلاً في المدرسة السميساطية وملازماً على الصلاة في أوقاتها في الجامع الأموي[5].

ب- علاقاتهم مع العامة

ومن يتتبع علاقة الصوفية مع العامة فإنه سيلحظ احتراماً وإجلالاً لهذه الفئة واعتقاداً بكراماتهم وشطحاتهم، حتى المتعلمين أضفوا عليهم ثوباً من المهابة والإجلال، فمثلاً علي بن يوسف بن علي البصروي (ت905هـ/1500م) وهو مؤرخ يذكر عن الشيخ عبد الله

---

(1) أحمد بن عبد الرحيم التلعفري الشهير بابن المحوجب، كان مهاباً عند الملوك والأمراء، انتهت إليه الرئاسة والسيادة بالشام وتردد إلى مصر كثيراً، ووجه إليه السلطان قايتباي خطابة المقدس فقبلها، ثم نزل عنها لبعض المقادسة (ت912هـ/1506م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص138-139.

(2) ابن طوق، التعليق، ج2، ص710.

(3) السنبوسك، فارسي معرب، من ضروب الأطعمة وهو قسمان : السنبوسك الحلو ويحتاج إلى سكر وعسل أو عسل وماء ورد وبندق وشيرج، والسنبوسك الحامض وتكون مادته الأساسية اللحم مع الخل. مجهول، كنز الفوائد في تنويع الموائد، ط1، تحقيق مانويلا مارين وديفيد واينر، فرانز شتاينر شتوتغارت، بيروت 1993ص49-50 وسيشار له لاحقاً مجهول، كنز الفوائد في تنويع الموائد.

(4) ابن طوق، التعليق، ج2، ص945. البسيس، من صنوف الأطعمة وهو أن يلت السويق أو الدقيق أو الإقط المطحون، بالسمن أو بالزيت، ثم يؤكل ولا يطبخ. الفارابي، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج3، ص908. ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص26. الغزي، نادية، حضارة الطعام في بلاد الرافدين وبلاد الشام، ط1، ج3، دار الفكر، دمشق2001 ص225 وسيشار له لاحقاً الغزي، حضارة الطعام في بلاد الرافدين وبلاد الشام.

(5) ابن طوق، التعليق، ج1، ص46.

المجذوب الأسمر[1] ما نصه (نفعنا الله به وبالصالحين)[2]، ويقول ابن طولون عنهم: ("حياهم الله وسقاهم" وجمعنا في الجنة نحن وإياهم)[3].

لقد نال الصوفية احترام العامة وتقديرهم، حتى أنه إذا تعرض للصوفية أحد بما يمسهم قام العامة عليه وأرادوا قتله[4]، ونرجع ذلك لأن الناس اعتقدوا كراماتهم ومقدرتهم على الإتيان بالخوارق، فالشيخ إبراهيم بن سعيد الشاغوري (ت680هـ/1281م)[5] غالى الناس في محبته حتى أنه عندما توفي عمل له العامة على قبره حجارة منقوشة وسقفاً مزيناً بالدهان وأنواعه، كما عملوا عليه مقصوراً وأبواباً، وغالى الناس فيه مغالاة زائدة[6]، والصوفي علي الغوطي كان للناس فيه اعتقاد كثير، إذ أن الناس اعتقدوا أنه كان يشاهد أهل البرزخ المنعم منهم والمعذب[7]، واتبع جماعة من الفلاحين والشباب الشيخ علي القطناني(ت747هـ/1346م)[8]، حتى أن كبار القوم زاروه للتبرك[9]، ويذكر ابن بطوطة في رحلته إلى حلب سنة (748هـ/1347م) أن هناك أحد المتصوفة لقب بشيخ المشايخ وأقام بجبل في عينتاب[10] من أعمال حلب وكان الناس يقصدونه ويتبركون به[11]، وكانوا في كثير من الأحيان عوناً للعامة، ففي مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نلحظ لهم دوراً

---

(1) عبد الله المجذوب الأسمر كان مقيماً بمحلة الثابتية، ودفن بالمقبرة الصغيرة المعروفة بالثابتية (ت881 هـ /1476م) البصروي، تاريخ البصروي، ص80.

(2) البصروي، تاريخ البصروي، ص80.

(3) ابن طولون، نقد الطالب، ص166.

(4) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص32-33.

(5) إبراهيم بن سعيد الشاغوري الموله، عرف عنه عدم التقيد بصلاة أو صيام وللعامة فيه اعتقاد (ت680 هـ /1281م) الذهبي، العبر، ج3، ص343.

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص348. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج50، ص345.

(7) ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، ص265.

(8) الشيخ علي بن عبد الله القطناني، كان له أحوال وكشف وكرامات توفي بقطنا (747 هـ /1346م) الذهبي، العبر، ج4، ص143.

(9) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص255.

(10) عينتاب قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية كانت تعرف بدلوك وهي من أعمال حلب. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص176. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص977.

(11) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص652.

بارزاً عن طريق عقد حلقات الوعظ والإرشاد والدعوة إلى الانقطاع لله عز وجل داخل المساجد أو في الربط والزوايا[1]، فهذا محمد بن عبد المؤمن الحصني (ت829هـ/1425م)[2] كان يميل إلى التقشف والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وللناس فيه اعتقاد زائد وقد كثر أتباعه، وكان يطلق لسانه في القضاة وأصحاب الولايات[3] وهنا يقصد بهم القضاة والولاة الذين عرف عنهم الظلم، وترد في المصادر إشارات إلى موقفهم من المنكرات كالخمور مثلاً فالشيخ خضر شيخ السلطان الظاهر بيبرس أبطل الخمور بدمشق وقام بمحاربتها قياماً كلياً[4]، وعرف عن شيخ الزاوية الصوابية أنه كان يمنع أهالي مدينة دمشق من التنزه قرب زاويته أثناء فترة إزهار نبات الياسمين[5] لما يرافق تنزههم من مفاسد أخلاقية[6]، وفي سنة (885هـ/1480م) قام مجموعة من الصوفية في دمشق وهاجموا دكاناً يُعمل فيه البوزة[7]، ومن الجدير بالذكر أن البوزة ليست هي المعروفة ذاتها في أيامنا الحالية بل هي مشروب مصنوع من دقيق القمح أو الذرة، حيث يخلط بالماء ويوضع على النار حتى يغلي ويترك ليتخمر ثم يصفى ويضاف إليه السكر، وحسب مدة التخمير فإن نسبة الكحول فيه تتراوح من 2%-6%، وهذا المشروب لم يحظَ بالقبول من الفقهاء حين دخل بلاد الشام أواخر العصر

(1) ابن صصرى، الدرة المضية، ص234-235. ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج3، ص624-682-684.

(2) أبو بكر محمد بن عبد المؤمن تقي الدين الحصني، أخذ عن مجموعة من علماء دمشق، وكتب بخطه شروح الكثير من الكتب مثل التنبيه والمنهاج وتخريج أحاديث الإحياء (ت829هـ/1425م) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج4، ص77. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج8، ص110.

(3) بدران، منادمة الأطلال، ص301-302.

(4) اليافعي، مرآة الجنان، ج4، ص167. الذهبي، العبر، ج3، ص317.

(5) الياسمين اسم فارسي، وهو نوعان: بري، ويسمّى بهرامج، وتسمّيه العرب الظّيّان، وبستاني، وهو أصفر وأبيض، والأبيض أطيب رائحة. النويري، نهاية الأرب، ج11، ص236.

(6) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص296.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص2.

المملوكي، لما له من تأثير سلبي على السلوك، وهذا ما دفع الصوفية لإراقة كمية كبيرة منها والقبض على من يعملها وكانوا من التركمان[1].

وفي سنة (890هـ/1485م) قام أحد الصوفية في دمشق في "حارة القنوات" ترافقه مجموعة من الصلحاء بإزالة الخمور[2] وتكرر هذا الأمر سنة (893هـ/1487م) على يد الشيخ مبارك بن عبد الله القابوني[3] الذي قام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ودار على الخمارات هو وجماعته وأراق كمية من الخمور[4].

ومن المتصوفة من كان يستعمل كراماته للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فالسيد داود بن عبد الحافظ (ت701هـ/1301م)[5] رأى أن قرية شرفات في نواحي القدس كان بها قليل من النصارى وكانوا يعصرون الخمر ويبيعونها للفساق من المسلمين، فشق ذلك عليه وتوجه إلى الله بالدعاء، فكانوا بعدها لا يعصرون خمراً إلا انقلب خلاً أو ماءً[6]، وبالرغم من أن هذا الخبر يجعل الباحث في حيرة إلا أن فيه دلالة على أمر الصوفية بالمعروف ونهيهم عن المنكر، ولكن هذا لم يمنع من التصادم بين الطرفين العامة والصوفية في بعض الأحيان، ففي سنة

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص2. الأرناؤوط، محمد، من مظاهر الحياة الاجتماعية في دمشق وضواحيها في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني، " الندوة الدولية دمشق في التاريخ " وزارة التعليم العالي، سوريا 2006 ص523-529 وسيشار له لاحقاً الأرناؤوط، من مظاهر الحياة الاجتماعية في دمشق وضواحيها.

(2) ابن طوق، التعليق، ج1، ص459.

(3) مبارك بن عبد الله الحبشي الدمشقي القابوني كانت له زاوية بالقرب من القابون التحتاني حبسه نائب دمشق لأنه كان يرصد الطريق ليريق الخمور من حاملها فأخرجه أتباعه بالقوة من سجنه (ت944هـ/1537م) الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص242 . ابن العماد، شذرات الذهب، ج10، ص367.

(4) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص199.

(5) داوود بن عبد الحافظ صوفي مقدسي من الأولياء أصحاب الكرامات (ت701هـ/1301م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص148.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص147.

(758هـ/1356م) أتلف الصوفية أواني الخمر وأدوات الحشيش في الأماكن المختصة بذلك، فنتج عن ذلك أن اصطدموا مع أصحابها، وقد تدخلت السلطة المملوكية لصالح الصوفية، غير أن العوام كانوا ضدهم، وكثرت الاضطرابات والمشاكل، فاضطرت السلطة إلى قمع ذلك بالقوة، حيث اضطرت إلى ضرب جماعة من الصوفية والطواف بهم البلد تحت ذريعة "هذا جزاء من يتعرض لما لا يعنيه"[1]، هذا وقد شارك الصوفية في الاشتغال بالعلم والتصنيف، وسنستعرض مجموعة من أبرز شيوخ الصوفية ممن برزوا في مجال العلم والتصنيف.

1- عبد المنعم بن يحيى النابلسي (ت687هـ/1288م)[2] اشتغل بالإفتاء والتفسير فترة طويلة[3].

2- عز الدين بن العماد المقدسي (ت700هـ/1300م) حدث بالكثير وصار من أعيان المسندين في زمانه وتفرد بشيوخ وأجزاء [4].

3- أبو الحسن علي بن مسعود بن نفيس الحلبي (ت704هـ/1304م)[5] عني بالحديث عناية تامة، واشتهر عنه أنه كان يشتري الكتب برغم شدة فقره وسمع منه الذهبي وجماعة، مع التّقوى والصّلاح[6].

---

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص257.

(2) أبو الذكاء عبد المنعم بن يحيى النابلسي، خطيب القدس، المفتي المفسر سمع من داود بن ملاعب أبي عبد الله بن البناء وأجاز له أبو الفتح المندائي (ت687هـ/1288م) المزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن (ت742هـ/1341م) تهذيب الكمال، ج22، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت 1980، ص397 وسيشار له لاحقاً المزي، تهذيب الكمال.

(3) ابن العماد، شذرات الذهب،ج7، ص701-702.

(4) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص138.

(5) أبو الحسن علي بن مسعود بن نفيس الحلبي الصّوفي، نزيل دمشق، وسمع بحلب من ابن رواحة، وإبراهيم بن خليل، وبمصر من الكمال الضرير، والرّشيد العطّار، وبدمشق من ابن عبد الدائم، وعني بالحديث عناية تامّة (ت704هـ/1304م) ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص20.

(6) ابن رجب، ذيل طبقات الحنابلة، ج3، ص351-352. ابن العماد، شذرات الذهب، ج8، ص20.

4- أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي (ت711هـ/1311م)[1] تفقه وكتب المنسوب وتزهد وصنف في السلوك وشرح منازل السائرين واختصر سيرة ابن هشام ودلائل النبوة[2].

5- نجم الدين بن صصري (ت723هـ/1323م)، درس بالعادلية وتولى قضاء العسكر وقضاء الشام في زمن السلطان العادل كتبغا وأضيفت إليه مشيخة الشيوخ (3).

6- محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت727هـ/1326م) (4) المعروف بشيخ الربوة، كان له عدة من التصانيف أهمها (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر) و (الدر الملتقط من علم فلاحتي الروم والنبط) و (السياسة في علم الفراسة)، وكان له تأليف في علم الأطعمة، وفي أصول الدين وغيره(5).

7- علي بن إسماعيل القونوي (ت729هـ/1328م) تصدر للاشتغال بالجامع الأموي، ودرس بالإقبالية، ثم تحول إلى مصر، وسمع بها من جماعة، ولازم ابن دقيق العيد،

---

(1) أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي تفقه على مذهب الشافعي وتعبد وانقطع وكان يرتزق من النسخ وله اختصار دلائل النبوة وتسلك به جماعة (ت711هـ/1311م) الحسيني، ذيول العبر، ج4، ص29. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص103.

(2) الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص56. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج6، ص140. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص103.

(3) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص327-340. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص122. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص249-251. النعيمي، الدارس، ج2، ص122.

(4) محمد بن أبي طالب الأنصاري مهر في علم الرمل والأوفاق، وكان يدعي أنه يعرف الكيمياء وكان يصنف في كل علم لفرط ذكائه، تكلم على العرفان والحقيقة (ت727هـ/1326م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج5، ص202-203.

(5) الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص475-476.

وتولى تدريس الشريفية[1] بالقاهرة ، ومشيخة الميعاد بالجامع الطولوني[2]، وازدحم عليه الناس إلى أن تخرج به خلق كثير[3].

8- علي بن محمود القونوي (ت749هـ/1348م) كان مدرساً بالقليجية[4] بدمشق ولازم الكلاسة يقرئ الطلبة على المذهب الحنفي[5].

9- أبو العباس الأندرشي الدمشقي (ت750هـ/1349م) [6] لقب بشيخ العربية في زمانه بالشام وبرع في النحو ودرسه وشرح التسهيل واختصر تهذيب الكمال وشرع في تفسير كبير[7].

10- شرف الدين علي بن عبد القادر المراغي (ت788هـ/1386م) [8] مهر في الفقه والأصول والطب والنجوم، وفاق في العلوم العقلية وشغل في الكشاف وغيره[9].

---

(1) المدرسة الشريفية بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية من القاهرة، وقفها الأمير فخر الدين أبو نصر إسماعيل أحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية في سنة (612هـ/1215م) وهي من مدارس الفقهاء الشافعية. المقريزي، الخطط، ج4، ص216.

(2) الجامع الطولوني بناه الأمير أحمد بن طولون بعد بناء القطائع في سنة (263 هـ /876م) وقدر له ثلاثمائة عمود. المقريزي، الخطط، ج4، ص38-39.

(3) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص282. السبكي، طبقات الشافعية، ج10، ص132-134. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص29-30. ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج2، ص271-273.

(4) المدرسة القليجية كانت داخل باب شرقي وباب توما شرقي المسمارية وغربي المحراب والتربة، كانت مبنية بحجر مزي منحوت وقد اندرست تماماً. بدران، منادمة الأطلال، ص138-139.

(5) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج22، ص118.

(6) أحمد بن سعد بن محمد الأندرشي الصوفي قدم المشرق فحج واستوطن دمشق وتخرج به علماء وكان ديناً منقبضاً عن الناس (ت750 هـ /1349م) ووقف كتبه على أهل العلم. الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص216-217.

(7) الذهبي، معجم المحدثين، ص8. الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص216-217.

(8) شرف الدين علي بن عبد القادر المراغي كان فاضلاً في العلوم العقلية والعربية، بارعاً في الطب والنجوم، وكان صوفياً بالخانقاه السميساطية، فأخرج منها وأنزل بخانقاه خاتون (ت788هـ/1386م) السيوطي، بغية الوعاة، ج2، ص176.

(9) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص325. النعيمي، الدارس، ج2، ص126.

11- أبو بكر بن علي بن عبد الله الشيباني (ت797هـ/1395م)[1] كان يعقد المجالس العلمية في الزاوية الأمينية في القدس ويقرئ كتاب منازل السائرين ويجمع بين علمي الشريعة والحقيقة[2].

12- عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن السعدي والمعروف بابن بنانة (ت840هـ/1436م) [3] بحث في النحو والصرف والفرائض والفقه والمعاني والبيان وفي المعقولات[4].

13- شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن الرسام (ت844هـ/1440م) [5] ولي قضاء حماة، ثم قضاء حلب، وقدم الشام والقاهرة مراراً، وأسمع «الصحيح» من شمس الدين بن اليونانية، وسمع من العراقي، وأجاز له جماعة، منهم ابن المحبّ، وله كتاب في الوعظ[6].

14- شهاب الدين أحمد بن حسين بن أرسلان (ت844هـ/1440م)[7] قد أقبل على التصوف وأخذه عن عدد من مشايخ التصوف في بيت المقدس ولبس الخرقة وسمع

---

(1) أبو بكر علي بن عبد الله الشيباني الدمشقي، نزيل دمشق له تصانيف في التصوف ومنسك صغير مات بالقدس سنة (797 هـ /1395م) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج3، ص150.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص164.

(3) عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن السعدي درس على يد علماء كثر، ارتحل إلى بلاد هراة وبلاد الروم وغيرها (ت840هـ/1436م) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص327-328.

(4) السخاوي، الضوء اللامع، ج4، ص327-328.

(5) شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن الرسام، جمع في فضائل الأعمال كتابا سماه عقد الدرر واللآلي في فضل الشهور والأيام والليالي، ولي قضاء طرابلس ثم حلب (ت844هـ/1440م) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص249-250.

(6) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص162. السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص249-250.

(7) شهاب الدين أحمد بن حسين بن أرسلان برع في الفقه وسلك طريق الصوفية وجد واجتهد حتى صار منارة للسالكين (ت844هـ/1440م) السخاوي، الضوء اللامع، ج1، ص282-288. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص362-363.

كتاب العوارف للسهروردي، وكان غزير العلم مربياً للمريدين واشتغل بالإفتاء والتدريس في القدس(1).

15- عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود (ت856هـ/1452م) (2) كان موسوعة علمية وعرف بكثرة مؤلفاته التي نذكر منها (الكنز الأكبر في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) و(فتح الإغلاق في الحث على مكارم الأخلاق) و(مواقع الأنوار في مآثر المختار) و(نزهة النفوس والأفكار في خواص الحيوان والنبات والأحجار) (3).

16- عبد الرحمن بن محمد البتروني الطرابلسي حفظ الألفية، واشتغل في التجويد، والقراءات والأصول، وطالع كتب التفسير، والحديث، والوعظ، وشرح الجزرية، وكتب على تائية ابن حبيب تعليقه(4).

17- محمد بن الشَّمَّاع الحموي الشافعي (ت863هـ/1459م) له مؤلفات منها (إعراب الألفية وشرح البرهانية في أصول الدين) (5).

18- أبو حفص عمر بن محمد الجعبري (ت893هـ/1487م) درس وأفتى وحدث بالقدس والقاهرة وسمع عليه الفضلاء وولي نصف مشيخة حرم الخليل وكان رأس الفقهاء ببلده ثم انجمع وترك ذلك وكان عالماً خيراً متواضعاً لطيفاً حسن النادرة(6).

19- قطب الدين محمد بن عبد الله الخيضري (ت894هـ/1488م) أقبل على الحديث صغيراً فأكثر من السماع ولازم الحافظ بن حجر العسقلاني، وألف (شرح ألفية العراقي) و

---

(1) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص174-175.

(2) عبد الرحمن بن أبي بكر بن داود كان محبباً للناس يتردد إليه النواب والفقهاء والقضاة، وكانت كلمته مسموعة في الدولة الظاهرية والأشرفية (ت856هـ/1452م) ابن مفلح، المقصد الأرشد، ج2، ص84-85. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص421.

(3) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص247. السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص229. ابن العماد، شذرات الذهب، ج9، ص421.

(4) الغزي، الكواكب السائرة، ج3، ص145-146. ابن الحنبلي، درر الحبب، ج1، ق2، ص768-772. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص215.

(5) شمس الدين بن الغزي، ديوان الإسلام، ج3، ص175.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص209-210.

(الخصائص النبوية) و (طبقات الشافعية)، وولي قضاء الشافعية بدمشق، وكتابة السر بها، ودرس بعدة مدارس بدمشق[1].

20- شمس الدين محمد بن عيسى الحنفي (ت912هـ/1506م) كان عالماً فاضلاً مفنناً يعرف صناعة التوريق، وكان ذكياً متضلعاً من العلوم لا يجارى في بحثه محجاجاً [2].

21- حسام الدين حسين البيري الحلبي (ت922هـ/1515م) [3] نظم ونثر بالعربية والفارسية والتركية، وله رسالة في القطب والإمام، وعرّب شيئا من (المثنوي) [4] من الفارسية وشيئاً من (منطق الطير) من التركية[5].

22- عائشة بنت يوسف الباعونية (ت922هـ/1516م) [6] ألفت عدة كتب منها (الفتح الحنفي) و (الملامح الشريفة والآثار المنيفة) و(در الغائص في بحر المعجزات والخصائص) و(الإشارات الخفية في المنازل العلية)[7].

---

(1) البصروي، تاريخ البصروي، ص57. السيوطي، نظم العقيان، ص162. الغزي، الكواكب السائرة، ج2، ص10.

(2) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص71.

(3) حسام الدين حسين البيري الحلبي ولي في سنة (904هـ/1498م) النظر والمشيخة بمقام إبراهيم بن أدهم، وكان له ذوق، ونظم، ونثر بالعربية والفارسية والتركية (ت922ه/1515م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص187. ابن العماد، شذرات الذهب، ج10، ص153-154. شمس الدين بن الغزي، ديوان الإسلام، ج1، ص304.

(4) المثنوي ديوان شعر لجلال الدين الرومي في التصوف. رياض زاده، عبد اللطيف بن محمد (1078 هـ /1667م) أسماء الكتب، ط3، دار الفكر، دمشق 1983 ص259 وسيشار له لاحقاً رياض زاده، أسماء الكتب.

(5) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص187. ابن العماد، شذرات الذهب، ج10، ص153-154. شمس الدين بن الغزي، ديوان الإسلام، ج1، ص304.

(6) عائشة بنت يوسف الباعونية شاعرة وأديبة وفقيهة، مولدها ووفاتها في دمشق، تلقت اللغة والأدب، وصفها العلماء والأعلام بأنها ربة الفضل والأدب، زارت حلب في السنة التي توفيت فيها في (ت922هـ/1516م). العاملي، زينب بنت علي(ت1333هـ/1914م) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ط1، المطبعة الكبرى، الأميرية، مصر 1894 ص293-294 وسيشار له لاحقاً العاملي، الدر المنثور.

(7) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص288-289.

ومما يحسب للصوفية أنهم جلبوا القهوة وأدخلوها إلى المجتمع المسلم في بلاد الحجاز ثم الشام ومصر، إذ تنسب للصوفي علي بن عمر الشاذلي الشهير بدعسين (ت828هـ/1424م)[1] فقد مر في سياحته بشجر البن على عادة الصالحين فاقتات من ثمره حين رآه متروكاً مع كثرته فوجد فيه تخفيفاً للدماغ واجتلاباً للسهر وتنشيطاً للعبادة فاتخذها قوتاً وطعاماً وشراباً وأرشد أتباعه إلى ذلك، ثم انتشرت القهوة في اليمن ثم بلاد الحجاز ثم الشام ومصر[2].

ج- دور المؤسسات الصوفية في المجتمع

أما المؤسسات الصوفية فيلاحظ أنها أدت دوراً واضحاً ومميزاً في المجتمع ففيها كانت تقام المناسبات في كثير من الأحيان، مثل العزاء والمولد، ففي الخانقاه السميساطية في دمشق أُقيم عزاء الشيخ شمس الدين الأيكي[3] سنة

(1) علي بن عمر القرشي الشاذلي تولى القضاء بمصر ثم عزل نفسه واشتهر بالفضل غاية الشهرة وكان معظم الشيوخ والعلماء من أهل اليمن في عصره يثنون عليه ويزورونه بقصد التبرك (ت828هـ/1424م). البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن(ت904هـ/1498م) طبقات صلحاء اليمن (تاريخ البريهي)، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء 2000 ص264-270 وسيشار له لاحقاً البريهي، تاريخ البريهي.

(2) الجزري، عبد القادر بن محمد (ت977هـ/1569م) عمدة الصفوة في حِل القهوة، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2007 ص12 وسيشار له لاحقاً الجزري، عمدة الصفوة في حِل القهوة. الأرناؤوط، محمد. م، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، ط1، دار جداول، الكويت 2012 ص56 .وسيشار له لاحقاً الأرناؤوط، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي.

(3) محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي، كان فقيهاً صوفياً إماماً بالغزالية ثم سافر لمصر وولي مشيخة الشيوخ ثم عاد لدمشق (ت697هـ/1297م) القيسي، شمس الدين محمد بن عبد الله (ت842هـ/1440م) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، ط1، ج1، تحقيق محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، ص137 وسيشار له لاحقاً القيسي، توضيح المشتبه.

(697هـ/1297م)[1] وفي سنة (724هـ/1323م) أقيم عزاء الكاتب قطب الدين المصري [2] في الخانقاة ذاتها[3].

وفي سنة (889هـ/1484م) أُقيم في دمشق المولد بزاوية الشيخ إبراهيم الأقباعي وحضره جمع غفير[4]، وحتى الأعراس كان من الممكن إقامتها في الزوايا، قال الشعراني:(وقد رأيت من عمل عرساً في زاوية)[5]، كما أنه ليس من الممكن التغاضي عن الدور التعليمي الذي قامت به هذه المؤسسات، إذ أنه لم يكن هناك فرق بين وظيفة كل من المدرسة والزاوية، فهذا العليمي حين يتحدث عن المدرسة الأشرفية التي كانت قد بنيت برسم السلطان الظاهر خشقدم يقول:(كانت عمارتها على هيئة عمائر مدارس القدس ليس فيها كبير أمر فإنها كانت تشتمل على مجمع وطارقة وخلوة للشيخ على ظهر رواق المسجد ويقابل ذلك من جهة الغرب ساحة على ظهر إيوان المدرسة البلدية وفيها بعض خلاوي)[6]، وحين أمر السلطان الأشرف قايتباي بإعادة بنائها فقد اشتمل المبنى الجديد على الخلاوي، وخصص لها عدداً من الصوفية[7]، وهناك الكثير من المدارس التي ألحق بها ربط وزوايا وخوانق، ففي دمشق ألحق بكل من المدرسة الأسدية[8]، والمدرسة الخاتونية

(1) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص317.

(2) أحمد بن مفضل بن فضل الله المصري القبطي قطب الدين، كان خبيراً بالكتابة ولي استيفاء الأوقاف بعد أخيه (ت724هـ/1323م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص377.

(3) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص417-418. المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص103.

(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص346، 455.

(5) الشعراني، الأنوار القدسية، ج1، ص79.

(6) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص284.

(7) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص329. علي، القدس في العصر المملوكي، ص162-163.

(8) المدرسة الأسدية أنشأها أسد الدين شيركوه بالشرف القبلي ظاهر دمشق مطلة على الميدان الأخضر وهي على الطائفتين الشافعية والحنفية. النعيمي، الدارس، ج1، ص114. بدران، منادمة الأطلال، ص79.

البرانيـــة(1)، والمدرســـة الـــشومانية(2)، والمدرســـة الـــشبلية البرانيـــة(3)، والمدرســـة الـــشريفية(4)، واالمدرســـة العزيـــة، والمدرســـة القـــصاعية(5)، والمدرســـة المجاهديـــة الجوانية(6)، والمدرسة النجيبية(7)، والمدرســـة الناصـــرية الجوانيـــة(8)، ألحـــق بكـــل هـــذه المدارس خوانق، ويبدو من الواضح أن الفرق بـــين المدرســـة والزاويـــة هـــو أن بعـــض المدارس كانت مخصصة لمذهب معين بينما لم تكـــن الخوانـــق والزوايـــا كـــذلك، وينـــدر أن تخلو ترجمة في تراجم الشخصيات الفقهية أو الدينية من ذكـــر مـــن مـــارس التـــدريس في إحدى الزوايا، كالشيخ شمس الـــدين عزيـــز الحنفـــي (ت819هـــ/1416م)(9) الـــذي درس بالخانقـــــاه اليونـــــسية(10) والـــــشيخ عمـــــر بـــــن عبـــــد الله الـــــصمودي

---

(1) المدرسة الخاتونية البرانية واقفتها الست زمرد خاتون ابنة الأمير جاولي وهي في الشرف القبلي عنـــد مكان يسمى صنعاء الشام. النعيمي، الدارس، ج1، ص384-387. بدران، منادمة الأطـــلال، ص167-169.

(2) المدرسة الشومانية أو الطيبة أنشأتها خاتون بنت ظهير الدين شومان. النعيمي، الدارس، ج1، ص238. بدران، منادمة الأطلال، ص109.

(3) المدرسة الشبلية البرانية بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثوري واقفها الطواشـــي شـــبل الدولـــة الحسامي. النعيمي، الدارس، ج1، ص407-412. بدران، منادمة الأطلال، ص176-178.

(4) المدرسة الشريفية عند حارة الغرباء ولم يعرف واقفها. النعيمـــي، الـــدارس، ج1، ص238. بـــدران، منادمة الأطلال، ص109.

(5) المدرسة القصاعية بحارة القصاعين واقفتها خطلشاه خاتون بنـــت ككجـــا. النعيمـــي، الـــدارس، ج1، ص434-437. بدران، منادمة الأطلال، ص194-195.

(6) المدرسة المجاهدية الجوانية بالقرب من باب الخواصين واقفها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بـــزان بن يامين الجلالي الكردي أحد مقدمي الجيش في عهد نور الـــدين زنكـــي. النعيمـــي، الـــدارس، ج1، ص343-347. بدران، منادمة الأطلال، ص285-286.

(7) المدرسة النجيبية واقفها جمال الدين آقوش النجمي استادار الملك الصالح وهي لصيقة المدرسة النورية . النعيمي، الدارس، ج1، ص358-362. بدران، منادمة الأطلال، ص150-152.

(8) المدرسة الناصرية الجوانية داخل باب الفراديس شمالي الجامع الأموي إنشاء الملك الناصر يوسف بـــن صلاح الدين الدين يوسف بن أيوب. النعيمي، الدارس، ج1، ص350-357. بدران، منادمة الأطـــلال، ص149-150.

(9) شمس الدين محمد الحنفي، كان فاضلاً ذكياً يكتب خطاً حسناً درس بالمعظمية والعزيزية وولي مـــشيخة اليونسية (ت819 هـــ /1416م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج7، ص159.

(10) الخانقاه اليونسية بأول شرف العالي الشمالي غربي الخانقاه الطواويسه أنشأها الأميـــر الكبيـــر الـــشرفي يونس داودار الظاهر برقوق في سنة (784 هـــ /1382م) النعيمي، الدارس، ج2، ص148.

(ت703هـ/1303م)[1] الذي درس في زاوية المغاربة في القدس[2]، وكمال الدين بن الشريشي (ت718هـ/1318م)[3] درس بالمدرسة الشامية البرانية والناصرية ودرس بالرباط الناصري[4] بقاسيون[5] فهذا دليل على المهمة التعليمية الثقافية للخوانق والربط إلى جانب كونها أماكن تعبدية.

وأدت المؤسسات الصوفية دوراً اجتماعياً مميزاً فهي ضمت فئات مختلفة من نساء ورجال تكفلت بمعيشتهم كاملة من حيث تقديم الطعام والشراب واللباس، فقد أنشأ شرف الدين علي بن الإسكاف (ت671هـ/1272م) [6] رباطاً بسفح قاسيون، واشترط أن يقيم فيه عشرة شيوخ عمر كل واحد منهم فوق الخمسين، ولكل منهم في الشهر عشرة دراهم[7]، وهذه زاوية عبد الله بن غانم المقدسي (ت672هـ/1273م) [8] كانت معمورة بالصوفية الأخيار والواردين إلى بيت المقدس[9]، وفي نابلس كانت زاوية الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله النابلسي

---

(1) عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي كان رجلاً صالحاً عمر زاوية المغاربة، ووقفها على الفقراء والمساكين (ت703هـ/1303م) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص243.

(2) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص163.

(3) كمال الدين أحمد بن محمد بن الشريشي، درس بدار الحديث الأشرفية والناصرية وترشح لقضاة القضاة بالشام وكان ذا هيبة توفي بالكرك (718هـ/1318م) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج7، ص220. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص298.

(4) الرباط الناصري أنشأه الملك الناصر صلاح الدين (ت654 هـ /1256م) بسفح قاسيون في دمشق. النعيمي، الدارس، ج1، ص86. بدران، منادمة الأطلال، ص62.

(5) ابن كثير، البداية ولنهاية، ج14، ص104.

(6) شرف الدين علي بن الإسكاف كان من كبار أهل دمشق، بنى رباطاً بجبل قاسيون، وأوقف عليه وقفاً كبيراً مات بدمشق ودفن برباطه (ت671هـ/1272م) الكتبي، عيون التواريخ، ج21، ص26. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص584

(7) الكتبي، عيون التواريخ، ج21، ص26-27. المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص103.

(8) عبد الله بن غانم بن علي المقدسي له زاوية بنابلس وله إشعار رائقة وكلام قوي في علم التصوف (ت672هـ/1273م) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص51. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص311 . العيني، عقد الجمان، ج1، ص139.

(9) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج3، ص51.

مأوى لكل من يأتي نابلس فقد اشتهرت بتقديم الطعام لكل من يفد إليها، وتعدت ذلك إلى تقديم العلف والعليق للدواب[1]، وإن انتشار الزوايا والأربطة في العصر المملوكي كان لافتاً لانتباه ابن بطوطة الذي ذكر أنه كان " في كل مدينة من مدن الشام زوايا لإطعام الفقراء"[2]، فأثناء مروره بغور الأردن وزيارته لقبر أبي عبيدة عامر بن الجراح، ذكر أن هناك زاوية فيها الطعام لأبناء السبيل ما دفعه للمبيت هناك ليلة كاملة[3]، وقد خصص رباط البصير في وقفيته رطلين من الخبز في كل يوم بالرطل المصري[4] للفقراء والمساكين الواردين إلى هذا الرباط[5]، بينما اختصت بعض الزوايا بتربية صغار الفقراء وتعليمهم فالشيخ تقي الدين الحصني (ت829هـ/1425م) [6] صاحب الزاوية الترابية في دمشق [7] كان يربي الفقراء ويقرؤهم القرآن والفقه[8]، وقد قام والي الشام الأمير تنكز ببناء الرباط التنكزي وجعله للصوفية والغرباء الواردين إلى بيت المقدس[9]، أما الأمير بكتمر بن عبد الله

(1) المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص102.

(2) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص105.

(3) ابن بطوطة، تحفة النظار، ص45. المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص101.

(4) الرطل المصري، هو 144 درهماً وأوقيته 12 درهماً وعنه يتفرع القنطار المصري. القلقشندي، صبح الأعشى، ج3، ص511-512.

(5) العسلي، معاهد العلم، ص316.

(6) أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن الحصني فقيه ورع من أهل دمشق، له مؤلفات كثيرة أهمها "كفاية الأخبار" و" تخريج أحاديث الإحياء" وتنبيه المسالك على مظان المهالك" (ت829هـ/1425م) ابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج4، ص76. الشوكاني، البدر الطالع، ج1، ص109.

(7) الزاوية الترابية أنشأها تقي الدين الحصيني بالشاغور. النعيمي، الدارس، ج2، ص156.

(8) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص279. المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص106.

(9) العسلي، كامل جميل، وثائق مقدسية تاريخية، ج1، عمان 1983 ص108-121 وسيشار له لاحقاً العسلي، وثائق مقدسية.

(ت831هـ/1427م)[1] فقد أسس زاوية بحصن الأكراد، وكان بها شيخ وخادم وإمام للصلاة ومقرؤون لتحفيظ القرآن[2].

وكان للأيتام نصيب من هذه الخوانق والربط، فوجدت ربط وزوايا يلحق بها مرافق للأيتام ففي الخانقاه الباسطية وجد مكتب للأيتام يقدم لهم المأوى والطعام واللباس، فقد شرط لعشرة أيتام من أيتام المسلمين يصرف لكل منهم في الشهر خمسة عشر درهماً أو ما يقوم مقامها من النقود، ويصرف لمؤدبهم في كل شهر خمسون درهماً، وعليه أن يعلم الأيتام المذكورين القرآن الكريم والخط العربي، ويصرف للأيتام في عيد الفطر في كل سنة ثلاثون درهماً ثمن كسوة، ومن الفئات المستفيدة من هذه الوقفية أيضاً الأشخاص ذوي الحاجة والفاقة[3]، وهذا الأمير تنكز قام سنة (710ه/1310م) ببناء خانقاه في القدس وبها مكتب للأيتام[4].

وكان للأرامل المنقطعات نصيب أيضاً فقد خصص الشيخ برهان الدين إبراهيم بن شريف المقدسي في وقفيته على ربط القدس للأرامل المنقطعات في كل سنة من القمح غرارة بالكيل المقدسي[5] وكذلك خصص الأمير تنكز نائب دمشق نصيباً من وقفيته على اثنتا عشرة

(1) بكتمر بن عبد الله السعدي كان مملوكاً لسعد الدين بن غراب وكان فصيحاً ذكياً وترقى إلى أن سفره السلطان إلى اليمن ثم عاد فتأمر (ت831هـ/1427م) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص407. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص17.

(2) كرد علي، خطط الشام، ج6، ص127. خرابشة، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، ص202. المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص106.

(3) ابن طولون، القلائد الجوهرية، ج1، ص280. أوقاف وأملاك المسلمين، ص38.

(4) العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج3، ص545.

(5) أوقاف وأملاك المسلمين، ص27. المقابلة، المؤسسات الاجتماعية والثقافية، ص103.

من الأرامل الفقيرات لكل واحدة منهن 7.5 درهم فضة شهرياً و ثلث رطل من الخبز يومياً[1].

ومن هنا لم يكن الموقف من الصوفية ثابتاً بل كان متبايناً بين من أيد ومن عارض، وإن احتضان السلطة الحاكمة لهذه الفئة قد عزَّزَ وجودها في المجتمع ودعم مؤسساتها (زوايا وخوانق وربط)، وهي مؤسسات أثبتت حضوراً تعليمياً خدمياً عاد بالنفع على الصوفية وغيرهم، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه المؤسسات ما كانت تستطيع القيام بدورها لولا الوقف الذي وفر إمكانات مالية واقتصادية عالية.

(1) العسلي، معاهد العلم، ص128-131.

الفصل الرابع

الحرافيش والزعر في بلاد الشام في العصر المملوكي

1- التنظيمات الشعبية في بلاد الشام قبيل العصر المملوكي

أ- الفتوة

لا يمكن دراسة ظاهرة الزعر والحرافيش في بلاد الشام في العصر المملوكي دون التطرق إلى ما سبقها من حركات كالشطار والعيارين في بغداد في العصر العباسي وكذلك الأحداث في بلاد الشام في العصر الفاطمي، فيمكن اعتبارها امتداداً لهذه الحركات الناقمة على الأوضاع السياسية والاقتصادية، مع التنبيه إلى أن هذه التنظيمات كان بينها قاسم مشترك، فمثلاً كل تنظيم له قائد أو رئيس، وكل تنظيم انفرد بلباس معين وسلوك امتاز به في مجتمعه، فمع بدايات القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي صار أمر العيارين والشطار يتفاقم كلما ضعفت السلطة وكانت أسوأ أيامها السنوات التي أفلت فيها الزمام من يد السلطة بين بجكم (ت329هـ/940م) [1] ودخول بني بويه سنة (334هـ/945م) [2].

وظل العيارون والشطار بين الفترة والأخرى يستغلون فترات الاضطراب السياسي حتى بلغ بهم الأمر أنهم استولوا على الأمور في بغداد سنة (364هـ/974م) [3]، ومع دخول القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ضعف أمر البويهيين في بغداد، مما أعطى العيارين

---

(1) بجكم كان أمير الجيش، وكان يلقب أمير الأمراء قبل ملك بني بويه، وكان عاقلاً يفهم بالعربية ولا يتكلم بها قتله الأكراد سنة (329هـ/940م) ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (597هـ/1201م) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط1، ج14، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1992ص9-13 وسيشار له لاحقاً ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم.

(2) النجار، محمد، رجب، حكايات الشطار العيارين في التراث العربي سلسلة عالم المعرفة، الكويت 1981 ص 119وسيشار له لاحقاً النجار، حكايات الشطار العيارين.

(3) الهمذاني، محمد بن عبد الملك بن إبراهيم (ت521هـ/1127م) تكملة تاريخ الطبري، ط1، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958 ص223 وسيشار له لاحقاً الهمذاني، تكملة تاريخ الطبري.

دافعاً للبروز بشكل واضح فأفسدوا ونهبوا الأموال[1]، ومع انتهاء عصر البويهيين تتراجع قوة العيارين والشطار، فقد بلغت أوجها في العهد البويهي أما في العهد السلجوقي فلم تعد الروايات تشير إلى تلك القوة للعيارين والشطار في بغداد باستثناء بعض الحالات[2]، ويعزو الباحثون ذلك إلى قوة السلطة السلجوقية التي عملت على حفظ الأمن والقضاء على الفتن بين السنة والشيعة، فبمجيء السلاجقة ألغيت مظاهر التشيع في بغداد [3] وهذا أدى لقلة الاضطرابات والفتن بين السنة والشيعة والتي كانت مرتعاً مناسباً لحركات الشطار والعيارين.

وحين يأتي الخليفة الناصر لدين الله (ت622هـ/1225م) يجد أن هؤلاء الشطار والعيارين قوة فاعلة في المجتمع فيحاول السيطرة عليها وتوجيهها لخدمة الدولة تحت إطار الفتوة، وكان بدء ذلك سنة (578هـ/1182م) حين لبس سراويل الفتوة، وشرب شراب الفتوة (الماء والملح) للشيخ عبد الجبار[4].

---

[1] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص573-648.

[2] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج16، ص82-86.

[3] ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ج16، ص87. حسين، يحيى أحمد، الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير(575هـ-656م) رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1992 ص78 وسيشار له لاحقاً حسين، الفتوة في بغداد.

[4] الأيوبي، محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه (ت617 هـ/1220م) مضمار الحقائق وسر الخلائق، تحقيق حسن حبشي ، عالم الكتب، القاهرة 1968 ص86 وسيشار له لاحقاً الأيوبي، مضمار الحقائق وسر الخلائق. حسين، الفتوة في بغداد، ص 116.

وانتشرت الفتوة بين أهل بغداد بعد أن دخلها الناصر انتشاراً كبيراً، فدخل فيها أعداد كبيرة من الناس الخاص منهم والعام فدخلها العلماء والفقهاء والأعيان والأجناد وعامة الناس [1].

ومن الأسباب التي دفعت الخليفة الناصر للقيام بتوحيد هذه الأحزاب في جماعة واحدة يرأسها بنفسه، هو انتشار الفتن بين أحزاب وجماعات الفتوة، فألغى الفتوة القديمة وجعل نفسه القبلة لأهل الفتوة والمرجوع إليه في ذلك[2].

ثم أراد الناصر أن ينشر الفتوة خارج بغداد، وأن يضم أمراء الأطراف إلى فتوته، ويربطهم بشخصه، وكان قد توجه هذا التوجه منذ سنة (599هـ/ 1203م) حين أرسل سراويل الفتوة إلى الملك العادل أخو السلطان صلاح الدين وأولاده في مصر[3]، ولكن الناصر لم يتوسع في إرسال سراويل الفتوة إلى الأطراف رغم أن بعض ملوك الأطراف أرسلوا إليه يسألونه أن يشرفهم بلباس الفتوة[4].

وقد سئل ابن تيمية رأيه في الفتوة، هل هي مما يوافق الشرع أم لا ؟ وهل أفتى بها أحد من الصحابة أو التابعين أو من جاء بعدهم من أهل العلم؟ – الفتوة التي سئل عنها ابن تيمية هي فتوة الخليفة الناصر في بغداد. إذ أنه ليس هناك فتوة في العصر المملوكي– فكان

---

(1) ابن الساعي، علي بن أنجب بن عثمان (ت674هـ/1275م) تاريخ ابن الساعي، ط1، ج9، تحقيق محمد القدحات، دار الفاروق، عمان 2002 ص222-223 وسيشار له لاحقاً ابن الساعي، تاريخ ابن الساعي. حسين، الفتوة في بغداد، ص 123.

(2) ابن الساعي، تاريخ ابن الساعي، ج9، ص 222.

(3) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص51.

(4) ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م) رسائل ابن الأثير، ط1، ج2، تحقيق هلال ناجي، دار الكتب، جامعة الموصل 1982 ص134-137 وسيشار له لاحقاً ابن الأثير، رسائل ابن الأثير.

جوابه:(أن لباس الفتوة وإسقاء الملح والماء باطل لا أصل له ولم يفعله أحد، لا الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أحد من الصحابة وإضافة إلى نفي أصل اللباس، ولم ينكر ابن تيمية الفتوة، ولكنه أنكر نسبتها إلى الرسول ﷺ والصحابة والتابعين[1].

كما عرضت مسألة الفتوة على السبكي في كتابه الفتاوى كما يلي (ما يقول السادة العلماء – رَضيَ اللَّهُ عَنهُم – في هذه الفتوة التي فشت فظهرت في هذا الزمان وصورَتُها أن قَوماً يجتمعون في بيتٍ أَحدهم فإذا اجتمعوا وأخذوا مجالسهم قام نقيبهم وأنشد أبياتاً تتضمن استئذَانهم في شدِّ وَسَطِهِ فَيَأذنونَ له، ثُم يأخذُ بِإِحدى يَديهِ شَربةً فيها ماء، ويأخُذُ بيَدِهِ الأخرى مِلحاً ويَخطُبُ خُطبَةً... ثم يَضعُ المِلحَ في الماء ويرفع الشربة، ثم يقوم زعيم القوم وهو الذي يلبسهم سراويل الفتوة فيجلس وسط القوم، ويقول له النقيب: من يطلب فيسمي من يريد من الحاضرين، فيقومون واحداً واحداً كلما قامَ أحدهم شَدَّ الزعيم وَسَطَهُ وَأَوقَفَهُ)[2].

أما ابن الوردي فقد هاجم الفتيان وكفرهم لأنهم مردة وشياطين، وأهل ضلالة وجهالة، وقد تعرض لهم ابن الوردي في حوادث سنة (608هـ/1211م) حين ذكر أن الخليفة الناصر أرسل إلى أمراء بلاد الشام لينتسبوا لهذا التنظيم فقال:(لقد غاضني حتى هاضني، وأحنقني حتى خنقني، ما أحدثه أهل الجهل والابتداع، وسكت عنه العلماء حتى شاع في الرعاع وذاع، وهي البدعة التي يجب إخفاء رسمها، والمنكرة المعروفة بالفتوة وهي ضد اسمها، وكيف لا وقد عكف عليها أتباع الضلالة ودعا إليها الحمقى وأهل البطالة يجمعون لها الجموع والأنباط،

---

(1) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت728هـ/1328م)، مجموع فتاوى ابن تيمية، م11، جمع وترتيب عبد الرحمن الحنبلي، دار عالم الكتب، الرياض 1991 ص82 وسيشار له لاحقاً ابن تيمية، مجموع الفتاوى.

(2) السبكي، فتاوى السبكي، ج2، ص548.

ويحضرها المرد وأهل اللواط، فمنهم من يتصابى على سنة ومنهم من يمشي على بطنه ومنهم قوم إذا الشر أبدى ناجذيه طاروا إليه وإن تنحنح ذو سطوة أجابوه بسكين وقـرؤوا التكـاثر عليه، إن اضمرت كلمة الحق ظهروا، وإن بني علم الإيمان على الفتح استتروا، مـا أحقهـم بنفي الجنس وما أولاهم بالكسر وجعلهم كأمس)[1]، ومن هذا النص يظهر أن الأخلاق التـي اتسم بها الشطار والعيارين والمتمثلة باللصوصية والتمرد وحب الفوضى والدهاء والخبـث والمكر ظلت ملازمةً للفتيان، فالخليفة الناصر استطاع تنظيمهم جزئياً ولكنه لم يحدث تغييـراً أكثر من ذلك.

ب - الأحداث في بلاد الشام:

عرفت بلاد الشام منذ أواسط القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي على الأرجح فئـة الأحداث، والأحداث هي جمع حدث، والتي تعني الشاب حديث السن[2]، ويبدو أن اشتقاق اسم الأحداث جاء من المعنى المقارب لمعنى الفتوة، وذلك لكي يعني حداثة العمر وحداثة الخبـرة بحمل السلاح واستعماله، ويبدو أن بلاد الشام أرادت أن تتميز جماعاتها الشعبية العسكرية عن جماعة الفتيان سواء بالمعنى التقليدي للكلمة الذي يمنحها للشباب العابث الفاتك غير المسؤول أو بالمعنى العراقي الذي ربطها بالعيارة والتشرد[3].

وقد ردت كلمة الأحداث للمرة الأولى في تاريخ الشام عند ابن الأثير حيث أن الخليفـة المعتضد (ت289هـ/902م) حين انهزم أمام خمارويه بن طولون (ت282هـ/896م) فـي

---

(1) ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج2، ص126.

(2) ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص133. الزبيدي، تاج العروس، ج5، ص 208. مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، ص، 160.

(3) مصطفى، شاكر، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعـة الكويـت، الكويت 1973، ص 178 – 180. وسيشار له لاحقاً مصطفى، الحركـات الـشعبية وزعمائهـا فـي دمشق. C.cahen, Ahdath , E,I, Vol .1, P256.

وقعة الطواحين عند الرملة سنة (271هـ/884م) وصل دمشق" ولم يفتح له أهلها باباً فمضى منهزماً حتى طرطوس[1]....بينما كان خمارويه نفسه قد ولى خوفاً من الهزيمة في نفر من الأحداث الذين لا علم لهم بالحرب [2]، وفي خبر آخر سنة (283هـ/896م) أنه لما ولي جيش بن خمارويه (ت283هـ/896م) الإمرة في دمشق وكان صبياً، قرب الأحداث والسفل وأخلد إلى استماع أقوالهم فغيروا نيته على قواده وأصحابه وصار يقع فيهم ويذمهم ويظهر العزم على الاستبدال بهم وأخذ نعمهم وأموالهم فاتفقوا عليه ليقتلوه... [3]، فهؤلاء الأحداث ظهروا حول الأمير كحرس له وكانوا من الطموح بحيث غيروا نيته على قواده وكانوا من الكثرة بحيث قنع أن يطرد جيشه ويصادره ويستبدل به هؤلاء الأحداث[4]، ولاحقاً سرعان ما تغيرت تلك المهمة من حراسة الأمراء تحت ضغط الظروف السياسية والاقتصادية والعسكرية لتصبح حماية المدن نفسها، وهذا الأمر يظهر حين اندفع القرامطة في الهجوم على بلاد الشام بلداً بلداً، فحاربهم سكانها بأنفسهم في مجموعات عسكرية محلية، مثلما حدث سنة (290هـ/902م) حين هاجم القرمطي زكرويه[5] دمشق[6]، وسنة (293هـ/905م) حين هاجم القرامطة بصرى واذرعات[7]، وسنة (294هـ/906م) حين أغار الروم على قورس[8].

---

[1] طرطوس بلد بالشام مشرفة على البحر قرب المرقب وعكا. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص30. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج2، ص884.

[2] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص433. مصطفى، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق، ص180.

[3] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص490.

[4] مصطفى. الحركات الشعبية، ص 181.

[5] زكرويه بن مهرويه القرمطي، من زعماء القرامطة ومتألهيهم، لما مات المتعضد أظهر نفسه، واستهوى طوائف من أهل بادية العراق وبث الدعاة، وكان أتباعه يسجدون له، أغار زكرويه على حجاج خراسان وكانوا نحو عشرين ألفا فأفنى أكثرهم، أصيب في معركة بين القادسية وخفان، فمات. وحملت جثته إلى بغداد فأحرقت سنة (294هـ/906م) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص549-557. اليافعي، مرآة الجنان، ج2، ص165-166. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج3، ص159-161.

[6] ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج6، ص 556.

[7] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص 549 – 550. مصطفى الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق، ص18.

[8] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج6، ص554. قورس مدينة قديمة من نواحي حلب وهي خراب وبها آثار باقية. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص412. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1132. الغزي، نهر الذهب، ج1، ص289.

ومع انهيار السلطة الإخشيدية وظهور الفاطميين برزت حركة الأحداث في بلاد الشام مستغلةً الفراغ السياسي، تدفعها العواطف السنية والعرقية بوجه المغاربة الفاطميين، فلم يقبل الأحداث في دمشق بوجود الفاطميين، فحين بلغهم نبأ استيلاء جعفر بن فلاح[1] على الرملة ثم طبرية وإلحاقه الهزيمة ببني عقيل[2] في حوران والبثنية[3] ومسيره إلى دمشق سنة (359هـ/970م)، خشوا بأسه وأرسلوا إليه جماعة من كبار الرجال يطلبون الأمان والموادعة فلم يقبل، فاستاء أهل دمشق وبسطوا ألسنتهم بذم المغاربة[4]، وحين استولى جعفر بن فلاح على مدينة دمشق واعتقد أن الأمر قد استقر للفاطميين عاد إلى الرملة، فثار الأحداث بزعامة أبو القاسم إسماعيل أبو يعلى الهاشمي الذي جمع أحداث المدينة وحظي بتأييد شعبي واسع ونجح في إبطال الخطبة للخليفة الفاطمي المعز لدين الله وأعادها للخليفة العباسي المطيع لله[5]، يقول المقريزي في اتعاظ الحنفاء : (وأصبح الناس للقتال،

---

(1) جعفر بن فلاح الكتامي، سيره المعز مع القائد جوهر لافتتاح الديار المصرية، فدخلاها، وبعثه جوهر إلى الشام، فامتلك الرملة سنة (358هـ/969م) ثم امتلك دمشق سنة (359هـ/970م) وقتله بها الحسن بن أحمد القرمطي سنة (360هـ/971م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج1، ص361-362. ابن العماد، شذرات الذهب، ج4، ص308.

(2) بنو عقيل بطن من بني زيد بن حرام بن جذام من القحطانية، وهم بنو عقيل بن مرة بن موهوب بن عبيد بن مالك بن سويد من بني زيد. القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص148.

(3) البثنية أو البثنة قرية بين دمشق وأذرعات، وكان النبي أيوب عليه السلام منها. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص338. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج1، ص163. الحميري، الروض المعطار، ص79.

(4) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص123. المعاضيدي، خاشع، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ط1، دار الحرية، بغداد 1976 ص24 وسيشار له لاحقاً المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي.

(5) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت555هـ/1160م) تاريخ ابن القلانسي" ذيل تاريخ دمشق"، ط1، تحقيق سهيل زكار، دار حسان، دمشق 1983 ص1 وسيشار له لاحقاً ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي. المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص124. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص24-25.

ولم يصلوا ذلك اليوم في المصلى صلاة العيد، فاستمروا طول النهار ومعهم الجند الذين كانوا مع شمول، فكلوا، وحملت معهم المغاربة فانهزموا، وتمكن السيف منهم وهم منهزمون إلى أرض عاتكة[1] وقصر حجاج، فقتل خلق كثير وكان رئيس أهل الشام في هذه الحروب أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي ومحمد بن عصودا ...) [2]، ولكن الفاطميين استولوا بعد قتال شديد على دمشق ولم يتمكن الأحداث من الصمود أمامهم فانهزموا إلى داخل المدينة ودخلها الفاطميون[3]، وعندما أخفق محمد بن عصودا هرب من دمشق يريد الإحساء[4] وقد رافقه ظالم بن موهوب أو " مرهوب العقيلي" وهناك في عاصمة دولة القرامطة أطلع الحسن الأعصم[5] زعيم القرامطة على أحوال الشام الجديدة، وكان القرامطة قد فرضوا أتاوة سنوية كبيرة مقدارها ثلاثمائة ألف دينار يأخذونها من الإخشيدية ونوابهم حكام الشام وقد قطعت بالسيطرة الفاطمية على مصر، ولهذا ولغيره قاد الأعصم جيوشه إلى الشام، بعد أن قدم له عز

---

(1) أرض عاتكة، خارج باب الجابية من دمشق، منسوبة إلى عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وهي زوجة عبد الملك بن مروان، وكان لعاتكة بهذه الأرض قصر. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص152. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص56.

(2) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص124.

(3) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص125. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص25.

(4) الإحساء مدينة مشهورة بالبحرين، أول من عمرها وحصنها وجعلها قصبة هجر أبو طاهر القرمطي. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص112. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص36. الحميري، الروض المعطار، ج1، ص14.

(5) الحسن بن أحمد القرمطي، الملقب بالأعصم تنقلت به الأحوال، فاستولى على الشام سنة (357هـ/968م) ووجه إليه المعزّ جيشا من مصر، بقيادة جعفر بن فلاح، فهزمه القرمطي وقتل جعفر، وزحف إلى مصر سنة (361 هـ /972م) فحاصرها أشهراً، وترك عليها أحد قواده وعاد يريد الشام، فمات بالرملة سنة (366 هـ /976م) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص303-305. الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص318-319. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج11، ص287-289.

الدولة بختيار البويهي المساعدة، فأرسل إليهم ألف ألف درهم وألف جوشن[1] وألف سيف وألف رمح وألف قوس وألف جعبة[2]، وطلب عز الدولة بختيار البويهي من الحمدانيين بالموصل إمداد الأعصم بالأموال، فطلب من أبي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة الحمداني[3] أن يرسل للأعصم أربعمائة ألف دينار فأجابه إلى ذلك[4]، فأوقع بقوات جعفر بن فلاح " القائد الفاطمي" ويظهر محمد بن عصودا مرة أخرى فيصلب جثة جعفر بن فلاح على حائط داره ثأراً لأخيه إسحاق بن عصودا بعد قتله سنة (360هـ/970م) [5]. ونلاحظ أن قوة الأحداث كانت تتزايد فحرموا الفاطميين من السيطرة الكاملة على بلاد الشام لمدة طويلة ومن أهم الثورات التي قاموا بها ثورة ابن المارود سنة (363-364هـ/974-975م) فيذكر ابن القلانسي أنه بعد أن طوق الجيش الفاطمي البلد وهاجمها من جهة باب الصغير.. (قاتلهم الأحداث والرعية أشد قتال... واشتد الخوف وخربت المنازل وضعفت النفوس وكان رأس الأحداث القائد المعروف بان المارود[6] الذي قبض عليه وقيد)[7]. وظهر دور

---

(1) الجوشن هو الدرع. الزبيدي، تاج العروس، ج34، ص355.

(2) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، ج1، ص1. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص34.

(3) الغضنفر أبو تغلب ابن ناصر الدولة، صاحب الموصل، حارب عضد الدولة البويهي، وفر إلى الرحبة ثم هرب منها خوفاً من ابن عمه سعد الدولة صاحب حلب، فاستنجد بالعزيز بالله الفاطمي، ثم نزل بحوران، وجاءه الخبر بأن يقدم على العزيز بالله الفاطمي، وكان الأمير مفرج الطائي قد استولى على الرملة، فاتفق مع العسكر على محاربة أبي تغلب، ، وقتله مفرج صبراً وبعث برأسه إلى العزيز سنة (368 هـ /979م) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص323. الكتبي، فوات الوفيات، ج3، ص172.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص58-59. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص34.

(5) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص126-127.

(6) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، ج1، ص19-20.

(7) المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج1، ص221.

الأحداث واضحاً في حركة أفتكين التركي[1] الذي قدم إلى دمشق من بغداد ليخطب للخليفة العباسي الطائع[2]، فعندما وصل إلى حمص بعث إليه الأحداث يستدعونه ويتعهدون بمساعدته على إخراج الحامية الفاطمية من دمشق[3]، وحين وصل إلى ظاهر دمشق وكان الأحداث قد غلبوا عليها خرج إليه أشراف المدينة وشيوخها ورضوا بقدومه وسألوه الإقامة عندهم والنظر في أحوالهم فأجابهم إلى ذلك بعد أن توثق منهم وتوثقوا منه[4]، وبالفعل ساعده الأحداث على إخراج الحامية الفاطمية من دمشق وخطب للخليفة العباسي الطائع وذلك في سنة (364هـ/975م) بعد أن قطع خطبة المعز لدين الله الفاطمي[5].

وثورة قسام التراب سنة (368-373هـ/979-983م) الذي كان خير عون لأفتكين القائد المتمرد على الدولة الفاطمية، وقسام هذا من بني الحارث من أهل

---

(1) ويقال هفتكين سار إلى الشام، واستولى على كثير منها، ونزل بظاهر حمص، فسار إليه الأمير ظالم العقيلي ليحاربه، فبادر هفتكين إلى دمشق سنة (364 هـ /975م) بمكاتبة من الكبراء، وتملك وخطب للطائع، ومحا ذكر المعز العبيدي، وجمع العساكر، وسار في السنة ذاتها فنزل على صيدا، وحارب المعزية، وكسرهم، وقتل خلق منهم (ت371 هـ /982م) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12، ص323.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ج1، ص21. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص46. خرابشة، سليمان، حركة الأمير أفتكين التركي ضد الحكم الفاطمي في بلاد الشام،ع3، م14، مؤتة للبحوث والدراسات، مؤتة 1999 ص112 وسيشار له لاحقاً خرابشة، حركة الأمير أفتكين.

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص333. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص47.

(4) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ج1، ص21. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص46. خرابشة، حركة الأمير أفتكين، ص114-115.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7، ص33. المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي، ص46-47. خرابشة، حركة الأمير أفتكين، ص115.

قرية يقال لها تلفيتا[1] وكان ينقل التراب على الدواب[2]، وظل قسام التراب مسيطراً على دمشق حتى سنة (373هـ/983م) حين تغلب عليه بكتكين القائد الفاطمي وأعطاه الأمان ومنها ضعف أمره واختفى[3]، وكذلك حركة ابن أبي طالب الجزار سنة (412هـ/1021م) الذي اجتمع إليه جماعة من الأحداث وحارب الجند الفاطمي.. وتسلط بها هو والأحداث ولم يبق لأحد معه أمر فأرسل إليه ولي العهد عبد الرحمن بن إلياس بن أحمد الملقب بالمهدي[4] في تسكين الفتنة فلم يطعه فدخل الجند وقبضوا على ابن أبي طالب الجزار وقتلوه وصلبوه [5] وهي حركة كلها قام بها الأحداث في سبيل الدفاع عن بلاد الشام وقد حظيت هذه الحركات بدعم شعبي متواصل، وفي هذه الفترة ظهر أحداث حلب ليقوموا بنفس الدور فقد ساندوا الأمير أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي (ت420هـ/1030م) [6] على السيطرة على

---

[1] تلفيتا من قرى سنّير من أعمال دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص42. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص272.

[2] ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله (ت571 هـ /1176م) تاريخ دمشق، ط1، ج49، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، 1995 ص 324 وسيشار له لاحقاً ابن عساكر، تاريخ دمشق.

[3] أبو الفداء، المختصر، ج2، ص122. ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي، ج1، ص295.

[4] عبد الرّحمن بن أحمد ويلقّب بالمهديّ، ولّاه الحاكم العهد سنة (404 هـ /1013م)، ولما توفي الحاكم حبسته ست الملك في دار وأقامت له الإقامات، ووكلت بخدمته خواصّ خدمها، ثم أحضرت الظاهر لإعزاز دين الله ابن أخيها الحاكم ليتولى الحكم، وقتلت المهدي سنة (412 هـ /1021م). المقريزي، اتعاظ الحنفاء، ج2، ص116. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج4، ص192-193

[5] ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج36، ص127-128.

[6] أسد الدولة أبو علي صالح بن مرداس، قصد مدينة حلب وبها مرتضى الدولة ابن لؤلؤ الجراحي، فاستولى عليها وانتزعها منه، وكان ذا بأس وعزيمة وأهل وعشيرة وشوكة، واستقر بها ورتب أمورها، فجهز إليه الخليفة الفاطمي الظاهر أمير الجيوش أنوشتكين الدزبري في عسكر كثيف وقتل سنة (420 هـ /1030م) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج2، ص487-488. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16، ص157.

حلب سنة (415هـ/1024م) وانتزاعها من سلطة الدولة الفاطمية[1]، وقد نصب الأمير صالح القائد سالم بن مستفاد الحمداني[2] مقدماً على الأحداث سنة (415هـ/1024م)[3]، وفي سنة (434هـ/1042م) استدعى الحلبيون وفيهم الأحداث معز الدولة أبا علوان ثمال بن صالح وابن عمه مقلد بن كامل بن مرداس، فوصل ثمال قبل المقلد ودخل حلب واجتمع إليه الأحداث[4]، ويُذكر أنه في سنة (452هـ/1060م) طلب الأحداث من مكين الدولة الحسن بن علي بن ملهم العقيلي مالاً ينفقه فيهم فقال لهم: (أخذتم واجبكم المقرر على الكمال وتسلمتم أيضاً فلا تطمعوا في وصول شيء آخر إليكم)[5]، فعصى أحداث حلب عليه وغدروا به، ويذكر ابن العديم بعد هذه الحادثة أنهم بعثوا لمحمود بن نصر بن صالح. "وسلموا إليه حلب"[6] مما يعني أنها كانت تحت سيطرتهم، ويظهر أن أحداث حلب لم يكونوا على رأي واحد بل كانوا ينصرون أميراً ويخذلون آخر حسب ما تقتضيه

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص129. الغزي، نهر الذهب، ج3، ص6. كحالة، عمر رضا، دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق 1973 ص27 وسيشار له لاحقاً كحالة، دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية.

(2) سالم بن مستفاد أبو المرجا الحمداني أحد غلمان سيف الدولة الحمداني، وهو أحد الأعيان والقواد المشهورين، دام ابن مستفاد في الكرامة وعلو المرتبة في أيام صالح وبعد موته إلى أن استوحش سالم بن مستفاد من شبل الدولة نصر بن صالح فاستنفر عليه سالم أحداث حلب ورعاعها، ولبسوا السلاح وعولوا على محاربة القلعة، فلما رأى نصر كثرة تعديه حمل نفسه على محاربته وقتله في سنة (423 هـ/1031م). ابن العديم، بغية الطلب، ج9، ص4162-4163.

(3) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص141؛- بغية الطلب، ج9، ص4162.

(4) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص 147.

(5) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص156.

(6) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص156. ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج8، ص169.

مصالحهم[1]، ومن أبرز الأسماء التي كانت تتردد في هذه الفترة ابن حيون وابن المغازلي[2].

وكانت حركة الأحداث تعبر بشكل أو بآخر عن رفضها للقوى الخارجية الطامعة وعن إرادتها الذاتية في إقامة حكم شعبي، وكانت الرئاسة في هذه الجماعات (الأحداث) كما هو الحال في كل تحرك شعبي، لأكثر المتطوعين فيها حماسة وشجاعة وسيطرة على الآخرين وقد أخذ هؤلاء لأنفسهم أو أعطاهم الناس ألقاب: رأس، رئيس، نقيب، مقدم، قائد دون تقدير عدد الأتباع[3].

لكن دور هذه القوى باء بالفشل على أيدي الفاطميين الذين سيطروا على دمشق، وخلال فترة حكمهم استطاعت السلطة المحلية أن تحتوي القوى الشعبية وتجعلها تابعة لها وأداة من أدواتها، فإذا أهل العصر السلجوقي، كان الأحداث قوة محلية هامة على أسوار دمشق وكانت هذه القوة تابعة لبعض الأسر ذات النفوذ التي أخذت تتوارث رئاسة الأحداث التي توحدت بدورها مع لقب رئاسة البلد، مثل آل الصوفي وآل القلانسي في دمشق ويظهر أن الحكم السلجوقي إنما أبقى عليها، لأن الفئات المتنفذة في الشام قبلته وتحالفت معه فصارت منظمة الأحداث في هذه المنطقة بعضاً من قوى السلاجقة [4].

---

(1) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص160 -- 162 – 167.

(2) ابن العديم، زبدة الحلب، ج1، ص160.

(3) مصطفى، الحركات الشعبية، ص180. كاهن، كلود، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى، مجلة الاجتهاد،ع6، بيروت1930 ص117وسيشار له لاحقاً كاهن، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي.

(4) مصطفى، الحركات الشعبية، ص180. كاهن، كلود، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى، مجلة الاجتهاد، ج6، بيروت، 1930 ص 117وسيشار له لاحقاً كاهن، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي.

وعلى أثر ذلك لم يبق للأحداث التابعون للفئات المتنفذة أي دور سياسي خلال العهد السلجوقي، أي لم يعودوا يقومون بحركات شعبية ولكن قاموا بأدوار دفاعية ضد القوى الأجنبية، والمثال على ذلك ما حدث أثناء الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية واللتين حاولتا احتلال مدينة دمشق، ففي سنة (519هـ/1126م) حين جاءت الأخبار بقدوم بلدوين ملك الفرنج في بيت المقدس بالاحتشاد والتأهب لقصد دمشق، شرع ظهير الدين طغتكين الأتابك (ت522هـ/1128م) [1] بالاستعداد للقائه والاجتماع على جهاده[2]، يقول ابن القلانسي: (فلما كان يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي الحجة من السنة اجتمع للقضاء المقضي والحكم النافذ من أحداث دمشق والشبابَ الأغرار ورجال الغوطة والمرج والأطراف وأحداث الباطنية المعروفين بالشهامة والبسالة من حمص وغيرها والعقبة وقصر حجاج والشاغور خلق كثير)[3]، وكانت النتيجة نصراً مؤزراً لهذه القوات ورحيل الفرنج بعد أن غنم المسلمون منهم مغانم كثيرة[4].

وفي سنة (523هـ/1129م) حاصر الفرنج مدينة دمشق مرة أخرى فخرج إليهم الأحداث فقاتلوهم قتالاً شديداً، واستمروا في قتالهم وكان الخليفة المسترشد بالله يعدهم بأنه سيرسل إليهم جيشاً ولكنه لم يفعل ذلك، حتى نصرهم الله من عنده، وقتل بيمند الفرنجي صاحب أنطاكية في هذا الحصار[5].

وفي سنة (543هـ/1148م) سار جيش الفرنج من الجولان إلى بانياس حتى وصل إلى دمشق، ويعتبر هذا الجيش من أضخم الجيوش الفرنجية حتى أن عدده وصل لخمسين ألف

---

(1) طغتكين الأتابك، من أمراء السلطان تتش بن ألب أرسلان السلجوقي، تملك بعده ابنه دقاق، وكان شهماً شجاعاً، مهيباً مجاهداً في الفرنج (ت522 هـ /1128م) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج25، ص3. الذهبي، العبر، ج2، ص416. الصفدي، الوافي بالوفيات، ص16، ص259.

(2) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، ج1، ص339.

(3) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، ج1، ص339.

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج8، ص708. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، ج5، ص178.

(5) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج9، ص18. ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، ص247.

مقاتل، وعسكروا على حافة البساتين المعروف بمنازل العسكر، وكان الأحداث هذه المرة قد عملوا كمائن في البساتين، فيقول ابن القلانسي:(وليس يدنو منهم أحد إلا صرع برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجالة الأحداث والضياع وجعلوا يرصدونهم في المسالك وقد انثنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها..........) [1]، وهنا لا يرجع الفضل في صمود دمشق أمام هذه الحملات إلى تنظيم الأحداث فقط، فلا يمكن تجاهل دور التركمان وأمراء الأطراف والمتطوعة المسلمين وغيرهم[2].

وفي العصر الأيوبي، نلاحظ غياب جزئي لهذه التنظيمات الشعبية التي كانت في العصور السابقة، فلم نعد نسمع بأي دور فاعل لتنظيمات الأحداث التي كانت سابقاً قد بلغت شأناً عظيماً، ويبدو أن هذا الغياب كان بسبب وجود دولة مركزية في كل مدينة من مدن الشام، ولأن القوات النظامية قد حلت مكان هذه التنظيمات التي تظهر عادةً في حال غياب السلطة القوية المسيطرة، فالدور المتعاظم لتنظيمات الأحداث في دمشق خلال العصر الفاطمي وفي حلب زمن السلاجقة قد انتهى ولم يسجل أي تحرك شعبي مؤثر أو ثورة داخلية، وربما يكون للخطر الخارجي المتمثل بالفرنج أولاً والمغول ثانياً دور في توحيد جميع فئات المجتمع تحت راية الجهاد، ولكن برغم ذلك وجدت بعض الحالات التي برز فيها الأحداث في العصر الأيوبي كما حصل سنة (626هـ/1228م) [3]، وسنة (634هـ/1236م)[4]، وسنة (658هـ/1259م)[5]، وسنة (659هـ/1260م) [6]، وهذه الحوادث سبق وأن أشرت إليها في التمهيد.

---

(1) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، ج1، ص465.

(2) ابن القلانسي، تاريخ ابن القلانسي، ج1، ص464. أبو شامة، عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ج1، ص185.

(3) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص252- 253. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص436. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص145. المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص230.

(4) الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص273.

(5) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص316.

(6) الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، ص441.

2- الحرافيش في العصر المملوكي:

أ – (معنى الحرفشة):

عرفت بلاد الشام عدة تنظيمات اجتماعية في العصر المملوكي مثل (الأحداث، الحرافيش، الزعر) ويظهر أنها كانت تبرز بشكل واضح في المدن الكبيرة، ونلاحظ أن المصادر التي اختصت بالعصر المملوكي لم تقتصر على تسمية واحدة لهم، بل أطلقت عليهم أسماء متعددة مثل حرافيش، زعار، أحداث، رعاع، سوقيه، مناسير، حراميه، وهي ألفاظ تعبر في مضمونها عن نوع من الاحتقار والازدراء لهذه الفئة، وهذا يعود لسلوكهم القبيح مع المجتمع كما سيظهر لاحقاً.

أما عن الجذر اللغوي لكلمة "حرفوش" فالحرفشة لغةً تعني المتسرع إلى الشر[1]، ولقد ظهرت هذه الفئة بشكل واضح في المدن في العصر المملوكي، ويلاحظ أن هذه الفئة كانت تستغل فترات الصراع العسكري لتحقيق مآربها مثل السلب والنهب، ولكن هذا لا ينفي بعض المواقف البطولية في بعض الأحيان. كما يلاحظ أن نشاط هذه الفئة يبرز في العصر المملوكي الثاني مما يدلل على أن ظهورها مرتبط بقوة وضعف السلطة الحاكمة، فحين تكون السلطة قوية يختفي ذكر هذه الفئة، وحين تضعف السلطة وهذا ما حصل في أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي تبرز هذه الفئة وتؤدي نشاطها، أما أكثر المصادر التي جاءت على ذكرهم – بالإضافة إلى كتب التاريخ العام – كتاب مفاكهة الخلان في حوادث الزمان لابن طولون ، وكتاب التعليق لابن طوق، وهما مصدران اختصا بأواخر العصر المملوكي.

(1) ابن منظور، لسان العرب، ج6، ص 282.

ب- أحوال الحرافيش

ذكر السبكي عن الحرافيش ما نصه: (وكثير من الحرافيش اتخذوا السؤال صناعة فيسألون من غير حاجة، ويقعدون على أبواب المساجد يشحدون المصلين ولا يدخلون للصلاة معهم، ومنهم من يقسم على الناس في سؤاله بما تقشعر الجلود عند ذكره، وبعضهم يستغيث بأعلى صوته)[1]، ويتابع السبكي بعدما يتمنى أن يؤدب هؤلاء قائلاً: (ومنهم من يكشف عورته ويمشي عرياناً بين الناس ويوهم انه لا يجد ما يستر عورته)[2]، ومن هذا النص نستنتج أنهم كانوا متسولين اتخذوا سؤال الناس صنعةً لهم، وهذا ناتج عن سوء أحوالهم المعيشية[3]،كما كان السلب وسيلة من وسائلهم للكسب فقد ذكر أنه في سنة (662هـ/1264م) نهبت الأثقال من قبل المغول وكان قسم آخر قد نهبته الحرافيش والكسابة[4]، وفي سنة (692هـ/1293م) ظهروا بصورة محزنة يتلقفون ما سقط من خيام السلطان الأشرف خليل من خبز وحلوى في إحدى رحلاته إلى بلاد الشام [5]. وفي الوباء الذي حصل سنة (695ه/1296م) كان الحرافيش يحملون الجثث ويدفنوها لقاء نصف درهم على أحسن الأحوال[6]، وفي سنة (699هـ/1299م) نجدهم ينتهزون حالة الفوضى التي سببها الغزو

---

(1) السبكي، معيد النعم، ص136.

(2) السبكي، معيد النعم، ص137.

(3) المقريزي، أحمد بن علي (845 هـ /1441م) إغاثة الأمة بكشف الغمة، ط2، تحقيق محمد زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة 1957ص45 وسيشار له لاحقاً المقريزي، إغاثة الأمة.

(4) العيني،عقد الجمان، ج1، ص154.

(5) العيني، عقد الجمان، ج3، ص156.

(6) المقريزي، السلوك ج1، ق3، ص815 . ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات، م8، ص210.

المغولي بقيادة غازان فيعيثون فساداً في ظاهر دمشق فكسروا أبواب البساتين وقلعوا الأبواب والشبابيك وغير ذلك مما قدروا عليه وباعوه بأرخص الأثمان(1).

وهذا يعني أنهم شكلوا قوة لم تكن تميز بين السلوك الصحيح والسلوك الخاطئ، فسلبهم لبقايا قوات المغول عمل بطولي ولكن تعديهم على المجتمع الدمشقي يعتبر عملاً خطيراً.

وهناك قسم منهم انخرطوا في سلك التصوف فلجأوا إلى الخوانق والربط والزوايا طمعاً فيما تقدمه هذه المؤسسات من رعاية وخدمة، وطمعاً فيما يوقفه السلاطين والأمراء والأغنياء ، ولذلك فقد اقترن اسم الحرافيش بالصوفية أو الفقراء، فحين وصف الصفدي أحد رجال الصوفية قال عنهم :(شيخ مسن فقير حرفوش)(2)، ولعل ذلك يفسر لماذا وصف الصوفية بأنهم (بطلة سطلة لا شغل ولا مشغلة) (3)، وأنهم اتخذوا الخوانق ذريعة للباس الزور وأكل الحشيش(4).

ويبدو أن السلاطين والأمراء المماليك كانوا يساندونهم في أوقات الشدة، ومثال ذلك أنه عندما اشتد الغلاء في مصر والشام سنة (662هـ/1263م) قام السلطان الظاهر بيبرس بحل مشكلة الحرافيش، فقام بتوزيعهم على الأغنياء وألزمهم بإطعامهم(5)، فأخذ لنفسه خمسمائه، ولولده الملك السعيد خمسمائه، ولنائبه بيليك الخازندار (ت676هـ/1277م)(6)

---

(1) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص64. العيني، عقد الجمان، ج4، ص29. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص122.

(2) الصفدي، الوافي بالوفيات ج17، ص371.

(3) السبكي، معيد النعم ص125.

(4) السبكي، معيد النعم ص125.

(5) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص230-232. العيني، عقد الجمان، ج1، ص376. ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص126. W.M. Brinner .Harfush. E,I, .Vol 3. p206

(6) بيليك الخزندار الظاهري مملوك السلطان الظاهر بيبرس، كان نبيلاً، وافر العقل، محبباً إلى الناس، ينطوي على دين ومروءة ومحبة للعلماء، رقاه أستاذه إلى أعلى الرتب، واعتمد عليه في مهماته. قيل:

ثلاثمائه، وفرق البقية على الأمراء ورسم أن يعطى لكل حرفوش في كل يوم رطلين من الخبز[1]، وفي سنة (748هـ/1347م) عندما كان أرغون شاه (ت758هـ/1356م) نائباً على دمشق أوقف أحد الأثرياء وقفاً لإعانتهم، ولكنهم في نفس السنة اختطفوا الخبز من الخبازين لشدة الغلاء فلم يستطيع أحدٌ ضبطهم، فقام أرغون شاه بنفي بعضهم إلى حمص وحماه وحلب وقام بتعذيب بعضهم وإعدام آخرين حتى قيل شعراً (ليس على بحر وهو كلام مسجوع، نقله المؤرخون على أنه شعر وهو ليس كذلك):

كأن الغلا يغلو فأما إذا   أصبح ناراً قلت ذا يغلي

وأصبح الحرفوش ذا كسرةٍ   عن طلب الكسرة في شغل

من يطلب الخبز ومن يشتهي   وهو بقطع اليد والرجل[2]

وهذا ما دفع ابن بطوطة للقول عندما جاء لبلاد الشام سنة(747هـ/1346م) أنهم: (... طائفة كبيرة وأهل صلابة وزعاره) [3] وهذا ما يؤكده الصفدي بقوله:(كان عمل الحرافيش هو النهب والسلب)[4]. ولعل هذه الحادثة تدل من ناحية على كثرة أعدادهم إذ لم تكن هذه المعونات كافية وإلا لما اختطفوا الخبز، ومن ناحية أخرى تظهر غوغائية هذه الفئة وهمجيتها، ولكن يبدو أن الحاجة هي ما اضطرتهم لفعل هذا الأمر.

ومع أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع الهجريين / الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين أخذ الحرافيش بتنظيم أنفسهم وتعيين مشايخ لهم[5] وأول الشخصيات التي ظهرت

إن شمس الدين الفارقاني الذي ولي نيابة السلطنة سقاه السم باتفاق مع أم الملك السعيد (ت676 هـ /1277م) الذهبي، العبر، ج3، ص332. الصقاعي، تالي وفيات الأعيان، ص52-53. ابن العماد، شذرات الذهب، ج7، ص613.

(1) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج2، ص72.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص151. ابن قاضي شهبه، تاريخ ابن قاضي شهبه، ج1، ص507-511. الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ج2، ص 274 .

(3) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج1، ص31.

(4) الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ج2، ص 274.

(5) .W,M, Brinner ,Harfush, E,I, .Vol 3, p206

كان الشيخ علي(ت792ه/1390م) الذي كان يطلق عليه شيخ الطائفة الجعيدية[1]، ولكنهم مع ذلك استمروا في غوغائيتهم وتسولهم وهذا ما يؤكده ابن تغري بردي في حوادث الدهور حيث يذكر في حوادث سنة (855هـ/1451م)(أنه لا يكاد الشخص يمر في الطرقات إلا وهم في أثره ويكررون له السؤال)[2].

ومن أبرز شيوخ الحرافيش الذين ظهروا في بلاد الشام الشيخ عبد الله الفاتولة شيخ الحرافيش الذي توفي سنة (700هـ/1300م) [3]، و يونس بن محمد بن شعبان سلطان الحرافيش بدمشق[4].

وأستطيع أن أؤكد نقطتين استفاد منهما الحرافيش هما: التنظيم، واستغلال الأوضاع السياسية المضطربة، فمن ناحية التنظيم قصرت المصادر عن بيان مراتب وشكل التنظيم، على حين فصلت وأعطت صورة واضحة عن شكل تنظيم الفتيان في العصر العباسي، وربما يرد ذلك إلى تدخل السلطة العباسية واحتوائها الفتيان وتنظيمهم تحت قيادة الخليفة العباسي الناصر لدين الله، ولكن يلاحظ من المصادر أن تنظيم الحرافيش كان أشبه ما يكون بالطريقة الصوفية، وهذا واضح من خلال اللباس، فقد وصف عبد الله الفاتولة (ت700هـ/1300م) بأنه (مكشوف الرأس، عليه دلق رقيق وسخ من رقاع، وله مجمرة[5] يجلس عند قناة عقبة

---

[1] المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص730. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص405.

[2] ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص259.

[3] الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص7. الوافي بالوفيات، ج17، ص371.

[4] الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص321 . ابن العماد، شذرات الذهب، ج 8، ص168.

[5] مجمرة ما يوضع فيه الجمر مع البخور والعود. الزبيدي، تاج العروس، ج10، ص464. مصطفى، المعجم الوسيط، ج1، ص134.

الكتان............. وله كرامات من باب كشف الرهبان والكهان، توفي في دمشق وازدحم الناس على نعشه وكان لهم فيه اعتقاد) [1].

ومن خلال تعاطي الحشيشة، فقد تخلى علم الدين أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر(ت688هـ/1289م) عن التدريس في المدارس وانضم إلى الحرافيش ليتخذ لنفسه أسلوب حياة يقلد به ملابسهم وطريقتهم وزاد على ذلك بأن أكل الحشيش[2]، ودق الطبول تلك العادة التي كانت تنتشر عند بعض الطرق الصوفية كالصمادية[3]، ففي سنة (875هـ/1470م) ذهب وفد من العامة من القدس إلى القاهرة لتقديم عريضة إلى السلطان، وكان أحد أعضاء الوفد من الحرافيش، وحسبما يذكر العليمي أنه كان يقرع الطبل مع الحرافيش[4]، ومن ناحية استغلال الأوضاع السياسية المضطربة نجد أنهم كانوا يجدون في اضطراب الأوضاع فرصة للظهور، وخاصةً في عهد الدولة المملوكية الأولى إذ أنه في الأحوال الطبيعية حين كانت الدولة بأوج قوتها لم يكن يسمح بالاعتداء أو السرقة أو النهب، وحين كانوا يعملون ذلك كانت الدولة تعاقبهم مثلما فعل أرغون شاه سنة (748هـ/1347م)[5].

وكانوا يستغلون الاضطراب والفوضى ويجدون فيها فرصة سانحة للسلب والنهب ففي سنة (659ه/1257م) كان الحرافيش يتدربون على استخدام السلاح وفق طقوس خاصة بهم، وقاموا بعمليات نهب وسرقة في حلب لكونها خلت من العسكر [6]. وفي نفس السنة المذكورة

---

[1] الذهبي، تاريخ الإسلام، ج52، ص480. الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص7، العيني، عقد الجمان، ج4، ص149.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص370. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج1، ص127.

(3) ابن طوق، التعليق، ج2، ص811.

(4) العليمي، الأنس الجليل، ج2، ص289-290.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص151. الصفدي، تحفة ذوي الألباب، ج2، ص 274 .

(6) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص139.

في حلب حين خرج المغول من المدينة لمع أسماء بعض رؤساء الحرافيش أمثال نجم الدين أبو عبد الله بن المنذر، وعلي بن الأنصاري، وأبو الفتح يوسف بن معالي، فقتلوا ونهبوا الكثير من السكان، وظلوا يتحكمون بالمدينة حتى وصلها الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي (ت678هـ/1279م)[1] والأمير حسام الدين لاجين العينتابي (ت681هـ/1282م)[2]، ومعهما عساكر كثيرة، فلما وصل العسكر المدينة هرب رؤساء الحرافيش وتركوا المدينة[3]، وفي سنة (699هـ/1299م) قاموا بسلب دمشق لدى سماعهم أن قائد المغول غازان هزم جيوش المماليك في معركة مجمع المروج[4] تلك المعركة التي انتصر فيها جيش المغول وغادر السلطان الناصر محمد ارض المعركة تاركاً وراءه كميات وافرة من العتاد والمؤن فانتهز الحرافيش هذه الفرصة وسرقوا المواد الخشبية والأبواب والأواني حيث تخلصوا منها ببيعها بأسعار بخسة ونهبوا كذلك البساتين من القرى[5] وقد تخوف الناس من تكرار عمليات السلب والنهب في الغزوة المغولية التي حدثت بعد ثلاث سنوات(معركة شقحب)[6]، وفي سنة (803هـ/1400م) وإثر خروج تيمورلنك من الشام قاموا في دمشق وهاجموا الناس ونهبوا

---

(1) الأمير فخر الدين الطنبا الحمصي (ت678هـ/1279م) المقريزي، السلوك، ج1، ق3، ص647.

(2) لاجين الرومي، حسام الدين العينتابي، شارك في نيابة السلطنة بحلب، وكان بطلاً شجاعاً (ت681هـ/1282م) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج51، ص93.

(3) النويري ، نهاية الأرب، ج30، ص23. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص93. بدّور، كمال، حلب في العصر المملوكي الأول (658-784 هـ /1260-1382م) رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة دمشق 2002 ص245 وسيشار له لاحقاً بدّور، حلب في العصر المملوكي الأول.

(4) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص43. مجمع المروج يقع في وادي الخازندار بين حمص وحماه . الحموي، معجم البلدان، ج2، ص474.

(5) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص9 .

(6) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص27.

وقتلوا واستولوا على ما بقي من متاع واستمر الحال حتى عاد إليها النائب تغري بردي[1] بعد أكثر من شهرين من خروج المغول[2].

وفي أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، يظهر ما يعرف بسلطان الحرافيش، ففي سنة (895هـ/1489م) دخل سلطان الحرافيش ابن شعبان دمشق بعد عودته من مصر هو وزوجته، فاستقبله الحرافيش استقبالاً حافلاً بالصفقات والطبول والأعلام الصفر حتى أوصلوهم إلى بيت سلطان الحرافيش، أما امرأته فقد استقبلتها نحو مائتي امرأة يلبسن خرقاً صفراء ملفوفة على عصائبهن، ويبدو أن سلطان الحرافيش كان مهماً عند ابن طوق حيث يتابع ابن طوق تحركاته فيقول:(أنه سافر لمصر سنة (898هـ/1492م)) وهذا يدل على مكانته في المجتمع.

ج – علاقة الحرافيش بالسلطة المملوكية:

عند الحديث عن علاقة الحرافيش بالسلطة المملوكية فإنه من الصعب على الباحث أن يصدر حكماً قطعياً على الحرافيش، وبالتحديد في إطار علاقتهم مع السلطة وذلك لتناقض مواقفهم، فأحياناً يساندون السلطة وأحياناً أخرى يناصبونها العداء، ومن هنا عمدت إلى توضيح علاقتهم بالسلطة المملوكية في الجانبين السلبي والإيجابي، فمن الناحية الإيجابية نرى لهم علاقات حسنة مع السلطة، ففي حالات كثيرة ساندوا الجيش المملوكي ضد الفرنج والمغول، فقد استطاعت الدولة المملوكية الاستفادة من الحرافيش كقوات إضافية في الحروب الداخلية والخارجية، ويمكن تشبيههم كعناصر متطوعة كان هدفها الكسب المادي بالدرجة

---

(1) تغري بردي ناب في حلب ثم في دمشق، سار سيرة حسنة بالناس، استقر أخيراً اتابك العساكر الإسلامية بالديار المصرية (والد المؤرخ المعروف ابن تغري بردي) (ت815هـ/1412م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج4، ص31-33. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص29.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص231.

الأولى، ففي أوائل سنة (658هـ/1260م) حين تقدم المغول بقيادة هولاكو إلى حلب نزلوا على قرية يقال لها سلمية وامتدوا إلى حيلان[1] فخرج إليهم عسكر حلب وكان معهم الحرافيش والسوقة، ويبدو أنهم تخاذلوا حين علموا كثرة عدد جند المغول فأسرعوا ودخلوا المدينة[2].

وأثناء فتح أنطاكية في سنة (666هـ/1267م) نجدهم ضمن جيش السلطان الظاهر بيبرس الذي كان يدرك أنهم وقفوا معه لمصالحهم الشخصية، فكان أن رتب على أبواب أنطاكية جماعة من الأمراء لمنع الانتهازيين من الحرافيش من النهب، ومع ذلك فقد قام الكثير منهم بالنهب واستغلال الفرصة [3].

وفي سنة (669هـ/1270م) نرى لهم صورة مشرفة في الصراع مع الفرنج، فقد قاموا بعمل بطولي في الحملة التي سيرت ضد حصن الأكراد، ذلك أن السلطان كان قد وقع الهدنة على حصن الأكراد والمرقب[4]، فحدثت أشياء أدت إلى فسخ الهدنة مع الاسبتارية، فقرر السلطان حماية بلاد الهدنة، ووصى بهم وحضر رسول حصن الأكراد[5] يسأل الوصية، فأعطاهم علماً برنكه[6] فقام أحد الحرافشه بالعبور على بستان بقرب تل خليفة المجاور

---

(1) حيلان من قرى حلب. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص332. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص442.

(2) الذهبي، تاريخ الإسلام، ج48، ص47. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص75. الغزي، نهر الذهب، ج3، ص131.

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص382. ابن الطباخ، إعلام النبلاء، ج2، ص258.

(4) المرقب بلدة وقلعة حصينة تشرف على سواحل بحر الشام، وعلى مدينة بانياس. الحموي، معجم البلدان، ج5، ص108. القزويني، آثار البلاد، ج1، ص261. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1259-1260.

(5) حصن الأكراد حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو جبل الجليل المتصل بجبل لبنان، وهو بين بعلبك وحمص. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص264.

(6) الرنك لفظ فارسي مناه اللون ، وهو يستعمل بمعنى الشعار الذي يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له،علامة على وظيفة الإمارة التي يعين عليها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص61-62.

للحصن ومعه رفاقه، فأخذوا منه شيئاً لا قيمة له، فضرب المقدم الإفرنجي رقاب بعضهم وأسر بعضهم الآخر[1]، كما كانوا ضمن الجيش المملوكي الذي حارب المغول في حمص سنة (680هـ/1281م) فمن المؤرخين من يذكر أنهم اشتركوا في الموقعة ولكن حين بدا أن النصر حليف المغول انتهز الحرافيش الفرصة وقاموا بنهب الأثقال من جيش المسلمين كما نهبوا وطاقات العسكر من الأقمشة وخزائن السلاح فأدى ذلك إلى نضوب صناديق الخزانة[2]، يقول العيني:(نهبت الأثقال من قبل المغول ومنها ما نهبته الحرافيش والكسابة في مدينة حمص) [3]، في سنة (690هـ/1290م) أثناء حصار السلطان الأشرف خليل لعكا بعث له الفرنج وفداً يفاوضونه على أن يرحل مقابل دفع جزية سنوية مع هدايا وتحف، وحين عرض السلطان هذا الرأي على أمراء الجيش كان الحرافيش يصيحون معترضين :(يا مولانا السلطان بتربة الشهيد لا نصطلح مع هؤلاء الملاعين) [4]، وهذا الخبر يؤكد بوضوح وجودهم كعنصر مؤثر في جيش السلطان الأشرف حتى أنه رفض طلب الفرنج، وبعد انجلاء الحصار والمعركة عن نصر المسلمين، شرع هؤلاء الحرافيش بالسلب والنهب حتى أنهم قتلوا جماعةً من المسلمين، وكانوا إذا وجدوا آنية من فضة أو ذهب أو بلور كسروها وأطفأوا صنعتها[5]، وذكر العيني أن منهم من بلغ كسبة من النهب ما يقرب من ألفي دينار وأن أحدهم يدعى سراج الدين ظبيان كسب في هذه الوقعة ألف وسبعمائة دينار واثنين عشرين ألف درهم[6].

---

(1) النويري، نهاية الأرب، ج30، ص208.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص94. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج7، ص305. العيني، عقد الجمان، ج2، ص280.

(3) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص94. العيني، عقد الجمان، ج2، ص280.

(4) العيني، عقد الجمان، ج3، ص61.

(5) العيني، عقد الجمان، ج3، ص61.

(6) العيني، عقد الجمان، ج3، ص62.

وكانوا عنصراً فعالاً في الحملة المملوكية على إياس[1] سنة (738هـ/1337م)، ولكن تسرعهم إلى القتال أدى لعواقب وخيمة، فقد قام نائب حلب الأمير علاء الدين ألطنبغا(ت744هـ/1343م) بمنع الأمراء والعساكر من دخول المدينة ريثما يتمكن من صنع زحافات يستطيع بها دخول المدينة دون قتال كبير، ولكن الحرافيش رفضوا هذه الخطة وتضامنوا مع العسكر وأثخنوا بالكلام مع نائب حلب وأسمعوه كلاماً غير مستحب مثل (يا مخامر على السلطات وأنت أكلت البراطيل[2] من صاحب سيس[3] ومنعتنا أن نزحف) ، فما كان منه إلا أن قال: (غداً نزحف)، ثم قام المقاتلون بكل عناصرهم (جيش، حرافيش، غلمان) باختراق البرج مع الجيش بدون أمر نائب حلب أرقطاي[4]، الأمر الذي جعل الأرمن يقتلون الكثير منهم فوبخ نائب حلب الأمراء بقوله: (كيف سمعتم من السوقية والحرافيش؟!)[5].

ومن الملاحظ على سلوك الحرافيش مع السلطة التملق الواضح طمعاً في الهبات، فقد صرخت عناصر الحرافيش في الطرقات سنة (697ه/1298م) لدى مرور السلطان المنصور حسام الدين لاجين (ت698هـ/1299م) متمنية له الشفاء العاجل من حادث ألم به ، إذ أنه لعب الكرة بالميدان فتقنطرت به الفرس، فوقع من عليه وتهشم جميع بدنه وانكسرت يده

---

(1) إياس بلد كبير من بلاد الأرمن على ساحل البحر وفيه ميناء حسن. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص248.

(2) البراطيل مفردها برطيل وتعني الرشوة وبرطل فلانا إذا رشاه. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (ت770 هـ /1368م) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ج1، المكتبة العلمية، بيروت2000ص42 وسيشار له لاحقاً الفيومي، المصباح المنير. الزبيدي، تاج العروس، ج28، ص76.

(3) سيس بلد من أعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرسوس على عين زربة استولى عليها الأرمن من قديم. الحموي، معجم البلدان، ج3، ص297-298. العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص464.

(4) أرقطاي القفجقي من مماليك الأشرف خليل ولي نيابة حمص وصفد ورجع إلى مصر أمير مائة ثم ولي إمرة طرابلس ثم حلب ثم نيابة دمشق بعد أرغون شاه (750هـ /1349م) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج1، ص420. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج8، ص233.

(5) اليوسفي، نزهة الناظر، ص 398- 399. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج2، ص279.

وبعض أضلاعه، وقد قال له أحد الحرافيش :(يا قضيب الذهب بالله أرني يدك) فرفع السلطان يده وهو قابض على المقرعة [1]، وهنا يورد ابن تغري بردي كلمة"صرخت" وهي كلمة ذات دلالة على طبائعهم وسلوكهم فقد كانوا معتادين على الصراخ والجهر بصوت عال، ومن ناحية أخرى نرى التملق الواضح طمعاً في العطاء والهبات، كما أنهم كانوا من المؤيدين لعودة السلطان الناصر محمد سنة (709هـ/1309م) من الكرك إلى دمشق في سلطنته الثالثة وصاحوا :(نصر الله الملك الناصر)[2]، وكانوا متملقين مع الأمراء أيضاً فهم الذين أنقذوا الأمير طشتمر (ت743هـ/1342م)[3] مرتين حيث سجن في دمشق سنة (727هـ/1326م) فأنقذته عناصر الحرافيش التي أغدق الصدقات عليها، حيث وقفوا تحت القلعة مطالبين بالإفراج عنه، فانصاع السلطان لمطالبهم[4]، وتكرر هذا الأمر مع حاجب الحجاب[5] سنة (759هـ/1357م) الذي كان قد سجن بصرخد ثم أفرج عنه ثم حبس في قلعة دمشق ثم أفرج عنه وذلك كله في نحو شهر، وقد أفرج عنه من كثرة توسلات الحرافيش ومطالبتهم بإطلاق سراحه[6] فهم كانوا متعاطفين معه مشفقين عليه.

---

(1) مجهول، تاريخ سلاطين المماليك، ص44. ابن تغري بردي ،النجوم الزاهرة ، ج8، ص88 . المقرعة هي ما تضرب به الدابة. ابن منظور، لسان العرب، ج1، ص529.

(2) ابن كثير، البداية والنهاية،ج14، ص59. ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج8، ص256.

(3) الأمير طشتمر سيف الدين حمص أخضر الساقي الناصري، ولي حلب ثم جعل نائباً في مصر ولكن قبض عليه بعد وقيد إلى الكرك وقتل هناك سنة (743 هـ/1342م) الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص587.

(4) لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص299.

(5) حاجب الحجاب هو أعلى جماعة الحجاب الذين قد يبلغ عددهم خمسة، وتأتي هذه الوظيفة تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العامة على الإطلاق. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص225 .عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص44.

(6) ابن كثير،البداية والنهاية، ج14، ص298.

وانضم عدد كبير منهم إلى جيش قطلوبغا الفخري[1] سنة (742هـ/1342م) عندما تم خلع السلطان الأشرف كجك[2] وإعلان الملك الناصر أحمد بالكرك سلطاناً، وكان من المساندين للأخير الأمير قطلوبغا الفخري، ويذكر العمري في كتابه مسالك الأبصار أن جيش قطلوبغا الفخري كان معظمه من الحرافيش وأنه أنفق عليهم وجهزهم باللباس والسلاح وأنه أحرز انتصاراً على الأمراء المساندين للأشرف كجك، ودخل القاهرة وتولى السلطان الناصر أحمد السلطة رسمياً [3].

وكما أن الدولة المملوكية استفادت منهم في الجيوش فقد استطاعت الاستفادة منهم في المناسبات والاحتفالات حيث يخلقون جواً من التأييد والشعبية للسلطة المملوكية، فلم يغيبوا عن الاحتفالات الرسمية بل كانوا دائماً حاضرين يتولون مهمة الطبل والتزمير، فعندما لبس (خال الأسياد) خلعة أمير الحج سار أمامه الحرافيش بالخيل والطبلخانه[4]، وكانت عادتهم الخروج مع النائب في المناسبات ومعهم الأعلام[5]، ويذكر ابن طوق أنه في سنة (893هـ/1487م)

---

(1) قطلوبغا الفخري كان من أكبر مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون كان ممن ساعد الملك أحمد بن الناصر بتولي السلطنة، ولكن بعد ذلك تغير عليه فقرر السلطان القبض عليه وفعلاً قبض عليه بالكرك وقتل سنة (743هـ/1343م) الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص118-120. الوافي بالوفيات، ج19، ص191-194. العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص292-294.

(2) كجك بن محمد بن قلاوون ولي السلطنة صغيراً واستمر مدة يسيره وقوصون مدبر المملكة إلى أن حضر الناصر أحمد من الكرك فخلع وأدخل الدور إلى أن مات في سنة (746هـ/1346م) العسقلاني، الدرر الكامنة، ج4، ص310. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10، ص122.

(3) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص136. الذهبي، العبر، ج4، ص125. العمري، مسالك الأبصار، ج27، ص561. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص231-232.

(4) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1609.

(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1064-1065.

حين لبس عمر الترجمان هيئة الترجمة[1] عن ابن الكاتب أركب فرس بكنبوش والحرافيش يسيرون أمامه[2]، وخرجوا مع الجند في استقبال خاصكي كان ببلاد الروم، عندما ألبس خازنداره ودواداره خلعاً ومشى بالرصيف إلى بيته، سار الحرافيش والجند أمامه [3].

وفي سنة (903هـ/1497م) خلع نائب دمشق" قانصوه اليحياوي"[4] على ابن شعبان كبير الحرافيش تماماً كما خلع على قاضي القضاة الحنبلي وكاتب السر[5]، ولعل هذا يدل على اعتراف الدولة بتنظيم الحرافيش، وربما كان يهدف النائب إلى استرضائهم وكسبهم إلى جانبه في فترة حرجة بالنسبة للدولة المملوكية.

وكان آخر ذكر لهم في العصر المملوكي سنة (922هـ/1516م) حيث استعان بهم السلطان قانصوه الغوري (ت923هـ/1516م)[6] حين خرج لمواجهة الزحف العثماني في

---

(1) الترجمة من مهمات صاحب الديوان وهى الترجمة على التذاكر والاستدعاءات، والكتابة على تواقيع المباشرين بأخذ خطوطهم عند استخدامهم، والكتابة على محرّراتهم بالتخليد، والكتابة على تذاكر المخرّج والمردود الصادرة عن مستوفى العمل بأن يجيب المباشرون عنها بما يسوغ قبوله، والكتابة بقبول الجواب عند عوده إن كان سائغا، والكتابة على الحساب الصادر عن المباشرين بتخليده في ديوان الاستيفاء بعد أن يتصفّحه وتظهر له سياقة أوضاعه. النويري، نهاية الأرب، ج8، ص300.

(2) ابن طوق، التعليق، ج2، ص731.

(3) ابن طوق، التعليق، ج1، ص442.

(4) قانصوه اليحياوي الظاهري جاوز الثمانين وهو عتيق الملك الظاهر جقمق تقلبت به الأحوال وولي نيابة حلب ونيابة الشام مرتين ونيابة طرابلس والإسكندرية، دفن بتربته التي جددها بباب الجابية سنة (902هـ/1496م) البصروي، تاريخ البصروي، ص218-219.

(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص 1618.

(6) قانصوه بن عبد الله الظاهري لقب بالغور نسبة إلى الغور إحدى الطبقات التي كانت بمصر ،ترقى في المناصب حتى ناب في طرسوس واخرج منها وعاد إليها مرة أخرى ،ثم تسلطن بعد ذلك وأقام في السلطنة خمسة عشر سنة (ت923هـ/1516م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص295-298 . ابن العماد،شذرات الذهب، ج8، ص113-115.

بلاد الشام حيث "سافر معه شيخ المشايخ المسمى شيخ الحرافيش" وجنده وصنجقه[1] وطبلــه، وكان هو قدام طبل السلطان لما دخل إلى دمشق كما جرت العوائــد القديمــة عنــد خــروج التجاريد[2]، ولكن الروايات لم تذكر أن أحداً من الحرافيش شارك في قتال العثمانيين، ومــن قاتل في المعركة هم المماليك القرانصة[3] فقط، فالسلطان قانصوه الغــوري أمــر المماليــك الجلبان[4] بعدم القتال فلما علم القرانصة بذلك تخاذلوا[5]، وهذا كــان أحــد أسـباب هزيمــة المماليك، وعلى الجانب الآخر (العلاقة السلبية مع السلطة) كان الحرافيش يشكلون عبئاً ثقيلاً على السلطة، فلما وصلت أنباء الزحف المغولي سنة (699هـ/1299م) على بــلاد الــشام، نجدهم يعيثون فساداً في دمشق فكسروا أبواب البساتين، وقلعوا من الأبواب والشبابيك وغيــر ذلك مما قدروا عليه وباعوه بأرخص الثمن[6]، ويتكرر هذا الأمر سنة (702هـ/1302م) قبل وقعة شقحب فقاموا بأعمال السلب والنهب تجاه سكان المدن وخاصة مدينة دمشق إذ هــاجموا البساتين وقطعوا أشجار المشمش قبل نضج ثمارها، وخربوا محاصيل الفول والقمح والباقلاء وسائر الخضروات، فأخافت هذه الأعمال المسافرين والتجار فانقطعت الطــرق مــن جهــة الكسوة[7]. ولكن نرى في ذات الموقعة موقفاً بطولياً مشرفاً منهم، فإثر انتصار المسلمين على المغول في هذه المعركة، قام بعض الأفراد الذين أطلق عليهم الأراذل وهم الفئة الــدنيا فــي

---

(1) السنجق لفظ تركي يطلق في الأصل على الرمح والجمع سناجق وهي رايات صــفر صــغار يحملهــا السنجقدار في موكب السلطان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص430.

(2) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص241. جمع تجريدة وهي الفرقــة مــن العــسكر الخيالة دون الرجالة، والمقصود فيها سير الجنود على وجه السرعة دون أثقال أو حشد . دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص42.

(3) القرانصة هم المماليك القدامى. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص122.

(4) الجلبان هم المماليك الذين جلبوا حديثاً. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص53.

(5) ابن أجا، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك، ص249-250.

(6) العيني، عقد الجمان، ج4، ص29.

(7) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص 28. دهمان، ولاة دمشق، ص 138-142. الكسوة هي قرية فــي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص461. ابــن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج3، ص1166.

التنظيم قاموا بقتل الكثير من المغول المنهزمين وسلب ما كان معهم، حتى أن ابن تغري بردي قال فيهم: (حتى أن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خلقاً كثيراً وغنموا عدة غنائم) [1]، وأثناء محاولة الظاهر برقوق استعادة عرش السلطنة المملوكية في المرة الثانية سنة (791هـ/1388م) انتهز الحرافيش هذه الفرصة وانقضوا على "دار السعادة" – في دمشق – التي يقيم فيها النائب ونهبوا جميع ما في بيوت الأمراء المماليك من المال والقماش والأثاث ودمروا وخربوا الكثير وهم يرددون "دار الظالم خراب ولو بعد حين"[2]، ويبدو أنهم استغلوا حالة الفوضى السياسية التي عاشتها المنطقة بفعل ثورة منطاش ويلبغا.

وفي سنة (799هـ/1396م) تجرؤوا على أحد الأمراء في مدينة دمشق المعروف بابن النشو[3] وقاموا بقتله وإحراقه، وكان السبب على ما يبدو احتكاره للغلال رغم حاجة الناس إليها[4]، وفعل حرافيش حلب مثل ذلك مع الخواجا بن الصوا سنة (885هـ/1480م)[5].

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص163.

(2) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص12-13.

(3) ابن النشو الأمير محمد بن عبد الله خدم السلطان الظاهر برقوق، قتله أهل دمشق سنة (799هـ/1396م) بالحجارة أثناء صلاة الاستسقاء ثم مثلوا بقطع رأسه وإحراقه. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م) الدليل الشافي على المنهل الصافي، ج2، تحقيق فهيم شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1990 ص720 وسيشار له لاحقاً ابن تغري بردي، الدليل الشافي على المنهل الصافي. ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص453-454.

(4) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص207-208. المقريزي، السلوك، ج3، ق2، ص877. السخاوي، التبر المسبوك، ص94.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص24. الخواجا ابن الصوا هو وكيل السلطان برقوق، قتل سنة (885هـ/1480م) لتحريضه الدوادار لجمع الأموال من الأهالي. ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص24.

د ـ علاقة الحرافيش بالمجتمع

أما عن علاقة الحرافيش بالمجتمع فهناك نوع من التحالف مع الأهالي في وقت الأزمات، ففي سنة (658هـ/1260م) حين وردت كتب المظفر قطز إلى دمشق تبشر بالنصر والفتح وهزيمة المغول، وتعد بوصول المظفر إلى دمشق، قام الحرافيش مع الأهالي – في غمرة الابتهاج بهذا بالنصر– بقتل الفخر محمد بن يوسف الكنجي[1] في جامع دمشق، وكان الكنجي قد حضر إلى دمشق من جهة هولاكو وساعد المغول على أخذ أموال الفارين من أهالي دمشق، كما أنهم قتلوا ابن الماكسيني وابن البغيل وهما من النصارى الذين استغلوا وجود المغول وتطاولوا على المسلمين[2].

وعندما حدثت الحرب بين المماليك والمغول في مدينة حمص سنة (680هـ/1281م) بقي الحرافيش في مدينة حمص كقوة عسكرية تدافع عن المدينة – كما هو الحال في موقف الأحداث في مدينتي دمشق وحلب في القرنين الرابع والخامس الهجريين/العاشر والحادي عشر الميلاديين عند دخول الفاطميين لبلاد الشام إذ كون الأحداث قوة عسكرية بديلة عن الجيش النظامي– وفي بداية المعركة حين انهزم الجيش المملوكي دخلت مجموعة من جيش المغول إلى مدينة حمص فوجدت هؤلاء الحرافيش الذين يسميهم اليونيني (العوام والسوقة) داخل أسوار المدينة، وبعد قتال غير متكافئ بين الطرفين (الحرافيش والتتار)، فشل الحرافيش

(1) محمد بن يوسف بن الفخر الكنجي نزيل دمشق عني بالحديث وسمع ورحل، كان إماماً محدثاً لكنه كان يميل إلى الرفض، جمع كتبا في التشيع وداخل التتار، قتل سنة (658هـ/1260م) وله شعر يدل على تشيعه. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص166. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، ج12، مكتبة المثنى، بيروت 19 ص134 وسيشار له لاحقاً كحالة، معجم المؤلفين.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج1، ص361–362. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج5، ص166.

بالدفاع عن المدينة وقتل المغول عدداً كبيراً منهم [1]، وربما يعود هذا لبساطة أسلحتهم ولعدم تنظيمهم.

وفي الثورات الداخلية التي كان يقوم بها الأمراء ضد السلطان المملوكي كان موقفهم مسانداً للعامة في أغلب الأحيان، ففي سنة (791هـ/1389م) أعلن نائب حلب الأمير سيف الدين كمشبغا الحموي (ت801هـ/1399م) [2] الثورة ضد السلطان حاجي ومن معه من الأمراء بمصر، وأعلن تأييده للسلطان برقوق المنفي بالكرك، غير أن الأمير كمشبغا نائب حلب وأعوانه لقوا معارضة من داخل نيابة حلب من الحرافيش ومن باقي فئات المجتمع، وذلك بسبب تأييدهم السابق لثورة يلبغا الناصري على السلطان برقوق ورضاهم عن عودة السلطان حاجي بن السلطان الأشرف شعبان للسلطنة، ومن ثم وقع كمشبغا الحموي نائب حلب في صراع مع الحرافيش وباقي فئات المجتمع، ولكن الأمر انتهى بهزيمة الحرافيش ومن ساندهم من العامة ونصر كمشبغا[3].

وحين علم السلطان حاجي والأمير منطاش بهذا الأمر تقدما من مصر إلى الشام وجرت معركة قرب دمشق مع الظاهر برقوق وكمشبغا الحموي هزم فيها الأخيران سنة (792هـ/1390م) فعاد كمشبغا الحموي وتحصن بقلعة حلب، وهنا أرسل منطاش من دمشق

---

(1) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج4، ص93. العمري، مسالك الأبصار، ج27، ص431.

(2) كمشبغا الحموي اليلبغاوي ناب بحلب ثم بدمشق ثم بحماة ثم بدمشق ثم بصفد ثم بطرابلس مرة بعد أخرى وتنقلت به الأحوال ثم قبض عليه بطرابلس وسجن فيها ثم أفرج عنه يلبغا الناصري وتوجه معه لمصر وولاه نيابة حلب فلما خرج منطاش على برقوق قدم على برقوق من حلب وقاتل معه وقام بنصرته ثم رجع إلى حلب فلما استقر الظاهر في المملكة ثانيا أحضره إلى القاهرة وعمله أتابك العساكر ثم غضب عليه واعتقله بالإسكندرية حتى مات سنة (801هـ/1399م) السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص230.

(3) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م9، ج1، ص147. العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، 375-377. ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص256.

قوة لمساعدة نائب حلب الجديد ألطنبغا الحلبي الدوادار[1] وبالفعل تمت محاصرة كمشبغا قرابة شهرين ونصف [2]، وظل كمشبغا يقاتل مدة طويلة إلى أن فر منطاش من دمشق، فضعف أمر المهاجمين لقلعة حلب، وما يهم في هذه الأحداث أن أهالي حلب وبالتحديد بانقوسا[3] أمروا عليهم أحد أبرز رجال الحرافيش واسمه " أحمد بن الحرامي " والذي انتدبه أهل بانقوسا أميراً عليهم أثناء مساعدتهم لجيش ألطنبغا المحاصر وظل يقاتل مع الجيش حتى تمكن كمشبغا من القبض عليه وعلى أخيه ومعه مجموعة من الأتراك والأمراء البانقوسية فوسطهم كمشبغا سنة (792هـ/1390م) [4]، ولكن مع ذلك فلا يمكن تبرئتهم من بعض التصرفات التي اعتادوا عليها في فترات الفوضى السياسية من سلب ونهب، ففي دمشق سنة (791هـ/1388م) وفي أثناء القتال بين الأمير يلبغا الناصري[5] نائب السلطنة في دمشق الثائر على السلطان برقوق والأمراء قام الحرافيش في دمشق بمعونة التركمان الذين كانوا إلى جانب يلبغا في القتال وزادوا على ذلك بنهب أعيان دمشق من الأجناد، إضافة إلى نهب الحوانيت واستمروا في هذا العمل أياماً، وقد تباينت آراء المؤرخين في عددها، فبعضهم قدرها بسبعة أيام وبعضهم بأربعة

---

(1) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج1، ص306. الأمير علاء الدين ألطنبغا بن عبد الله الحلبي، أحد مقدمي الألوف بديار مصر في الدولة المنصورية حاجي من قبل منطاش؛ فلم تطل مدته وقبض عليه بعد هروب منطاش وانهزامه من الملك الظاهر برقوق، وقتل بالقاهرة في سنة (793هـ/1391م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج3، ص57.

(2) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م9، ج1، ص215.

(3) بانقوسا جبل في ظاهر مدينة حلب، من جهة الشمال، وهو محلّة كبيرة. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص331. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص158.

(4) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م9، ج1، ص215. ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص398. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج12، ص13.

(5) يلبغا الناصري، ناب في حلب، ولما تسلطن الظاهر برقوق عزله عن إمرة حلب وتوجه إلى القاهرة حيث سجن هناك، ثم أعيد مرة ثانية لحلب (ت814هـ/1411م) السخاوي، الضوء اللامع، ج10، ص291. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج6، ص220-223.

عشر يوماً[1]، وعرف عن الحرافيش عدم الالتزام بالمعاهدات التي كانت تعقد بين المسلمين من جهة وبين الأمم الأخرى، وهذا ما ورد في رحلة برتراندون الأبروكيير إلى فلسطين ولبنان وسوريا في منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، فقد أساء الحرافيش إلى الزوار الذين قدموا إلى دمشق، وقد كانت أعمال الحرافيش سراً عن أعين القضاة ورجال الدولة حيث لجأت الدولة لحماية هؤلاء بالإضافة إلى التجار القادمين من الخارج بأن دعتهم إلى البقاء في بيوتهم ليلاً[2]. وفي سنة (824هـ/1422م) برز دور الحرافيش المساند للأهالي مجدداً في مدينة حلب، وذلك حين قرر الأمير تغري بردي المؤيدي (ت830هـ/1427م)[3] العصيان على السلطان سيف الدين ططر(ت824هـ/1422م) لأنه عزله عن نيابة حلب، فقام تغري بردي باستدعاء التركمان والعربان واستخدم المماليك في القبض على بعض أمراء حلب[4]، أما السلطان المملوكي سيف الدين ططر فقد أمر القوات الشامية والحلبية بمقاتلة الأمير تغري بردي والأمير كزل[5] الذي سانده [6]، ولما كان موقف الأهالي معارضاً لهذه الثورة فقد وقف الحرافيش مساندين لهم، فقد هاجموا الأمير تغري بردي بدار العدل لأنهم لم

---

(1) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، م9،ج1، ص 65.

(2) محمود، زايد، رحلة برتراندون الأبروكيير إلى فلسطين ولبنان وسوريا، مجلة أبحاث، السنة 15، ج3، بيروت 1962 ص315. زيادة، دمشق في عصر المماليك، ص135.

(3) تغرى بردى بن عبد الله المؤيدي، من مماليك المؤيد شيخ، استقر في نيابة حلب عوضاً عن الأمير إينال الجكمى فاستمر بحلب مدة يسيرة وخرج عن طاعة الملك الظاهر ططر، ولكن قبض عليه سنة (825ه/1423م) فاستمر محبوساً بقلعة حلب إلى أن قتل بها (830هـ/1427م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج4، ص43-45.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج14، ص222.

(5) كزل نائب البهنسا، ممن تأمر في أيام المؤيد ثم عصى مع تغرى بردى نائب حلب في سنة (824هـ/1422م) والظن أنه قتل في تلك الوقعة. السخاوي، الضوء اللامع، ج6، ص228.

(6) الصيرفي، نزهة النفوس، ج3، ص13.

يرضوا عن عصيانه[1]، واستطاعوا إخراجه مهزوماً فلم يستطع مقاومة تلك القوى لذا هرب من حلب[2]، وشبيهة بهذه الحادثة ما حصل سنة (841هـ/1437م) حين أعلن تغري برمش (ت842هـ/1439م) [3] استقلاله بنيابة حلب، وبدأ يهاجم قلعة حلب وحاصرها واستمال عدداً من أهلها الذين تظاهروا بالتعاون معه، ووعدوه بتسليم القلعة، ومن ثم زادت هجمات تغري برمش على القلعة ونقب عدداً من أجزائها، وحين أوشك على الاستيلاء على قلعة حلب ظهر الحرافيش مرة أخرى وأشاعوا بين الأهالي أن تغري برمش سيسمح للتركمان الذين بصحبته بنهب أهالي حلب، فسارع أهالي حلب إلى القضاء على تغري برمش قبل أن يتسبب في كارثة محققة، ومرة أخرى يظهر التعاون بين الحرافيش وباقي فئات المجتمع فيقومون بمحاصرة تغري برمش بدار السعادة، فوجد الأخير نفسه غير قادر على المقاومة ففر خارج السور، في حين هاجم الحرافيش والعوام دار السعادة واستولوا على ما بها من الخيول وأعملوا القتل في مماليك تغري برمش سنة (842هـ /1439م) [4]، وفي كل مواقفهم الحربية كانوا يبذلون أقصى ما لديهم من قدرة قتالية ففي دمشق سنة (903هـ/ 1497م) وقف الحرافيش مع نائب القلعة أثناء حصار آقبردي الدوادار لدمشق الذي كان يسانده بعض الأمراء، وقد قدموا صورة بطولية حتى ذكر أن آقبردي الدوادار قال :(ما كنت أظن أن أحداً من العوام يقدر على القتال هكذا، وكانوا يظهرون على سور دمشق ويسبونه ويوبخونه وينادون عليه، يا غراب، لكونه

---

(1) ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص130.

(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج3، ص243. ابن العجمي، كنوز الذهب، ج2، ص130.

(3) تغري برمش ترقى حتى صار أحد المقدمين ثم أمير آخور ولا زال حتى تولى نيابة حلب في سنة (839هـ/1436م) ثم شق العصا في أيام الظاهر جقمق، وآل أمره إلى أن قتل في سنة (842هـ/1439م) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج4، ص58-65. السخاوي، الضوء اللامع، ج3، ص35.

(4) المقريزي، السلوك، ج4، ق3، ص1111. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج15، ص292-293. المنهل الصافي، ج4، ص63.

أسمر، ما فاعل ما صانع، وهو يتألم من ذلك، وينكبت منه) وفعلاً صمدوا مع نائب القلعة حتى تراجع المحاصرون[1]، ومن خلال كتاب التعليق لمؤلفه ابن طوق استطعت رصد شيء من علاقتهم مع العامة في حياتهم اليومية وذلك من خلال متابعة كبير الحرافيش ابن شعبان، فقد وقع ابن شعبان في مشاكل أدت إلى إثارة الرأي العام ضده وضد الحرافيش معه، منها موضوع وظيفة البيمارستان، فقد تنازل خادم البيمارستان خليل الصمادي عن وظيفته وهو على فراش الموت، وأوصى بالجزء الثاني من الوظيفة لابنته، ولكن ابن شعبان هدد البنت وتوعدها بكل سوء أملاً في الحصول على الوظيفة كاملة، ويبدو انه استطاع أن يحصل على الوظيفة كاملة [2]، وهذا ما تؤكده يوميات سنة (891هـ/1486م) ولكنه لم يكن أميناً على معلوم البيمارستان مما دفع خازندار النائب لضربه خمس مائة عصا، وحبسه إلا أن القاضي الشافعي تشفع فيه فأطلق من السجن ثم خلع عليه[3]، ولعب ابن شعبان والحرافيش معه دوراً واضحاً في إثارة الناس وبث الشائعات[4]، وتخويف الناس من قدوم رسوله بمراسيم من السلطان الأشرف قايتباي في القاهرة [5]، وحين تفاعلت القضية تدخل القاضي الشافعي حيث أرسل رسولاً إلى القاهرة ومعه اثني عشر كتاباً إلى السلطان ، وهذه الكتب تتضمن آراء رجالات من دمشق بسبب قضية ابن شعبان [6]، وكانت نتيجة هذه الكتب أنه جاء مرسوم من القاهرة بالكشف على ما بحوزة ابن شعبان[7]، كما نلحظ اتهاماً لابن شعبان ومن معه من

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص199-200.
(2) ابن طوق، التعليق، ج1، ص498.
(3) ابن طوق، التعليق، ج2، ص621.
(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص282.
(5) ابن طوق، التعليق، ج1، ص283.
(6) ابن طوق، التعليق، ج1، ص320.
(7) ابن طوق، التعليق، ج1، ص371.

الحرافيش بإثارة الشغب والتواطؤ على المنكرات، ففي سنة (888هـ/1483م) نزل تقي الدين بن قاضي عجلون مفتي الشام للتأكد من وجود بيت للحشيش هناك وقام بعض أصحابه بمداهمة البيت ونجحوا في أسر بائع الحشيش وأخذوه معهم، فحاول الحرافيش مع سلطانهم محمد بن شعبان بتخليصه ورموا المفتي بالحجارة واستطاعوا تخليص البائع[1]، ولم يتعرض المفتي في هذه الحادثة إلى أذى[2]، إلا أن ردة الفعل جاءت من العامة حيث اجتمعوا في اليوم التالي عند المفتي واحتجوا على ابن شعبان والحرافيش ثم ذهبوا للجامع الأموي، ومع حالة الفوضى هذه ذهب كثير من العامة إلى بيت ابن شعبان وخربوا ونهبوا[3]. ويتابع ابن طوق أخبار ابن شعبان وسفره إلى القاهرة سنة (889هـ/1484م) [4] وسفره الثاني إلى القاهرة سنة (898هـ/1492م) [5] وعودته منها[6]، ونستشف غضباً من ابن طوق على ابن شعبان في إحدى سفراته إلى القاهرة حيث دعا عليهم قائلاً: (بألا ترد غربتهم ولا تكشف لهم كربة وأن تكون البراري والقفار لهم تربة)[7]، وبرغم ما ورد عن الحرافيش من معلومات في مصادر العصر المملوكي إلا أنها تظل قاصرة عن رسم صورة واضحة عن هذه الفئة، فقد سكتت المصادر في أحيان كثيرة ولم تذكر عنهم إلا النزر اليسير بينما فصلت وأسهبت في ذكر السلاطين والأمراء وتتبعت الأحداث السياسية بكل تفاصيلها.

(1) الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص193.
(2) ابن طوق، التعليق، ج1، ص275.
(3) ابن طوق، التعليق، ج1، ص279 . الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص193.
(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص355.
(5) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1178.
(6) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1485.
(7) ابن طوق، التعليق، ج1، ص355.

3- الزعر في العصر المملوكي:

أ - معنى كلمة (الزعر):

منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، نلحظ في المصادر مفردة "الزعر"[1]، وتتفق المعاجم على أن الزعر هي قلة الشعر وتفرقة، ورجل أزعر أي سيء الخلق، وقليل المال، والزعرة والزعر جمع زاعر، وهو اللص المحتال والمتشرد[2].

ب ـ بدايات ظهورهم:

يذكر السخاوي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي وبالتحديد في سنة (746هـ/1345م) ما نصه:(تزايد الفساق باجتماع الزعر، ولعبة الحمام للشلاق)[3]، بحيث تسلط كثير من العبيد والغلمان بانضمامهم للزعر ونحوهم على الناس حتى سفكت بينهم الدماء ونهبت الحوانيت أو جلها فضلاً عن غير ذلك، وضعف الوالي عن دفعهم، وكانت من الحوادث الشنيعة في ذلك الوقت[4]، وهذا يؤكد أن ما أورده عبد اللطيف فهمي في كتابه "الفتوة الإسلامية" من أن أقدم الإشارات للزعر تعود للقرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي[5] ليس دقيقاً، ولكن ما مناسبة هذا النص الذي أورده السخاوي؟ وكيف كانت الأوضاع السياسية؟ إن من يبحث عن الأوضاع السياسية السائدة في الدولة المملوكية ما بين سنتي (741هـ/1340م-784هـ/1382م) يجد أن الدولة مرت بفترة اضطراب سياسي

---

(1) النجار، حكايات الشطار، ص 189.

(2) الفراهيدي، العين، ج1، ص352. ابن سيده، علي بن إسماعيل (ت458هـ/1065م) المحكم والمحيط الأعظم، ج1، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000، ص 518، وسيشار إليه لاحقاً ابن سيده، المحكم، ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص 323.

(3) الشلق هو الضرب بالسوط ، ومن هذا المعنى يكون شلاق الزعر هم جماعة الأراذل الذين يتعرضون للمارة بالضرب. ابن منظور، لسان العرب،ج10، ص186. المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص695 حاشية، وذكر ابن تغري بردي أن الشلاق هم الزعر الذين يضايقون الناس في الطرقات ويدخلون الخوف في قلوبهم. ابن تغري بردي،النجوم الزاهرة، ج10، ص122.

(4) السخاوي، وجيز الكلام، ج1، ص 16. ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة، ج10، ص123.

(5) عبد اللطيف، محمد فهمي، الفتوة الإسلامية، القاهرة، د.ت، ص25، وسيشار إليه لاحقاً، عبد اللطيف، الفتوه الإسلامية.

خلال هذه الفترة ، فقد حكم في هذه الفترة البالغة ثلاثاً وأربعين سنة اثنا عشر سلطاناً، ثمانية من أولاد الناصر محمد بن قلاوون في العشرين سنةً الأولى بعد وفاته، وأربعة من أحفاده خلال عقدين كاملين، بمعدل ثلاث سنوات ونصف لحكم السلطان الواحد، ولم يكن أحد من السلاطين مؤهل لأن يمارس صلاحياته إلا بواسطة الأتابكة المعروف عنهم الجشع والفساد[1]، وهكذا فقد وجد الزعر الفرصة سانحة لهم للفساد والتمرد، وهذا ما أغرى فئات أخرى مثل العبيد والغلمان بالانضمام لهم، ولكن من الممكن أنهم وجدوا قبل ذلك بزمن طويل، ومع العصر الأيوبي اضمحل شأنهم نتيجة لنشاط الخليفة الناصر لدين الله العباسي (ت622هـ/1225م) الذي حاول أن ينظم الفتوه وسعى إلى نشرها وأرسل الى ملوك الإسلام طالباً منهم الانتساب إلى الفتوة والسعي للالتزام بها[2]، وأصبحت مفردة (زعر) فيما بعد تعني المقاتلة الذين يظهرون ويختفون فجأة، وهذا يعني أن ظهورهم مرتبط بظهور الفتن والأزمات، وقد نشطوا في الأحياء الفقيرة والأشد صلةً بالأرياف[3]، وإن ما يلاحظ بالدرجة الأولى هو توفر المادة الإخبارية عن زعر دمشق تحديداً لدى المؤرخين الدمشقيين وعلى الأخص لدى ابن طولون الصالحي الذي لم يكتف بالحديث عن نشاط الزعر في كتبه التاريخية بل ذكر أنه صنف كتاباً صغيراً عن الزعر[4].

ج ـ أماكن تواجدهم ولباسهم وألقابهم:

يبرز نشاط الزعر في مدينة دمشق وضواحيها بشكل واضح وجلي في العصر المملوكي الثاني، فقد كان لكل حارة زعرها، فهناك زعر باب الجابية[5]، وزعر باب

---

(1) بخيت، رجب محمود، تاريخ دولة المماليك، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010 ص267-324 وسيشار له لاحقاً بخيت، تاريخ دولة المماليك. طقوش، تاريخ المماليك، ص299.

(2) سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج8، ص513. عبد اللطيف، الفتوة الإسلامية، ص25.

(3) النجار، حكايات الشطار، ص189.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان ج1، ص 76.

(5) ابن طوق ، التعليق ج4 ص1568 . باب الجابية وهو الباب الغربي لدمشق منسوب إلى قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان قرب مرج الصفّر في شمالي حوران. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج2،

السريجة[1]، وزعر الشويكة[2] ، وزعر الشاغور[3]، وزعر الصالحية[4]، وتزعم هؤلاء الزعر زعيم واحد أو أكثر في الحي نفسه، ويدعوه ابن طولون باسم "أزعر"[5] وأحياناً يسمون الكبار[6].

وكان معظمهم من العناصر الشابة في كل حي من الأحياء، ولهم زيهم الخاص حيث كانوا يلقون على أكتافهم رداءً، أو ما يشبه ذلك كشعار مميز لهم، وكانوا يقصون شعور رؤوسهم، ونتيجة لذلك عرفوا باسم (قرعاني)[7] وحمل الزعر الخناجر، التي كانت سلاحهم الرئيس لكنهم استخدموا السيوف في بعض الحالات[8]، وقد اشترطوا على من ينضم إليهم حسن استعمال السيوف والخناجر وغير ذلك من الأسلحة التي يقتنونها[9]، وعموماً فقد أطلق عليهم أسماء مثل الأوغاد، الناس الأشرار، غوغاء الزعران، غوغاء الحارات، أوباش

ص408. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص91. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص304. بدران، منادمة الأطلال، ص39.

(1) ابن طوق ، التعليق ج2، ص11603.

(2) ابن طوق ، التعليق ج4، ص1499.

(3) ابن طوق ، التعليق ج1، ص441، ج4، ص1500.

(4) ابن طوق ، التعليق، ج4، ص1617. الصالحية، وهي مدينة ممتدة في سفح جبل قاسيون بإزاء المدينة ، ذات بيوت وجناين ومدارس وربط وترب وعمائر ضخمة وبيمارستان وأسواق جليلة، وجميع الصالحية مشرفة على دمشق. العمري، مسالك الأبصار، ج3، ص519. السويدي، عبد الله بن حسين البغدادي (ت1174هـ/1761م) النفحة المسكية في الرحلة المكية، المجمع الثقافي، الإمارات، 2004 ص247-248. وسيشار له لاحقاً السويدي، النفحة المسكية في الرحلة المكية.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص182 - 190.

(6) ابن طوق ، التعليق، ج4، ص1824 . لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص 238.

(7) ابن طولون، إعلام الورى، ص174 . لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص 238.

(8) ابن طولون، إعلام الورى، ص195-203 . ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 182-190.

(9) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 238-239-292.

الزعران، وكلها تعابير منحطة وذميمة[1]، وتورد بعض المصادر أسماء مختلفة للزعر مثل بلاصية[2] وعوانية[3] وحراميه[4] ومناحيس[5] وعياق[6] وأوباش[7].

ونستطع أن نؤكد أن الزعر جاؤوا من بين أوساط العامة، وهذا ما توحي به أسماء الذين أتت على ذكرهم بعض المصادر، فكبير زعر الشاغور اسمه ابن الطباخ، كما وجدت أسماء مثل قريش وابن الأستاذ وأبو طاقية، وكان كبير زعر الصالحية اسمه ابن الجاموس، وكان أحد زعماء الزعر اسمه محمد النجار، فهؤلاء وغيرهم انتموا للعامة[8].

وكان للزعر مراتب وتقاليد تحكمهم كما كان لهم رؤساء ينظمون فعالياتهم، وقد بلـــغ من درجة ومكانة بعض رؤساء هذه التنظيمات أن الواحد منهم كان يركب في موكب ويشارك في بعض نشاطات المدينة كاستقبال نائب السلطنة أو القاضي أو غيره من كبار الموظفين عند قدومه لتولي وظيفته[9]، وهذا ما سنبينه لاحقاً في إطار علاقتهم مع السلطة المملوكية.

---

(1) لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص 238.

(2) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1449، ج4، ص1771. البلاصية هم الذين يأخذون أموال الناس غـصباً بشتى الحجج. العلبي، أكرم حسن، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحـدة للطباعـة، دمشق، 1982، ص 95 – 96. وسيشار إليه لاحقاً العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين.

(3) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1449، ج4، ص1771. العوانية هم الذين يتجسسون على السكان لصالح الحكام. العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص95 – 96.

(4) ابن طوق، التعليق، ج3، ص 1512.

(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص 1912.

(6) ابن طوق، التعليق، ج3، ص 1515.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 27–180.

(8) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 27 –180.

(9) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص257 – 258. العلبي، دمشق بين عصر المماليك، ص102– ص93.

وكانت منطقة ميدان الحصا[1] في مدينة دمشق مركزاً لنشاطهم الأكبر وهي تعد امتداداً لمنطقة باب الصغير نحو الجنوب كما نشط الزعر في منطقة الشاغور وهي مرتبطة بمنطقة باب الصغير من الجهة المقابلة لميدان الحصا، فالزعر هم امتداد للأحداث بالاسم وفي موقع النشاط نشطوا في أحياء دمشق النائية[2].

د ـ أحوالهم:

نلاحظ من خلال تتبع المصادر أن تنظيم الزعر نشط في فترة الدولة المملوكية الثانية (البرجية) ولا يعني هذا الأمر أنهم لم يظهروا قبل ذلك في الدولة المملوكية الأولى (البحرية)، فهناك إشارات على أنهم قاموا بأعمال مفسدة في دمشق سنة (735هـ/1335م) مما دفع القضاة إلى حث نائب السلطنة الأمير تنكز على ردع الزعر وتعذيبهم[3]، وحين ضعفت السلطة ظهروا كقوة فاعلة ومؤثرة في المجتمع، وأكثر ما أقدم عليه هؤلاء الزعر هي جرائم القتل، وذلك لغياب السلطة الحاكمة الفعلية في المنطقة واضطراب حبل الأمن، وإن أكثر جرائم القتل والسرقة والنهب واستغلال الأوضاع السياسية المضطربة ونهب الحوانيت والدور كانت تصدر منهم، ففي سنة (899هـ/1493م) نزل الزعر" على شخص إفرنجي مقيم في زقاق كنيسة النصارى، وذبحوا زوجته وجارية حبشية له، وأخذوا مالاً جزيلاً[4].

وفي نفس السنة (899هـ/1493م) توفي في السجن شعبان الحوراني أحد الزعران الذي كان محبوساً لقيامه بقتل الزين بن السيراجي[5].

---

(1) ميدان الحصا جنوب دمشق خارج السور. ابن طولون، إعلام الورى، ص72-105-298.

(2) زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة دمشق 1990 ص 119 وسيشار له لاحقاً زعرور، الحياة الاجتماعية.

(3) المقريزي، السلوك، ج 2، ق 2، ص 381.

(4) ابن طوق، التعليق،ج 3، ص 1300.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج 1 ، ص274.

وفي سنة (902هـ/1496م) "قتل ابن علاء الدين المقري الشاهد بباب المصلى في الوادي الفوقاني وألقي في سياج هناك وجرح معه صبي رفيقه، وذكر أن زعر الشاغور هم الذين قتلوه[1]، وفي السنة التالية (903هـ/1497م) قتلوا نقيباً[2]، وقتلوا شخصاً يقال له ابن الزهوري أخذوا شاشه فشتمهم فضربوه بالسكاكين فقتلوه واستمر مطروحاً إلى بعيد الظهر[3]، وفي سنة (905هـ/1499م) قتل أحد الزعر ويدعى عبد السلام بن الحموي نصرانياً في حارة النصارى يدعى شريم[4]، وفي سنة (906هـ/1500م) شنق دوادار النائب أحد الزعر وأصله من عربيل[5] إذ اعترف أنه قتل شخصاً مغربياً عند حارة الخاتونية، فشنق تحت القلعة في الجورة[6].

هذه نماذج عن بعض جرائمهم وهي عديدة لا حصر لها، ولكن ما سبب كثرة هذه الجرائم ؟ لا بد أن الثأر بين هذه المجموعات هو الدافع الرئيس لهذه الجرائم، ففي سنة (910هـ/1504م) ثأر الزعران لأحد التابعين لهم والمعروف بأحمد الصواف، إذ هجموا على حارة العبيد الذين رأوا فيهم يداً للنائب قانصوه البرجي الذي قتل هذا الشاب[7]، وفي سنة (914هـ/1508م) قام الزعر بقتل القاضي شهاب الدين أحمد بن عيد الحنفي[8]، إذ طلع هو

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1500.

(2) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1567.

(3) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1658.

(4) ابن طوق، التعليق ج4، ص1829.

(5) عربيل من قرى الغوطة. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج52، ص175. كرد علي، غوطة دمشق، ص83.

(6) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1894.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص120.

(8) شهاب الدين أحمد القاضي الشهير بابن عيد الحنفي، ولي نيابة القضاء بالقاهرة، وسافر إلى دمشق، وولي بها نيابة القضاء عن ابن يوسف، وتزوج بدمشق زوجة القاضي إسماعيل الحنفي، وطلع هو وهي إلى بستان بالمزار، فنزل عليه الزعر ليلاً فقتلوه، وقتلوا غلامه. الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص152.

وزوجته إلى بستان المزار بالقرب من الشاغور، فنزل عليه الزعر وقتلوه وغلامه[1]، ولم تتضح أسباب الاعتداء على القاضي وقتله ولكن من المرجح أنه مرتبط بعداء شخصي بين الزعر والقاضي.

كما عرف عنهم السلب والنهب والاعتداء لتحصيل المال، فقد وردت في بعض المصادر إشارات لتكرار حوادث سلب ونهب الحوانيت والقيساريات في دمشق في سنة (746هـ/1345م) مما أثر سلباً على اضطراب الأحوال وانعدام الأمن في المدينة [2] ، وقد سرقوا سوق جقمق[3] داخل باب الجابية، حيث هاجم الحرامية حوانيت النصارى وغيرهم وبلغت سرقتهم سبع حوانيت قماش ثم أغاروا على سوق آخر وذلك سنة (890هـ/1485م)[4]، وفي سنة (894هـ/1488م) هجم أحدهم على السيد محمد بن أبي النجا المتزوج حديثاً وأخذوا معظم القماش من داره في الليل قبلي تربة تنم بميدان الحصا[5].

وفي سنة (902هـ/1496م) قبض على أحد الأشخاص يدعى النحاسي من الزعر، وقد سلب من أحد الأشخاص مبلغ يصل لأربعة أشرفيات ذهب وفضة أكثر من خمسين قطعة وكان قد سلبها بأن مد يده في جيب الرجل ونشلها بسرعة، ويظهر أن ابن النحاس هذا كان

(1) الحمصي، حوادث الزمان، ج2، ص187.

(2) المقريزي، السلوك، ج2، ق2، ص518 . الحجي، حياة ناصر، أحوال العامة في حكم المماليك (678-784 هـ /1279-1382م) ط1، دار الفلاح، الكويت 1984، ص338 وسيشار له لاحقاً الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك.

(3) سوق جقمق نسبةً إلى جقمق نائب الشام (ت824هـ/1421م) الذي بناه وأوقفه على المدرسة التي بناها قرب الجامع الأموي، ابن تغري بردي، المنهل الصافي،ج6،ص398-400 . بدران، منادمة الأطلال، ج1، ص323-324.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 68.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 105.

ضمن مجموعة كبيرة من الزعران إذ دخلوا مسجداً عند باب السلامة [1] فيه عدد من الدباغين والتركمان فأرادوا سلبهم وعريهم... [2].

حتى أن تحصيل قوتهم كان يأتي عنوة وعلانية في بعض الأحيان فذكر أنهم سنة (903هـ /1497م) جاؤوا إلى بيت الشغري وطرقوا الباب فخرج إليهم وقالوا له عشينا؟ "فلم يجبهم الى ما أرادوا، فضربوه بالسيوف إلى أن مات، ثم جردوه، وأدخلوه بيته، ونهبوا ما بداخله...." [3].

وبالمحصلة فقد كانوا شراً لا يطاق، ففي نيابة أركماس في دمشق سنة (911هـ/1505م) عندما وسط[4] النائب كبير الزعر في الجابية المعروف بالسمكري علق ابن طولون على ذلك بما يدلل على مكانته في المجتمع وعلى كثرة شره وأذاه للناس فقال:(بأن الله أراح منه البلاد والعباد)[5]، ولعل هذا ما دفع ابن طوق إلى القول: (وهؤلاء الذين يقال لهم الزعر، قد كثروا وكثر فسادهم، ويقال أنهم قتلوا قتيلاً عند حمام الجوخي، وداروا في أسواق المدينة فلا يخالفهم أحد، وهم أولاد الحموي وشخص آخر طلب من شخص شيئاً بسوق

---

(1) باب السلامة وهو مشهور الآن بباب السلام وهو من دمشق سمي بذلك تفاؤلاً لأن القتال كان لا يتهيأ على البلد من ناحيته لما دونه من الأشجار والأنهار وهذا الباب مما أحدثه المرحوم نور الدين محمود بن زنكي ثم تهدم مما توالى عليه من الحروب ثم جدده الملك العادل. بدران، منادمة الأطلال، ص41.

(2) ابن طوق، التعليق، ج3، ص 1491.

(3) ابن طوق، التعليق، ج4، ص 1564-1565.

(4) التوسيط، شكل من أحكام الإعدام في العصر المملوكي، وطريقته بأن يعرى الشخص من الثياب ثم يشد إلى خشبه مطروحة على الأرض ويضرب بالسيف تحت سرته بقوه ضربة تقسم جسمه نصفين فتنهار أمعاؤه على الأرض. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص 48.

(5) ابن طولون، إعلام الورى، ص191.

النحاسين داخل البلد فلم يعطه فضربه وجرحه، والمقصود أنه كثر فسادهم ويكفي الله تعالى منهم...) [1].

ويأتي ابن طولون ويلقي باللائمة على بعض الوعاظ والذين يسميهم بالجهلة، ويتهمهم بالتقصير في الوعظ، ذلك أنه إذا سمع أحد الزعر أن شارب الخمر، أو القاتل الذي قتل مائة نفس ودخل الجنة، ازداد جرأة على المعصية فيقوم من مجلسه منشرحاً وقلبه على الإقبال على المعاصي منفتحاً[2]، فيندفع الزعران في غيهم لاعتقادهم أنه إذا غفر لمن قتل مائة نفس، فمن باب أولى أن يغفر لهم وهم لم يقتلوا مثل هذا العدد بعد، فينطلقون إلى مزيد من السلب والقتل، وهكذا كانوا يأخذون أموال الناس بالتخويف ويمارسون الزنا واللواط ولا يغتسلون ولا يتطهرون[3].

ويلقي ابن طولون باللائمة على المفتين الذين يفتون بجواز قتل العوانية، وهذا الأمر قد فتح بابا واسعاً للشر حيث أوعز بعض الفقهاء للزعر بأنه يجوز قتل أعوان الظلمة فصار من في قلبه شيء (إما يقتله أو يغريهم ويعطيهم دراهم فيقتلونه ويحتجون بأنه عوني، فحصل بذلك فساد كبير) [4]، ولكن هل وجد من الفقهاء من عمل ذلك؟ في الواقع ليس هناك من أمثلة تؤيد هذا الرأي الذي طرحه ابن طولون ، ولكن ابن طوق يذكر في حوادث سنة (902هـ/1492م) انه وفي مجلس النائب أفصح دوادار السلطان بحضور الخاصكي والأمراء وبحضور القاضي الحنبلي عن معلومة اتهم فيها القاضي الحنبلي بمساندة زعر

(1) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1437. برغوث، عبد الودود، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، ط1، الجامعة الأردنية 1974 ص408 وسيشار له لاحقاً برغوث، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص202- 245- 278.

(3) النجار، حكايات الشطار، ص 55.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 76.

الصالحية والمناحيس فيها، وأنه هو الذي يقوي رؤوسهم، وقد شارك القاضي الشافعي في الجلسة وأكد على دور القاضي الحنبلي بمساندة زعر الصالحية[1]، ولعل في هذه الحادثة ما يؤكد مقولة ابن طولون، ويورد ابن طولون مجموعة من الأسماء قتلوا بناءً على ذلك، ويبدو أن الزعر أصبحوا قوة مؤثرة وفاعلة دفعت ابن طولون لأن يكتب فيهم كتاباً أسماه (الذعر في أحوال الزعر)[2] ويظهر أنه لم ير النور حتى هذه اللحظة.

وحين كان يتسلم نائب قوي كان الناس يفرحون عله يحد من سطوة الزعر كما حدث سنة (903هـ/1497م) حين تسلم النائب أينال الفقيه ففرح الناس به[3]، فهو قد وسط بعضهم واستعرض في اليوم التالي جيش دمشق فاطمأن الناس قليلاً ولكنه لم يمكث في النيابة طويلاً إذ ورد مرسوم بعزله وتولية جان بلاط[4].

ومن الإنصاف القول أن الزعر كانوا يظهرون مواقف بطولية في حالات الاعتداء الخارجي، ففي سنة (803هـ/1400م) حين وصلت إلى دمشق رسل تيمورلنك تطلب من النائب تسليم مدينة دمشق وتأهب النائب للهروب "وقف له أهل القبيبات[5] ينتظرونه ، فلما خرج ضربوه بالمقالع والسيوف ونالوا منه ودفعوه إلى دار السعادة فرجع ، وكذلك فعلوا مع الأمراء وقاضي القضاة والقاضي المالكي[6] ، وزادوا على ذلك بأن قاموا بهدم وإحراق ما حول البلد من البناء ثم صعدوا إلى الأسوار واستعدوا لقتال تيمورلنك[7]، ولم يرض هؤلاء

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1512.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص76.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 185.

(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 188.

(5) القبيبات محلة جليلة بظاهر مسجد دمشق. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص308.

(6) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص 211. غوانمة، يوسف، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ط1، دار الفكر، عمان 2005 ص26 وسيشار له لاحقاً غوانمة، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية.

(7) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص211.

الزعر موقف نائب حلب الذي لجأ إلى دمشق واستنكروا على الحاجب إكرامه لجماعة حلب ووقع بينهم رمي بالحجارة والنبال حتى دخل القضاة بين الطرفين[1]، وحين حاصر تيمورلنك مدينة دمشق قاتلوا بشجاعة في أزقة دمشق إذ كانوا يعتقدون أن السلطان خرج لقتال تيمورلنك ولكن تبين لهم انه هرب وترك دمشق دون حماية[2] ،كما عرف عن بعضهم أنهم أصحاب حمية ففي سنة(809هـ/1406م) شاركوا في بناء قلعة دمشق وقاموا بنقل الحجارة من الخندق وتزاحموا على ذلك[3].

وجرت العادة أن يكون للزعر كبيراً أو مقدم فمن سنة (904 هـ/1499م-907هـ - 1501م) كان كبيرهم هو السيد قريش، ومن (907هـ/1501م-910هـ/1504م) كان هناك ابن الطباخ[4] وعرف خليفته في سنة (910هـ/1504م) باسم أبو طاقية[5] أما في الصالحية فقد عرف الجاموس كأحد كبار الحي[6] وفي ميدان الحصا عرف ابن الأستاذ في (907هـ/1501م- 913 هـ/1507م)[7]، ومن خلال هذه الألقاب نجد أن الزعر لقبوا أنفسهم بألقاب يستشف منها المنزلة العالية أو النبيلة تدليلاً على الكرم والنبل، مثل قريش أو ابن الأستاذ ، لكي يصبغوا تنظيمهم بصبغة الاحترام، ظناً منهم أن التسمية تمحو الصفات السيئة التي اتصفت بها منظمات الزعر، أو ألقاب تدلل على المهابة ولإخافة الأعداء فتسمى بعضهم ب(أبي طاقية) أو(الجاموس) للدلالة على ضخامة الجثة، وأيضاً أبو بكر بن

---

(1) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص222.
(2) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص231.
(3) ابن حجي، تاريخ ابن حجي، ص571.
(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص83.
(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1 ص122.
(6) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج 1، ص 106 . لابيدوس ، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص 258.
(7) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ح1، ص111.

المبارك[1] وسمكري شيخ حارة باب الجابية الذي وسطه النائب[2] والغزال أحد المقدمين في باب الجابية أيضاً[3]، ومن كبرائهم أيضاً ابن الذهبي[4]، وبركات وابن فكيك[5] وابن الطيب[6] وقزية[7] والسيد عريش[8] وابن العجمي الذي اعتبره ابن طوق كبير حارة الطاحون[9].

ه - عوامل ظهورهم:

ولكن لا بد من طرح السؤال التالي، ما هي العوامل التي ساعدت على تكوين هذه الفئة وبروزها؟ ليست العوامل التي أدت إلى الظهور الصعاليك في مجتمع ما قبل الإسلام، والعيارين والشطار في بغداد ببعيدة عن الأسباب التي أدت لظهور الحرافيش والزعر في المجتمع الشامي في العصر المملوكي، فيمكن اعتبار الغلاء أحد هذه العوامل، فهو من أكثر الظواهر الاقتصادية إضراراً بالعامة، فيقاسون الجوع والمرض حيث ينتشر الوباء بين فئاتهم المختلفة، وينالهم أوخم العواقب، وغالباً كان الجفاف وقلة نزول المطر هو السبب الرئيسي لحدوث الغلاء[10].

ومن أسباب الغلاء الموت الأسود والطواعين حيث تتضرر الزراعة والصناعة ويقضي الموت على الكثير من الأيدي العاملة وعندئذ ترتفع أثمان السلع[11]. وهذا ما دفع

---

(1) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج1، ص112.
(2) ابن طولون ، مفاكهة الخلان، ج1، ص124.
(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج 1، ص116.
(4) ابن طوق، التعليق، ج3، ص 1515.
(5) ابن طوق، التعليق، ج 4، ص 1625.
(6) ابن طوق، التعليق، ج 4، ص 1708.
(7) ابن طوق، التعليق، ج 4، ص 1710.
(8) ابن طوق، التعليق، ج 4، ص 1731.
(9) ابن طوق، التعليق، ج 4، ص 1824.
(10) الحجي، أحوال العامة في حكم المماليك، ص 185.
(11) عباس، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، ص113.

الزعر إلى السلب والسرقة، وكان للظلم الاجتماعي الذي تعرض له المجتمع في العصر المملوكي الثاني أثر في نشوء هذه الفئات فقد تعسف أصحاب السلطة ضد العامة فكما يقول ابن طوق: (وتزايد ظلم الترك على الرعية)[1] ويقول في موضع آخر: (الظلم متزايد ولا يسمع عن الكافل وجماعته شيء يسر)[2].

ومن المؤكد أن في فساد الحكم أذى للرعية، فإذا زاد ذلك اختلت موازين الأوضاع الاجتماعية المستقرة، وهذا يعني دون شك هدر الدماء بغير وجه حق وسلب الأموال دون خوف، واستباحة الحرمات من النساء والبيوت والممتلكات من غير خشية أو تردد ومن ثم يؤدي هذا الحال غير المستقر إلى ظهور عوامل التوتر والفوضى[3] وعندها تجد هذه الفئات فرصة لتطفو على السطح.وحين كانت تضعف السلطة المملوكية كانوا يجدونها فرصة سانحة للظهور أيضاً، ويرى (بولياك) أن أصول هذه الفئة ترجع إلى الأعداد الكبيرة من الفلاحين الذين تركوا الأرض وهاجروا إلى المدن من أجل العمل نتيجة للظلم الاجتماعي والمعاناة التي تعرضوا لها من قبل المقطعين، وسكنوا في أعشاش خارج المدن، وكونوا مع الوقت طبقة فقيرة من الخدم وعمال المطابخ والإسطبلات واللصوص والمجرمين[4].

و- علاقة الزعر بالسلطة المملوكية:

كما سبق وأسلفت فإنه لا يمكن وضع إطار عام لشكل العلاقة بين الزعر والسلطة المملوكية، فقد كانت العلاقة تتصف بالغموض والتعقيد، ففي أحيان كثيرة كانت الدولة تقوم

(1) ابن طوق، التعليق، ج3، ص 1177.

(2) ابن طوق، التعليق،ج4، ص 1760.

(3) الحجي، أحوال العامة، ص 353 – 354.

(4) بولياك، آ، ن،الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان، ترجمة عاطف كرم، دار المكشوف، لبنان 1984ص وسيشار له لاحقاً بولياك،الإقطاعية في مصر وسوريا.

بمعاقبتهم بشتى العقوبات الرادعة، مثل التوسيط، فقد وسط الحاجب شخصاً من الزعر من الشويكه سنة (902هـ/1496م) [1]. كما وسط اثنين من الزعر سنة (903هـ/1497م) [2].

وكذلك عقوبة الشنق فقد شنق نائب الشام قانصوه اليحياوي أحدهم سنة (899هـ/1493م) [3]، وفي سنة (903هـ/1497م) شنق شخص من زعر الصالحية يدعى ابن الذهبي، وبعد ذلك نودي بالأمان والإطمئنان وأن لا يحمل أحداً سلاحاً[4]، وهذا يدل على مدى خطورته في المجتمع، وفي سنة (906هـ/1500م) شنق دوادار النائب أحد الزعر وأصله من عربيل إذ اعترف أنه قتل شخصاً مغربياً عند حارة الخاتونية، فشنق تحت القلعة في الجورة[5].

وأحياناً السلخ، فقد قبض الأمير يخشباي نائب حماة على أزعرين يدعيان ولدي عطا- وهما رأس زعر الصالحية- ومعهما آخر من الشاغور وقام بسلخهم[6]، وكذلك قطع الأيدي ففي سنة (905هـ/1499م) قطع النائب أيدي ثلاث من زعر الصالحية وذلك لحملهم الخناجر[7]، وأقل العقوبات كان الضرب بالمقارع[8].

وكانت السلطة تقوم بالعقاب الجماعي لهم ففي سنة (908هـ/1502م) هاجم المماليك زعر حي الشاغور، وقاموا بإحراق الحي بأكمله ومطاردة الزعر الذين تفرقوا في بعض الأحياء[9]، ويظهر أن السبب الرئيس في هذه العقوبات هو الرغبة في أن يسود الأمن في الدولة وأن يحترم الجميع القانون، فلا يجرؤ أحد على التعدي على المبدأ العام للدولة.

---

(1) ابن طوق ، التعليق، ج 3، ص 1499.
(2) ابن طوق ، التعليق، ج 4، ص 1541.
(3) ابن طوق ، التعليق، ج 3، ص 1281.
(4) ابن طوق ، التعليق، ج 4، ص 1616.
(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1894.
(6) ابن طولون، إعلام الورى، ص167 – 168.
(7) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1828.
(8) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1512.
(9) ابن طولون، إعلام الورى، ص167-168.

لقد كان الزعر يشكلون القوة الرئيسية في دمشق، وكانت تضاهي قوة النائب في كثير من الأحيان، إن لم تتفوق عليها، ولذلك حرص النواب على عدم مواجهتهم، وعلى إبقاء قدر معين من الخلاف بين الزعر أنفسهم، إذ أن الزعر لو تمكنوا من الاتحاد الدائم لكان لهم مع الحكام شأن آخر[1]، لقد كان لدى البعض من الفئة الحاكمة المقدرة على توجيه طاقة هؤلاء الزعر للاستفادة منهم في تحقيق مآربه الشخصية، ففي سنة (893هـ/1487م) استخدمهم نائب دمشق قجماس الظاهري ودواداره لأجل استخلاص الضرائب من الناس، وهذا ما فعله النائب قجماس قبل ذلك[2]، وفي السنة ذاتها جرى استعراضهم في موكب رسمي[3].

وفي سنة (895هـ/1489م) تجمع حوالي ثلاثة آلاف من الأحياء للقيام بالخدمة العسكرية في فرق المشاة العسكرية وجرى استعراضهم أيضاً مسلحين ومجهزين تجهيزاً تاماً[4]، وقد عمل كل من الأمير آقبردي الدوادار وتنم الحاجب ونائب القلعة في سنة (903هـ/1497م) على كسب الزعر لجانبهم واسترضائهم، فقد حضروا لهم عرض الخيالة ومنحوا مشايخهم خلعاً حتى يقفوا معهم حتى النهاية[5]، وأحياناً كانت الدولة تدفع الأموال لهم مقابل الخروج في حملاتها ففي سنة (910هـ/1504م) خرج دوادار النائب والحاجب الكبير وخرج معهم من كل حارة مجموعة من الزعر بعد أن دفع لكل واحد منهم خمسين درهماً للشخص الواحد، وذلك بالحملة إلى مقدم البقاع[6] ناصر بن الحنش[7].

---

(1) العلبي، دمشق بن عصر المماليك، ص102 .

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 89.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 92.

(4) لابيدوس، مدن إسلامية في عهد المماليك، ص 264.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص185.

(6) البقاع أرض واسعة بين بعلبك وحمص ودمشق، فيها قرى كثيرة ومياه غزيرة. الحموي، معجم البلدان، ج1، ص470. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص211.

(7) ابن طولون، إعلام الورى، ص180. آل الحنش هم أمراء البقاع وبعلبك زمن المماليك وآخرهم ناصر بن الحنش المذكور أعلاه، منحه السلطان سليم إقطاعاً عند فتح الشام، وقد التزم مقابل ذلك أن يقدم البدو ولاءهم للسلطان، ولما ذهب السلطان سليم إلى مصر كان ناصر بن الحنش ممن عارضوه فقاتله والي الشام جان بردي الغزالي فقتله سنة (924هـ/1518م) الغزي، نجم الدين محمد بن محمد

وفي سنة (914هـ/1508م) أمر نائب الغيبة[1] بدمشق أن تخرج كل حارة جماعة من الزعر من أجل إرسالهم مدداً للنائب سيباي في قتاله ضد البدو[2]، مع العلم أن البدو في بلاد الشام ظلوا على ولائهم للدولة المملوكية طوال عهدها ولم يقوموا بثورات ضد الدولة مثلما فعل عرب مصر حين ثاروا بزعامة حصن الدين بن ثعلب (ت648هـ/1250م) [3] ضد الحكام المماليك بغرض إنهاء الحكم المملوكي من البلاد، وإنما كانوا يثورون لأسباب واضحة وذات أهداف سياسية واقتصادية محددة، وكان هذا من أسباب استمرار حسن العلاقات بين بدو الشام وسلاطين المماليك حتى نهاية العصر المملوكي [4]، لا شك أن الزعر ظهروا كقوة مؤثرة وفاعلة وذات تنظيم، وهذا ما جعل بعض الأمراء المعزولين من الإمارة يستغلونهم لتحقيق مآربهم، فهذا الأمير منطاش استعان بهم في جيشه أثناء صراعه مع يلبغا يقول ابن إياس في حوادث سنة (791هـ/1398م):(حضر ومعه عساكر الشام والسواد

(ت1061هـ/1651م) لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، ج1، تحقيق محمود الشيخ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982 ص667 وسيشار له لاحقاً الغزي، لطف السمر وقطف الثمر.

(1) نائب الغيبة هو الذي يحكم إذا غاب السلطان والنائب، وليس من اختصاصه إلا إخماد الثوائر وخلاص الحقوق، وحكمه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء، القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص18. عاشور، سعيد، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبين والمماليك، "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية"، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة 1987 ص264 وسيشار له لاحقاً عاشور، نظم الحكم والإدارة.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص109 .

(3) الأمير حصن الدين ثعلب ثار على الدولة المملوكية فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاي الجمدار والأمير فارس الدين أقطاي المستعرب في خمسة آلاف فارس، وبعد أن هزم أعطاه الملك المعز الأمان حتى قدم بلبيس وشنق هناك سنة (648هـ/1250م) المقريزي، تقي الدين أحمد (ت845هـ/1441م) البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق فردناد واسطون فيلد، جوتنجن، ألمانيا 1847 ص213 وسيشار له لاحقاً المقريزي، البيان والإعراب.

(4) السيد، محمود، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية 2004 ص176 وسيشار له لاحقاً السيد، تاريخ عرب الشام.

الأعظم من زعر دمشق......)[1] وزاد على ذلك بأن قربهم وعرف فيهم عرفاء، وأنفق فيهم مالاً[2]، وفي سنة (903هـ/1497م) حصل خلاف بين الحاجب ونائب القلعة، وتطور إلى أن اتخذ نائب القلعة زعراً يمسكون جماعة الحاجب من مشاه أو غيرهم ويقتلونهم[3].

وفي سنة (904هـ/1499م) تم توقيف بعض الزعر وتبين أنهم كانوا في خدمة علي بن شرباش[4] الذي كان أخاً لزوجة أحد الأمراء[5]، وكما حصل سنة (910هـ/1504م) حيث قام كبير زعر الشاغور والمسمى أبو طاقية بتحصين حي الغوطة ببناء أبواب جديدة وبجمع الزعر من حارات دمشق وكان المساند له الأمير أركماس الذي لم ينل ما كان يتمناه من ولايته نيابة الشام، حيث أمده بشيء كثير من السلاح وأدوات الحرب، وخرج بهم أبو طاقيه على شكل كتائب إلى الميدان الأخضر[6]، فكانوا أكثر تنظيماً وقوة من المماليك، بحيث أن المماليك استقلوا أنفسهم أمامهم[7]، وفي نفس السنة شاع بدمشق وجود قلاقل في القاهرة، فحاولت الدولة المملوكية كسب الزعر إلى جانبها فأرسلت القضاة إلى مصلى العيدين وحضر الغوغاء وأكابر الزعر ، وعاهدوهم أن يكونوا مع جماعة السلطان ، وبعد أسبوع اتفق الرأي على عرض المشاة من كل حارة ارهاباً للعدو ، فازداد الزعر طغياناً على طغيانهم وتيقنوا عجز أرباب الدولة[8]، وهو ما دفع ابن طولون للقول: (وتعاظم الأوباش والزعر وغيرهم لميل

---

(1) ابن إياس، بدائع الزهور، ج1، ص 357-358.

(2) ابن حجر العسقلاني، إنباء الغمر، ج1، ص372.

(3) ابن طوق، التعليق، ج 4، ص 1592.

(4) شرباش بن عبد الله الإينالي أحد أمراء دمشق سكن الصالحية (ت908هـ/1502م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص214.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان،ج1، ص166.

(6) الميدان الأخضر ويعرف أيضاً بالمرجة وهو في ظاهر دمشق. بدران، منادمة الأطلال، ص284.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 283.

(8) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 122.

الترك إليهم لجعلهم مشاه لهم) [1]، وكان البعض من المماليك يستخدمهم للقبض على الهاربين من السلطة المملوكية ففي سنة (904هـ/1498م) لاحق الزعر محب الدين سلامة بن يوسف الأسلمي كاتب سر دمشق بإشارة من الحاجب[2] وذلك أنه ورد مرسوم بالقبض على الأسلمي لشكوى قدمها النصارى بحقه[3] فلم يجد الحاجب أفضل من الزعر ليقبض عليه.

هذا بالرغم من أن نائب الشام جان بلاط أمر بإبطال عادة أن يتخذ بعض المماليك الزعر كأتباع خصوصيين لهم سنة (905هـ/1499م) [4]، إلا أنه لم يلتزم أحد بهذا القرار، فالدوادار الثاني للنائب كان عنده مجموعة من الزعر يحقق بهم أغراضه[5]، وقد قتل الشيخ محمد العجمي[6] مجموعة من الزعر باشارة الدوادار لأنه كان كثيراً ما يتردد إلى دار النيابة بأمر المظلومين[7]، وأشير هنا الى أن الأوامر المتعلقة بإبطال الزعارة تكررت أيضاً سنة(909هـ/1503م) حيث نادى نائب دمشق قانصوه البرجي بأن الزعارة باطلة وان أحداً لا يحمل سلاحاً ولا يلف على رأسه ولا يقلب ثيابه فلم يمتثل لذلك أحد[8]، وفي نيابة سيباي سنة(918هـ/1512م) نودي بأن مشايخ الحارات باطلة[9]، ويمكن تفسير هذه المراسيم بأن السلطة المملوكية أصبحت تدرك أن الزعارة صارت تشكل خطراً على المجتمع والدولة،

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 81.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 88.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص168.

(4) ابن طولون، إعلام الورى، ص 127.

(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 116.

(6) محمد العجمي الشهير بالطواقي شيخ الزاوية الخوارزمية، كان يتردد كثيراً على قانصوه البرجي نائب دمشق في أمر المظلومين (ت 910هـ/1504م)، الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص 78-79.

(7) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 120.

(8) ابن طولون، إعلام الورى، ص 174.

(9) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 374.

ولكن كل هذه القرارات لم تحد من سطوة الزعر ، بل إنهم استمروا في الفترة العثمانية ، وحاولت الدولة العثمانية ضمهم إلى جانبها والاستفادة منهم مثلما فعل جان بردي الغزالي[1].

ومن خلال متابعة الزعر رصدت حالة واحدة وقف فيها الزعر على الحياد ، رغم محاولات النائب بكسبهم إلى صفه وذلك سنة (903هـ/1497م) حين ثار نائب حلب والدوادار على نائب دمشق يلباي ، ومع أن النائب حاول التعاون معهم إلا أنهم لم يتدخلوا في هذا الصراع، بل جاؤوا إلى القاضي وأخبروه أن يلباي يحثهم على الانضمام إليه ، وأبدوا استعدادهم للامتثال لأوامر القاضي قائلين: نحن بين يديك ، إلا أن القاضي اعتذر منهم واخبرهم قائلاً(ما لي غرض في شيء وإنما الغرض أن يطلق المحابيس) [2]، وبالرغم من ذلك كان هناك من بين مشاة النائب بعض الزعر[3] ، ولكنهم لم يكونوا بأعداد كبيرة وأغلبهم من زعر الشاغور[4].

وكانوا يشاركون في الاحتفالات الرسمية وفي استقبال النواب[5]، فعندما اعترض أهالي الصالحية على واليهم سنة (892هـ/1486م) واعتبروه "والي نحس جداً " وخرجوا

---

(1) ابن طولون، إعلام الورى، ص 236. جان بردي بن عبد الله الجركسي، الشهير بالغزالي ناب في حماة ثم دمشق لما قتل الغوري بمرج دابق رجع جان بردي إلى مصر، وقد تسلطن طومان باي لما وصل موت الغوري إلى مصر، فأقامه طومان باي كافلاً لدمشق، وبعث معه قوة من الجيش، فلما وصل جان بردي وعسكره، إلى غزة تلاقى هو وسنان باشا وزير السلطان سليم، وكان قد جهزه السلطان سليم أمامه إلى مصر، فانتصر عليه، وهرب جان بردي إلى مصر، فلما أخذ السلطان سليم مصر أمنه، وولاه كفالة الشام دمشق، وصفد، وغزة والقدس وأعمالها(ت927هـ/1521م) الغزي، الكواكب السائرة، ج1، ص170-172.

(2) ابن طوق، التعليق، ج4، ص 1351.

(3) ابن طوق، التعليق، ج4، ص 1541.

(4) ابن طوق، التعليق، ج4، ص 1617.

(5) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص257 – 258. العلبي، دمشق بين عصر المماليك، ص 102.

إلى النائب محتجين على توليته وهم"خلق كثير بتهليل وتكبير وأعلام "[1] سار الزعر أمام الوالي ومعهم سيوف [2]، وهذه دلالة واضحة على موالاتهم له، إلا أن دوادار السلطان لم يقبل اعتراض الأهالي، بل على العكس ألبسه خلعة وأرسل معه مماليك وساروا أمامه ومعهم الزعر[3] ، ويبدو أن في وصف ابن طوق للوالي بأنه "نحس جداً "إشارة صريحة لقرب الوالي من الزعر، وفي سنة (907هـ/1501م) عندما دخل قانصوة البرجي إلى دمشق نائبا لها، خرج لاستقباله زعر الصالحية بالسلاح الكامل، فمروا على ميدان الحصا واعتدوا على أهلها، وحين التقوا بالنائب قال لهم: (من أمركم بالخروج لملاقاتي)، فسكتوا فأمر بتوسيط كبيرهم ويدعى الجاموس ثم صادر السلاح من جماعته، وخوفاً من أن يثور بقية الزعر لهذا الغدر، قام مباشرة باستدعاء كبير زعر الشاغور، وعاتبه ولاطفه وخلع عليه وفعل الشيء نفسه مع أكابر كل حارة[4].

وفي بعض الأحيان كان البعض من المماليك ينزلون ضيوفا على الزعران ويأمرونهم بالتزيين لمرورهم في أحياء الزعران[5] وفي سنة (907هـ/1501م) قام زعر ميدان الحصا ثم القبيبات ثم الشاغور ثم باب المصلى بعمل ولائم لدوادار نائب دمشق[6]، في ذات السنة أولم زعر مصلى العيدين لأحد الأمراء المماليك وهو أخو النائب[7].

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج2، ص 713.
(2) ابن طوق، التعليق، ج2، ص 713.
(3) ابن طوق، التعليق، ج2، ص 713.
(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 106.
(5) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 180.
(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 108.
(7) ابن طولون، إعلام الورى، ص 163.

ويظهر أن أكثر ما كان يوتر العلاقة بين الطرفين(الزعر والسلطة الملوكية) هو الرمي والضرائب، أما الرمي فهو أن تفرض على حارة أو حي بأكمله مبالغ من المال دية لقتيل وجد فيها لم يعرف قاتله عملاً بالمذهب الحنفي[1]، مع العلم أن المذهب الحنفي قرر أن دفع الدية هي لأهل القتيل[2] ، ولكن صار النائب بدمشق أو من ينوب عنه يستوفي مبالغ طائلة يدفع قسماً ضئيلاً منها دية ويحتفظ ببقية المال[3]، حتى أن الرمي صار مصدر مالي ثابت للسلطة المملوكية[4]، ففي فترة ولاية سيباي كثر القتل في دمشق مما أدى الى كثرة الرميات على السكان من قبل نائب الغيبة[5]، وفي سنة (922هـ/1516م) رمي على أهل قبر عاتكة مالاً بسبب رجل ضرب أخاه فمات[6]، مع الإشارة الى أن الرمي لم يكن يقتصر على دية القتيل، فلملاقاة قافلة الحج كان يرمى على أهل الحارات[7]، أو ربما ليسدد من تولى وظيفة برشوة مالاً للنائب الذي كان يشترط عليه لقبوله في المنصب الجديد الرمي على الحارات ، ففي سنة (907هـ/1501م) خرج النائب لقبة يلبغا لاستقبال الخاصكي القادم من مصر، فعند دخوله دمشق عين استاداراً له ووضع عليه مالاً يدفعه يومياً للنيابة ، فما كان بدوره إلا أن رمى على أهل ميدان الحصا ألف دينار وعلى أهل الصالحية خمسمائة دينار[8].

---

(1) البصروي، تاريخ البصروي، ص198. ضومط، دمشق الشام على عهد الدولة المملوكية الثانية ص416.

(2) الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود (ت587هـ/1191م) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ج7، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان 1986 ص96 وسيشار له لاحقاً الكاساني، بدائع الصنائع.

(3) البصروي، تاريخ البصروي، ص 179.

(4) ضومط، دمشق الشام على عهد الدولة المملوكية الثانية، ص416.

(5) ابن طولون، إعلام الورى ، ص205.

(6) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج2، ص 74.

(7) ابن طولون، إعلام الورى، ص157.

(8) البصروي، تاريخ البصروي، ص179-197.

وما يوتر العلاقة أيضاً الضرائب، ففي سنة (898هـ/1492م) قام الزعر في ميدان الحصا بفوضى كبيرة بسبب ضريبة جديدة فرضتها الدولة المملوكية وهي درهم المشاة، وقد ناصرهم الشيخ برهان الدين الناجي وأرسلوا إلى النائب عله يلغي هذه الضريبة ، وحين تجاهل النائب مطالبهم ثاروا مرة أخرى وأرادوا إحراق بيت صدقة السامري[1].

وفي نفس الوقت كانت الضرائب توحد الزعر ضد المماليك، ففي سنة (907هـ/1501م) قدم قانصوه البرجي نائباً جديداً لدمشق ومنذ وصوله فرض على حارات دمشق ضرائب باسم الضيافة، فاتفق زعر ميدان الحصا والشاغور على مقاومة النائب ورجاله ، وأوقعوا بهم وهزموهم وتكرر القتال في القبيبات، وكان التجار هذه المرة إلى جانب الزعر يمدونهم بالسلاح، فصادر النائب موجود التجار من السلاح بدمشق حتى لا يصل للزعر، ويبدوا أنهم استغلوا وطمعوا في ضعف النائب ولم يجد نفعاً توسط قاضي المالكية وجماعة من الأعيان في ردهم وأصروا على معاقبة الجباة وحصل قتال قتل فيه الكثير من الطرفين[2]، وكانت هذه الواقعة قد وصلت للسلطان في القاهرة وأزعجته، فرسم السلطان بإرسال مبعوث من مصر وكلفه بالكشف على نائب الشام فجاء ليطالب الناس بإنقاص المبلغ من مائة ألف دينار إلى ثلاثين ألفاً[3].

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1190-1191. صدقة السامري كاتب ديوان نائب الشام، كان يهودياً ثم أسلم. ابن طوق، التعليق، ج3، ص1187.

(2) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 108.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 109 . الحمصي ، حوادث الزمان، ج2، ص415.

كما كانوا يستغلون الوقت الذي يتوفى فيه النواب[1]، حتى اندلاع الحرائق كان فرصةً سانحة للنهب والسلب وغالباً كانوا يرددون"إنا أحق من النار"[2].

ولا شك بان النواب الذين لم تكن تسعدهم هذه الصداقة الحميمة بين الزعر كانوا يسعون لإثارة الشقاق والخلاف وبذر بذور الفرقة بين صفوفهم أملاً في إضعاف شوكتهم. فهذا دوادار السلطان سنة (893هـ/1487م) دعا زعر الشاغور إلى إقامة عرضٍ أمامه في اصطبل دار السعادة ثم سمح لهم بالتجول في بقية الأحياء، وعندما وصلوا إلى حي المزابل شعر زعرانها بالتحدي، فقتل جماعات من الفريقين وأغلقت الأسواق كالعادة[3]، ويذكر الحمصي في حوادث الزمان أن نائب دمشق قانصوه حين سمع بالمصالحة بين زعر الشاغور والحصا والقبيبات والصالحية والقابون[4]" لم يعجبه ذلك"[5].

إذن كان الزعر قوة يحسب لها حساب من قبل السلطة ففي سنة (890هـ/1485م) ظهر زعر الشاغور بقوة منظمة دفعت النائب إلى الاستعانة بالعشير لوقف تعديات الزعر التي طالت بيت النيابة[6] ، وعندما اشتد الخطر على النائب قانصوه البرجي وأخيه "جان بلاط" وعجز أمام الزعران عجزاً تاماً، أرسل إليهم نائب القلعة والحجاب والشيخ تقي الدين إلى

(1) الدويهي، اسطفانوس بن ميخائيل (1116هـ/1704م) تاريخ الأزمنة ، نشره بطرس فهد، مطابع الكريم الحديثة، بيروت1976 ص372 وسيشار له لاحقاً الدويهي، تاريخ الأزمنة .

(2) ابن طولون، إعلام الورى، ص59-60.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 38.

(4) القابون موضع بينه وبين دمشق ميل واحد في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين وبه سوق وخان تنزله القوافل. الحموي، معجم البلدان، ج4، ص290. ابن عبد الحق، مراصد الاطلاع، ج3، ص1054.

(5) الحمصي، حوادث الزمان، ج2، ص411.

(6) الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص204.

المصلى، فاجتمعوا بهم هناك، فطلبوا من النائب ترك المشاهرة[1] وترك الرمي على البيــوت وقتل البلاصيه فأجابوهم إلى ذلك، ثم ذهب الزعر وقد علت شوكتهم، وفي صبيحة يوم الجمعة طلب النائب أكابر كل حارة "وطيب خواطرهم" [2].

وحين أفلت الدولة المملوكية وشارفت على السقوط سنة (923هـ/1517م) وكثرت الإشاعات والأخبار في الشام عن قدوم العثمانيين ، قام بعض الزعر بدمشق بقتل بعض المماليك الشراكسة وأعوانهم كما آزروا العثمانية بقلعة دمشق[3].

ي - علاقة الزعر بالمجتمع

أما عن علاقتهم مع العامة فلا يمكن تتبعها إلا مع أواخر الدولة المملوكية الثانية (البرجية) فقد قصرت المصادر عن إعطاء صورة واضحة للعلاقة بينهما، وقد أفدت في هذا المجال من ابن طوق وابن طولون في كتابيهما مفاكهة الخلان والتعليق، إذ يمكن القول أن الزعر شكلوا حالة من الخوف والهلع وعدم الاستقرار لدى الأهالي في الحارات الدمشقية[4] ، فحين أشار ابن طوق الى مقتل (الجاموس الشاغوري الأزعر) سنة (907هـ /1501م) قتله شاب بالنشاب، علق ابن طوق على ذلك بقوله: (وكان قبل ذلك قتل بسببه أناس كثر من

(1) المشاهرة هي الضريبة التي كانت تفرض على الباعة، وقد فرضت في أواخر الدولة المملوكية الثانيــة، حتى بلغ واردها أكثر من ألفي دينار شهرياً. العسقلاني، إنباء الغمر، ج2، ص56. دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص139.

(2) ابن طولون، إعلام الورى، ص143.

(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج2، ص42؛- إعلام الورى ص237.

(4) ابن طوق، التعليق، ج1، ص441.

القبيبات ،ونهب بيوت وصودر أناس، أراح الله المسلمين منه ولم ينتطح فيه عنزان) وفي هذا دلالة واضحة على إحساس الناس بالراحة لموته[1].

وقد وقف أهالي القبيبات محتجين على القاضي الحنبلي حين حكم "بسقوط القصاص "عن القاتل الأزعر المدعو كرباج ، في إشارة الى مخاوف الأهالي من الزعر[2]، وهذه المخاوف لها ما يبررها، ففي سنة (890هـ/1485م) قطع الزعر درب الصالحية وحصل خراب وجروحات[3].

لقد كان السلوك المعهود للزعر غير مقبول في مجتمع دمشق ، وكان العامة يخافونهم ويشيرون إلى الأزعر بأنه منحوس [4]، وأن من يسلك سلوكاً سيئاً قبيحاً يوصف بأنه تزاعر[5] وهناك إشارات كثيرة عن الزعر بأنهم يقطعون الطرق ويتحالفون مع قطاع الطرق من أمثال بني عطا الذين عرفوا بقطع الطرق[6] ، وهناك إشارات كثيرة الى حالات قتل كان الزعر وراءها[7]، وبما أن زعر الشاغور كانوا الأكثر شراسةً من بين زعر دمشق ، فقد اضطر أهالي الحارة للاصطدام معهم وقتل أحدهم ، ففي سنة (903هـ/1497م) قتل أهل الشاغور

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج1، ص441.
(2) ابن طوق، التعليق، ج1، ص202.
(3) ابن طوق، التعليق، ج1، ص524.
(4) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1912.
(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1906. برغوث، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص407.
(6) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1478-ج4، ص1631.
(7) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1658-1774.

رجلاً من الزعر يذكر أنه نحس، ولم يتدخل النائب ولم يطلب من أهل الشاغور دفع دية القتيل[1]، وكان النائب قد حاول مسك العصا من الوسط فهو لا يريد أن يثير العامة عليه.

إنني أستطيع أن أؤكد أن الزعر كانوا حالة مقلقة للمجتمع الدمشقي ، فحين ثار الزعر عند باب الجابية وخارجها اقتتلوا بالنشاب ورموا على بعضهم بعضاً ، وأصابوا أحد المارة وقتلوه، وهذا ما دفع ابن طوق ليقول عنهم: (وهؤلاء الذين يقال لهم الزعر قد كثروا وكثر فسادهم)[2].

وفي سنة (901هـ/1495م) أخذ الزعر يتجولون في أسواق مدينة دمشق وكان معهم السلاح مسلولاً وراحوا يطلبون المال من المارة، ولشدة خوف الناس منهم كانوا يعطونهم ما يطلبون ولا يخالفهم أحد، وقد ضرب أحد الزعر شخصاً قي سوق النحاسين داخل البلد ،لأنه طلب منه مالاً فلم يعطه فجرحه ويعلق ابن طوق مرة أخرى على هذه الحادثة بقوله:(والمقصود أنه كثر فسادهم)[3].

وكانت مخاوف الناس من الزعر تبرز بشكل واضح ، فعندما قتل أحدهم بباب الصغير كان الأهالي يعرفون القاتل وهو من الزعر ، لم يجرؤوا على كشف اسمه ، ومع أن النائب فرض على أهل المحلة بباب الصغير مبلغ مائتي دينار، إلا أن الأهالي لم يكشفوا الاسم ، وذهبوا إلى القاضي ليتوسط لهم عند النائب عله يخفف عنهم المبلغ[4]، وقد كبرت هذه القضية ولم يستطع الأهالي الوقوف بوجه الزعر واضطروا للدفع ، على حين جمع الزعر أنفسهم وهم بالعدة الكاملة "بأسلحتهم" وهاجموا كبار الحارة "ابن النحاس وابن شهلا" وأخذوا منهما مالاً ،

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1532.
(2) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1478.
(3) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1437.
(4) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1491.

ثم خرجوا من باب السلامة إلى مسجد هناك عند الطاحون ووجدوا فيه دباغين تركمان وأرادوا سلبهم فنزلوا النهر[1].

وفي سنة (902هـ/1496م) أحدثوا شغباً في مدينة دمشق [2]، ثم قتلوا الشاهد بباب المصلى في الوادي الفوقاني، وألقي به في السياج وجرح معه صبي من رفاقه[3]، ومع أن الناس يعرفون أن القتلة هم زعر الشاغور ومع أن السلطة المملوكية تعرف ذلك إلا أن العقاب لم يكن وارداً ، ونرجح أن التهمة كانت موجهة لجماعة الزعر[4] ، دون تحديد أفراد بعينهم .

وهناك إشارات كثيرة إلى تعرض الأهالي للسلب والنهب في الحارات ففي سنة (902هـ/1496م) تعرض جماعة ملثمون من الزعر في عقبة باب جيرون[5] للمشاركين في إحدى الجنائز فأخذوا منهم دراهمهم ومعاطفهم ثم ضربوهم وجرحوهم ، ثم تبين لاحقاً أن هؤلاء هم من زعر حارة المزابل[6].

وفي سنة (903هـ/1497م) طرق الزعر باب أحد السكان ويدعى الشغري – قرب المدرسة العادلية الصغرى[7]– وقالوا له:"عشينا، فرفض الشغري طلبهم فضربوه بالسيوف حتى مات ، وجروه حتى أدخلوه بيته وأرادوا نهب البيت لولا تدخل مجموعة من المماليك

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1491. برغوث، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص407.
(2) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1500.
(3) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1500.
(4) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1515.
(5) جيرون باب من أبواب الجامع الأموي بدمشق وهو بابه الشرقي. الحموي، معجم البلدان، ج2، ص199. ابن عبد الحق، مراصد الإطلاع، ج1، ص366. الحميري، الروض المعطار، ص186.
(6) ابن طوق، التعليق، ج3، ص1511.
(7) المدرسة العادلية الصغرى داخل باب الفرج شرقي باب القلعة الشرقي قبلي الدماغية والعمادية، واقفتها زهرة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، ص278. بدران، منادمة الأطلال، ص127.

كانت تقف أمام باب الحي وأنقذ البيت من النهب[1]، وهذا أحد الشيوخ الكبار يدعى السيد الكفر بطناوي مات بالفالج عقب رعبه حصلت له من الزعر[2].

حتى في أثناء صراع الزعر مع السلطة كان الأهالي يتضررون، ففي سنة (903هـ/1497م) تطاول الزعر على والي الصالحية "عبد القادر" وقتلوه[3]، وأدت هذه الحادثة إلى تدخل نائب الكافل وهو تمرباي وكان نائب الغيبة آنذاك بسبب غياب الكافل خارج دمشق ، فاجتمع نائب الغيبة بكبار أهالي الصالحية وطالبهم بأن(يزنوا عشرة آلاف دينار أو أن يمسكوا الغرماء أو خراب الصالحية) [4]، فهرب أهالي الصالحية خوفاً من تهديد نائب الغيبة بتخريب الحارة وضربها بالسيف ، ويشير ابن طوق إلى أن أهالي الصالحية (في خباط إلى الآن من جهة الدولة والزعر ورحل غالبيتهم)[5].

وهنا كان أهالي الصالحية قد وقعوا بين المطرقة والسندان، فنائب الغيبة يهددهم بكشف القتلة، والزعر يضغطون عليهم[6]، وقد اختاروا الرحيل عن الحارة لحين عودة النائب وبالمقابل قام الزعر بقتل أحد الأهالي ، وتركوه مطروحاً حتى بعد الظهر لا يجرؤ أحد على دفنه خوفاً من الزعر[7]، وخوفاً من تزايد التعديات أمر نائب الغيبة تمرباي الناس بأن يعلقوا قناديلاً على حوانيتهم وبيوتهم وعلى الحمامات والمدارس والخانات، [8] وانتهت هذه القضية بأن قبض على

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1564-1565.
(2) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1626.
(3) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1631.
(4) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1632. برغوث، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص408.
(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1632. برغوث، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، ص408.
(6) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1633.
(7) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1658.
(8) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1633.

أحد الزعر " فاستغاث الناس عليه " ولم يفد شيئاً وأخذوه [1]، في إشارة واضحة على تصميم السلطة المملوكية على إثبات وجودها، وقد قتل هذا الأزعر لاحقاً[2].

وأما عن علاقتهم فيما بينهم فيظهر من خلال المصادر أن أخبار زعر الشاغور كانت تطغى على أخبار بقية الزعر، مما يدل على أنهم كانوا أشد من زعران دمشق قوة وأكثر تنظيماً وربما يعود هذا إلى قربهم من مركز الحكومة الرئيسي ، فهم أقرب إلى القلعة ودار السعادة، وبالتالي فهم يقفون في خط المواجهة الأول مع السلطة، والسبب الثاني يعود إلى اتساع حيهم ووجود مقبرة باب الصغير الواسعة فيه والتي كانت ميدان قتال ممتاز بالنسبة لهم، ثم يأتي في المرتبة زعران الميدان وباب المصلى، وقبيبات والسويقه، ثم زعران المزابل والصالحية[3].

وكان الصراع والتقاتل هو السمة السائدة لعلاقة الزعران فيما بينهم، ففي سنة (885هـ/1480م) اقتتل زعر القبيبات وميدان الحصا وكان السبب في ذلك صراع قيسية ويمنية وانفض النزاع مع تدخل الحاجب الكبير[4]، وتكرر هذا الاقتتال بين زعر القبيبات وميدان الحصا سنة(890ه/1485م) وقتل خلق كثير وازداد وضع دمشق سوءاً لولا تدخل الفقهاء[5].

وإن هذا الاقتتال فيما بينهم كان يؤثر على العامة؛ إذ تغلق الأسواق وتتعطل حركة البيع والشراء[6]، وكانوا يلتقون مع العامة في حالة ازدياد الظلم من الحكام، وفي الحالات

(1) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1710.
(2) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1712.
(3) العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص 98.
(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص11.
(5) الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص203-204.
(6) ابن طوق، التعليق، ج2، ص775.

العادية يعودون إلى جبروتهم وصلفهم وعلى حد تعبير ابن طولون (تراهم يأكلون الطيب ويشربون المسكر ويفسدون في نساء المسلمين وهم يطمعون في الحكام لمساعدتهم على المصادرات ولا يمشون إلا وعلى أوساطهم الخناجر الطوال المذهبة) [1].

وفي سنة (902هـ/1496م) نشب صراع رهيب بين زعران الشاغور والميدان عندما اقتتل الغوغاء من الفريقين وكان ميدان القتال مقبرة الباب الصغير الواسعة، فتدخل العلماء بين الفريقين وأصلحوا بينهما[2].

وفي سنة (903هـ/1497م) زحف زعران الميدان على أهل الشاغور واستمر القتال إلى ثلث الليل، وفي اليوم التالي قام أهل الشاغور بالهجوم على زعر السويقه حلفاء الميدان بالنشاب والهدم إلى قرب الظهر[3]، ثم لم يلبث هذا الاقتتال إلا أن عاد مره أخرى بسبب مرور طائفة من زعران الشاغور على الميدان وإظهارهم عناداً كبيراً لأهلها، فاقتتلوا وكان سبب مرور زعران الشاغور هذا أنهم كانوا في استقبال أحد الحكام فازدادوا قوة إلى قوتهم[4]، وفي سنة (906هـ/1500م) يذكر ابن طوق ما نصه (وقع بين مردة الإنس الذين يقال لهم في هذا الزمان الزعر ،جوار الشيخ أرسلان خلاف وانه جرح وقتل منهم أناس ، ومن الذين قبض عليهم من المتقاتلين ابن بق بن الفقاعي وكان جريحاً واعتقل في القلعة) [5]، وذكر في السنة ذاتها بأن جماعة دخلوا على بيت في حارة الشويكة وحصل بينهم جراحات بسبب شنق قريب

---

(1) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 212.
(2) الحموي، علوان، نسمات الأسحار، ص 199 – 202.
(3) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص 77.
(4) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1، ص183–184. العلبي، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، ص 101.
(5) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1910.

لهم وهو المزاوي الأزعر وهو من المناحيس[1]، ويلاحظ هنا أن السلطة المملوكية لم تتدخل لفض هذه النزاعات إلا حين يتجاوز الضرر إلى الأهالي وكأنها آثرت البقاء بعيداً إذ ليس من صالحها التدخل.

وقد أسلفت مسبقاً أن كثرة الضرائب والمظالم تجعل منهم وحده واحدة في وجه السلطة الحاكمة، وينبغي الإشارة هنا الى تدخل القضاة مرات عديدة للمصالحة بين الزعر أنفسهم وبين الزعر والسلطة أحياناً لعلمهم أن في الاقتتال مفاسد كثيرة وضرر يلحق بالمجتمع بأكمله[2].

إذن يظهر أن الزعر والحرافيش كانوا قوة فاعلة ومؤثرة في المجتمع الشامي في أواخر العصر المملوكي بالتحديد، فلا يمكن إصدار حكم محدد عليهم نظراً لتباين مواقفهم مع السلطة حيناً ومع المجتمع حيناً آخر، ولكن أؤكد أنه غاب عن سلاطين المماليك تجربة الخليفة العباسي الناصر لدين الله الذي قام بتنظيم الفتوة من أجل تنظيم سلطة الخلافة الدينية، وليتمكن من السيطرة على أمراء الأطراف وتسخيرهم عند الحاجة، وكذلك القضاء على الخلافات بين السنة والشيعة[3]، لقد غاب عن سلاطين المماليك هذه التجربة التي نجحت ولو جزئياً في عهد الخليفة الناصر، فلو استغلت هذه القوى لتغيرت مجريات كثيرة.

---

(1) ابن طوق، التعليق، ج4، ص1912.

(2) الحمصي، حوادث الزمان، ج1، ص200.

(3) حسين، الفتوة في بغداد، ص133-135.

الخاتمة

وبعد، فإنه يحسن في ختام هذه الدراسة الإشارة إلى أهم ما توصلت إليه من النتائج علاوةً على ما ورد منها في ثنايا البحث:

1 – لعب المماليك دوراً بارزاً في الدولة المملوكية، ومما يحسب لهم قهر القوتين اللتين كانتا تؤرقان العالم الإسلامي، وهما المغول الذين هزموا في معركة عين جالوت سنة (658هـ/1260م) والفرنجة الذين طردوا من الساحل الشامي في عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

2 – شكل المماليك طبقة عسكرية حاكمة مغلقة عن السكان، وحدد الإنتماء إليها بشروط غير متوافرة في السكان الأصليين مثل العرق واللغة والرق والتربية في الطباق والعتق والتدرج في الإمرة، وقد تمتعت هذه الطبقة بالامتيازات الاقتصادية الهائلة التي وصلت حد البذخ والترف.

3 – حافظ المماليك على علاقة جيدة مع العامة في الدولة المملوكية الأولى (البحرية)، ولكن العلاقة مع الدولة المملوكية الثانية (البرجية) اتسمت بالجور والتعدي وأكل الحقوق، ويبدو أن الأحوال السياسية والاقتصادية كانت من العوامل المؤدية لذلك.

4 – حظي العلماء في الدولة المملوكية بفترتيها باحترام وتقدير من السلطة الحاكمة ومن العامة، وانعكس ذلك على مواردهم الاقتصادية التي كانت ممثلة بالأوقاف والأحباس، فضلاً عن الجوامك والخلع والإنعامات السلطانية .

5 – تباينت العلاقة ما بين العلماء والمماليك فكانت متذبذبة بين الرضا والسخط، فهناك من العلماء من كان موضع ثقة السلاطين والأمراء، وفي حالات أخرى حصل نوع من المواقف الصدامية والزجرية قد نشبت بين الطرفين.

6 – وقف العلماء بجانب أفراد المجتمع يدافعون عنهم ويحصلون حقوقه ويحتجون بمختلف الوسائل والطرق، وكانت وسائل العلماء تأخذ أشكالاً متعددة مثل التكبير على المساجد ورفع الأعلام على المآذن وحمل المصاحف والاستغاثة والتهليل ورفض عرائض الاحتجاج.

7 – اهتم المماليك بالصوفية واعتقدوا أهلها، وشيدوا لهم الكثير من الخوانق والربط والزوايا واجتهدوا في بناء هذه المؤسسات وزخرفتها وأوقفوا عليها الشيء الكثير.

8 – نال الصوفية احترام العامة وتقديرهم وذلك لأن الناس اعتقدوا كراماتهم ومقدرتهم على إتيان الخوارق.

9 – أدت المؤسسات الصوفية دوراً مميزاً في المجتمع ففيها كانت تقام المناسبات، كما أدت هذه المؤسسات دوراً تعليمياً مماثلاً لدور المدارس، كما كانت مأوى للأرامل والأيتام ومن انقطعت بهم السبل.

10 – مثل الحرافيش والزعر دور التنظيمات الشعبية في العصر المملوكي ، وكانت مشابهةً في شكلها وأهدافها للأحداث في العصر الفاطمي.

11 – شكل الحرافيش والزعر قوةً فوضوية في فترات الحروب والمجاعات الأوبئة وفي فترة ضعف السلطة المملوكية، وكانوا انتهازيين يستغلون الأحداث لتحقيق مآربهم.

12 – استطاع بعض الحكام المماليك الاستفادة من الحرافيش والزعر كقوة مساندة للجيش في بعض الأحيان وكقوة تستطيع فرض الأمن أحياناً أخرى.

قائمة المصادر والمراجع

أ ـ المصادر الأولية المخطوطة

1. ابن خطيب الناصرية، أبو الحسن علي بن محمد (ت843هـ/1440م) الدر المنتخب في تكملة تاريخ حلب، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية ، شريط رقم1176.

2. دفتر طابو، اسطنبول .T.D.Istanbul.602.p 54.

ب ـ المصادر الأولية المطبوعة

3. الأبشيهي، محمد بن أحمد بن منصور (ت852هـ/1448م) المستطرف في كل فن مستظرف، ط1، عالم الكتب، بيروت 1999.

4. ابن الأثير، محمد بن عبد الكريم الشيباني (ت630هـ/1232م)، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1997.

5. ابن أجا، محمد بن محمود القونوي(ت881هـ/1476م) تاريخ الأمير يشبك الظاهري، تحقيق عبد القادر طليمات ، دار الفكر العربي، القاهرة 1973

6. الادفوي، جعفر بن ثعلب (ت748هـ/1349م) الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد، تحقيق حسن وطه الحاجري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2001

7. ===، الموفي بمعرفة التصوف والصوفي، تحقيق محمد صالحيه، ط1، مكتبة دار العروبة، الكويت 1988

8. الادنروي،(من وفيات القرن 11هـ/17م) أحمد محمد، طبقات المفسرين، ط1، تحقيق سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، السعودية 1997

9. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله (ت430هـ/1038م) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط4، دار الكتاب العربي، بيروت 1984

10. الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم بن محمد(ت346هـ/957م) المسالك والممالك، ط1، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 19

11. الأصفهاني، عماد الدين بن محمد بن حامد (ت597هـ/1200م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، ط1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2003

12. الآلوسي، شهاب الدين أبو الثناء محمود (ت1270هـ/1853م)، الفيض الوارد على روض مرثية مولانا خالد، المطبعة الكستلية، د. م. 1861م

13. الآلوسي، نعمان بن محمود بن عبد الله (ت1317هـ/1899م) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، تقديم علي المدني، مطبعة المدني، الرياض 1981

14. ابن الأزرق الفارقي، أحمد بن يوسف بن علي (ت577هـ/1181م) تاريخ آمد وميافارقين ، تحقيق بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب، بيروت 1974

15. الأندلسي، أحمد بن عبد ربه (ت327هـ/938م) العقد الفريد، دار الكتاب العربي، بيروت 1982

16. ابن إياس، محمد بن أحمد (ت930هـ/1425م) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ط1، مكتبة مدبولي، القاهرة 2005

17. البدري، عبد الله بن محمد (ت894هـ/1489م) نزهة الأنام في محاسن الشام ، المطبعة السلفية ، مصر1923

18. ابن بطوطة، محمد بن عبد الله الطنجي (ت779هـ/1377م) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار "رحلة ابن بطوطة" ط2، دار النفائس، بيروت 2004

19. البرزالي، علم الدين القاسم الاشبيلي الدمشقي (ت739هـ/1338م) المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي، تحقيق عمر تدمري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت 2006

20. البريهي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن (ت904هـ/1498م) طبقات صلحاء اليمن (تاريخ البريهي)، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الإرشاد، صنعاء 2000

21. البصروي، علاء الدين علي بن يوسف (ت905هـ/1500م) تاريخ البصروي، صفحات مجهولة من تاريخ دمشق في عصر المماليك، تحقيق أكرم العلبي، ط1، دار المأمون للتراث 1988

22. البغوي، الحسين بن مسعود (ت510هـ/1117م) شرح السنة، ط2، تحقيق شعيب الارناؤوط ومحمد الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق1983

23. البقاعي، إبراهيم بن عمر(ت885هـ/1480م) إظهار العصر لأسرار أهل العصر، تحقيق محمد العوفي، دار هجر مصر. د. ت.

24. البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر (ت279هـ/892م) أنساب الإشراف، ط1، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت 1996

25. الدوادار، بيبرس(ت725هـ/1324م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق زبيدة عطا، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2001 ص231 وسيشار له لاحقاً بيبرس، زبدة الفكرة.

26. ===، الدوادار التحفة الملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح، ط1، الدار المصرية اللبنانية، بيروت، 1987

27. البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد (ت440هـ/1047م) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ط2، عالم الكتب، بيروت 1983

28. التركماني، إدريس بن بيدكين (اللمع في الحوادث والبدع) تحقيق صبحي لبيب، القاهرة 1986

29. التطيلي، بنيامين بن بونه (ت569هـ/1173م) رحلة بنيامين التطيلي، ط1، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2002

30. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1470م)، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، ط2، دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2005

31. ===، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1990

32. ===، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ج1-2 تحقيق محمد محمد أمين ج3-5 تحقيق نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1988

33. ===، مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة، تحقيق نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية، القاهرة 19

34. ===، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق فهيم شلتوت ،القاهرة 1990

35. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم (ت728هـ/1328م)، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ط1، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية 1998

36. ===، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن الحنبلي، دار عالم الكتب، الرياض 1991

37. ===، مجموعة الرسائل والمسائل، علق عليه محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي

38. ===، الرسالة القبرصية، تحقيق علاء الدين دمج، ط1، دار ابن حزم، دمشق 1987

39. الجاحظ، عمرو بن بحر(ت255هـ/869م) الحيوان، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 2004

40. الجامي، الملا نور الدين عبد الرحمن بن أحمد (ت898هـ/1492م)، نفحات الأنس من حضرات القدس، تحقيق محمد الجادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003

41. ابن جبير، محمد بن أحمد (ت614هـ/1217م) رحلة ابن جبير، دار ومكتبة الهلال ، بيروت 1990

42. ابن الجزري، شمس الدين أبو خير محمد بن محمد (ت833هـ/1429م) غاية النهاية في طبقات القراء، ط2، عني بنشره برجستراس، دار الكتب العلمية، بيروت 1932

43. الجزري، عبد القادر بن محمد (ت977هـ/1569م) عمدة الصفوة في حِل القهوة، تحقيق عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي 2007

44. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت597هـ/1200م)، تلبيس إبليس، ط1، دار الفكر، بيروت 2001

45. ===، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر ومصطفى عبد القادر، ط1، دار الكتب العلمية بيروت 1992

46. الجويري، زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقي (ت626هـ/1228م) المختار في كشف الأسرار وهتك الأستار، تحقيق عصام شبارو، دار التضامن، بيروت 1992

47. ابن الجيعان، أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر (ت902ه/1496م) القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام (882هـ/1477م) تحقيق عمر تدمري، ط1، منشورات جروس برس 1984

48. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله (ت1067هـ/1657م) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى، بغداد 1941

49. الحازمي، أبو بكر محمد بن موسى (ت584هـ/1188م) الأماكن أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، السعودية 1995

50. ابن حبيب، الحسن بن عمر (ت779هـ/1377م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، ط2، تحقيق محمد أمين وسعيد عاشور، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، مصر 2010

51. ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي (ت852هـ/1448م) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد عبد المعين خان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الهند 1972

52. ===، رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق إبراهيم أبياري، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1980

53. ابن حجي، أحمد بن حجي الحسباني (ت816ه/1403م) الذيل على تاريخ ابن كثير"تاريخ ابن حجي" تحقيق عمر الشامي ، جامعة اليرموك 1999

54. الحسيني، محمد بن علي بن الحسين (ت765هـ/1364م) ذيول العبر، ط1، تحقيق محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت 1985

55. الحطاب، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي (ت954هـ/1547م) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، ط3، دار الرشاد الحديثة، المغرب1992

56. الحمصي، أحمد بن محمد بن عمر (ت934هـ/1527م) حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران، تحقيق عمر تدمري، ط1، المكتبة العصرية، بيروت 1999

57. الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن محمد (ت837هـ/1434م) ثمرات الأوراق ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت1997

58. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن ياقوت (ت626هـ/1229م) معجم الأدباء، ط1، تحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993

59. ===، ياقوت بن عبد الله (ت626هـ/1229م) ، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1979

60. الحموي، محمد علي بن نظيف (ت631هـ/1234م) التاريخ المنصوري، تحقيق أبو العيد ديدو، مجمع اللغة العربية، دمشق 1982

61. الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت900هـ/1495م) الروض المعطار في خبر الأقطار، ط2، تحقيق إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت 1980

62. الحنبلي، أحمد بن إبراهيم (ت876هـ/1471م) شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق مديحة الشرقاوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 1996

63. ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت241هـ/855م) مسند أحمد بن حنبل، ط1، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت 2001.

64. ابن الحنبلي، رضي الدين محمد بن إبراهيم (ت971هـ/1564م) درر الحبب في أعيان حلب، تحقيق محمود الفاخوري، دمشق 1974

65. ابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي (ت367هـ/977م) صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت 1977

66. ابن خرداذبه، عبيد الله بن أحمد (ت280هـ/893م) المسالك والممالك، دار صادر، بيروت 1889

67. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1405م) العبر وديوان المبتدأ والخبر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر المعروف بتاريخ ابن خلدون، ط1، دار الفكر، بيروت، 1981

68. ===، مقدمة ابن خلدون، مكتبة الأسرة، وزارة الثقافة، عمان 2009

69. ابن خلكان، أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت681هـ/1282م) وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1994

70. الخوارزمي، محمد بن أحمد بن يوسف (ت387هـ/997م) مفاتيح العلوم، تحقيق إبراهيم الأبياري، وزارة الثقافة، عمان 2010

71. الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن(ت255هـ/869م) سنن الدارمي، ط1، تحقيق فواز ازمرلي وخالد العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت 2007

72. ابن دريد، محمد بن الحسن الأزدي (ت321هـ/933م) جمهرة اللغة، ط1، ج1، تحقيق رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت 1987

73. ابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر (ت809ه/1407م) الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، القاهرة 1985

74. الدميري، محمد بن موسى بن عيسى (ت808هـ/1405م) حياة الحيوان الكبرى، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 2004

75. الدواداري، أبو بكر عبدالله بن أيبك (ت736هـ/1432م) كنز الدرر وجامع الغرر،ج6-7-8-9، تحقيق، صلاح الدين المنجد وسعيد عاشور واولرخ هارمان وهانس روبرت رويمر، القاهرة 1972

76. الدويهي، اسطفانوس بن ميخائيل (1116هـ/1704م) تاريخ الأزمنة ، نشره بطرس فهد، مطابع الكريم الحديثة، بيروت1976

77. الدينوري، أبو بكر أحمد بن مروان (ت333هـ/915م) المجالسة وجواهر العلم، تحقيق مشهور آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية، البحرين 1999

78. الدينوري، عبد الله بن مسلم (ت276هـ/889م) عيون الأخبار، دار الكاتب العربي، بيروت عن دار الكتب المصرية، بولاق 1925

79. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت748هـ/1347م) سير أعلام النبلاء، ط1، تحقيق شعيب الارناؤوط ، مؤسسة الرسالة، بيروت 1984

80. ===، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعيان ، ط2، تحقيق عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1993

81. ===، العبر في خبر من غبر ط1، ج4، دار الكتب العلمية، بيروت 1985

82. ===، معجم المحدثين، ط1، تحقيق محمد الهيلة، مكتبة الصديق الطائف، السعودية 1987

83. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت666هـ/1268م) مختار الصحاح، ط5، تحقيق يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت1999

84. ابن رافع، محمد بن هجرس السلامي (ت774هـ/1372م) الوفيات، ط1، تحقيق صالح مهدي وبشار عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت 1982

85. ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد (ت795هـ/1392م) ذيل طبقات الحنابلة، تحقيق محمد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1952

86. رياض زاده، عبد اللطيف بن محمد (1078هـ/1667م) أسماء الكتب، ط3، دار الفكر، دمشق 1983

87. الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني (ت 1205هـ/1790م) تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق المجموعة، دار الهداية، القاهرة 1965

88. سبط بن العجمي، أحمد بن إبراهيم (ت884هـ/1480م) كنوز الذهب في تاريخ حلب، ط1، دار القلم، حلب1997

89. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب (ت771هـ/1369م) معيد النعم ومبيد النقم، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1986

90. ===، معجم الشيوخ، ط1، تحقيق بشار عواد وآخرون، دار الغرب الإسلامي 2004

91. ===، طبقات الشافعية الكبرى ط2، تحقيق محمود الطناجي وعبد الفتاح الحلو، دار هجر، الرياض 1992

92. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت902هـ/1496م) الذيل على رفع الإصر، أو بغية العلماء والرواة، تحقيق جودة هلال ومحمد صبح، الدار المصرية للنشر، القاهرة 1970

93. ===، المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء والنووي، ج1، تحقيق محمد الخطراوي، دار التراث، المدينة المنورة 1989

94. ===، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ط1، تحقيق بشار عواد وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت 1995

95. ===، التبر المسبوك في السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، د.ت.

96. ===، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط1، تحقيق عبد اللطيف حسن، دار الكتاب العلمية، بيروت 2003

97. السراج، عبد الله بن علي (ت378هـ/988م) اللمع، دار الكتب الحديثة، مصر 1960

98. ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع (ت230هـ/845م) الطبقات الكبرى، ط1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968

99. السلاوي، أحمد بن خالد (ت1315هـ/1897م) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1997

100. السلمي محمد بن الحسين (ت412هـ/1021م)، طبقات الصوفية، مطبعة بريل، ليدن 1960

101. السمعاني، عبد الكريم بن محمد (ت562هـ/1167م) الأنساب، ط1، تحقيق عبد الرحمن اليماني، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن 1962

102. السهروردي، عمر بن محمد (ت632هـ/1234م) عـوارف المعـارف، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت 1966

103. السويدي، عبد الله بن حسين البغدادي (ت1174هـ/1761م) النفحة المسكية فـي الرحلة المكية، المجمع الثقافي، الإمارات 2004

104. ابن سيده، علي بن إسماعيل (ت458هـ/1065م) المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت 2000

105. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن (ت911هـ/1505م) بغية الوعاة في طبقـات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان 1990

106. ===، تاريخ الخلفاء، ط1، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة الـسعادة، مصر 1952

107. ===، حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة ، دار الفكـر العربـي، القـاهرة 1998

108. ===، نظم العقيان في أعيان الأعيان، تحقيق فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت 1980

109. ابن الشحنة، أبو الفضل محمد بن محمد (ت804هـ/1401م)، الدر المنتخب فـي مملكة حلب ، تحقيق عبد الله درويش ومحمد ادوار، دار الكتاب العربي ، دمـشق 1984

110. ابن شداد، محمد بن علي بن إبراهيم (ت684هـ/1285م) الأعلاق الخطيرة فـي ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق دومنيك سورديل، دمشق، 1953

111. ===، تاريخ الملك الظاهر، بإعتناء أحمد حطيط، فرانز شتاينر بفيسبادن، مركـز الطباعة الحديثة، بيروت 1983

112. أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل (ت665ه/1267م) عيون الروضتين في أخبار الدولتين، ط1، تحقيق إبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت 1997

113. ===، الذيل على الروضتين، ط1، وضع حواشيه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2000

114. الشابشتي، أبو الحسن علي بن محمد (ت388هـ/998م) الديارات، ط3، تحقيق كوركيس عواد، دار الرائد العربي، بيروت 1986

115. الشربيني، محمد بن أحمد الخطيب (ت977هـ/1570م) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، دار الفكر، بيروت.د.ت.

116. الشرنوبي، أحمد بن عثمان (ت994ه/1585م) تائية السلوك الى ملك الملوك، شرحها الشيخ عبد المجيد الشرنوبي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2002

117. الشريف عبد الحي، عبد الحي بن فخر الدين الحسني(1341هـ/1923م)، نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر، ط1، دار ابن حزم، بيروت 1999

118. الشعراني، عبد الوهاب بن أحمد (ت973ه/1565م)، البحر المورد في المواثيق والعهود "العهود الصغرى" تحقيق محمد أديب الجادر، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2003

119. ===، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، ج1، تحقيق طه سرور والسيد محمد الشافعي، مكتبة المعارف، بيروت 1985

120. ===، لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، ج1، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر 1897

121. شمس الدين بن الغزي، أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن(ت1167هـ/1745م) ديوان الإسلام، ط1، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت 1990

122. الشوكاني، محمد بن علي بن عبد الله (ت1250هـ/1834م) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة بيروت 19

123. ===، نيل الأوطار، ط1، تحقيق عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر 1993

124. الشيزري، عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله (ت590هـ/1094م) نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1946

125. ابن صصرى، محمد بن محمد (ت800هـ/1397م) الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم.م. بريز. بركللي، كاليفورنيا. 1963

126. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت764هـ/1362م) نكث الهميان في نكت العميان، ط1، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 2007

127. ===، الوافي بالوفيات، تحقيق، أحمد الارناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، 2000

128. ===، أعيان العصر وأعوان النصر، ط1، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، بيروت 1998

129. الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر (ت726هـ/1326م) تالي وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سويلة، المعهد الفرنسي، دمشق 1974

130. الصيرفي، علي بن داوود (ت900هـ/1494م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، دار الكتب، مصر 1970

131. الصنعاني، الأمير محمد بن إسماعيل (ت1182هـ/1787م) الإنصاف في حقيقة الأولياء وما لهم من الكرامات والألطاف، تحقيق عبد الرزاق البدر، ط1، الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة 2001

132. طافور، بيرو، رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، القاهرة 1967

133. ابن الطباخ، محمد راغب بن محمود (ت1370هـ/1951م) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، ط2، دار القلم العربي، دمشق 1988

134. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/922م)، تاريخ الأمم والملوك راجعة نواف الجراح، ط1، دار صادر، بيروت 2003

135. الطهطاوي، أحمد رافع بن محمد الحسيني (ت1355هـ/1936م) التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ، مطبعة الترقي، دمشق1930

136. ابن طولون، محمد الصالحي الدمشقي (ت953هـ/1546م) إعلام الورى بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد أحمد دهمان، ط2، دار الفكر دمشق 1984

137. ===، قضاة دمشق " الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام "، تحقيق صلاح الدين المنجد، المجمع العلمي العربي، دمشق 1956

138. ===، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان تاريخ مصر والشام، تحقيق محمد مصطفى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1962

139. ===، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق محمد دهمان، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق 1980

140. ابن طوق، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت915هـ/1509م) التعليق، ط1، تحقيق جعفر المهاجر، بيروت 2002

141. الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين (ت873هـ/1468م) زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1997

142. ابن عابدين، محمد أمين بن عابدين الدمشقي (ت1252هـ/1836م) رد المحتار على الدر المختار في شرح تنوير الأبصار المعروف بـ (حاشية ابن عابدين)، ط1، تحقيق عادل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت 1994

143. ابن عبد الحق، عبد المؤمن بن شمائل البغدادي (ت739هـ/1338م) مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، دار الجيل، بيروت 1992

144. ابن عبد الظاهر، محي الدين (ت692هـ/1292م) الروض الزاهرة في سيرة الملك الظاهر، ط1، الرياض 1976

145. ===، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، ط1، تحقيق مراد كامل، وزارة الثقافة والإرشاد القومي القاهرة 1961

146. ابن عبد الهادي، محمد بن أحمد بن قدامه المقدسي (ت744هـ/1343م) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت 19

147. ابن العبري، يوحنا بن هارون بن توما الملطي (ت685هـ/1286م) تاريخ مختصر الدول، ط3، تحقيق أنطون صالحاني اليسوعي، دار الشرق، بيروت 1992

148. ابن العديم، عمر بن أحمد العقيلي (ت660هـ/1262م) زبدة الحلب في تاريخ حلب، ط1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1996

149. ابن عربشاه، أحمد بن محمد (ت854هـ/1450م) عجائب المقدور في أخبار تيمور، ط1، كلكتا، 1817

150. ابن عساكر، أحمد بن محمد بن هبة الله (ت610هـ/1213م) تاريخ دمشق ، ط1، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، بيروت 1996

151. ===، طبقات الشافعية، ط 1، تحقيق الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت 1986

152. العطار، فريد الدين (ت627هـ/1230م) تذكرة الأولياء، ط1، تحقيق عاصم الكيالي، دار الكتب العلمية، بيروت 2010

153. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد (ت1089هـ/1678م) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ط1، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق 1986

154. ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت580ه/1184م) الإنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم السامرائي، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة 2001

155. العلموي، عبد الباسط (ت981هـ/1573م) مختصر تنبيه الطالب وإرشاد الدارس إلى أحوال دور القرآن والحديث والمدارس، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق 1947

156. العليمي، أبو اليمن عبد الرحمن بن محمد (ت928هـ/1521م) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار المحتسب، عمان 1973

157. العمري، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت749هـ/1348م)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق محمد خريسات وعصام هزايمة، مركز زايد للتراث، الإمارات 2001

158. العيني، بدر الدين محمود (ت855هـ/1451م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1987

159. ===، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2003

160. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت505هـ/1111م) إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت 1970

161. الغزي، عثمان مصطفى الطباع (ت1370هـ/1950م)، إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، ط1، تحقيق عبد اللطيف أبو هاشم، مكتبة اليازجي، غزة 1999

162. الغزي، كامل بن حسين البالي الحلبي (ت1351هـ/1933م) نهر الذهب في تاريخ حلب، ط2، قدم له شوقي شعيب، دار القلم العربي، حلب 1991

163. الغزي، نجم الدين محمد بن محمد (ت1061هـ/1651م)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، ط1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997

164. ===، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من القرن الحادي عشر، تحقيق محمود الشيخ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982

165. الفارابي، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت393هـ/1003م) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ط4، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت 1987

166. الفاسي، محمد بن أحمد بن علي (ت832هـ/1429م) ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، ط1، ج1، تحقيق كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت 1990

167. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت732هـ/1331م) تقويم البلدان، تحقيق رينود وماك كوكين، دار صادر، بيروت 1990

168. ===، المختصر في أخبار البشر، ط1، المطبعة الحسينية، القاهرة 1907

169. ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت735هـ/1334م) تاريخ ابن الفرات ، تحقيق قسطنطين زريق، جامعة بغداد، بغداد 1970

170. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت170هـ/786م) العين، تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهلال 1992

171. ابن الفقيه، أحمد بن محمد بن إسحاق (ت365هـ/975م) البلدان، ط1، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت 1996

172. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي (ت770هـ/1368م) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، ج1، المكتبة العلمية، بيروت2000

173. القاشاني، الشيخ عبد الرزاق (ت730هـ/1329م)، اصطلاحات الصوفية، تصحيح عاصم الكيلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2005

174. ابن قاضي شهبه، تقي الدين بن أحمد (ت851هـ/1447م) تاريخ ابن قاضي شهبه، تحقيق عدنان درويش، دمشق 1977

175. القرطبي، عريب بن سعد (ت369هـ/980م) صلة تاريخ الطبري، ط2، دار التراث، بيروت 1967

176. القزويني، زكريا بن محمد محمود (ت682هـ/1283م) آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت. د.ت.

177. القشيري، عبد الكريم بن قاسم (ت465هـ/1072م)، الرسالة القشيرية، تحقيق زكريا الأنصاري، دار أسامة، بيروت 1987

178. القفطي، علي بن يوسف بن إبراهيم الشيباني (ت646هـ/1248م) أخبار العلماء بأخيار الحكماء، ط1، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2005

179. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (ت555هـ/1160م) تاريخ ابن القلانسي"ذيل تاريخ دمشق"مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1908

180. القلقشندي، أحمد بن علي (ت821هـ/1418م) قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، ط2، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982

181. ===، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ط2، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبنانيين، بيروت 1980

182. ===، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ط1 ، تحقيق يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق 1987

183. القيسي، شمس الدين محمد بن عبد الله (ت842هـ/1440م) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم والقابهم وكناهم، ط1، تحقيق محمد العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1993

184. الكاساني، علاء الدين أبو بكر بن مسعود (ت587هـ/1191م) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت 1986

185. الكتبي، محمد بن شاكر (764هـ/1362م) فوات الوفيات، ط1، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973

186. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت774هـ/1372م) طبقات الشافعية، ط1، تحقيق عبد الحفيظ منصور، دار المدار الإسلامي، بيروت 2004

187. ===، البداية والنهاية، ط1، تحقيق علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1988

188. الكلاباذي، محمد بن إبراهيم (ت380هـ/990م) التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية، بيروت1990

189. ابن كنان، محمد بن عيسى (ت1152هـ/1740م) حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار النفائس، بيروت 1991

190. ابن المعمار، محمد بن أبي المكارم (ت642هـ/1244م) الفتوة، تحقيق مصطفى جواد، مكتبة المثنى، بغداد 1958

191. ابن مفلح، برهان الدين إبراهيم بن محمد (ت884هـ1479م) المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تحقيق عبد الرحمن العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض 1990

192. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ/1311م)، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت 1994

193. مؤلف مجهول (توفي بعد372هـ/1058م) حدود العالم من المشرق إلى المغرب، ط1، مترجم عن الفارسية ليوسف عبد الهادي،الدار الثقافية للنشر، القاهرة 2003

194. مؤلف مجهول (ت742هـ/1341م) تاريخ سلاطين المماليك، تحقيق زيترشتين، ليدن، بريل 1919

195. مؤلف مجهول، كنز الفوائد في تنويع الموائد، ط1، تحقيق مانويلا مارين وديفيد واينر، فرانز شتاينر شتوتغارت، بيروت 1993

196. المرداوي، أبو الحسن علي بن سليمان (ت885هـ/1485م) الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف، ط1، تحقيق محمد الفقي، دار السنة المحمدية، القاهرة 1957

197. المزي، يوسف بن الزكي عبد الرحمن (ت742هـ/1341م) تهذيب الكمال، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت 1980

198. المسعودي، علي بن الحسين (ت346هـ/957م) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت 1988

199. مسكويه، أحمد بن محمد بن يعقوب (ت421هـ/1030م)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ط1، دار الكتب العلمية بيروت 2003

200. المطرزي، ناصر بن عبد السيد (ت610هـ/1213م) المغرب في تشكيل المعرب، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، حلب 1979

201. المقريزي، أحمد بن علي (845هـ/1441م) إغاثة الأمة بكشف الغمة، ط2، تحقيق محمد زيادة وجمال الدين الشيال، القاهرة 1957

202. ===، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، لجنة إحياء التراث، القاهرة 1967

203. ===، البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق فردناد واسطون فيلد، جوتنجن، ألمانيا 1847

204. ===، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق عدنان درويش ومحمد الحصري، ط1، وزارة الثقافة، دمشق 1995

205. ===، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ط1، دار الكتب العلمية، بيـــروت 1997

206. ===، السلوك لمعرفة دول الملوك، ط3، دار الكتب والوثائق القوميـــة، القـــاهرة 2006

207. الملطي، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن (ت377هـ/987م) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تحقيق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر1949

208. ابن منقذ، أبو المظفر أسامة بن مرشد (ت584هـ/1188م) الاعتبار، تحقيق قاسم السامرائي، وزارة الثقافة، عمان 2009

209. المهلبي، الحسن بن أحمد (ت380هـ/990م) المـسالك والممالـك " الكتـاب العزيزي"، تحقيق تيسير خلف، دار التكوين، 2006

210. النابلسي، عبد الغني بن إسماعيل (ت1143هـ/1731م) التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، تحقيق هربر بوسة، بيروت 1971

211. ناصر خسرو، أبو معين الدين الحكيم المروزي (ت481هـ/1088م) سفر نامـــه، تحقيق يحيى الخشاب، ط3، دار الكتاب الجديد، بيروت1983

212. النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت978هـ/1570م) الدارس في تاريخ المـــدارس، ط1، أعد فهارسة إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 1990

213. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف (ت676هـ/1278م) المنهاج شــرح صـــحيح مسلم بن الحجاج، ط2، دار إحياء التراث، بيروت1972

214. النويري، شهاب الدين أحمد (ت733هـ/1232م)، نهاية الأرب في فنـــون الأدب، ط1، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة 2002

215. النويري، محمد بن قاسم بن محمد (ت775ه/1372م)، الإلمام بالأعلام فيما جــرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ط1، تحقيق عزيز ســوريــال عطية، حيدر أباد، الهند 1973

216. الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان (ت465هـ/1072م) كشف المحجوب، تقديم إسعاد قنديل، دار النهضة العربية، بيروت 1980

217. الهروي، علي بن أبي بكر (ت611هـ/1215م) الإشارات إلى معرفة الزيــارات، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة 2003

218. الهمذاني، الحسن بن أحمد (ت334هـ/945م) صفة جزيرة العرب، مطبعة بريل، ليدن 1884

219. الهمذاني، رشيد الدين بن فضل الله (ت716هـ/1316م) جامع التواريخ (تــاريخ غازان)، ط1، ترجمة فؤاد عبد المعطي الصياد، الدار الثقافية، القاهرة 2000

220. الهمذاني، محمد بن عبد الملك بن إبراهــيم (ت521هـ/1127م) تكملــة تــاريخ الطبري، ط1، تحقيق ألبرت يوسف كنعان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958

221. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت697هـ/1297م) مفرج الكــروب فــي أخبار أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، د. ن، القاهرة 1980

222. ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر (ت749هـ/1349م) تاريخ ابن الــوردي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1996

223. الوهراني، ركن الدين محمد بن محمد بن محرز (ت575هــ/1175م) منامــات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق شعلان ومحمد نغش، ط1، منشورات الجمــل، كولونيا، ألمانيا 1988

224. اليافعي، عبد الله بن أسعد (ت768هـ /1367م) مرآة الجنان وعبرة اليقظان، ط1، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت 1997.

225. اليعقوبي، أحمد بن اسحق (ت292هـ/905م) البلدان، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 2002

226. اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى (ت759هـ/1357م) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ط1، تحقيق أحمد حطيط، عالم الكتب، بيروت 1986

227. اليونيني، أبو الفتح موسى بن محمد (ت726هـ/1326م) : ذيل مرآة الزمان، ط2، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة1992

ب- المراجع الحديثة

228. أحمد، عبد الرزاق، البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979

229. أحمد، علي، الأندلسيون في بلاد الشام من نهاية القرن الخامس حتى نهاية القرن التاسع الهجري، اتحاد الكتاب العرب، دمشق 2008

230. الأرناؤوط، محمد، من التاريخ الثقافي للقهوة والمقاهي، ط1، دار جداول، الكويت 2012

231. الأمين، محسن، أعيان الشيعة، ج7، تحقيق حسن الأمين، مطبعة الإنصاف، بيروت 1973

232. الأوتاني، أحمد محمد، دمشق في العصر الأيوبي، ط1، دار التكوين، دمشق 2007

233. أمين، محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (648-923ه/1250-1517م) ط1، دار النهضة العربية، القاهرة 1980

234. الباشا، حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة، الإسكندرية 1978

235. بالار، ميشيل، الحملات الصليبية والشرق اللاتيني في القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ط1، ترجمة بشير السباعي، عين للدراسات القاهرة 2003

236. بدران، عبد القادر (ت1346ه/1927م)، منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت 1985

237. بدوي، أحمد، الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، دار النهضة، القاهرة، 1972

238. بناني، أحمد بن محمد، موقف الإمام ابن تيمية من التصوف والصوفية، ط1، دار العلم، السعودية 1986

239. البواعنة، لؤي، دور العلماء المسلمين في مقاومة الغزو الفرنجي للمشرق الإسلامي، دار اليازوري، عمان 2006

240. بولياك،آ، ن، الإقطاعية في مصر وسوريا ولبنان، ترجمة عاطف كرم، دار المكشوف، لبنان 1984

241. دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر، دمشق 1990

242. ===، ولاة دمشق في العهد المملوكي، ط2، دار الفكر دمشق 1981

243. فهمي، عبد الرحمن، النقود العربية ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، المؤسسة المصرية، القاهرة 1964

244. البخيت، محمد عدنان، مملكة الكرك في العهد المملوكي، وزارة الثقافة، عمان 2009

245. بخيت، رجب محمود، تاريخ دولة المماليك، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة 2010

246. البقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1983

247. البيشاوي، سعيد عبد الله، نابلس الأوضاع السياسية والاجتماعية والثقافية خلال الحروب الصليبية، د. ن. 1990

248. بيطار، أمينة، تاريخ العصر الأيوبي، دمشق 1982

249. تدمري، عمر عبد السلام، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1981

250. تركي، إبراهيم محمد، التصوف الإسلامي، أصوله وتطوره دار الكتب القانونية، القاهرة 2009

251. جبران، نعمان محمود، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ط1، مؤسسة حمادة، اربد الأردن 2000

252. جيدة، أحمد خالد، المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت 2001

253. الحايك، منذر، العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، ط1، دار الأوائل ، دمشق 2006

254. الحجي، حياة ناصر، أحوال العامة في حكم المماليك (678-784ه/1279-1382م) ط1، دار الفلاح، الكويت 1984

255. حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، 1967.

256. حسين، محسن محمد، الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدين، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1986

257. حليم، إبراهيم، التحفة الحليمية في الدولة العثمانية، ط1، مكتبة العلا، الإمارات العربية المتحدة 2003

258. حمادة، محمد ماهر، الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكي، ط2، مؤسسة الرسالة بيروت 1983

259. ===، دراسة وثقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1998

260. حمزة، عبد اللطيف، الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط8، دار الفكر العربي، القاهرة 1968

261. حمزة، عادل عبد الحفيظ، نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2000

262. حنفي، عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، ط1، دار المسيرة، بيروت 1980

263. الحياري، مصطفى، الإمارة الطائية في بلاد الشام، ط1، وزارة الثقافة، عمان 1977

264. خرابشة، سليمان، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، منشورات الجامعة الأردنية 1993

265. الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، مطبعة السريان، بغداد 1945

266. ===، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي، ط1، دار الطليعة، بيروت 1968

267. دوزي، رينهارت، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، ترجمة أكرم فاضل، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، بغداد 1971

268. رمضان، أحمد محمد، المجتمع الإسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، مصر 1977

269. الرومي، صهيب، التصوف الإسلامي، ط1، بيسان للنشر، بيروت 2007

270. رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة الباز العربي، ط2، دار الثقافة، بيروت 1980

271. الزحيلي، وهبه، الفقه الإسلامي وأدلته، ط3، دار الفكر، دمشق 1989

272. زيادة، نقولا، دمشق في عصر المماليك، فرانكلين للطباعة والنشر، مكتبة لبنان 1982

273. زيتون، عادل، تاريخ المماليك، ط7، منشورات جامعة دمشق، سوريا 2001

274. زناتي، أنور محمد، معجم مصطلحات التاريخ والحضارة الإسلامية ، ط1، زهــران، عمان 2011

275. سركيس، يوسف البان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة 1928

276. سعد الدين، محمد منير، العلماء عند المسلمين مكانتهم ودروهم في المجتمع، ط1، دار المناهل، بيروت 1992

277. سلام، محمد زغلول، الأدب في العصر الأيوبي، منشأة المعارف، الإسكندرية 1994

278. سليم ، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك، مكتبة الآداب، القاهرة 1965

279. سليمان، أحمد السعيد، معجم الأسر الإسلامية الحاكمة، ط1، مكتبة لبنــان، بيــروت 2004

280. سمكوغ، أمين، تاريخ الشركس، دار دمشق، دمشق 1984

281. السيد، محمود، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شــباب الجامعــة، الإسكندرية 2004

282. الشلي، فيصل، بلاد الشام في ظل الدولة المملوكية الثانية، ط1، دار الزمـــان دمـــشق 2008

283. شاكر، مصطفى، دخول الترك والغز إلى بلاد الشام، عمان 1974

284. شبارو، عصام، السلاطين في المشرق العربي، دار النهضة العربية، بيروت 1994

285. الشرعة، عودة رافع، أوقاف المرأة في دمشق في العهد الأيوبي، ط1 ، دار الحصاد، دمشق 2011

286. شكري، إيمان عمر،السلطان برقوق من خلال عقد الزمـــان، ط1، مكتبــة مــدبولي القاهرة 2002

287. شيخو، رزق الله بن يوسف (ت1346ه/1927م) مجاني الأدب في حدائق العرب، ج2، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1913

288. الصالح، صبحي، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، ط1، دار العلم للملايين، بيروت 1965

289. صليبي، كمال، منطلق تاريخ لبنان، منشورات كارفان نيويورك، بيروت 1979

290. طرخان، إبراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1960

291. ===، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكاتب العربي، القاهرة 1968

292. الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، ط1، دار الآفاق بيروت 1982

293. الطراونة، مبارك محمد، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة، ط1، دار جليس الزمان، الأردن 2010

294. عاشور، سعيد عبد الفتاح، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، القاهرة 1962

295. ===، الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، عالم الفكر، الكويت، 1980

296. ===، بحوث في تاريخ الإسلام وحضارته، القاهرة 1987

297. ===، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة 1988

298. ===، الحركة الصليبية، ط3، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1978

299. ===، نظم الحكم والإدارة في عصر الأيوبيين والمماليك، "مطبوع ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية" ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، القاهرة 1987

300. عاشور، فايد حماد، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، دار المعارف، مصر 1982

301. العاملي، زينب بنت علي (ت1333ه/1914م) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور، ط1، المطبعة الكبرى، الأميرية، مصر 1894 ص293-294 وسيشار لـــه لاحقـــاً العاملي، الدر المنثور.

302. العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، مؤســسة شــباب الجامعة، الإسكندرية 1982

303. عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، الجامعة الأردنية، عمان 1998

304. ===، العرب في صقلية، ط1، داز الثقافة، بيروت 1975

305. عبد المولى، محمد أحمد، العيارين والشطار البغادده في التاريخ العباســي، مؤســسة شباب الجامعة 1986

306. عفيفي، أبو العلاء، التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب، بيروت 1969

307. عطا الله ، محمود علي، نيابة غزة في العهد المملوكي، ط1، دار الآفــاق، بيــروت 1986

308. العريني، السيد الباز، الأيوبيون، ط1، مصر 1962

309. العزة ، رئيسة عبد الفتاح، نابلس في العصر المملوكي، دار الفاروق، نابلس 1999

310. العسلي، كامل جميل، معاهد العلم في بيت المقدس، جمعية عمال المطــابع التعاونيــة عمان 1981

311. العلبي، أكرم حسن، تيمورلنك وحكايته مع دمشق، دار المأمون للتراث، ط4، دمــشق 1987

312. ===، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحــدة للطباعــة، دمــشق، 1982

313. علي، السيد علي، القدس في عصر سلاطين المماليك، دار الفكر للدراسات والترجمة، القاهرة 1986

314. عمر، شابسيغ، ضياع بلاد الشراكسة (دراسة تاريخية) ترجمة تاما رابولو فنيكينا، دار عكرمة، دمشق2002

315. عميرة، عبد الرحمن، التصوف الإسلامي منهجاً وسلوكاً، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة. د. ت

316. عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط2، دار الرائد العربي، بيروت 1981

317. الغزي، نادية، حضارة الطعام في بلاد الرافدين وبلاد الشام، ط1، دار الفكر، دمشق2001

318. غوانمة، يوسف، أيلة والبحر الأحمر، ط1، دار هشام، اربد 1984

319. ===، إمارة الكرك الأيوبية، وزارة الثقافة، عمان 2011

320. ===، القدس الشريف، دار الفكر، عمان 2002

321. ===، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان 1982

322. ===، تاريخ شرق الأردن في عصر دولة المماليك الأولى(القسم الحضاري) وزارة الثقافة، عمان 1979

323. ===، التاريخ السياسي لشرق الأردن في العصر المملوكي، ط2، دار الفكر، عمان 1982

324. ===، دمشق في عصر دولة المماليك الثانية، ط1، دار الفكر، عمان 2005

325. فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية، ط1، دار الشروق، عمان 2003

326. فهمي، عبد الرحمن، النقود العربية ماضيها وحاضرها ومستقبلها، المؤسسة المصرية، القاهرة 1964

327. قاسم، عبده قاسم، الأيوبيون والمماليك " التاريخ السياسي والعسكري " ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 1995

328. القدحات، محمد عبد الله، عائلة الباعوني ودورها في الحياة العامة في القرنين 8 و 9ه، ط1، ورد للنشر، عمان 2007

329. قلعجي، محمد رواس، وآخرون، معجم لغة الفقهاء، ط2، دار النفائس، بيروت 1988

330. كاهن، كلود، الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية، ترجمة أحمد الشيخ، سينا للنشر، القاهرة 1982

331. كحالة، عمر رضا، دراسات اجتماعية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق 1973

332. ===، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت 1994

333. كرد علي، محمد (ت1372ه/1953م) خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق 1983

334. ===، غوطة دمشق، مطبعة الترقي، دمشق 1949

335. لابيدوس، إيرا، مدن بلاد الشام في العصر المملوكي، ترجمة علي ماضي، ط2، الأهلية للنشر، بيروت 1987

336. ماجد، عبد المنعم، نظم دولة سلاطين المماليك، ورسومهم في مصر، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1988

337. ماهر، سعادة، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987

338. ماير، ليواري، الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1972

339. محمد فريد بك (ت1338ه/1919م) تاريخ الدولة العلية العثمانية، ط1، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، بيروت 1981

340. محفوظ، جمال، فن الحرب عند العرب في الجاهلية والإسلام، " موسوعة الحضارة العربية والإسلامية "، ط1، المؤسسة العربية للدراسات، 1987

341. المدني، سليمان، تيمورلنك في دمشق، ط1، دار المنارة، بيروت 2000

342. مصطفى، إبراهيم، وآخرون، المعجم الوسيط، ج2، دار الدعوة، اسطنبول 1989

343. منصور، أحمد صبحي، العقائد الدينية في مصر المملوكية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2000

344. طقوش ، محمد سهيل، تاريخ المماليك في مصر والشام، ط1، دار النفائس، بيروت 1997

345. ===، السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت 1983

346. هيكل، محمد خير، الجهاد والقتال في السياسة الشرعية، دار البيارق، بيروت1993

347. النباهين، علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، ط1، دار الفكر العربي، بيروت 1981

348. النجار، محمد رجب، حكايات الشطار والعيارين في التراث العربي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت،1981

349. النقر، محمد حافظ، القوى الفاعلة في المجتمع في العصرين الأيوبي والمملوكي، ط1، دار المسار،المفرق، الاردن2002

350. النهار، عمار محمد، عصر المماليك البحرية العصر المفترى عليه، ط1، دار النهضة، سوريا 2007

351. نيكولسون، رينولد، في التصوف الإسلامي وتاريخه، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفي، لجنة التأليف والنشر القاهرة 1956

352. هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، الجامعة الأردنية 1970

353. ابن يحيى، صالح، تاريخ بيروت، دار المشرق، بيروت 1986

354. اليوسف، عبد الرحمن بن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ط3، مكتبة ابن تيمية، الكويت 1986

ج - الدوريات

355. الأرناؤوط، محمد، من مظاهر الحياة الإجتماعية في دمشق وضواحيها في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني، " الندوة الدولية دمشق في التاريخ " وزارة التعليم العالي، سوريا 2006

356. الولي، الشيخ طه، المدينة في الإسلام، مجلة الاجتهاد، ج6، دار الاجتهاد، بيروت 1990

357. برغوث، عبد الودود، جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، ط1، الجامعة الأردنية 1974

358. الجالودي، عليان، الأسرة الباعونية ودورها في الحياة العامة خلال العصر المملوكي الثاني، مجلة المنارة، م9، ع1، جامعة آل البيت، 2003

359. خرابشة، سليمان، حركة الأمير أفتكين التركي ضد الحكم الفاطمي في بلاد الشام،ع3، م14، مؤتة للبحوث والدراسات، مؤتة 1999

360. خربوطلي، شكران، أوقاف دمشق وأثرها على الحركة العلمية في العصر الأيوبي، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية 2006

361. شاكر، مصطفى، الحركات الشعبية وزعمائها في دمشق، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، الكويت 1973

362. شاهين، رياض أحمد، دور العلماء المسلمين في المقاومة ضد الصليبيين في بلاد الشام، مجلة دراسات تاريخية، سوريا 2005

363. صالحية، محمد عيسى، الطرح والرمي في العصر المملوكي، مجلة أبحاث اليرموك (سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية) جامعة اليرموك 1993

364. ضومط، أنطوان ، دمشق الشام على عهد الدولة المملوكية ، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق 2001

365. زيادة، خالد، العلماء والأهالي والحكام، مجلة الفكر العربي، بيروت 1988

366. زيادة، نقولا، رواد المشرق العربي في العصور الوسطى، هدية المقتطف 1943

367. قدورة، فاطمة، التصوف في العصر المملوكي، المؤتمر الدولي السادس لتاريخ بلاد الشام، جامعة دمشق 2001

368. كاهن، كلود، الحركات الشعبية والاستقلال الذاتي في المدن الإسلامية خلال القرون الوسطى، مجلة الاجتهاد، ع6، بيروت1930

369. محمود، زايد، رحلة برتراندون الأبروكيير إلى فلسطين ولبنان وسوريا، مجلة أبحاث، السنة 15، ج3، بيروت 1962

370. المغربي، عبد الرحمن، أوقاف الطريقة البسطامية في القدس، المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية 2006

د ـ الرسائل الجامعية

371. بني حمد، فيصل عبد الله، الأسواق الشامية في العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1992م

372. أبو دمعة، أمين، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة دمشق 1988

373. جبران، نعمان، مملكة حماة في العهد الأيوبي في العهدين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية 1981

374. حجازي، فايزة عبد الرحمن، أهل الذمة في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1992

375. حسين، يحيى أحمد، الفتوة في بغداد في العصر العباسي الأخير(575هـ-656هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، الجامعة الأردنية 1992

376. الكوفحي، محمد تاج عبد الحميد، المغاربة في دمشق خلال القرن 18م، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 2000م

377. المصري، جهاد سليمان، التعليم في بلاد الشام في العهد الأيوبي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة آل البيت 1999

378. الربيدي، فاطمة يحيى، سلطنة سلاجقة الروم في الأناضول منذ الغزو المغولي وحتى سقوطها، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 2004

379. الرواحي، خميس، موقف العلماء المسلمين في العراق وبلاد الشام من الغزو المغولي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة آل البيت 2001

380. زعرور، إبراهيم، الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصرين الأيوبي والمملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة دمشق 1990

381. العملة، عبد الجبار أحمد محمد، نيابة دمشق الشام في عهد الأمير تنكز الحسامي الناصري، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس 2000

382. بني عيسى، عبد المعز عصري، الغزو المغولي لدمشق، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1997

383. غرايبة، قيصر، الرقيق العسكري في المجتمع المملـوكي، رسـالة ماجـستير غيـر منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1997

384. المقابلة، معن علي، المؤسسات الاجتماعية والثقافية في بـلاد الـشام فـي العـصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة اليرموك 1992

هـ - المراجع الأجنبية

385. A. shtor, E., A Social and Economic History Of The Near East In The Middle Ages , London 1976.

386. Howrth, Sir Henry, History of The Mongols, Part 3, London 1888,

387. Gibb, H, A, R, E.J The Encyclopedia of Islam – (Minorsky "Kurds , Vol 1) , Brill, London 1979

388. The Encyclopedia of Islam – (Bede, N, sehsuvaroglu, "Bimarsitan , Vol 2)

389. The Encyclopedia of Islam – (P.M. Holt. Mamluks, Vol 4,)

390. The Encyclopedia of Islam – (vollers, k, littman, e"Ahmad albadawi, Vol.1,)

391. The Encyclopedia of Islam – (C ,cahen, Ahdath, Vol.1,)

392. The Encyclopedia of Islam – (W,M, Brinner ,Harfush, Vol 3,)

393. G. annmuller and others .Sufi. Shorter Encyclopedia of Islam .Leiden ,E,J,Brill 1974 .

و - المراجع الفارسية

394. آدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت 1980